الميزان

في تفسير القرآن

ج/١٦

الجزء السادس عشر

من كتاب

الميزان في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر

الشيخ محمد الآخوندي

مؤسس

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

١٣٨٨ هـ ق

مطبعة الحيدري بطهران

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص مكّية وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلوا عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣) ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابنائهم و يستحيى نسائهم انه كان من المفسدين (٤) و نريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض و نجعلهم ائمة و نجعلهم الوارثين (٥) و نمكن لهم فى الارض و نرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون (٦) و أوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين (٧) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ان فرعون وهامان و جنودهما كانوا خاطئين (٨) وقالت امراة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً وهم لايشعرون (٩) واصبح فؤاد ام موسى فارغاً ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المومنين (١٠) وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون (١١) وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه وهم

لَهُ نَاصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِيَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۳) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۴) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون يستضعفهم فراعنة قريش وطغاتها واليوم يوم شدّة وعسرة وفتنة بأنّ الله سيمنّ عليهم ويجعلهم أئمّة ويجعلهم الوارثين ويمكّن لهم ويري طغاة قومهم منهم ماكانوا يحذرون يقصّ تعالى للمؤمنين من قصّة موسى وفرعون أنّه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم فربّاه في حجر عدوّه حتّى إذا استوى وبلغ أشدّه نجّاه وأخرجه من بينهم إلى مدين ثمّ ردّه إليهم رسولاً منه بسلطان مبين حتّى إذا أغرق فرعون و جنوده أجمعين وجعل بني إسرائيل هم الوارثين وأنزل التوراة على موسى هدى و بصائر للمؤمنين .

وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين وفيه وعدٌ لهم بالملك والعزّة و السلطان ووعد للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بردّه إلى معاد .

وانتقل من القصّة إلى بيان أنّ من الواجب في حكمة الله أن ينزّل كتابا من عنده للدعوة الحقّة ثمّ ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم : لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسى و الجواب عنه ، وتعلّلهم عن الايمان بقولهم : إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا والجواب عنه وفيه التمثّل بقصّة قارون وخسفه .

والسورة مكيّة كما يشهد بذلك سياق آياتها ، وما أوردناه من الآيات فصل من قصّة موسى وفرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشدّه .

قوله تعالى : « طسمّ تلك آيات الكتاب المبين» تقدّم الكلام فيه في نظائره .

قوله تعالى : « نتلوعليك من نباء موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون » «من» للتبعيض و « بالحقّ » متعلّق بقوله : «نتلو» أي نتلو تلاوة متلبّسة بالحقّ فهو من عندنا وبوحي منّا من غير أن يداخل في إلقائه الشياطين ، و يمكن أن يكون متعلّقا بنبإ أي حال كون النبإ الّذي نتلوه عليك متلبّسا بالحقّ لا مرية فيه .

وقوله : « لقوم يؤمنون » اللاّم فيه للتعليل وهو متعلّق بقوله : « نتلو » أي نتلو عليك من نبإهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا .

و محصّل المعنى : نتلوعليك بعض نبإ موسى وفرعون تلاوة بالحقّ لأجل أن يتدبّر فيه هؤلاء الّذين يؤمنون بآياتنا ممّن اتّبعوك وهم طائفة أذلاّء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش وطغاة قومهم فيتحقّقوا أنّ الله الّذي آمنوا به وبرسوله وتحمّلوا كلّ أذى في سبيله هو الله الّذي أنشأ موسى عليه السلام لإحياء الحقّ و إنجاء بني إسرائيل و إعزازهم بعد ذلّتهم هاتيك الذلّة يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم وقد علا فرعون وأنشب فيهم مخالب قهره وأحاط بهم بجوره .

أنشأه والجوّ ذلك الجوّ المظلم الّذي لامطمع فيه فربّاه في حجر عدوّه ثمّ أخرجه من مصر ثمّ أعاده إليهم بسلطان فأنجا به بني إسرائيل وأفنى بيده فرعون وجنوده وجعلهم أحاديث وأحلاما .

فهوالله جلّ شأنه يقصّ على نبيّه قصّتهم ويرمز له ولهم بقوله : «لقوم يؤمنون» أنّه سيفعل بهؤلاء مثل مافعل بأُولئك و يمنّ على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمّة و يجعلهم الوارثين حذوما صنع ببني إسرائيل .

قوله تعالى : « إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم » الخ العلوّ في الأرض كناية عن التجبّر والاستكبار ، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة قال في المجمع : الشيع الفرق وكلّ فرقة شيعة وسمّوا بذلك لأنّ بعضهم يتابع بعضا . انتهى وكأنّ المراد بجعل أهل الأرض ـ وكأنّهم أهل مصر واللاّم للعهد ـ فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلاّ يتّفق كلمتهم فيثوروا عليه ويقلبوا عليه الامور على ماهو من دأب الملوك في بسط القدرة و تقوية السلطة ، واستحياء النساء إبقاء حياتهنّ .

ومحصّل المعنى أنّ فرعون علا في الأرض وتفوّق فيها ببسط السلطة على الناس وإنفاذ القدرة فيهم و جعل أهلها شيعاً وفرقاً مختلفة لاتجتمع كلمتهم على شيء وبذلك ضعّف عامّة قوّتهم على المقاومة دون قوّته والامتناع من نفوذ إرادته .

وهو يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل وهم أولاد يعقوب عليه السلام وقد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف عليه السلام أباه وإخوته وأشخصهم هناك فسكنوها وتناسلوا بها حتّى بلغوا الألوف .

و كان فرعون هذا وهو ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام يعاملهم معاملة الاُسراء الأرقّاء ويزيد في تضعيفهم حتّى بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبيح أبنائهم واستبقاء نسائهم وكان فيه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذكور وفيه فناء القوم .

والسبب في ذلك أنّه كان من المفسدين في الأرض فانّ الخلقة العامّة الّتي أوجدت الإنسان لم يفرّق في بسط الوجود بين شعب وشعب من الشعوب الإنسانيّة ثمّ جهّز الكلّ بما يهديهم إلى حياة اجتماعيّة بالتمتّع من أمتعة الحياة الأرضيّة ولكلّ ما يعادل قيمته في المجتمع وما يساوي زنته في التعاون .

هذا هو الإصلاح الّذى يهتف به الصنع والايجاد ، و التعدّي عن ذلك بتحرير قوم وتعبيد آخرين و تمتيع شعب بما لا يستحقّونه و تحريم غيرهم ما يصلحون له هو الإفساد الّذي يسوق الإنسانيّة الى الابيد والهلاك .

وفي الآية تصوير الظرف الّذي ولد فيه موسى عليه السلام وقد أحدقت الأسباب المبيدة لبني إسرائيل على إفنائه .

قوله تعالى : «ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض إلى قوله ـ ماكانوا يحذرون » الأصل في معنى المنّ ـ على مايستفاد من كلام الراغب ـ الثقل ومنه تسمية مايوزن به منّا ، والمنّة النعمة الثقيلة ومنّ عليه منّا أي أثقله بالنعمة . قال : ويقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله : « ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا » أي نعطيهم من النعمة مايثقلهم والثاني بالقول كقوله : « يمنّون عليك أن أسلموا » وهو مستقبح إلاّ عند كفران النعمة . انتهى ملخصاً .

وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه ويستقرّون فيه ، وعن الخليل أنّ المكان مفعل من الكون و لكثرته في الكلام اُجري مجرى فعال . فقيل : تمكن و تمسكن نحو تمنزل انتهى .

وقوله : « ونريد أن نمنّ » الخ الأنسب أن يكون حالا من «طائفة» و التقدير يستضعف طائفة منهم و نحن نريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا الخ و قيل : معطوف على قوله : «إنّ فرعون علا في الأرض» والأوّل أظهر ، و« نريد » على أيّ حال لحكاية الحال الماضية .

و قوله : « و نجعلهم أئمّة» عطف تفسير على قوله « نمنّ » وكذا ما بعده من الجمل المتعاقبة .

و المعنى أنّ الظرف كان ظرف علوّ فرعون ، و تفريقه بين النـاس و استضعافه لبني إسرائيل استضعافاً يبيدهم ويفنيهم و الحال أنّا نريد أن ننعم علـى هؤلاء الّذين استضعفوا من كلّ وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعلهم أئمّة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ماكانوا تابعين ، ونجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم ونمكّن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكاناً يستقرّون فيه و يملكونه بعد مالم يكن لهم من المكان إلاّ ما أراد غيرهم أن يبوّءهم فيه ويقرّهم عليه ، ونري فرعون وهو ملك مصر وهامان وهو وزيره و جنودهما منهم أي من هؤلاء الّذين استضعفوا ماكانوا يحذرون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم ومالهم وسنّتهم كما قالوا في موسى وأخيه لمّا اُرسلا إليهم : «يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » طه : ٦٣ .

والآية تصوّر ما في باطن هذا الظرف الهائل الّذي قضى على بني إسرائيل أن لا يعيش منهم متنفّس ولا يبقى منهم نافخ نار وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية وملأ أقطار وجودهم رعبه وهو يستضعفهم حتّى يقضي عليهم بالبيد هذا ظاهر الأمر وفي باطنه الإرادة الإلهيّة تعلّقت بأن تنجيهم منهم و تحوّل ثقل النعمة من آل فرعون الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاّء المستضعفين وتبدّل من الأسباب ماكان على بني إسرائيل لهم وماكان لآل فرعون عليهم والله يحكم لامعقّب لحكمه .

قوله تعالى : « وأوحينا إلى اُمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ » إلى آخر الآية ،الإيحاء هو التكليم الخفيّ ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله: «بأنّ ربّك أوحى لها » الزلزال: ٥ ، وقوله : « وأوحى ربّك إلى النحل » النحل : ٦٨ ، و قوله في اُمّ موسى : « و أوحينا إلى اُمّ موسى » الآية أو بنحو آخر كما في الأنبياء و الرسل ، و في غيره تعالى كما في قوله : «إنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » الأنعام : ١٢١ ، والإلقاء الطرح ، واليمّ البحر والنهر الكبير .

وقوله : «وأوحينا إلى اُمّ موسى » في الكلام إيجاز بالحذف و التقدير وحبلت اُمّ موسى به ـ والحال هذه الحال من الشدّة والحدّة ـ ووضعته وأوحينا إليها الخ .

والمعنى وقلنا بنوع من الإلهام لاُمّ موسى لمّا وضعته : أرضعيه مادمت لاتخافين عليه من قبل فرعون فاذا خفت عليه ـ أن يطّلع عليه آل فرعون فيأخذوه و يقتلوه ـ فألقيه في البحر وهو النيل على ماوردت به الرواية ولاتخافي عليه القتل ولاتحزني لفقده ومفارقته إيّاك إنّا رادّوه إليك بعد ذلك وجاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فرعون وبني إسرائيل .

فقوله : «إنّا رادّوه إليك» تعليل للنهي في قوله : « ولاتحزني» كما يشهد به أيضاً قوله بعد : « فرددناه إلى اُمّه كي تقرّ عينها و لا تحزن » والفرق بين الخوف والحزن بحسب المورد أنّ الخوف إنّما يكون في مكروه محتمل الوقوع و الحزن في مكروه قطعيّ الوقوع .

قوله تعالى : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزناً إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » الالتقاط إصابة الشيء و أخذه من غير طلب ، و منه اللقطة واللاّم في قوله : «ليكون لهم عدوّاً وحزناً» للعاقبة ـ على ماقيل ـ ، والحزن بفتحتين والحزن بالضمّ فالسكون بمعنى واحد كالسقم والسقم ، والمراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببيّته لحزنهم .

و الخاطئين اسم فاعل من خطىء يخطأ خطأً كعلم يعلم علما كما أنّ المخطىء

اسم فاعل من أخطأ يخطىء إخطاءاً ، و الفرق بين الخاطىء و المخطيء على ما ذكره الراغب ـ أنّ الخاطىء يطلق على من أراد فعلا لا يحسنه ففعله قال تعالى : « إنّ قتلهم كان خطأكبيرا » وقال : « و إن كنّا لخاطئين » ، و المخطيء يستعمل فيمن أراد فعلا يحسنه فوقع منه غيره واسم مصدره الخطأ بفتحتين قال تعالى : « و من قتل مؤمنا خطأ» النساء ٩٢ والمعنى الجامع هو العدول عن الجهة . انتهى ملخّصا .

فقوله : « إنّ فرعون وهامان و جنودهما كانوا خاطئين » أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل و موسى تحذّرا من انهدام ملكهم وذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجمّ الغفير من الأبناء ولا شأن لهم في ذلك وتركوا موسى حيث التقطوه وربّوه في حجورهم وكان هو الّذي بيده انقراض دولتهم وزوال ملكهم.

والمعنى فأصابه آل فرعون وأخذوه من اليمّ وكان غاية ذلك أن يكون لهم عدوّا وسبب حزن إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء وترك موسى: أرادوا أن يقضوا على من سيقضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه ويجدّون في تربيته .

وبذلك يظهر أنّ تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنّهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله أن ربّى عدوّهم على أيديهم ليس بسديد .

قوله تعالى : «وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً وهم لايشعرون» شفاعة من امرأة فرعون وقد كانت عنده حينما جاؤا إليه بموسى ـ و هو طفل ملتقط من اليمّ ـ تخاطب فرعون بقوله : « قرّة عين لي ولك » أي هو قرّة عين لنا « لاتقتلوه » وإنّما خاطب بالجمع لأنّ شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب ومباشر وآمر ومأمور .

وإنّما قالت ماقالت لأنّ الله سبحانه ألقى محبّة منه في قلبها فعادت لاتملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل وتضمّه إليها قال تعالى فيما يمنّ به على موسى عليه السلام : «وألقيت عليك محبّة منّي ولتصنع على عيني » طه : ٣٩ .

وقوله : «عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا » قالته لمّا رأت في وجهه من آثار الجلال

وسيماء الجذبة الإلهيّة ، و في قولها : «أو نتّخذه ولدا» دلالة على أنّهما كانا فاقدين للابن .

وقوله : «وهم لايشعرون» جملة حاليّة أي قالت ماقالت وشفعت له وصرفت عنه القتل والقوم لايشعرون ماذا يفعلون وما هي حقيقة الحال وما عاقبته ؟

قوله تعالى : «وأصبح فؤاد اُمّ موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولاأن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين» الابداء بالشيء إظهاره ، والربط على الشيء شدّه وهو كناية عن التثبيت .

و المراد بفراغ فؤاد اُمّ موسى فراغه وخلوّه من الخوف والحزن وكان لازم ذلك أن لايتوارد عليه خواطر مشوّشة و أوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ماكان عليها أن تخفيه من أمر ولدها .

و ذلك أنّ ظاهر السياق أنّ سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فراغ قلبها الربط على قلبها وسبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها : «لاتخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك» الخ .

وقوله : «إن كادت لتبدي به لولا» الخ «إن» مخفّفة من الثقيلة أي إنّها قربت من أن تظهر الأمر وتفشي السرّ لولا أن ثبّتنا قلبها بالربط عليه ، وقوله : «لتكون من المؤمنين» أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر ولا تجزع عليه فلا يبدو أمره .

والمجموع أعني قوله : «إن كادت لتبدي به» إلى آخر الآية في مقام البيان لقوله : «و أصبح فؤاد اُمّ موسى فارغا» ومحصّل معنى الآية وصار قلب اُمّ موسى بسبب وحينا خالياً من الخوف والحزن المؤدّيين إلى إظهار الأمر، لولا أن ثبّتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه .

و بما تقدّم يظهر ضعف بعض ماقيل في تفسير جمل الآية كقول بعضهم في «وأصبح فؤاد اُمّ موسى فارغاً» أي صفراً من العقل لمادهمها من الخوف و الحيرة حين سمعت بوقوع الطفل في يد فرعون ، و قول آخرين : أي فارغاً من الوحي الّذي اُوحي إليها بالنسيان ، و ما قيل : أي فارغاً من كلّ شيء إلاّ ذكر موسى أي صار فارغا له . فإنّها

جميعا وجوه لايحتمل شيئاً منها السياق .

ونظير ذلك في الضعف قولهم : إنّ جواب لولا محذوف و التقدير لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته وأظهرته ، و الوجه في تقديرهم ذلك ماقيل : إنّ لولا شبيهة بأدوات الشرط فلها الصدر ولايتقدّم جوابها عليها . وقد تقدّمت المناقشة فيه في الكلام على قوله تعالى : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه» يوسف : ٢٤ .

قوله تعالى : «وقالت لاُخته قصّيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون» قال في المجمع : القصّ اتّباع الأثر ومنه القصص في الحديث لأنّه يتّبع فيه الثاني الأوّل. وقال : ومعنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابة أي عن بعد . انتهى .

والمعنى وقالت اُمّ موسى لاُخته اتّبعي أثر موسى حتّى ترين إلى مَ يؤل أمره فرأته عن بعد وقد أخذه خدم فرعون وهم لايشعرون بأنّها تقصّه وتراقبه .

قوله تعالى : و حرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه و هم له ناصحون » التحريم في الآية تكوينيّ لاتشريعيّ و معناه جعله بحيث لايقبل ثدي مرضع ويمتنع من ارتضاعها .

و قوله : «من قبل » أي من قبل حضورها هناك ومجيئها إليهم والمراضع جمع مرضعة كما قيل .

وقوله : «فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون » تفريع على ماتقدّمه غير أنّ السياق يدلّ على أنّ هناك حذفا كأنّه قيل : وحرّمنا عليه المراضع غير اُمّه من قبل أن تجيء اُخته فكلّما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلمّا جاءت اُخته و رأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون : هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم وهم له ناصحون .

قوله تعالى : «فرددناه إلى اُمّه كي تقرّ عينها ولاتحزن ولتعلم أنّ وعدالله حقّ و لكنّ أكثرهم لايعلمون » تفريع على ماتقدّمه مع تقديرمّا يدلّ عليه السياق ، و المحصّل أنّها قالت : هل أدلّكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلّتهم على اُمّه فسلّموه إليها فرددناه إلى اُمّه بنظم هذه الأسباب .

وقوله : «كي تقرّ عينها ولاتحزن ولتعلم» الخ تعليل للردّ والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فانّها كانت تعلم من قبلُ أنّ وعد الله حقّ وكانت مؤمنة و إنّما اُريد بالردّ أن توقن بالمشاهدة أنّ وعد الله حقّ .

والمراد بوعدالله مطلق الوعد الالهي بدليل قوله : « ولكنّ أكثرالناس لايعلمون» أي لايوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى ولاتطمئنّ إليها نفوسهم ، و محصّله أن توقع بمشاهدة حقيّه هذا الّذي وعدها الله به أنّ مطلق وعده تعالى حقّ .

وربّما يقال : إنّ المراد بوعد الله خصوص الوعد المذكور في الآية السابقة :«إنّا رادّوه إليك و جاعلوه من المرسلين » ولايلائمه قوله بعد : «ولكنّ » الخ على ماتقدّم .

قوله تعالى : « و لمّا بلغ أشدّه و استوى آتيناه حكما و علما وكذلك نجزي المحسنين» بلوغ الأشدّ أن يعمّر الإنسان ماتشتدّ عند ذلك قواه ويكون في الغالب في الثمان عشر ، والاستواء الاعتدال والاستقرار فالاستواء في الحياة استقرار الانسان في أمر حياته ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشدّ ، وقد تقدّم الكلام في معنى الحكم والعلم وإيتائهما ومعنى الاحسان في مواضع من الكتاب .

﴿بحث روائى﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى : «ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض» قال : يوسف وولده .

اقول : لعلّ المراد بنو إسرائيل ، و إلّا فظهور الآية في خلافه غير خفيّ .

و في معاني الأخبار بإسناده عن محمّد بن سنان عن المفضّل بن عمر قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى عليّ والحسن و الحسين عليهم السلام فبكى وقال : أنتم المستضعفون بعدي . قال المفضّل : فقلت له : مامعنى ذلك ؟ قال : معناه أنّكم الأئمّة بعدي إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في

الأرض و نجعلهم أئمّة و نجعلهم الوارثين» فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة .

اقول : و الروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمّة أهل البيت عليهم السلام كثيرة و بهذه الرواية يظهر أنّها جميعا من قبيل الجري و الانطباق .

و في نهج البلاغة : لتعطفنّ الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها وتلا عقيب ذلك « و نريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمّة و نجعلهم الوارثين» .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : «وأوحينا إلى اُمّ موسى » إلى آخر الآية حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : إنّه لمّا حملت به اُمّه لم يظهر حملها إلّا عند وضعها له وكان فرعون قد وكّل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظنهنّ و ذلك أنّه كان لمّا بلغه عن بني إسرائيل أنّهم يقولون : إنّه يولد فينا رجل يقال له : موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك : لأقتلنّ ذكور أولادهم حتّى لا يكون ما يريدون وفرّق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المحابس .

فلمّا وضعت اُمّ موسى بموسى نظرت إليه وحزنت عليه واغتمّت وبكت وقالت: يذبح الساعة فعطف الله عزّ وجلّ قلب الموكّلة بها عليه فقالت لاُمّ موسى: مالك قد اصفرّ لونك ؟ فقالت : أخاف أن يذبح ولدي فقالت : لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلّا أحبّه وهو قول الله : « وألقيت عليك محبّة منّي » .

فأحبّته القبطيّة الموكّلة بها و أنزل الله على اُمّ موسى التابوت ، ونوديت ضعيه في التابوت فألقيه في اليمّ وهو البحر «ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فوضعته في التابوت وأطبقته عليه وألقته في النيل .

وكان لفرعون قصر على شطّ النيل متنزّه فنظر من قصره - ومعه آسية امرأته - إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتّى جاءت به إلى باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فاُخذ التابوت ورفع إليه فلمّا فتحه وجد فيه صبيّاً فقال : هذا إسرائيليّ فألقى الله في قلب فرعون محبّة شديدة وكذلك في قلب آسية .

و أراد فرعون أن يقتله فقالت آسية : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً وهم لايشعرون أنّه موسى .

وفي المجمع في قوله تعالى : «قرّة عين لي ولك لاتقتلوه» عن النبيّ صلى الله عليه وآله : والّذي يحلف به لوأقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنّه أبى للشقاء الّذي كتبه الله عليه .

و في المعاني بإسناده عن محمّد بن نعمان الأحول عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ و جلّ : « فلمّا بلغ أشدّه واستوى» قال : أشدّه ثمان عشر سنة « واستوى» التحى .



✰✰✰

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ اَهْلِهٰا فَوَجَدَ فِيهٰا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاٰنِ هٰذٰا مِنْ شِيعَتِهِ وَهٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغٰاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ اِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ(۱۵) قٰالَ رَبِّ اِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ اِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۶) قٰالَ رَبِّ بِمٰا اَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ اَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (۱۷) فَاَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ فَاِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْاَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قٰالَ لَهُ مُوسىٰ اِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ (۱۸) فَلَمّٰا اَنْ اَرٰادَ اَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمٰا قٰالَ يٰامُوسىٰ اَتُرِيدُ اَنْ تَقْتُلَنِى كَمٰا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْاَمْسِ اِنْ تُرِيدُ اِلاّٰ اَنْ تَكُونَ جَبّٰاراً فِى الْاَرْضِ وَمٰا تُرِيدُ اَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (۱۹) وَجٰاءَ رَجُلٌ مِنْ اَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰامُوسىٰ اِنَّ الْمَلَاَ يَاْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ اِنِّى لَكَ مِنَ النّٰاصِحِينَ(۲۰) فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ قٰالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ (۲۱) .

﴿بيان﴾

فصل ثان من قصّة موسى عليه‌السلام فيه ذكر بعض ماوقع بعد بلوغه أشدّه فأدّى إلى خروجه من مصر وقصده مدين .

قوله تعالى : « و دخل المدينة على حين غفلة من أهلها » الخ لاريب أنّ المدينة الّتي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر ، و أنّه كان يعيش عند فرعون

و يستفاد من ذلك أنّ القصر الملكيّ الّذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة و أنّه خرج منه ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ويؤيّد ماذكرنا ماسيأتي من قوله : « و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى » على ماسيجيىء من الاستظهار .

و حين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطّل الأسواق و تخلو الشوارع والأزقّة من المارّة كالظهيرة وأواسط الليل .

وقوله : «فوجد فيها رجلين يقتتلان» أي يتنازعان ويتضاربان وقوله : «هذا من شيعته وهذا من عدوّه» حكاية حال تمثّل به الواقعة ، ومعناه أنّ أحدهما كان إسرائيلياً من متّبعيه في دينه - فإنّ بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ إلى آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلاّ الاسم وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون - و الآخر قبطيّاً عدوّاً له لأنّ القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ، ومن الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيّا قوله في موضع آخر يخاطب ربّه : «ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون» الشعراء : ١٤ .

و قوله : « فاستغاثه الّذي من شيعته على الّذي من عدوّه » الاستغاثة الاستنصار من الغوث بمعنى النصرة أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوّه القبطيّ .

وقوله : « فوكزه موسى فقضى عليه » ضميرا « وكزه » و «عليه» للّذي من عدوّه و الوكز - على ماذكره الراغب و غيره - الطعن و الدفع و الضرب بجمع الكفّ ، والقضاء هو الحكم و القضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته والمعنى فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات ، وكان قتل خطإ ولولا ذلك لكان من حقّ الكلام أن يعبّر بالقتل .

وقوله : « قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين » الإشارة بهذا إلى ماوقع بينهما من الاقتتال حتّى أدّى إلى موت القبطي وقد نسبه نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال : « هذا من عمل الشيطان » و «من» ابتدائيّة تفيد معنى الجنس أو نشوئيّة و المعنى هذا الّذي وقع من المعاداة و الاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى

الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فانّه هوالّذي أوقع العداوة و البغضاء بينهما وأغرى على الاقتتال حتّى أدّى ذلك إلى مداخلة موسى وقتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظيم وقد كان يعلم أنّ الواقعة لا تبقى خفيّة مكتومة و أنّ القبط سيثورون عليه و أشرافهم و ملاؤهم و على رأسهم فرعون سينتقمون منه ومن كلّ من تسبّب إلى ذلك أشدّ الانتقام .

فعند ذلك تنبّه عليه السلام أنّه أخطأ فيما فعله من الوكز الّذي أورده مورد الهلكة ولا ينسب الوقوع في الخطاء إلى الله سبحانه لأنّه لا يهدي إلّا إلى الحقّ والصواب فقضى أنّ ذلك منسوب إلى الشيطان .

وفعله ذاك و إن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ وكون دفاعه عن الإسرائيلي دفعا لكافر ظالم ، لكنّ الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه في أيّ مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقّة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهيّة فأدّى ذلك إلى خروجهما من الجنّة .

فقوله : « هذا من عمل الشيطان » انزجار منه عمّا وقع من الاقتتال المؤدّي إلى قتل القبطيّ ووقوعه في عظيم الخطر وندم منه على ذلك ، وقوله : « إنّه عدوّ مضلّ مبين » إشارة منه إلى أنّ فعله كان من الضلال المنسوب إلى الشيطان وإن لم يكن من المعصية الّتي فيها إثم ومؤاخذة بل خطأ محضا لا ينسب إلى الله بل إلى الشيطان الّذي هو عدوّ مضلّ مبين ، فكان ذلك منه نوعا من سوء التدبير وضلال السعي يسوقه إلى عاقبة وخيمة ولذا لمّا اعترض عليه فرعون بقوله : « وفعلت فعلتك الّتي فعلت وأنت من الكافرين » أجابه بقوله : « فعلتها إذا وأنا من الضالّين » الشعراء : ٢٠ .

قوله تعالى: « قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم » اعتراف منه عند ربّه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة ، ومنه يظهر أنّ المراد بالمغفرة المسؤولة في قوله : « فاغفر لي » هو إلغاء تبعة فعله وإنجاؤه من الغمّ وتخليصه من شرّ فرعون وملإه كما يظهر من قوله تعالى : « و قتلت نفساً فنجّيناك من الغمّ » : طه : ٤٠ .

و هذا الاعتراف بالظلم و سؤال المغفرة نظيرها وقع من آدم و زوجه المحكي في قوله تعالى : « قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن ّ من الخاسرين » الاعراف :٢٣ .

قوله تعالى : « قال ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل : الباء في قوله : « بما أنعمت » للسببيّة والمعنى ربّ بسبب ما أنعمت عليّ ، لك عليّ أن لاأكون معينا للمجرمين فيكون عهدا منه لله تعالى وقيل : الباء للقسم والجواب محذوف والمعنى اُقسم بما أنعمت عليّ لأتوبنّ أو لأمتنعنّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، وقيل: القسم استعطافيّ وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زرني ، والمعنى اُقسمك أن تعطف عليّ وتعصمني فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

والوجه الأوّل هو الأوجه لأنّ المراد بقوله : « بما أنعمت عليّ » ـ على ما ذكروه ـ إمّا إنعامه تعالى عليه إذ حفظه و خلّصه من قتل فرعون وردّه إلى اُمّه ، وإمّا إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطيّ و غفر له بناء على أنّه علم مغفرته تعالى بالإلهام أو رؤيا أو نحوهما وكيف كان فهو إقسام بغيره تعالى ، والمعنى اُقسم بحفظك إيّاي أو اُقسم بمغفرتك لي ، ولم يعهد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو .

وقوله : « فلن أكون ظهيرا للمجرمين » قيل : المراد بالمجرم من أوقع غيره في الجرم أو من أدّت إعانته إلى جرم كالإسرائيليّ الّذي خاصمه القبطيّ فأوقعت إعانته موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السبب الموقع في الجرم مجرماً .

وقيل : المراد بالمجرمين فرعون و قومه و المعنى اُقسم بإنعامك عليّ لأتوبنّ فلن أكون معينا لفرعون وقومه بصحبتهم و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله إلى هذا اليوم .

وردّ هذا الوجه الثاني بأنّه لايناسب المقام .

و الحقّ أنّ قوله : « ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » عهد من

موسى عليه السلام أن لا يعين مجرما على إجرامه شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه ، والمراد بالنعمة وقد اُطلقت إطلاقاً الولاية الإلهيّة على ما يشهد به قوله تعالى : « فاُولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين » النساء : ٦٩ .

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين» الفاتحة: ٧ ، وترتّب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لاسترة عليه .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيلي الّذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطيّ جرما حتّى يتوب عليه السلام منه كيف ؟ وهو عليه السلام من أهل الصراط المستقيم الّذين لا يضلّون بمعصيته ، وقد نصّ تعالى على كونه من المخلصين الّذين لا سبيل للشيطان إليهم بالإغواء حيث قال : « إنّه كان مخلصا وكان رسولا نبيّا » مريم : ٥١ .

وقد نصّ تعالى أيضاً آنفا بأنّه آتاه حكما وعلما وأنّه من المحسنين ومن المتيقّن من أمره أن لا تستخفّه عصبيّة قوميّة أو غضب في غير ما ينبغي أو إعانة ونصرة لمجرم في إجرامه .

وقد كرّر « قال » ثلاثاً حيث قيل : « قال هذا من عمل الشيطان » « قال ربّ إنّي ظلمت نفسي » « قال ربّ بما أنعمت عليّ » وذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجملة الاُولى قضاء منه وحكم ، والجملة الثانية استغفار ودعاء ، والجملة الثالثة عهد والتزام .

قوله تعالى : « فأصبح في المدينة خائفا يترقّب فإذا الّذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنّك لغويّ مبين» تقييد « أصبح » بقوله : « في المدينة » دليل على أنّه بقي في المدينة ولم يرجع إلى قصر فرعون ، والاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح ، والغواية إخطاء الصواب خلاف الرشد .

والمعنى فأصبح موسى في المدينة ـ ولم يرجع إلى بلاط فرعون ـ والحال أنّه خائف من فرعون ينتظر الشرّ ففاجأه أنّ الإسرائيليّ الّذي استنصره على القبطيّ

بالأمس يستغيث به رافعاصوته على قبطيّ آخر قال موسى للإسرائيليّ توبيخا وتأنيبا: إنّك لغويّ مبين لاتسلك سبيل الرشد و الصواب لأنّه كان يخاصم ويقتتل قوماليس في مخاصمتهم والمقاومة عليهم إلّا الشرّ كلّ الشرّ .

قوله تعالى : « فلمّا أراد أن يبطش بالّذي هو عدوّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس » إلى آخر الآية ذكر جلّ المفسّرين أنّ ضمير « قال » للإسرائيلي الّذي كان يستصرخه وذلك أنّه ظنّ أنّ موسى إنّما يريد أن يبطش به لمّا سمعه يعاتبه قبل بقوله : « إنّك لغويّ مبين » فهاله مارآى من إرادته البطش فقال : « ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس » الخ فعلم القبطيّ عند ذلك أنّ موسى هوالّذي قتل القبطيّ بالأمس فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر فأتمروا بموسى وعزموا على قتله .

وماذكروه في محلّه لشهادة السياق بذلك فلايعبوء بما قيل : إنّ القائل هوالقبطيّ دون الإسرائيلي هذا و معنى باقي الآية ظاهر وفي قوله : « أن يبطش بالّذي هوعدوّ لهما » تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أنّ المتقاتلين هذين كانا جميعا إسرائيليّين ، وفيه ايضاً تأييد أنّ القائل : « ياموسى أتريد » الخ الإسرائيلي دون القبطيّ لأنّ سياقه سياق اللّوم والشكوى .

قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » الخ الائتمار المشاورة ، و النصيحة خلاف الخيانة .

والظاهر كون قوله : « من أقصى المدينة » قيدا لقوله : « جاء » فسياق القصّة يعطي أنّ الائتمار كان عند فرعون و بأمر منه ، وأنّ هذا الرجل جاء من هناك وقد كان قصرفرعون في أقصى المدينة وخارجها فأخبر موسى بماقصدوه من قتله وأشار عليه بالخروج من المدينة .

و هذا الاستئناس من الكلام يؤيّد ماتقدّم أنّ قصرفرعون الّذي كان يسكنه كان خارج المدينة ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فخرج منها خائفا يترقّب قال ربّ نجّني من القوم الظالمين » فيه تأييد أنّه ماكان يرى قتله القبطيّ خطأً جرماً لنفسه .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ قال : فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتّى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه مايتكلّم به موسى عليه السلام من التوحيد حتّى همّ به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى والآخر يقول بقول فرعون فاستغاثه الّذي من شيعته فجاء موسى فوكز صاحب فرعون فقضى عليه وتوارى في المدينة .

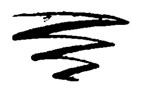
فلمّا كان الغد جاء آخر فتشبّث بذلك الرجل الّذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلمّا نظر صاحبه إلى موسى قال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس فخلّى عن صاحبه وهرب .

و في العيون بإسناده إلى عليّ بن محمّد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون : يابن رسول‌الله أليس من قولك : إنّ الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى . قال فأخبرني عن قول الله : « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان » قال الرضا عليه السلام : إنّ موسى عليه السلام دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه فقضى على العدوّ بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات قال : هذا من عمل الشيطان يعني الاقتتال الّذي وقع بين الرجلين لاما فعله موسى عليه السلام من قتله «إنّه» يعني الشيطان «عدوّ مضلّ مبين» .

قال المامون : فما معنى قول موسى : «ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفرلي » ؟ قال : يقول : وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة فاغفرلي أي استرني من أعدائك لئلاّ يظفروا بي فيقتلوني فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم . قال موسى ، ربّ بما أنعمت

عليّ من القوّة حتّى قتلت رجلا بوكزة فلن أكون ظهيرا للمجرمين بل اُجاهدهم بهذه القوّة حتّى ترضى .

فأصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفا يترقّب فإذا الّذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر قال له موسى إنّك لغويّ مبين قاتلت رجلا بالأمس وتقاتل هذا اليوم لاُؤدّبنّك وأراد أن يبطش به فلمّا أراد أن يبطش بالّذي هو عدوّ لهما وهو من شيعته قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ؟ إن تريد إلّا أن تكون جبّاراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . قال المأمون : جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن .



☆ ☆ ☆

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) .

﴿ بيان ﴾

فصل ثالث من قصّته عليه السلام يذكر فيه خروجه من مصر إلى مدين عقيب قتله القبطيّ خوفا من فرعون وتزوّجه هناك بابنة شيخ كبير لم يسمّ في القرآن لكن تذكر

روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام و بعض روايات أهل السنّة أنّه هو شعيب النبيّ المبعوث إلى مدين .

قوله تعالى : « ولمّا توجّه تلقاء مدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل» قال في المجمع : تلقاء الشيء حذاؤه ، ويقال : فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه . وقال : سواء السبيل وسط الطريق انتهى .

و مدين ـ على ما في مراصد الاطلاع ـ مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ستّ مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر الّتي استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام انتهى ، ويقال : إنّه كان بينهما و بين مصر مسيرة ثمان وكانت خارجة من سلطان فرعون ولذا توجّه إليها .

والمعنى ولمّا صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال: أرجو من ربّي أن يهديني وسط الطريق فلا أضلّ بالعدول عنه والخروج منه إلى غيره .

والسياق ـ كما ترى ـ يعطي أنّه عليه السلام كان قاصداً لمدين وهو لا يعرف الطريق الموصلة إليها فترجّى أن يهديه ربّه .

قوله تعالى « ولمّا ورد ماء مدين وجد عليه اُمّة من الناس يسقون » الخ الذود الحبس و المنع ، و المراد بقوله : « تذودان » أنّهما يحبسان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أنّ المراد بقوله : « يسقون » سقيهم أغنامهم و مواشيهم ، والرعاء جمع الراعي وهو الّذي يرعى الغنم .

والمعنى ولمّا ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم ممّا يليه امرأتين تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسراً عنهما ـ حيث وجدهما تذودان الغنم وليس على غنمهما رجل ـ : ماشأنكما ؟ قالتا لا نسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتّى يصدر الراعون ويخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير ـ لا يقدر أن يتصدّى بنفسه أمر السقي ولذا تصدّينا الأمر .

قوله تعالى : «فسقى لهما ثمّ تولّى إلى الظلّ وقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير » فهم عليه السلام من كلامهما أنّ تأخّرهما في السقي نوع تعفّف وتحجّب منهما

وتعدّ من الناس عليهما فبادر إلى ذلك وسقى لهما .

وقوله : «ثمّ تولّى إلى الظلّ وقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير » أي انصرف إلى الظلّ ليستريح فيه و الحرّ شديد وقال ما قال ، وقد حمل الأكثرون قوله: « ربّ إنّي لما أنزلت » الخ على سؤال طعام يسدّ به الجوع ، وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله « ما أنزلت إليّ » القوّة البدنيّة الّتي كان يعمل بها الأعمال الصالحة الّتي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيليّ و الهرب من فرعون بقصد مدين وسقي غنم شعيب واللّام في « لما أنزلت » بمعنى إلى و إظهار الفقر إلى هذه القوّة الّتي أنزلها الله إليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوّة النازلة الموهوبة .

ويظهر منه أنّه عليه السلام كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل ولا يريده وإن كان ممّا يقتضيه طبعه البشري إلّا ابتغاء مرضاة ربّه وجهاداً فيه ، وهذا ظاهر بالتدبّر في القصّة فهو القائل لمّا وكز القبطيّ : ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ثمّ القائل لمّا خرج من مصر خائفاً يترقّب : «ربّ نجّني من القوم الظالمين» ثمّ القائل لمّا أخذ في السلوك : «عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل » ثمّ القائل لمّا سقى وتولّى إلى الظلّ : « ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير» ثمّ القائل لمّا آجر نفسه شعيبا وعقد على بنته : « والله على ما نقول وكيل » .

و ما نقل عن بعضهم أنّ اللّام في « لما أنزلت » للتعليل ، وكذا قول بعضهم إنّ المراد بالخير خير الدين وهو النجاة من الظالمين بعيد ممّا يعطيه السياق .

قوله تعالى « فجاءته إحداهما تمشي على استحياء » إلى آخر الآية . ضمير إحداهما للمرأتين ، وتنكير الاستحياء للتفخيم و المراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفّف من مشيتها ، وقوله : «ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ما مصدريّة أي ليعطيك جزاء سقيك لنا ، وقوله : « فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف » الخ يلوّح إلى أنّ شعيبا استفسره حاله فقصّ عليه قصّته فطيّب نفسه بأنّه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين .

وعند ذلك تمّت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجّيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاة وترجّى أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فورد مدين ، وسأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجرما سقى وزاد تعالى فكفاه رزق عشرسنين و وهب له زوجا يسكن إليها .

قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين » إطلاق الاستيجار يفيد أنّ المراد استخدامه لمطلق حوائجه الّتي تستدعي من يقوم مقامه وإن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم .

وقوله : « إنّ خير من استأجرت » الخ في مقام التعليل لقوله : « استأجره » وهو من وضع السبب موضع المسبّب و التقدير استأجره لأنّه قويّ أمين و خير من استأجرت هو القويّ الأمين .

وفي حكمها بأنّه قويّ أمين دلالة على أنّها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلّت به على قوّته وكذا من ظهور عفّته في تكليمهما و سقي أغنامهما ثمّ في صحبته لها عندما انطلق إلى شعيب حتّى أتاه ما استدلّت به على أمانته .

و من هنا يظهر أنّ هذه القائلة : « يا أبت استأجره » الخ هي الّتي جاءته و أخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام و ذهب إليه جمع من المفسّرين .

قوله تعالى : « قال إنّي اُريد أن اُنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج » الخ عرض من شعيب لموسى عليهما السلام أن يأجره نفسه ثماني سنين أو عشراً قبال تزويجه إحدى ابنتيه وليس بعقد قاطع ومن الدليل عدم تعيّن المعقودة في كلامه عليه السلام .

فقوله : « إحدى ابنتيّ هاتين » دليل على حضورهما إذ ذاك ، وقوله : « على أن تأجرني ثماني حجج » أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيراً لي ثماني حجج ، والحجج جمع حجّة و المراد بها السنة بعناية أنّ كلّ سنة فيها حجّة للبيت الحرام ، وبه يظهر

أنّ حجّ البيت ـ وهو من شريعة إبراهيم عليه السلام ـ كان معمولاً به عندهم .

وقوله : « فإن أتممت عشراً فمن عندك »أي فإن أتممته عشر سنين فهومن عندك وباختيارمنك من غير أن تكون ملزما من عندي .

وقوله : « وما اُريد أن أشقّ عليك » إخبار عن نحو ما يريده منه من الخدمة وأنّه عمل غير موصوف بالمشقّة وأنّه مخدوم صالح .

وقوله : « ستجدني إن شاءالله من الصالحين» أي إنّي من الصالحين وستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلّق بوجدان موسى إيّاه منهم لا بكونه في نفسه منهم .

قوله تعالى : « قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على مانقول وكيل » الضمير لموسى عليه السلام .

وقوله : « ذلك بيني وبينك » أي ذلك الّذي ذكرته وقرّرته من المشارطة والمعاهدة وعرضته عليّ ثابت بيننا ليس لي ولا لك أن نخالف ماشارطناه ، وقوله : «أيّما الأجلين قضيت فلاعدوان عليّ » بيان للأجل المردّد المضروب في كلام شعيب عليه السلام وهو قوله : « ثماني حجج وإن أتممت عشرا فمن عندك» أي لي أن أختار أيّ الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لك أن تعدو عليّ وتلزمني بالزيادة وإن اخترت الزيادة وخدمتك عشراً فليس لك أن تعدو عليّ بالمنع من الزيادة .

وقوله : « والله على مانقول وكيل » توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمّن إشهاده تعالى على مايقولان وإرجاع الحكم والقضاء بينهما إليه لو اختلفا ، ولذا اختار التوكيل على الإشهاد لأنّ الشهادة والقضاء كليهما إليه تعالى ، وهذا كقول يعقوب عليه السلام حين أخذ الموثق من بنيه أن يردّوا إليه ابنه فيما يحكيه الله : « فلمّا آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل » يوسف : ٦٦ .

﴿بحث روائي﴾

في كتاب كمال الدين بإسناده إلى سدير الصيرفي عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياموسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك

فاخرج إنّي لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقّب من مصر بغير ظهر ولا دابّة ولا خادم تخفضه أرض وترفعه اُخرى حتّى انتهى إلى أرض مدين .

فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها اُمّة من الناس يسقون و إذا جاريتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير و نحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما : قدّما غنمكما فسقى لهما ثمّ رجعتا بكرة قبل الناس .

ثمّ تولّى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها وقال : « ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير » فروي أنّه قال ذلك وهو محتاج إلى شقّ تمرة فلمّا رجعتا إلى أبيهما قال : ما أعجلكما في هذه الساعة ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا . فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

فروي أنّ موسى عليه السلام قال لها : وجّهني إلى الطريق وامشي خلفي فإنّا بني يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

قال : إنّي اُريد أن اُنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشراً فمن عندك فروي أنّه قضى أتمّهما لأنّ الأنبياء عليهم السلام لا تأخذ إلّا بالفضل والتمام .

أقول : وروى ما في معناه القمّي في تفسيره .

وفي الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ حكاية عن موسى عليه السلام : «ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير » قال : سأل الطعام .

أقول : و روى العياشيّ عن حفص عنه عليه السلام مثله ، ولفظه إنّما عنى الطعام وأيضاً عن ليث عن أبى جعفر عليه السلام مثله ، وفي نهج البلاغة مثله ولفظه والله ما سأله إلّا خبزا يأكله .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لمّا سقى موسى للجاريتين ثمّ تولّى إلى الظلّ فقال: ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير قال: إنّه يومئذ فقير إلى كفّ من تمر.

وفي تفسير القمي قال: قالت إحدى بنات شعيب: ياأبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين فقال لها شعيب عليه السلام: أمّا قوّته فقد عرّفتنيه أنّه يستقي الدلو وحده فبم عرفت أمانته؟ فقالت: إنّه لمّا قال لي: تأخّري عنّي و دلّيني على الطريق فأنا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنّه ليس من الّذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته.

أقول: و روى مثله في المجمع عن عليّ عليه السلام.

وفي المجمع وروى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سئل أيّتهما الّتي قالت: إنّ أبي يدعوك؟ قال: الّتي تزوّج بها. قيل: فأيّ الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما و أبعدهما عشر سنين. قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي. قيل له: فالرجل يتزوّج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال إنّ موسى علم أنّه سيتمّ له شرطه. قيل: كيف؟ قال علم أنّه سيبقى حتّى يفي.

أقول: و روى قضاء عشر سنين في الدرّ المنثور عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعدّة طرق.

وفي تفسير العياشيّ وقال الحلبيّ: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن البيت أكان يحجّ قبل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: نعم وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوّج: «على أن تأجرني ثماني حجج» ولم يقل: ثماني سنين.

٭٭٭

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا اِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ اَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا اَتَيهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْاَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ اَنْ يَا مُوسَى اِنِّي اَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَ اَنْ اَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَاَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى اَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ اِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ اِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ اِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ اِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ اِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَاَخَافُ اَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَاَخِي هَارُونُ هُوَ اَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَاَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي اِنِّي اَخَافُ اَنْ يُكَذِّبُونِ(٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِاَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ اِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا اَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْاَوَّلِينَ (٣٦) وَ قَالَ مُوسَى رَبِّي اَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ اِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا اَيُّهَا الْمَلَاءُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ اِلٰهٍ غَيْرِي فَاَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ

فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي اَطَّلِعُ اِلَىٰ اِلٰهِ مُوسَىٰ وَ اِنِّي لَاَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا اَنَّهُمْ اِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَاَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ اَئِمَّةً يَدْعُونَ اِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَاَتْبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) .

﴿ بيان ﴾

فصل آخر من قصّة موسى عليه السلام وقد اُودع فيه إجمال قصّته من حين سار بأهله من مدين قاصداً لمصر و بعثته بالرسالة إلى فرعون و ملائه لإنجاء بني إسرائيل و تكذيبهم له إلى أن أغرقهم الله في اليمّ و تنتهي القصّة إلى إيتائه الكتاب وكأنّه هو العمدة في سرد القصّة .

قوله تعالى : « فلمّا قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً » الخ المراد بقضائه الأجل إتمامه مدّة خدمته لشعيب عليه السلام و المرويّ أنّه قضى أطول الأجلين ، و الإيناس الإبصار و الرؤية ، و الجذوة من النار القطعة منها ، والاصطلاء الاستدفاء .

والسياق يشهد أنّ الأمر كان باللّيل وكانت ليلة شديدة البرد وقد ضلّوا الطريق فرآى من جانب الطور وقد أشرفوا عليه ناراً فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إلى ما آنسه لعلّه يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها ، وقد وقع في القصّة من سورة طه موضع قوله : « لعلّي آتيكم منها بخبر » الخ قوله : « لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » طه : ١٠ وهو أدلّ على كونهم ضلّوا الطريق .

وكذا في قوله خطابا لأهله : « اُمكثوا » الخ شهادة على أنّه كان معها من يصحّ

معه خطاب [١] الجمع .

قوله تعالى : « فلمّا أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » الخ قال في المفردات : شاطىء الوادي جانبه ، وقال : أصل الوادي الموضع الّذي يسيل منه الماء ومنه سمّي المنفرج بين الجبلين واديا وجمعه أودية انتهى والبقعة القطعة من الأرض علي غير هيئة الّتي إلى جنبها .

والمراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر وهو صفة الشاطيء ولا يعبؤ بما قاله بعضهم : إنّ الأيمن من اليمن مقابل الأشأم من الشؤم .

والبقعة المباركة قطعة خاصّة من الشاطىء الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة الّتي نودي منها ، ومباركتها لتشرّفها بالتقريب والتكليم الإلهيّ وقد اُمر بخلع نعليه فيها لتقدّسها كما قال تعالى في القصّة من سورة طه : « فاخلع نعليك إنّك بالوادي المقدّس طوى » طه : ١٢ .

ولا ريب في دلالة الآية على أنّ الشجرة كانت مبدءً للنداء والتكليم بوجه غير أنّ الكلام وهو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلّم منّا فلم تكن إلّا حجابا احتجب سبحانه به فكلّمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب وهو على كلّ شيء محيط قال تعالى : « وماكان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء » الشورى : ٥١ .

ومن هنا يظهر ضعف ماقيل : إنّ الشجرة كانت محلّ الكلام لأنّ الكلام عرض يحتاج إلى محلّ يقوم به .

وكذا ماقيل : إنّ هذا التكليم أعلى منازل الأنبياء عليهم السلام أن يسمعوا كلام الله سبحانه من غير واسطة و مبلّغ . وذلك أنّه كان كلاما من وراء حجاب والحجاب واسطة وظاهر آية الشورى المذكورة آنفا أنّ أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلّغ .

---

(١) وفى التوراة الحاضرة أنه حمل معه الى مصر امرأته وبنيه (سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٢٠) .

وقوله : « أن ياموسى إنّي أنا الله ربّ العالمين » أن فيه تفسيريّة ، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسمّاة باسم الجلالة الموصوفة بوحدانيّة الربوبيّة النافية لمطلق الشرك إذ كونه ربّاً للعالمين جميعاً ـ والربّ هو المالك المدبّر لملكه الّذي يستحقّ العبادة من مملوكيه ـ لا يدع شيأ من العالمين يكون مربوبا لغيره حتّى يكون هناك ربّ غيره و إله معبود سواه .

ففي الآية إجمال ما فصّله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة إلى الأُصول الثلاثة أعني التوحيد و النبوّة والمعاد إذ قال : « إنّني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري إنّ الساعة آتية » الآيات طه : ١٤ ـ ١٦ .

قوله تعالى : « وأن ألق عصاك فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ ولّى مدبراولم يعقّب » تقدّم تفسيره في سورة النمل .

قوله تعالى : « ياموسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين » بتقدير القول أي قيل له : أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين ، وفي هذا الخطاب تأمين له ، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصّة في سورة النمل : « يا موسى لا تخف إنّه لا يخاف لديّ المرسلون » النمل : ١٠ وأنّه تأمين معناه إنّك مرسل والمرسلون آمنون لديّ وليس من العتاب والتوبيخ في شيء .

قوله تعالى : « اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه ، والمراد بالسوء ـ على ماقيل ـ البرص .

والظاهر أنّ في هذا التقييد تعريضا لما في التوراة الحاضرة في هذا (١) الموضع من القصّة : «ثمّ قال له الربّ أيضاً : أدخل يدك في عبّك فأدخل يده في عبّه ثمّ أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج » .

قوله تعالى : « واضمم إليك جناحك من الرهب » إلى آخر الآية ، الرهب بالفتح فالسكون وبفتحتين وبالضمّ فالسكون الخوف ، والجناح قيل : المراد به اليد وقيل : العضد .

---

(١) سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٦ .

قيل: المراد بضمّ الجناح إليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حيّة ليذهب ما في قلبه من الخوف .

وقيل : إنّه لمّا ألقى العصا وصارت حيّة بسط يديه كالمتّقي وهما جناحاه فقيل له : اضمم إليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحيّة فإنّك آمن من ضررها .

والوجهان ـ كما ترى ـ مبنيّان على كون الجملة أعني قوله : « واضمم » الخ من تتمّة قوله : « أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين » وهذا لا يلائم تخلّل قوله : « اسلك يدك في جيبك » الخ بين الجملتين بالفصل من غير عطف .

وقيل : الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراده الله سبحانه منه والحثّ على الجدّ في أمر الرسالة لئلّا يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال .

و لا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإنّ من دأب المتكبّر المعجب بنفسه أن يفرّج بين عضديه و جنبيه كالمتمطّي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من التواضع للمؤمنين بقوله : «واخفض جناحك للمؤمنين» الحجر : ٨٨ على بعض المعاني .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّي قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون» إشارة إلى قتله القبطيّ بالوكز و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا .

قوله تعالى : « و أخي هارون هو أفصح منّي لسانا فأرسله معي ردءاً يصدّقني إنّي أخاف أن يكذّبون » قال في المجمع : يقال : فلان ردء لفلان إذا كان ينصره و يشدّ ظهره انتهى .

و قوله : « إنّي أخاف أن يكذّبون» تعليل لسؤاله إرسال هارون معه ، والسياق يدلّ على أنّه كان يخاف أن يكذّبوه فيغضب و لا يستطيع بيان حجّته للكنة كانت في لسانه لا أنّه سأل إرساله لئلّا يكذّبوه فإنّ من يكذّبه لا يبالي أن يكذّب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصّة من قوله : « قال ربّ إنّي أخاف أن يكذّبون و يضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون» الشعراء : ١٣ .

فمحصّل المعنى أنّ أخي هارون هو أفصح منّي لسانا فأرسله معينا لي يبيّن صدقي في دعواي إذا خاصموني إنّي أخاف أن يكذّبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواي .

قوله تعالى : « قال سنشدّ عضدك بأخيك و نجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما و من اتّبعكما الغالبون » شدّ عضده بأخيه كناية عن تقويته به ، و عدم الوصول إليهما كناية عن عدم التسلّط عليهما بالقتل و نحوه كأنّ الطائفتين يتسابقان و إحداهما متقدّمة دائما و الاُخرى لا تدركهم بالوصول إليهم فضلا أن يسبقوهم .

و المعنى قال سنقوّيك و نعينك بأخيك هارون و نجعل لكما سلطة وغلبة عليهم فلا يتسلّطون عليكما بسبب آياتنا الّتي نظهركما بها . ثمّ قال : « أنتما ومن اتّبعكما الغالبون » وهو بيان لقوله : «و نجعل لكما سلطانا» الخ يوضح أنّ هذا السلطان يشملهما ومن اتّبعهما من الناس .

و قد ظهر بذلك أنّ السلطان بمعنى القهر و الغلبة وقيل : هو بمعنى الحجّة و الأولى حينئذ أن يكون قوله : «بآياتنا» متعلّقا بقوله «الغالبون» لا بقوله : «فلا يصلون إليكما» و قد ذكروا في الآية وجوها اُخر لا جدوى في التعرّض لها .

قوله تعالى : « فلمّا جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلّا سحر مفترى» الخ أي سحر موصوف بأنّه مفترى والمفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر ميميّ وصف به السحر مبالغة .

و الإشارة في قوله : «ماهذا إلّا سحر مفترى» إلى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلّا سحراً مختلقا افتعله فنسبه إلى الله كذبا .

و الإشارة في قوله : « وماسمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين » إلى ما جاء به من الدعوة و أقام عليها حجّة الآيات ، و أمّا احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنّهم كانوا يدّعون أنّهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله : «فلنأتينّك بسحر مثله» طه : ٥٨ على أنّ عدم معهوديّة السحر وعدم مسبوقيّته بالمثل لا ينفعهم شيأ حتّى يدّعوه .

فالمعنى أنّ ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأوّلين أنّهم اتّخذوه

في وقت من الأوقات ، و يناسبه ما حكي في الآية التالية من قول موسى : « ربّي أعلم بمن جاء بالهدى » الخ .

قوله تعالى : « وقال موسى ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده و من تكون له عاقبة الدار » الخ مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم : « و ماسمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين » في ردّ دعوى موسى ، و هو جواب مبنيّ على التحدّي كأنّه يقول : إنّ ربّي ـ و هو ربّ العالمين له الخلق و الأمر ـ هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبة الدار و هو الّذي أرسلني رسولا جائيا بالهدى ـ و هو دين التوحيد ـ ووعدني أنّ من أخذ بديني فله عاقبة الدار ، والحجّة على ذلك الآيات البيّنات الّتي آتانيها من عنده .

فقوله : « ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده » يريد به نفسه و المراد بالهدى الدعوة الدينيّة الّتي جاء بها .

و قوله : « و من تكون له عاقبة الدار » المراد بعاقبة الدار إمّا الجنّة الّتي هي الدار الآخرة الّتي يسكنها السعداء كما قال حكاية عنهم : « وأورثنا الأرض نتبوّء من الجنّة حيث نشاء » الزمر : ٧۴ ، و إمّا عاقبة الدار الدنيا كما في قوله : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين » الأعراف : ١٢٨ وإمّا الأعمّ الشامل للدنيا والآخرة والثالث أحسن الوجوه ثمّ الثاني كما يؤيّده تعليله بقوله : « إنّه لا يفلح الظالمون » .

و في قوله : « إنّه لا يفلح الظالمون » تعريض لفرعون وقومه و فيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنّهم بنوا سنّة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعيّة الّتي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني .

قال بعض المفسّرين : و الوجه في عطف قوله : « وقال موسى ربّي أعلم » الخ على قولهم : « ما هذا إلّا سحر مفترى » الخ حكاية القولين ليوازن السامع بينهما ليميّز صحيحهما من الفاسد انتهى و ما قدّمناه من كون قول موسى عليه السلام مسوقا لردّ قولهم أوفق للسياق .

قوله تعالى : « و قال فرعون يا أيّها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » إلى آخر الآية ، فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقّة المؤيّدة بالآيات المعجزة يريد أنّه لم يتبيّن له حقيّة ما يدعو إليه موسى ولاكون ماأتى به من الخوارق آيات معجزة من عندالله و أنّه ما علم لهم من إله غيره .

فقوله : « ماعلمت لكم من إله غيري » سوق للكلام في صورة الإنصاف ليقع في قلوب الملاء موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكيّ في موضع آخر : « ما اُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد» المؤمن : ٢٩ .

فمحصّل المعنى أنّه أظهر للملاء أنّه لم يتّضح له من دعوة موسى و آياته أنّ هناك إلها هو ربّ العالمين و لاحصل له علم بأنّ هناك إلها غيره ثمّ أمر هامان أن يبني له صرحا لعلّه يطّلع إلى إله موسى .

و بذلك يظهر أنّ قوله : « ما علمت لكم من إله غيري» من قبيل قصر القلب فقد كان موسى عليه‌السلام يثبت الاُلوهيّة لله سبحانه و ينفيها عن غيره و هو ينفيها عنه تعالى و يثبتها لنفسه ، و أمّا سائر الآلهة الّتي كان يعبدها هو و قومه فلاتعرّض لها .

و قوله : « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا » المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعة الآجر المستعمل في الأبنية ، والصرح البناء العالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر ففي الجملة أمر باتّخاذ الآجر و بناء قصر عال منه .

و قوله : « لعلّي أطّلع إلى إله موسى » نسب الإله إلى موسى بعناية أنّه هو الّذي يدعو إليه ، و الكلام من وضع النتيجة موضع المقدّمة و التقدير اجعل لي صرحا أصعد إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلّي أطّلع إلى إله موسى كأنّه كان يرى أنّه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجوّ أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطّلع إليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس و إضلالهم .

و يمكن أن يكون المراد أن يبني له رصداً يترصّد الكواكب فيرى هل فيهاما يدلّ على بعثة رسول أو حقّيّة ما يصفه موسى عليه‌السلام ، و يؤيّد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر : « يا هامان ابن لي صرحا لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطّلع

إلى إله موسى و إنّي لأظنّه كاذبا » المؤمن : ٣٧ .

و قوله : « و إنّي لأظنّه من الكاذبين » ترقّ منه من الجهل الّذي يدلّ عليه قوله : « ما علمت لكم من إله غيري» إلى الظنّ بعدم الوجود وقد كان كاذبا في قوله هذا و لا يقوله إلّا تمويها و تعمية على الناس و قد خاطبه موسى بقوله : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلّا ربّ السماوات و الأرض » أسرى : ١٠٢ .

و ذكر بعضهم أنّ قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله : « قل أتنبّؤن الله بما لا يعلم في السماوات و الأرض » يونس : ١٨ وأنت خبير بأنّه لا يلائم ذيل الآية .

قوله تعالى : « و استكبر هو وجنوده في الأرض وظنّوا أنّهم إلينا لا يرجعون» أي كانت حالهم حال من يترجّح عنده عدم الرجوع و ذلك أنّهم كانوا موقنين في أنفسهم كما قال تعالى : «وجحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوّا ».

قوله تعالى : « فأخذناه و جنوده » الخ النبذ الطرح ، و اليمّ البحر و الباقي ظاهر . و في الآية من الاستهانة بأمرهم و تهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : « و جعلناهم أئمّة يدعون إلى النار و يوم القيامة لا ينصرون » الدعوة إلى النار هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر و المعاصي لكونها هي الّتي تتصوّر لهم يوم القيامة نارا يعذّبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبّب و إرادة سببه .

و معنى جعلهم أئمّة يدعون إلى النار ، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون ولاضير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود و ليس من الإضلال الابتدائيّ في شيء .

و قيل : المراد بجعلهم أئمّة يدعون إلى النار تسميتهم بذلك على حدّ قوله : « و جعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمان إناثا » الزخرف : ١٩ .

و فيه أنّ الآية التالية على ماسيجيء من معناها لا تلائمه . على أنّ كون الجعل في الآية المستشهد بها بمعنى التسمية غير مسلّم .

و قوله : « و يوم القيامة لاينصرون » أي لاتنالهم شفاعة من ناصر .

قوله تعالى : « و أتبعناهم في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامةهم من المقبوحين » بيان للازم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أئمّة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر و المعاصي لايزال يتبعهم ضلال الكفر و المعاصي من مقتديهم و متّبعيهم و عليهم من الأوزار مثل ما للمتّبعين فيتّبعهم لعن مستمرّ باستمرار الكفر والمعاصي بعدهم .

فالآية في معنى قوله : « وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » العنكبوت : ١٣ و قوله : « ونكتب ما قدّموا و آثارهم » يسٓ : ١٢ و تنكير اللعنة للدلالة على تفخيمها و استمرارها .

و كذا لمّا لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفّر و يشمئزّ عنهم النفوس و يفرّ منهم الناس و لا يدنو منهم أحد و هو معنى القبح و قد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيأ كثيرا في كلامه .

﴿ بحث روائی ﴾

في المجمع روى الواحديّ بالإسناد عن ابن عبّاس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما و أبطاهما .

اقول : و روى ما في معناه بالإسناد عن أبي ذرّ عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن مقسم قال : لقيت الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما فقلت له : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ الأوّل أو الآخر ؟ قال : الآخر .

و في المجمع روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : لمّا قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو البيت أخطأ الطريق فرآى نارا « قال لأهله امكثوا إنّي آنست نارا » .

و عن كتاب طبّ الأئمّة بإسناده عن جابر الجعفيّ عن الباقر عليه السلام في حديث قال : وقال الله عزّ وجلّ في قصّة موسى عليه السلام : « و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء» يعني من غير برص .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و أخي هارون هو أفصح منّي لسانا فأرسله معي ردءاً يصدّقني » قال الراوي : فقلت لأبي جعفر عليه السلام : فكم مكث موسى عليه السلام غائبا عن اُمّه حتّى ردّه الله عزّ وجلّ عليها ؟ قال : ثلاثة أيّام .

قال : فقلت : فكان هارون أخا موسى عليهما السلام لأبيه واُمّه ؟ قال : نعم أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول : « يا ابن اُمّ لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي » ؟ فقلت : فأيّهما كان أكثر سنّا ؟ قال : هارون . قلت : فكان الوحي ينزل عليهما جميعا ؟ قال : كان الوحي ينزل على موسى و موسى يوحيه إلى هارون .

فقلت له : أخبرني عن الأحكام و القضاء والأمر و النهي كان ذلك إليهما ؟ قال : كان موسى الّذي يناجي ربّه و يكتب العلم و يقضي بين بني إسرائيل و هارون يخلفه إذا غاب من قومه للمناجاة . قلت : فأيّهما مات قبل صاحبه ؟ قال : مات هارون قبل موسى وماتا جميعا في التيه . قلت : فكان لموسى ولد؟ قال : لا كان الولد لهارون و الذرّيّة له .

اقول : و آخر الرواية لا يوافق روايات اُخر تدلّ على أنّه كان له ولد و في التوراة الحاضرة أيضا دلالة على ذلك .

في جوامع الجامع في قوله تعالى : « و استكبر هو وجنوده » قال عليه السلام فيما حكاه عن ربّه عزّ وجلّ : الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار .

و في الكافي بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال : إنّ الأئمّة في كتاب الله عزّ وجلّ إمامان قال الله تبارك و تعالى : « و جعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا » لا بأمر الناس يقدّمون أمر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم . قال : «وجعلناهم أئمّة يدعون إلى النار» يقدّمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجلّ .

كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام

في فصول

۱ ـ منزلة موسى عندالله و موقفه العبودى . كان عليه السلام أحد الخمسة اُولي العزم الّذين هم سادة الأنبياء و لهم كتاب وشريعة كما خصّهم الله تعالى بالذكر في قوله : « و إذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم و منك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم و أخذنا منهم ميثاقا غليظا » الأحزاب : ۷ ، و قال : «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا و ما أوحينا إليك و ما وصّينا به إبراهيم وموسى و عيسى» الشورى : ۱۳ .

و لقد امتنّ الله سبحانه عليه و على أخيه في قوله : « و لقد مننّا على موسى و هارون» الصافات : ۱۱۴ وسلّم عليهما في قوله: «سلام على موسى وهارون» الصافات : ۱۲۰ .

و أثنى على موسى عليه السلام بأجمل الثناء في قوله : « و اذكر في الكتاب موسى إنّه كان مخلصا و كان رسولا نبيّا و ناديناه من جانب الطور الأيمن و قرّبناه نجيّا » مريم : ۵۲ و قال : « وكان عند الله وجيها» الأحزاب : ۶۹ ، و قال : «وكلّم الله موسى تكليما» النساء : ۱۶۴ .

و ذكره في جملة من ذكرهم من الأنبياء في سورة الأنعام الآية ۸۴ـ ۸۸ فأخبر أنّهم كانوا محسنين صالحين و أنّه فضّلهم على العالمين و اجتباهم و هداهم إلى صراط مستقيم. وذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم ثمّ ذكر في الآية ۵۸ منها أنّهم الّذين أنعم الله عليهم .

فاجتمع بذلك له عليه السلام معنى الإخلاص و التقريب و الوجاهة و الإحسان و الصلاح والتفضيل والاجتباء و الهداية و الإنعام و قد مرّ البحث عن معاني هذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب وكذا البحث عن معنى النبوّة و الرسالة والتكليم .

و ذكر الكتاب النازل عليه وهوالتوراة فوصفها بأنّها إمام و رحمة (سورة الأحقاف الآية ۱۲) و بأنّها فرقان و ضياء و ذكر (الأنبياء : ۴۸) و بأنّ فيها هدى و نور (المائدة : ۴۴) و قال : « و كتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة و تفصيلا لكلّ شيء » الأعراف : ۱۴۵ .

غير أنّه تعالى ذكر في مواضع من كلامه أنّهم حرّفوها و اختلفوا فيها . و قصّة بخت نصّر و فتحه فلسطين ثانيا و هدمه الهيكل و إحراقه التوراة و حشره اليهود إلى بابل سنة خمس مائة و ثمان و ثمانين قبل المسيح ثمّ فتح كورش الملك بابل سنة خمس مائة و ثمان و ثلاثين قبل المسيح وإذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانيا و كتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ وقد تقدّمت الإشارة إليه في الجزء الثالث من الكتاب في قصص المسيح عليه السلام .

٢ ـ قصص موسى عليه السلام في القرآن . هو عليه السلام أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن الكريم فقد ذكر اسمه ـ على ماعدّوه ـ في مائة وستّة و ستّين موضعا من كلامه تعالى ، واُشير إلى قصّته إجمالا أو تفصيلا في أربع و ثلاثين سورة من سور القرآن ، وقد اختصّ من بين الأنبياء بكثرة المعجزات ، و قد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته الباهرة كصيرورة عصاه ثعبانا ، و اليد البيضاء ، و الطوفان ، و الجراد ، و القمّل ، و الضفادع ، و الدم ، و فلق البحر ، و إنزال المنّ و السلوى ، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، و إحياء الموتى ، و رفع الطور فوق القوم وغير ذلك .

و قد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه عليه السلام من دون استيفائها في كلّ مادقّ و جلّ بل بالاقتصار على فصول منها يهمّ ذكرها لغرض الهداية والإرشاد على ماهودأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء و اُممهم .

و هذه الفصول الّتي فيها كلّيّات قصصه هي : أنّه تولّد بمصر في بيت إسرائيليّ حينما كانوا يذبحون المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون و جعلت اُمّه إيّاه في تابوت و ألقته في البحر و أخذ فرعون إيّاه ثمّ ردّه إلى اُمّه للإرضاع و التربية و نشأ في بيت فرعون .

ثمّ بلغ أشدّه و قتل القبطيّ و هرب من مصر إلى مدين خوفا من فرعون وملائه أن يقتلوه قصاصا .

ثمّ مكث في مدين عند شعيب النبيّ عليه السلام و تزوّج إحدى بنتيه .

ثمّ لمّا قضى موسى الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور نارا و قد ضلّوا

الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم و ذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدى فلمّا أتاها ناداه الله من شاطيء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وكلّمه و اجتباه و آتاه معجزة العصا و اليد البيضاء في تسع آيات و اختاره للرسالة إلى فرعون و ملائه و إنجاء بني إسرائيل و أمره بالذهاب إليه .

فأتى فرعون و دعاه إلى كلمة الحقّ و أن يرسل معه بني إسرائيل و لا يعذّبهم و أراه آية العصا واليد البيضاء فأبى وعارضه بسحر السحرة و قد جاؤا بسحر عظيم من ثعابين و حيّات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فاُلقي السحرة ساجدين قالوا آمنّا بربّ العالمين ربّ موسى و هارون و أصرّ فرعون على جحوده و هدّد السحرة و لم يؤمن .

فلم يزل موسى عليه السلام يدعوه و ملأه و يريهم الآية بعد الآية كالطوفان والجراد و القمّل و الضفادع و الدم آيات مفصّلات و هم يصرّون على استكبارهم ، وكلّما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك لئن كشفت عنّا الرجز لنؤمننّ لك و لنرسلنّ معك بني إسرائيل فلمّا كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون .

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلا فساروا حتّى بلغوا ساحل البحر فعقّبهم فرعون بجنوده فلمّا تراآى الفريقان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون قال كلّا إنّ معي ربّي سيهدين فاُمر بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر وأتبعهم فرعون و جنوده حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعا أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم .

و لمّا أنجاهم الله من فرعون و جنوده و أخرجهم إلى البرّ ولا ماء فيه و لا كلاء أكرمهم الله فأنزل عليهم المنّ و السلوى و أمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كلّ اُناس مشربهم فشربوا منها وأكلوا منهما و ظلّلهم الغمام .

ثمّ واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة بجبل الطور فاختار قومه سبعين رجلا ليسمعوا تكليمه تعالى إيّاه فسمعوا ثمّ قالوا : لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ثمّ أحياهم الله بدعوة موسى ، و لمّا تمّ الميقات أنزل الله عليه التوراة و أخبره أنّ السامري قد أضلّ قومه بعده فعبدوا العجل .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فأحرق العجل و نسفه في اليمّ وطرد السامريّ و قال له : اذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لامساس و أمّا القوم فاُمروا أن يتوبوا و يقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثمّ استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتّى رفع الله الطور فوقهم .

ثمّ إنّهم ملّوا المنّ و السلوى و قالوا لن نصبر على طعام واحد و سألوه أن يدعو ربّه أن يخرج لهم ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثّائها و فومها وعدسها و بصلها فاُمروا أن يدخلوا الأرض المقدّسة الّتي كتب الله لهم فأبوا فحرّمها الله عليهم و ابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة .

و من قصص موسى عليه السلام ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيّه مع فتاه إلى مجمع البحرين للقاء العبد الصالح و صحبته حتّى فارقه .

٣ ـ منزلة هارون عليه السلام عندالله وموقفه العبودى . أشركه الله تعالى مع موسى عليهما السلام في سورة الصافات في المنّ و إيتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم و في التسليم وأنّه من المحسنين و من عباده المؤمنين (الصافات : ١١٤ ـ ١٢٢) وعدّه مرسلا (طه : ٤٧) و نبيّا (مريم : ٥٣) و أنّه ممّن أنعم عليهم (مريم : ٥٨) و أشركه مع من عدّهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان و الصلاح و الفضل و الاجتباء و الهداية (الأنعام : ٨٤ ـ ٨٨) .

و في دعاء موسى ليلة الطور : « و اجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري و أشركه في أمري كي نسبّحك كثيرا و نذكرك كثيرا إنّك كنت بنا بصيرا » طه : ٣٥ .

وكان عليه السلام ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامّة أمره ويعينه على جميع مقاصده .

ولم يرد في القرآن الكريم ممّا يختصّ به من القصص إلّا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للميقات وقال لأخيه هارون اخلفني في قومي و أصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين ، ولمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاوقد عبدواالعجل ألقى الألواح وأخذ

برأس أخيه يجرّه إليه قال ابن اُمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال ربّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

۴ ـ قصة موسى عليه السلام في التوراة الحاضرة . قصصه عليه السلام موضوعة فيما عدا السفر الأوّل من أسفار التوراة الخمسة وهي سفر الخروج وسفر اللاويّين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصصه عليه السلام من حين ولادته إلى حين وفاته وما اُوحي إليه من الشرائع والأحكام .

غير أنّ فيها اختلافات في سرد القصّة مع القرآن في اُمور غير يسيرة .

ومن أهمّها أنّها تذكر أنّ نداء موسى وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين قبل أن يسير بأهله و ذلك حين كان يرعى غنم يثرون [١] حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البريّة وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الربّ بلهيب نار من وسط عُلّيقة فناداه الله وكلّمه بما كلّمه وأرسله إلى فرعون لانجاء بني إسرائيل [٢] .

ومنها ماذكرت أنّ فرعون الّذي اُرسل إليه موسى غير فرعون الّذي أخذ موسى و ربّاه ثمّ هرب منه موسى لمّا قتل القبطيّ خوفاً من القصاص [٣] .

ومنها أنّها لم تذكر إيمان السحرة لمّا ألقوا عصيّهم فصارت حيّات فتلقّفتها عصا موسى بل تذكر أنّهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسى في آيتي الدم والضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتى به موسى عليه السلام معجزة [٤] .

و منها أنّها تذكر أنّ الّذي صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبيّ أخو موسى عليهما السلام وذلك أنّه لمّا رآى الشعب أنّ موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأنّ هذا (موسى) الرجل

(١) تسمى التوراة أبا زوجة موسى يثرون كاهن مديان .

(٢) الاصحاح الثالثة من سفر الخروج .

(٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثاني . الاية ٢٣ .

(۴) الاصحاح السابع والثامن من سفر الخروج .

الّذي أصعدنا من أرض مصر لانعلمماذا أصابه ؟ فقال لهم هارون : انزعوا أقراطالشعب الّتي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها .

فنزع كلّ الشعب أقراط الذهب الّتي فيآذانهم وأتوابها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالازميل فصبغه عجلا مسبوكا فقالو اهذه آلهتك يا إسرائيل الّتي أصعدتك من أرض مصر [١] .

وفي الآيات القرآنيّة تعريضات للتوراة فيهذه المواضع من قصصه عليه السلام غيرخفيّة على المتدبّر فيها .

وهناك اختلافات جزئيّة كثيرة كما وقعفي التوراة فيقصّة قتل القبطي أنّ المتضاربين ثانيا كانا جميعاً إسرائيليّين [٢] .

وأيضاً وقع فيها أنّ الّذي ألقى العصافتلقّفت حيّات السحرة هوهارون ألقاها بأمر موسى [٣] .

وأيضاً لم تذكر فيها قصّة انتخاب السبعين رجلاً للميقات ونزول الصاعقة عليهم وإحياءهم بعده .

و أيضاً فيها أنّ الألواح الّتي كانت مع موسى لمّا نزل من الجبل و ألقاها كانت لوحين من حجروهمالوحا الشهادة [٤] . إلى غير ذلك من الاختلافات .



(١) الاصحاح الثانى والثلاثون من سفر الخروج .

(٢) الاصحاح الثانى من سفر الخروج .

(٣) الاصحاح السابع من سفر الخروج .

(٤) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .

✡ ✡ ✡

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا اَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْاُولٰى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ اِذْ قَضَيْنَا اِلٰى مُوسَى الْاَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلٰكِنَّا اَنْشَاْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِى اَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ اِذْ نَادَيْنَا وَلٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَااَتٰيهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا اَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا اَرْسَلْتَ اِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا اُوتِيَ مِثْلَ مَا اُوتِيَ مُوسٰى اَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا اُوتِيَ مُوسٰى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا اِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَاْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِاللّٰهِ هُوَ اَهْدٰى مِنْهُمَا اَتَّبِعْهُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَاِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ اَنَّمَا يَتَّبِعُونَ اَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ اَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوٰيهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَاِذَا يُتْلٰى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ اِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

رَبِّنَا اِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(٥٣) اُولئكَ يُؤْتَونَ اَجرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِماصَبرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَاِذا سَمِعُوا اللَّغوَ اَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنَا أَعْمالُنَا وَلَكُمْ اَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لانَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (٥٥) اِنَّكَ لاتَهْدِي مَنْ اَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ اَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) .

﴿بيان﴾

سياق الآيات يشهد أنّ المشركين من قوم النبي ﷺ راجعوا بعض أهل الكتاب و استفتوهم في أمره ﷺ و عرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو مصدّق للتوراة فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمّنه القرآن من المعارف الحقّة وأنّهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال تعالى : « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين » .

فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا : إنّ القرآن سحر والتوراة سحر مثله « سحران تظاهرا» «وإنّا بكلّ كافرون » فأعرض الكتابيّون عنهم وقالوا : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .

هذا ما يلوّح إليه الآيات الكريمة بسياقها ، وهو سبحانه لمّا ساق قصّة موسى عليه السلام وأنبأ أنّه كيف أظهر قوما مستضعفين معبّدين معذّبين يذبّح أبناؤهم وتستحيى نساؤهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم ربّاه في حجر عدوّه الّذي يذبّح بأمره الاُلوف من أبنائهم ثمّ أخرجه لمّا نشأ من بينهم ثمّ بعثه وردّه إليهم و أظهره عليهم حتّى أغرقهم أجمعين وأنجا شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين .

عطف القول على الكتاب السماويّ الّذي هو المتضمّن للدعوة وبه تتمّ الحجّة

وهو الحامل للتذكرة فذكر أنّه أنزل التوراة على موسى عليه السلام فيه بصائر للناس وهدى ورحمة لعلّهم يتذكّرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الأولى بمعاصيهم .

وكذا أنزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم القرآن وقصّ عليه قصص موسى عليه السلام ولم يكن هو شاهدا لنزول التوراة عليه ولاحاضراً في الطور لمّا ناداه وكلّمه ، وقصّ عليه ماجرى بين موسى وشعيب عليهما السلام ولم يكن هو ثاوياً في مدين يتلو عليهم آياته ولكن أنزله و قصّ عليه ماقصّه رحمة منه لينذر به قوما ما أتاهم من نذير من قبله لأ نّهم بسبب كفرهم وفسوقهم في معرض نزول العذاب وإصابة المصيبة فلولم ينزل الكتاب ولم يبلّغ الدعوة لقالوا : ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتّبع آياتك وكانت الحجّة لهم على الله سبحانه .

فلمّا جاءهم الحقّ من عنده ببعثة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن قالوا : لولا اُوتي مثل ما اُوتي موسى أو لم يكفروا بما اُوتي موسى من قبل حين راجعوا أهل الكتاب في أمره فصدّقوه فقال المشركون : سحران تظاهرا يعنون التوراة و القرآن ، و قالوا : إنّا بكلّ كافرون .

ثمّ لقّن سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم الحجّة عليهم بقوله : « قل فأتوا بكتاب من عندالله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين » أي إنّ من الواجب في حكمة الله أن يكون هناك كتاب نازل من عند الله يهدي إلى الحقّ و تتمّ به الحجّة على الناس وهم يعرفون فإن لم تكن التوراة و القرآن كتاب هدى و كافيين لهداية الناس فهناك كتاب هو أهدى منهما و ليس كذلك إذ ما في الكتابين من المعارف الحقّة مؤيّدة بالإعجاز و بدلالة البراهين العقليّة . على أنّه ليس هناك كتاب سماويّ هو أهدى منهما فالكتابان كتابا هدى والقوم في الإعراض عنهما متّبعون للهوى ضالّون عن الصراط المستقيم و هوقوله : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم » الخ .

ثمّ مدح سبحانه قوما من أهل الكتاب راجعهم المشركون في أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و القرآن فأظهروا لهم الإيمان و التصديق وأعرضوا عن لغو القول الّذي جبّهوهم به .

قوله تعالى : « و لقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى

بصائر للناس » الخ اللاّم للقسم أي اُقسم لقد أعطينا موسى الكتاب و هو التوراة بوحيه إليه .

و قوله : « من بعد ما أهلكنا القرون الاُولى » أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح و من بعدهم من الاُمم الهالكة و لعلّ منهم قوم فرعون ، و في هذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإلهيّ بمضيّ الماضين و ليشار في الكتاب الإلهيّ إلى قصصهم وحلول العذاب الإلهيّ بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون و يتذكّر به المتذكّرون .

و قوله : « بصائر للناس » جمع بصيرة بمعنى ما يبصر به وكأنّ المراد بها الحجج البيّنة الّتي يبصّر بها الحقّ و يميّز بها بينه و بين الباطل ، و هي حال من الكتاب و قيل : مفعول له .

و قوله : « وهدى » بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله : « ورحمة » بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر و قيل : كلّ منهما مفعول له .

و المعنى و اُقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعد ما أهلكنا الأجيال الاُولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة و الإنذار حال كون الكتاب حججا بيّنة يبصر بها الناس المعارف الحقّة وهدى يهتدون به إليها و رحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه و أحكامه لعلّهم يتذكّرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد و العمل .

قوله تعالى : « و ما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر و ما كنت من الشاهدين » الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والغربيّ صفة محذوفة الموصوف و المراد جانب الوادي الغربيّ أو جانب الجبل الغربيّ .

و قوله : « إذ قضينا إلى موسى الأمر » كأنّ القضاء مضمّن معنى العهد ، والمراد بعهد الأمر إليه ـ على ما قيل ـ إحكام أمر نبوّته بإنزال التوراة إليه و أمّا العهد إليه بأصل الرسالة فيدلّ عليه قوله بعد : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وقوله : « وما كنت من الشاهدين » تأكيد لسابقه .

و المعنى و ما كنت حاضرا و شاهدا حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب

الغربيّ من الوادي أو الجبل .

قوله تعالى : « و لكنّا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر » تطاول العمر تمادي الأمد و الجملة استدراك عن النفي في قوله : « وما كنت بجانب الغربيّ » و المعنى ما كنت حاضراً هناك شاهداً لما جرى فيه و لكنّا أوجدنا أجيالا بعده فتمادى بهم الأمد ثمّ أنزلنا عليك قصّته و خبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه .

قوله تعالى : « و ما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا و لكنّا كنّا مرسلين » الثاوي المقيم يقال : ثوى في المكان إذا أقام فيه ، و الضمير في «عليهم» لمشركي مكّة الّذين كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم آيات الله الّتي تقصّ ماجرى على موسى عليه السلام في مدين زمن كونه فيه .

و قوله : « و لكنّا كنّا مرسلين » استدراك من النفي في صدر الآية .

و المعنى و ما كنت مقيما في أهل مدين وهم شعيب و قومه ـ مشاهداً لماجرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصّة لخبره هناك و لكنّا كنّا مرسلين لك إلى قومك موحين بهذه الآيات إليك لتتلوها عليهم .

قوله تعالى : « و ماكنت بجانب الطور إذ نادينا و لكن رحمة من ربّك » إلى آخر الآية ، الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق : « و ما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا » الخ أنّ المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة الّتي آنس فيها من جانب الطور نارا .

و قوله : « و لكن رحمة من ربّك » الخ استدراك عن النفي السابق ، و الظاهر أنّ «رحمة» مفعول له ، و الالتفات عن التكلّم بالغير إلى الغيبة في قوله : « من ربّك» للدلالة على كمال عنايته تعالى به صلى الله عليه وآله وسلم .

و قوله : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك» الظاهر أنّ المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبويّة أوهم ومن يقارنهم من آبائهم فإنّ العرب خلت فيهم رسل منهم كهود وصالح وشعيب و إسماعيل عليهم السلام .

و المعنى و ما كنت حاضرا في جانب الطور إذ نادينا موسى و كلّمناه و اخترناه

للرسالة حتّى تخبر عن هذه القصّة إخبار الحاضر المشاهد و لكن لرحمة منّا أخبرناك بها لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يتذكّرون .

قوله تعالى : « و لو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم فيقولوا ربّنا » الخ المراد بما قدّمت أيديهم ما اكتسبوه من السيّآت من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآية ، و المراد بالمصيبة الّتي تصيبهم أعمّ من مصيبة الدنيا و الآخرة فإنّ الإعراض عن الحقّ بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهيّة في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة و قد تقدّم بعض الكلام فيه في ذيل قوله : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض » الاعراف : ٩٦ و غيره .

و قوله : « فيقولوا ربّنا لولا أرسلت » متفرّع على ما تقدّمه على تقدير عدم إرسال الرسول و جواب لولا محذوف لظهوره والتقدير : لما أرسلنا رسولا .

و محصّل المعنى أنّه لو لا أنّه تكون لهم الحجّة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول و أخذهم بالعذاب بما قدّمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا إليهم رسولا لكنّهم يقولون ربّنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتّبع آياتك الّتي يتلوها علينا و نكون من المؤمنين .

قوله تعالى : « فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا قالوا لولا اُوتي مثل ما اُوتي موسى » الخ أي فأرسلنا إليهم الرسول بالحقّ و أنزلنا الكتاب فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا والظاهر أنّه الكتاب النازل على الرسول و هو القرآن النازل على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

و المراد بقولهم : « لو لا اُوتي مثل ما اُوتي موسى » أي لولا اُوتي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مثل التوراة الّتي اُوتيها موسى عليه السلام ، و كأنّهم يريدون به أن ينزّل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : « و قال الّذين كفروا لو لا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » الفرقان : ٣٢ .

و قد أجاب الله عن قولهم بقوله : « أو لم يكفروا بما اُوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا » يعنون القرآن والتوراة « وقالوا إنّا بكلّ كافرون » . والفرق بين القولين أنّ الأوّل كفر بالكتابين و الثاني كفر بأصل النبوّة و لعلّه الوجه لتكرار « قالوا » في الكلام .

قوله تعالى : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين » تفريع على كون القرآن و التوراة سحرين تظاهرا ، و لا يصحّ هذا التفريع إلّا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم و يجب عليهم اتّباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحقّ غيرهما ، و هو كذلك على ما تبيّن بقوله : « و لو لا أن تصيبهم مصيبة » الخ أنّ للناس على الله أن ينزّل عليهم الكتاب و يرسل إليهم الرسول ، و لذلك أمر تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتّبعه .

ثمّ الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلّين لاهدى فيهما حتّى يكون غيرهما من الكتاب الّذي يأتون به أهدى منهما-لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضّل و المفضّل عليه في أصل الوصف - لكنّ المقام لمّا كان مقام المحاجّة ادّعى أنّ الكتابين هاديان لامزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليأت بكتاب يزيد عليهما في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما .

و القرآن الكريم و إن كان يصرّح بتسرّب التحريف والخلل في التوراة الحاضرة و ذلك لا يلائم عدّها كتاب هدى بقول مطلق لكنّ الكلام في التوراة الواقعيّة النازلة على موسى عليه السلام وهي الّتي يصدّقها القرآن .

على أنّ موضوع الكلام هما معا و القرآن يقوّم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معاً هدى لا كتاب أهدى منهما .

و قوله : « إن كنتم صادقين » أي في دعوى أنّهما سحران تظاهرا .

قوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم » إلى آخر الآية . الاستجابة والإجابة بمعنى واحد قال في الكشّاف : هذا الفعل يتعدّى إلى الدعاء بنفسه و إلى الداعي باللّام ، و يحذف الدعاء إذا عدّي إلى الداعي في الغالب فيقال : استجاب الله دعاءه أو استجاب له ، و لا يكاد يقال : استجاب له دعاءه انتهى .

فقوله : « فإن لم يستجيبوا لك » تفريع على قوله : « قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما أتّبعه » أي فإن قلت لهم كذا و كلّفتهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن

و التوراة و تعيّن أن لاهدى أتمّ و أكمل من هداهما و هم مع ذلك يرمونهما بالسحر و يعرضون عنهما فاعلم أنّهم ليسوا في طلب الحقّ و لا بصدد اتّباع ما هو صريح حجّة العقل و إنّما يتّبعون أهواءهم و يدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل : « سحران تظاهرا » « إنّا بكلّ كافرون » .

و يمكن أن يكون المراد بقوله : « إنّما يتّبعون أهواءهم » أنّهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و هم غير مؤمنين بهما فاعلم أنّهم إنّما يبنون سنّة الحياة على اتّباع الأهواء و لا يعتقدون بأصل النبوّة و أنّ لله دينا سماويّا نازلا عليهم من طريق الوحي و عليهم أن يتّبعوه و يسلكوا مسلك الحياة بهدى ربّهم ، و ربّما أيّد هذا المعنى قوله بعد : « و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله » الخ .

و قوله : « و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله » استفهام إنكاريّ و المراد به استنتاج أنّهم ضالّون ، و قوله : « إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليل لكونهم ضالّين باتّباع الهوى فإنّ اتّباع الهوى إعراض عن الحقّ و انحراف عن صراط الرشد و ذلك ظلم و الله لا يهدي القوم الظالمين و غير المهتدي هو الضالّ .

و محصّل الحجّة أنّهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و ليسوا بمؤمنين بهما فهم متّبعون للهوى ، و متّبع الهوى ظالم والظالم غير مهتد و غير المهتدي ضالّ فهم ضالّون .

قوله تعالى : « و لقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكّرون » التوصيل تفعيل من الوصل يفيد التكثير كالقطع و التقطيع و القتل والتقتيل ، و الضمير لمشركي مكّة ، و المعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولاً بعضه ببعض: الآية بعد الآية ، و السورة إثر السورة من وعد ووعيد و معارف و أحكام و قصص وعبر و حكم ومواعظ لعلّهم يتذكّرون .

قوله تعالى : « الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » الضميران للقرآن و قيل : للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم . والأوّل أوفق للسياق ، و في الآية و ما بعدها مدح طائفة من مؤمني أهل الكتاب بعد ما تقدّم في الآيات السابقة من ذمّ المشركين من أهل مكّة .

و سياق ذيل الآيات يشهد على أنّ هؤلاء الممدوحين طائفة خاصّة من أهل الكتاب

آمنوا به فلا يعبؤ بما قيل إنّ المراد بهم مطلق المؤمنين منهم .

قوله تعالى : « و إذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا » الخ ضمائر الإفراد للقرآن ، و اللاّم في « الحقّ » للعهد و المعنى و إذا يقرء القرآن عليهم قالوا : آمنّا به إنّه الحقّ الّذي نعهده من ربّنا فإنّه عرّفناه من قبل .

و قوله : « إنّا كنّا من قبله مسلمين » تعليل لكونه حقّاً معهوداً عندهم أي إنّا كنّا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الّذي يدعو إليه و يسمّيه إسلاما .

و قيل : الضميران للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و ما تقدّم أوفق للسياق ، و كيف كان فهم يعنون بذلك ما قرؤه في كتبهم من أوصاف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و الكتاب النازل عليه كما يشير إليه قوله تعالى : « الّذين يتّبعون الرسول النبيّ الاُمّي الّذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل » الأعراف : ١٦٧ ، و قوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » الشعراء : ١٩٧ .

قوله تعالى : « اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيّئة » الخ في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا ومدح لهم على حسن سلوكهم ومداراتهم مع جهلة المشركين و لذا كان الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرّتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم و أجر الإيمان بالقرآن وصبرهم على الإيمان بعد الإيمان بما فيهما من كلفة مخالفة الهوى .

و قيل : المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم وعلى أذى الكفّار و تحمّل المشاقّ و قد عرفت ما يؤيّده السياق .

و قوله « و يدرؤن بالحسنة السيّئة » الخ الدرء الدفع ، والمراد بالحسنة والسيّئة قيل : الكلام الحسن والكلام القبيح ، وقيل : العمل الحسن و السيّيء وهما المعروف و المنكر ، و قيل : الخلق الحسن و السيّيء وهما الحلم والجهل ، وسياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنّهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراة ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه و قالوا لنا أعمالنا و لكم أعمالكم »

الخ المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلّقه بالسمع و المراد سقط القول الّذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سبّ و كلّ ما فيه خشونة ، و لذا لمّا سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا : لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و هو متاركة و قوله : « سلام عليكم » أي أمان منّا لكم ، وهو أيضاً متاركة و توديع تكرّماً كما قال تعالى : « و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

و قوله : « لا نبتغي الجاهلين » أي لا نطلبهم بمعاشرة ومجالسة ، و فيه تأكيد لما تقدّمه ، و هو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفّظوا به لكان من مقابلة السيّىء بالسيّىء .

قوله تعالى : « إنّك لا تهدي من أحببت و لكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب و مرجعه إلى إفاضة الإيمان على القلب و معلوم أنّه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد ، و ليس المراد بها إراءة الطريق فإنّه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه ، والمراد بالاهتداء قبول الهداية .

لمّا بيّن في الآيات السابقة حرمان المشركين و هم قوم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من نعمة الهداية و ضلالهم باتّباع الهوى و استكبارهم عن الحقّ النازل عليهم و إيمان أهل الكتاب به و اعترافهم بالحقّ ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأنّ أمر الهداية إلى الله لا إليك يهدي هؤلاء و هم من غير قومك الّذين تدعوهم ولا يهدي هؤلاء وهم قومك الّذين تحبّ اهتداءهم و هو أعلم بالمهتدين .

﴿بحث روائي﴾

في الدرّ المنثور أخرج البزّار و ابن المنذر والحاكم وصحّحه و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما أهلك الله قوما و لا قرنا و لا اُمّة و لا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية الّتي مسخت قردة . ألم تر إلى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاُولى » ؟

أقول : و في دلالة الآية على الإهلاك بخصوص العذاب السماويّ ثمّ انقطاعه

بنزول التوراة خفاء .

و فيه في قوله تعالى : «و ماكنت بجانب الطور إذ نادينا» الآية أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : لمّا قرّب الله موسى إلى طور سيناء نجيّاً قال : أي ربّ هل أحد أكرم عليك منّي ؟ قرّبتني نجيّاً و كلّمتني تكليما . قال : نعم محمّد أكرم عليّ منك . قال : فإن كان محمّد أكرم عليك منّي فهل اُمّة محمّد أكرم من بني إسرائيل ؟ فلقت لهم البحر و أنجيتهم من فرعون وعمله و أطعمتهم المنّ و السلوى . قال : نعم اُمّة محمّد أكرم عليّ من بني إسرائيل . قال : إلهي أرنيهم . قال : إنّك لن تراهم و إن شئت أسمعتك صوتهم قال : نعم إلهي .

فنادى ربّنا اُمّة محمّد أجيبوا ربّكم فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام اُمّهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبّيك أنت ربّنا حقّاً ونحن عبيدك حقّاً . قال : صدقتم و أنا ربّكم و أنتم عبيدي حقّاً قد غفرت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله دخل الجنّة .

قال ابن عبّاس : فلمّا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يمنّ عليه بما أعطاه و بما أعطى اُمّته فقال : يا محمّد « وماكنت بجانب الطور إذ نادينا » .

أقول : و رواه فيه أيضا بطرق اُخرى عن غيره ، و روى هذا المعنى أيضا الصدوق في العيون عن الرضا عليه السلام لكنّ حمل الآية على هذا المعنى يوجب اختلال السياق وفساد ارتباط الجمل المتقدّمة والمتأخّرة بعضها ببعض .

و في البصائر بإسناده عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « و من أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله » يعني من اتّخذ دينه هواه بغير هدى من أئمّة الهدى .

أقول : و روى مثله بإسناده عن المعلّى عن أبي عبدالله عليه السلام و هو من الجري أو من البطن .

و في المجمع في قوله تعالى : « الّذين آتيناهم الكتاب » الآيات : نزل قوله : « الّذين آتيناهم الكتاب» وما بعده في عبدالله بن سلام و تميم الداريّ والجارود العبديّ

و سلمان الفارسيّ فإنّهم لمّا أسلموا نزلت فيهم الآيات . عن قتادة .

و قيل : نزلت في أربعين رجلامن أهل الإنجيل كانوامسلمين بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه إثنان و ثلاثون من الحبشة أقبلوامع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه و ثمانية قدموا من الشام منهم بحيرا و أبرهة و الأشرف و أيمن وإدريس و نافع و تميم .

أقول : و روي غير ذلك .

و فيه في معنى قوله تعالى : « و يدرؤن بالحسنة السيّئة » و قيل : يدفعون بالحلم جهل الجاهل . عن يحيى بن سلام ، ومعناه يدفعون بالمداراة مع الناس أذاهم عن أنفسهم و روي مثل ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد و مسلم والترمذيّ و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقيّ في الدلائل عن أبي هريرة قال : لمّا حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : ياعمّاه قل: لاإله إلّاالله أشهد لك بها عندالله يوم القيامة فقال : لولاأن يعير ني قريش يقولون ماحمله عليها إلّا جزعه من الموت لأقررت بها عليك فأنزل الله عليه « إنّك لاتهدي من أحببت و لكنّ الله يهدي من يشاء و هوأعلم بالمهتدين » .

أقول : و روى ما في معناه عن ابن عمر وابن المسيّب وغيرهما ، و روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام مستفيضة على إيمانه و المنقول من أشعاره مشحون بالإقرار على صدق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و حقيّة دينه ، و هو الّذي آوى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم صغيراً وحماه بعد البعثة و قبل الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين و الأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة .



☆☆☆

وَ قالُوا اِنْ نَتَّبِعِ الْهُدٰى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ اَرْضِنا اَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبٰى اِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنّا وَ لٰكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ كَمْ اَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ اِلّا قَليلاً وَ كُنّا نَحْنُ الْوارِثينَ (٥٨) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرٰى حَتّٰى يَبْعَثَ فى اُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنّا مُهْلِكِى الْقُرٰى اِلّا وَ اَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَ ما اُوتيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَ زينَتُها وَ ما عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ اَبْقٰى اَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) اَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرينَ (٦١) وَ يَوْمَ يُناديهِمْ فَيَقُولُ اَيْنَ شُرَكائِىَ الَّذينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قالَ الَّذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هٰؤُلاءِ الَّذينَ اَغْوَيْنا اَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّاْنا اِلَيْكَ ما كانُوا اِيّانا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَ قيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجيبُوا لَهُمْ وَ رَاَوُا الْعَذابَ لَوْ اَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يُناديهِمْ فَيَقُولُ ماذا اَجَبْتُمُ الْمُرْسَلينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْاَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (٦٦) فَاَمّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسٰى اَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ

الْخِيَرَةُ سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مٰا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللّٰهُ لاٰ اِلٰهَ اِلاّٰ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْاُولىٰ وَ الْاٰخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً اِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ مَنْ اِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَاْتِيكُمْ بِضِيٰاءٍ اَفَلاٰ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ النَّهٰارَ سَرْمَداً اِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ مَنْ اِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَاْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ اَفَلاٰ تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ اَيْنَ شُرَكٰاءِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنٰا مِنْ كُلِّ اُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنٰا هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ فَعَلِمُوا اَنَّ الْحَقَّ لِلّٰهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥).

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات عذراً آخر ممّا اعتذر به مشركوا مكّة عن الإيمان بكتاب الله بعد ما ذكرت عذرهم السابق : « لولا اُوتي مثل ما اُوتي موسى » وردّته و هو قولهم : إن آمنّا بما جاء به كتابك من الهدى وهو دين التوحيد تخطّفنا مشركوا العرب من أرضنا بالقتل و السبي و النهب و سلب الأمن و السلام .

فردّه تعالى بأنّا جعلنا لهم حرماً آمنا يحترمه العرب و يجبى إليه ثمرات كلّ شيء فلا موجب لخوفهم من تخطّفهم .

على أنّ تنعّمهم بالأموال والأولاد و بطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتّى يرجّحوه على اتّباع الهدى فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله واستأصلها

و ورثها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعد هم إلّا قليلاً .

على أنّ الّذي يؤثرونه على اتّباع الهدى إنّما هو متاع الحياة الدنيا العاجلة ولا يختاره عاقل على الحياة الآخرة الخالدة الّتي عند الله سبحانه .

على أنّ الخلق و الأمر لله فإذا اختار شيأ و أمر به فليس لأحد أن يخالفه إلى ما يشتهيه لنفسه فيختار مايميل إليه طبعه ثمّ استشهد تعالى بقصّة قارون و خسفه به و بداره الأرض .

قوله تعالى : « و قالوا إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » إلى آخر الآية . التخطّف الاختلاس بسرعة ، و قيل الخطف والتخطّف الاستلاب من كلّ وجه ، و كأنّ تخطّفهم من أرضهم استعارة اُريد به القتل و السبي و نهب الأموال كأنّهم وما يتعلّق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم ، و المراد بالأرض أرض مكّة و الحرم بدليل قوله بعد : « أولم نمكّن لهم حرما آمنا » و القائل بعض مشركي مكّة .

و الجملة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنّهم إن آمنوا تخطّفتهم العرب من أرضهم أرض مكّة لأنّهم مشركون لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقّيّة أصل الدعوة وأنّ الكتاب بما يشمل عليه حقّ لكنّ خطر التخطّف مانع من قبوله و الإيمان به ، و لهذا عبّر بقوله : « إن نتّبع الهدى معك » و لم يقل : إن نتّبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك .

و قوله : « أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً » قيل : التمكين مضمّن معنى الجعل و المعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمنا ممكّنين إيّاهم ، و قيل : حرما منصوب على الظرفيّة و المعنى أو لم نمكّن لهم في حرم ، و «آمناً» صفة «حرما» أي حرماً ذا أمن ، وعدّ الحرم ذا أمن ـ و المتلبّس بالأمن أهله ـ من المجاز في النسبة ، و الجملة معطوفة على محذوف و التقدير أو لم نعصمهم و نجعل لهم حرما آمنا ممكّنين إيّاهم .

و هذا جواب أوّل منه تعالى لقولهم : « إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » و محصّله أنّا مكّنّاهم في أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم يتخطّفوا منها إن آمنوا .

و قوله : « يجبى إليه ثمرات كلّ شيء » الجباية الجمع ، و الكلّ للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعا ، و المعنى يجمع إلى الحرم ثمرات كثير من الأشياء ، و الجملة صفة لحرماً جيىء بها لما عسى أن يتوهّم أنّهم يتضرّرون إن آمنوا بانقطاع الميرة .

و قوله : « رزقا من لدنّا » مفعول مطلق أوحال من ثمرات ، و قوله : « ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » استدراك عن جميع ما تقدّم أي إنّا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كلّ الثمرات لكنّ أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أنّ الّذي يحفظهم من تخطّف العرب هو شركهم و عبادتهم الأصنام .

قوله تعالى : « و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » إلى آخر الآية البطر الطغيان عند النعمة ، و«معيشتها» منصوب بنزع الخافض أي و كم أهلكنا من قرية طغت في معيشتها .

و قوله : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلا » أي إنّ مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر و لم تسكن بعد هلاكهم إلّا قليلا منها .

و بذلك يظهر أنّ الأنسب كون « إلّا قليلا » استثناء من « مساكنهم » لا من قوله « من بعدهم » بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلّا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلّا المارّة يوما أو بعض يوم في الأسفار .

و قوله : «و كنّا نحن الوارثين» حيث ملكوها ثمّ تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم ، و في الجملة أعني قوله : « كنّا نحن الوارثين » عناية لطيفة فإنّه تعالى هو المالك لكلّ شيء ملكا حقيقيّا مطلقا فهو المالك لمساكنهم و قد ملّكها إيّاهم بتسليطهم عليها ثمّ نزعها من أيديهم بإهلاكهم وبقيت بعدهم لا مالك لها إلّا هو فسمّى نفسه وارثا لهم بعناية أنّه الباقي بعدهم و هو المالك لما كان بأيديهم كأنّ ملكهم الاعتباريّ انتقل إليه و لا انتقال هناك بالحقيقة و إنّما ظهر ملكه الحقيقيّ بزوال ملكهم الاعتباريّ .

و الآية جواب ثان منه تعالى لقولهم : « إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » و محصّله أنّ مجرّد عدم تخطّف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء و لا يحفظ لكم أرضكم و التنعّم فيها كما تشاؤن فكم من قرية بالغة في التنعّم ذات أشر و بطر أهلكنا أهلها و بقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلّا الله .

قوله تعالى : « و ما كان ربّك مهلك القرى حتّى يبعث في اُمّها رسولا » اُمّ القرى هي أصلها و كبيرتها الّتي ترجع إليها و في الآية بيان السنّة الإلهيّة في عذاب القرى بالاستئصال و هو أنّ عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلّا بعد إتمام الحجّة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله ، وإلّا بعد كون المعذّبين ظالمين بالكفر بآيات الله و تكذيب رسوله .

و في تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنّته تعالى في إهلاك القرى تخويف لأهل مكّة المشركين بالإيماء إلى أنّهم لو أصرّوا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأنّ الله قد بعث في اُمّ قراهم و هي مكّة رسولا يتلو عليهم آياته وهم مع ذلك ظالمون بتكذيب رسولهم .

و بذلك يظهر النكتة في الالتفات من التكلّم بالغير إلى الغيبة في قوله : « وما كان ربّك مهلك القرى » فإنّ في الإيماء إلى حصول شرائط العذاب فيهم لو كذّبوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم تقوية لنفسه وتأكيداً لحجّته ، وأمّا العدول بعده إلى سياق التكلّم بالغير في قوله : « وما كنّا مهلكي القرى » فهو رجوع إلى السياق السابق بعد قضاء الوطر .

قوله تعالى : « وما اُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدّنيا » الخ الإيتاء : الإعطاء و « من شيء » بيان لما لافادة العموم أي كلّ شيء اُوتيتموه ، و المتاع ما يتمتّع به و الزينة ما ينضمّ إلى الشيء ليفيده جمالا و حسنا ، و الحياة الدنيا الحياة المؤجّلة المقطوعة الّتي هي أقرب الحياتين منّا و تقابلها الحياة الآخرة الّتي هي خالدة مؤبّدة ، والمراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة الّتي عند الله و جواره و لذا عدّ خيرا و أبقى .

و المعنى أنّ جميع النعم الدنيويّة الّتي أعطاكم الله إيّاها متاع و زينة زيّنت بها هذه الحياة الدنيا الّتي هي أقرب الحياتين منكم و هي بائدة فانية و ما عند الله من ثوابه

في الدار الآخرة المترتّب على اتّباع الهدى و الإيمان بآيات الله خير و أبقى فينبغي أن تؤثروه على متاع الدنيا و زينتها أفلا تعقلون .

و الآية جواب ثالث عن قولهم : « إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » محصّله لنسلّم أنّكم إن اتّبعتم الهدى تخطّفتكم العرب من أرضكم لكنّ الّذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا و زينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتّباع الهدى و سعادة الحياة الآخرة وهي خير و أبقى .

قوله تعالى : « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثمّ هو يوم القيامة من المحضرين » الآية إلى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة ـ و هو أنّ إيثار اتّباع الهدى أولى من تركه و التمتّع بمتاع الحياة الدنيا ـ ببيان آخر فيه مقايسة حال من اتّبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الّذي وعده الله ، من حال من لم يتّبعه و اقتصر على التمتّع من متاع الحياة الدنيا وسيستقبله يوم القيامة من الإحضار و تبرّي آلهته منه و عدم استجابتهم لدعوته ومشاهدة العذاب و السؤال عن إجابتهم الرسل .

فقوله : «أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه» الاستفهام إنكاريّ ، و الوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة و الجنّة كما قال تعالى : « وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر عظيم » المائدة : ٩ و لا يكذب وعده تعالى قال : « ألا إنّ وعد الله حقّ » يونس : ٥٥ .

و قوله : « كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا » أي و هو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتّع بمتاعها ، و الدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد و التمتيع .

و قوله : « ثمّ هو يوم القيامة من المحضرين » أي للعذاب ، أو للسؤال والمؤاخذة و «ثمّ» للترتيب الكلاميّ وإتيان الجملة اسميّة كما فيما يقابلها من قوله : « فهو لاقيه» للدلالة على التحقّق .

قوله تعالى : « و يوم يناديهم فيقول أين شركائي الّذين كنتم تزعمون » الشركاء

هم الّذين كانوا يعبدونهم في الدنيا و كونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون إليهم بعض ما هو من شؤونه تعالى كالعبادة و التدبير ، و في قوله : « يناديهم » إشارة إلى بعدهم و خذلانهم يومئذ .

قوله تعالى : « قال الّذين حقّ عليهم القول ربّنا هؤلاء الّذين أغوينا أغويناهم كما غوينا » آلهتهم الّذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد الله مكرمون كالملائكة المقرّبين و عيسى بن مريم عليه السلام ، و صنف منهم كعتاة الجنّ و مدّعي الاُلوهيّة من الإنس كفرعون و نمرود و غيرهما و قد ألحق الله سبحانه بهم كلّ مطاع في باطل كإبليس و قرناء الشياطين و أئمّة الضلال كما قال : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ـ إلى أن قال ـ و قد أضلّ منكم جبلا كثيرا » يس : ٦٢ ، و قال : «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه» الجاثية :٢٣ ، وقال : « اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » التوبة : ٣١ .

و الّذين يشير إليهم قوله : «قال الّذين حقّ عليهم القول » هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم و تبرّيهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممّن حقّ عليهم القول كما يشير إليه قوله : « حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنّة و الناس أجمعين » الم السجدة : ١٤ ، ولكنّ المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبوعون منهم الّذين ينتهي إليهم الشرك و الضلال .

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أنّ المسؤلين أشاروا إليهم لعلّه للإشارة إلى أنّهم ضلّوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى : « و يوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك ما منّا من شهيد وضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل » حم السجدة : ٤٨ .

و قوله : «ربّنا هؤلاء الّذين أغوينا » أي هؤلاء ـ يشيرون إلى المشركين ـ هم الّذين أغويناهم و الجملة توطئة للجملة التالية .

و قوله : « أغويناهم كما غوينا» أي كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنّا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير إلجاء ، والدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن إبليس يومئذ إذ قال : « و ما كان لي عليكم من سلطان

إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني و لوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ و قال حاكيا لتساؤل الظالمين و قرنائهم : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين و ماكان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحقّ علينا قول ربّنا إنّا لذائقون فأغويناكم إنّا كنّا غاوين » الصافات : ٣٢ أي ما كان ليصل إليكم منّا و نحن غاون غير الغواية .

و من هنا يظهر أنّ لقولهم : « أغويناهم كما غوينا » معنى آخر ، و هو أنّهم اكتسبوا منّا نظير الوصف الّذي كان فينا غير أنّا نتبرّء منهم حيث لم نلجئهم إلى الغواية ما كانوا يعبدوننا بالإلجاء .

و قوله : « تبرّأنا إليك » تبرّ منهم مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجؤهم و يسلبوا منهم الاختيار ، و قوله : « ما كانوا إيّانا يعبدون » أي بالإلجاء منّا ، أو لتبرّينا من أعمالهم فإنّ من تبرّء من عمل لم ينتسب إليه وإلى هذا المعنى يؤل قوله تعالى في مواضع من كلامه في وصف هذا الموقف : « و ضلّ عنهم ما كانوا يفترون » الأنعام : ٢٤ « وضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل » حم السجدة : ٤٨ « و يوم نحشرهم جميعا ثمّ نقول للّذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون» يونس : ٢٨ إلى غير ذلك من الآيات فافهم .

و قيل : المعنى تبرّأنا إليك من أعمالهم ما كانوا إيّانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءهم أو كانوا يعبدون الشياطين . ولا يخلو من سخافة .

ولكون كلّ من قوليه : « تبرّأنا إليك» «ما كانوا إيّانا يعبدون» في معنى قوله : «أغويناهم كما غوينا» جيء بالفصل من غير عطف .

قوله تعالى : « و قيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم و رأوا العذاب لو أنّهم كانوا يهتدون » المراد بشركائهم الآلهة الّتي كانوا شركاء الله بزعمهم و لذا أضافهم إليهم . و المراد بدعوتهم دعوتهم إيّاهم لينصروهم و يدفعوا عنهم العذاب و لذا قال : «ورأوا العذاب» بعد قوله : « فلم يستجيبوا لهم » .

وقوله : « لو أنّهم كانوا يهتدون » قيل : جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه

والتقدير لو أنّهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أنّ العذاب حقّ ، ويمكن أن يكون لو للتمنّي أي ليتهم كانوا يهتدون .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » معطوف على قوله السابق : «ويوم يناديهم» الخ سئلوا أوّلا عن شركائهم و اُمروا أن يستنصروهم ، وثانياً عن جوابهم للمرسلين إليهم من عندالله .

والمعنى ماذا قلتم في جواب من اُرسل إليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ؟ .

قوله تعالى : فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لايتساءلون» العمى استعارة عن جعل الإنسان بحيث لايهتدي إلى خبر ، وكان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى إليهم لا إلى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل : « فعميت عليهم الأنباء » للدلالة على أخذهم من كلّ جانب وسدّ جميع الطرق وتقطّع الأسباب بهم كما قال : « وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لاتهتدي إليهم الأخبار و لايجدون شيأ يعتذرون به للتخلّص عن العذاب .

وقوله : «فهم لايتساءلون » تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرّع بعض أفراد العامّ عليه أي لايسأل بعضهم بعضا ليعدّوا به عذراً يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل وردّهم الدعوة .

وقد فسّر صدر الآية و ذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لاجدوى في التعرّض لها فرأينا الصفح عنها أولى .

قوله تعالى : « فأمّا من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين » أي هذه حال من كفر ولم يرجع إلى الله سبحانه فأمّا من رجع وآمن وعمل صالحاً فمن المرجوّ أن يكون من المفلحين ، وعسى ـ كما قيل ـ للتحقيق على عادة الكرام أو للترجّي من قبل التائب والمعنى فليتوقّع الفلاح .

قوله تعالى : «وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عمّا يشركون » الخيرة بمعنى التخيّر كالطيرة بمعنى التطيّر .

والآية جواب رابع عن قولهم : « إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » والّذي يتضمّنه حجّة قاطعة .

بيان ذلك أنّ الخلق وهو الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى كما قال : «الله خالق كلّ شيء » الزمر : ۶٢ فلامؤثّر في الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شيء هناك يلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإنّ هذا الشيء المفروض إمّا مخلوق له منته في وجوده إليه فوجوده وآثار وجوده ينتهي إليه تعالى ولا معنى لتأثير الشيء ولا لتأثير أثره في نفسه وإمّا غير مخلوق له ولا منته في وجوده إليه يؤثّر فيه بالإلجاء والقهر ولامؤثّر في الوجود غيره ولا أنّ هناك شيئاً لا ينتهي في وجوده إليه تعالى فلا يعطيه شيء أثرا ولا يمنعه شيء من أثر كما قال : « والله يحكم لا معقّب لحكمه» الرعد : ۴١ ، وقال : « والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ .

وإذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين والتشريع يتبعه فإنّ حقيقة التشريع هي أنّه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلّا بإتيان اُمور هي الواجبات وما في حكمها وترك اُمور هي المحرّمات وما في حكمها فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الّذي أمر به وندب إليه و ما يتضرّر به هو الّذي نهى عنه وحذّر منه .

فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء كما أنّ له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء ، وهذا معنى قوله : « وربّك يخلق ما يشاء ويختار » وقد اُطلق إطلاقا .

والظاهر أنّ قوله : « يخلق ما يشاء » إشارة إلى إختياره التكويني فإنّ معنى إطلاقه أنّه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه شيء عمّا يشاؤه وبعبارة اُخرى لا يمتنع عن مشيّته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه ، وقوله : «ويختار» إشارة إلى اختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله : « يخلق ما يشاء » من عطف المسبّب على سببه لكون التشريع و الاعتبار متفرّعا على التكوين والحقيقة .

ويمكن حمل قوله : « يخلق ما يشاء » على الاختيار التكويني وقوله : « ويختار »

على الأعمّ من الحقيقة والاعتبار لكنّ الوجه السابق أوجه ، ومن الدليل عليه كون المنفيّ في قوله الآتي : «ماكان لهم الخيرة» هو الاختيار التشريعيّ الاعتباريّ ، والاختيار المثبت في قوله « ويختار » يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباريّ .

ثمّ لاريب في أنّ الإنسان له اختيار تكوينيّ بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم والارادة وإن لم يكن اختيارا مطلقا فإنّ للأسباب والعلل الخارجيّة دخلا في أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلا متوقّف على تحقّق مادّة الطعام خارجا وقابليّته وملائمته وقربه منه ومساعدة أدوات الأخذ و القبض والالتقام والمضغ والبلع وغير ذلك ممّا لايحصى . فصدور الفعل الاختياريّ عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجيّة الدخيلة في تحقّق فعله ، والله سبحانه في رأس تلك الأسباب جميعا وإليه ينتهي الكلّ وهو الّذي خلق الإنسان منعوتا بنعت الاختيار وأعطاه خيرته كما أعطاه خلقه .

ثمّ إنّ الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختيارا تشريعيّا اعتباريّا فيما يشاؤه من فعل أو ترك بحذاء اختياره التكوينيّ فله أن يفعل مايشاء ويترك مايشاء من غير أن يكون لأحد من بني نوعه أن يحمله على شيء أو يمنعه عن شيء لكونهم أمثالا له لايزيدون عليه بشيء في معنى الإنسانيّة ولا يملكون منه شيئاً ، وهذا هو المراد بكون الإنسان حرّا بالطبع .

فالإنسان مختار في نفسه حرّ بالطبع إلّا أن يملّك غيره من نفسه شيأ فيسلب بنفسه عن نفسه الحرّيّة كما أنّ الإنسان الاجتماعيّ يسلب عن نفسه الحرّية بالنسبة إلى موارد السنن والقوانين الجارية في مجتمعه بدخوله في المجتمع وإمضائه مايجري فيه من سنن وقوانين سواء كانت دينيّة أو اجتماعيّة ، وكما أنّ المتقاتلين يملّك كلّ منهما الآخر من نفسه مايغلب عليه فللغالب منهما أن يفعل بأسيره ما يشاء ، وكما أنّ الأجير إذا ابتاع عمله وآجر نفسه فليس بحرّ في عمله إذ المملوكيّة لاتجامع الحرّيّة .

فالإنسان بالنسبة إلى سائر بني نوعه حرّ في عمله مختار في فعله إلّا أن يسلب باختيار منه شيأ من اختياره فيملّك غيره ، والله سبحانه يملك الإنسان في نفسه وفي فعله الصادر

منه ملكا مطلقا بالملك التكويني و بالملك الوضعي الاعتباري فلا خيرة له ولا حرية بالنسبة إلى ما يريده منه تشريعا بأمر أونهي تشريعيين كما لاخيرة ولا حرية له بالنسبة إلى مايشاؤه بمشيته التكوينية .

وهذا هو المراد بقوله : « ماكان لهم الخيرة » أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم مايشاؤن وإن خالف مااختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب ٣٦ وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى المطولات .

و قوله : « سبحان الله وتعالى عما يشركون » أي عن شركهم باختيارهم أصناما آلهة يعبدونها من دون الله .

وههنا معنى آخر أدق أي تنزه وتعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيرة بالنسبة إلى مايختاره تعالى بقبوله أورده فان الخيرة بهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال في الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الأُلوهية .

وفي قوله : « وربك يخلق » التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة والنكتة فيه تأييد النبي صلى الله عليه وآله وتقويته وتطييب نفسه بإضافة صفة الرب إليه فإن معناه إن ماأرسله به من الحكم ماض غير مردود فلاخيرة لهم في قبوله ورده ، ولأنهم لا يقبلون ربوبيته.

وفي قوله : « سبحان الله » وضع الظاهر موضع المضمر والنكتة فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدء للتنزه والتعالي عن كل مالا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه .

قوله تعالى : « وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون » الإكنان الإخفاء والإعلان الإظهار ، ولكون الصدر يعد مخزنا للأسرار نسب الإكنان إلى الصدور والإعلان إليهم أنفسهم .

ولعل تعقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة إلى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما في ظاهرهم وباطنهم من أوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته .

قوله تعالى : «وهو الله لاإله إلاّ هوله الحمد فيالاُولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون» ظاهر السياق أنّ الضمير فيصدر الآية راجع إلى «ربّك» في الآية السابقة ، والظاهر على هذا أنّ اللاّم في اسم الجلالة للتلميح إلى معنى الوصف وقوله «لاإله إلّا هو» تاكيد للحصر المستفاد من قوله : «هوالله» كأنّه قيل : وهو الإله ـ المتّصف وحده بالاُلوهيّة ـ لاإله إلّا هو .

وعلى ذلك فالآية كالمتمّم لبيان الآية السابقة كأنّه قيل : هو سبحانه مختارله أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده ، وهو يعلم ظاهرهم وباطنهم فله أن يقضي عليهم أن يعبدوه وحده وهو الاله المستحقّ للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده .

ويكون مافي ذيل الآية من قوله : «له الحمد» الخ وجوها ثلاثة توجّه كونه تعالى معبودا مستحقّا للعبادة وحده :

أمّا قوله : «له الحمد فيالاُولى والآخرة» فلأنّ كلّ كمال موجود فيالدنيا والآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحقّ بها جميل الثناء ، وكلّ جميل من هذه النعم الموهوبة مترشّحة من كمال ذاتيّ من صفاته الذاتيّة يستحقّ بها الثناء فله كلّ الثناء ولا يستقلّ شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلاّ وينتهي إليه والعبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحقّ للعبادة وحده .

و أمّا قوله : «وله الحكم» فلأنّه سبحانه هو المالك على الإطلاق لايملك غيره إلّا ماملّكه إيّاه وهو المالك لما ملّكه و هو سبحانه مالك في مرحلة التشريع والاعتبار كما أنّه مالك في مرحلة التكوين و الحقيقة ، ومن آثار ملكه أن يقضي على عبيده و مملوكيه أن لايعبدوا إلاّ إيّاه .

وأمّا قوله: «وإليه ترجعون» فلأنّ الرجوع للحساب والجزاء وإذ كان هوالمرجع فهو المحاسب المجازي وإذ كان هو المحاسب المجازي وحده فهو الّذي يجب أن يعبد وحده وله دين يجب أن يتعبّدبه وحده .

قوله تعالى : «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة» إلى آخر الآية السرمد على فعلل بمعنى الدائم ، وقيل : هو من السرد والميم زائدة

ومعناه المتتابع المطّرد ، وتقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة .

وقوله : « من إله غيرالله يأتيكم بضياء» أي من الإله الّذي ينقض حكمه تعالى ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش هذا مايشهد به السياق ، ويجري نظيره في قوله الآتي : « من إله يأتيكم بليل » الخ .

و بذلك يندفع ما استشكل على الآيتين من أنّه لوفرض تحقّق جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة لم يتصوّرمعه الإتيان بضياء أصلا لأنّ الّذي يأتي به إمّاهوالله تعالى وإمّا هو غيره أمّا غيره فعجزه عن ذلك ظاهر ، وأمّا الله تعالى فإتيانه به يستلزم اجتماع الليل والنهار وهو محال والمحال لايتعلّق به القدرة ولا الإرادة ، وكذا الكلام في جانب النهار .

و ربّما اُجيب عنه بأنّ المرادبقوله : «إن جعل الله عليكم » إن أرادالله أن يجعل عليكم . وهو كماترى .

وكان مقتضى الظاهرأن يقال : من إله غير الله يأتيكم بنهار ، على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكنّ العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل الإلزام في الحجّة بأهون مايفرض وأيسره ليظهر بطلان مدّعى الخصم أتمّ الظهوركأنّه قيل : لوكان غيره تعالى إله يدبّر أمرالعالم فإن جعل الله الليل سرمداً فليقدر أن يأتي بالنهار ، تنزّلنا عن ذلك فليقدر أن يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لاقدرة لشيء على ذلك إن القدرة كلّهالله سبحانه .

ولا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتّى يصحّ أن يقال مثلاً من إله غير الله يأتيكم بظلمة لأنّ الماتيّ به إن كان ظلمة مّالم تكف للسكن وإن كان ظلمة ممتدّة كانت هي الليل .

وتنكير « ضياء » يؤيّد ماذكر من الوجه ، وقد أوردوا وجوها اُخرى في ذلك لاتخلو من تعسّف .

و قوله : « أفلا تسمعون » أي سمع تفهّم وتفكّر حتّى تتفكّروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى .

قوله تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه » أي تستريحون فيه ممّا أصابكم من تعب السعي للمعاش .

وقوله : « أفلا تبصرون » أي إبصار تفهّم وتذكّر وإن لم يبصروا ولم يسمعوا فهم عمي صمّ ، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله : «أفلا تسمعون » « أفلا تبصرون » ولعلّ آية النهار خصّ بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه .

قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون » الآية بمنزلة نتيجة الحجّة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائيّ لثبوته من غير معارض .

وقوله : «لتسكنوا فيه» اللام للتعليل والضمير للّيل أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الّذي هو عطيّته فرجوع « لتسكنوا » و « لتبتغوا» إلى الليل والنهار بطريق اللفّ والنشر المرتّب وقوله : «ولعلّكم تشكرون » راجع إليهما جميعاً .

وقوله : « ومن رحمته جعل لكم» في معنى قولنا : جعل لكم وذلك رحمة منه وفيه إشارة إلى أنّ التكوين كالسكون والابتغاء و التشريع وهو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الّذين كنتم تزعمون » تقدّم تفسيره وقد كرّرت الآية لحاجة مضمون الآية التالية إليها .

قوله تعالى : «ونزعنا من كلّ اُمّة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم » إلى آخر الآية إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة ، والمراد بالشهيد شهيد الأعمال ـ كما تقدّمت الإشارة إليه مراراً ـ ولا ظهور للآية في كونه هو النبيّ المبعوث إلى الاُمّة نظراً إلى إفراد الشهيد وذكر الاُمّة إذ الاُمّة هي الجماعة من الناس ولا ظهور ولا نصوصيّة له في الجماعة الّذين اُرسل إليهم نبيّ وإن كانت من مصاديقها .

وقوله : « فقلناهاتوا برهانكم » أي طالبناهم بالحجّة القاطعة على ما زعموا أنّ لله شركاء .

وقوله : « فعلموا أنّ الحقّ لله وضلّ عنهم ماكانوا يفترون » أي غاب عنهم زعمهم الباطل أنّ لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أنّ الحقّ في الاُلوهيّة لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة . كذا فسّروه ففي الكلام تقديم وتأخير والأصل فضلّ عنهم ماكانوا يفترون فعلموا أنّ الحقّ لله .

وعلى هذا فقوله : «أنّ الحقّ لله» نظير مايقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حقّ يدّعيه كلّ لنفسه: إنّ الحقّ لفلان لالفلان كأنّه تعالى يخاصم المشركين حيث يدّعون أنّ الاُلوهيّة بمعنى المعبوديّة حقّ لشركائهم فيدّعي تعالى أنّها حقّه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضلّ عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أنّ هذا الحقّ لله فالاُلوهية حقّ ثابت لاريب فيه فإذا لم يكن حقّاً لغيره تعالى فهو حقّ له .

وهذا وجه بظاهره وجيه لابأس به لكن الحقيقة الّتي يعطيها كلامه تعالى أنّ من خاصّة يوم القيامة أنّ الحقّ يتمحّض فيه للظهور ظهورامشهودا لاسترعليه فيرتفع به كلّ باطل يلتبس به الأمر ويتشبّه بالحقّ ، ولازمه أن يظهر أمر الاُلوهيّة ظهورا لاستر عليه فيرتفع به افتراء الشركاء ارتفاعا مترتّبا عليه لاأن يفتقد الدليل على الشركاء فيستنتج منه توحّده تعالى بالاُلوهيّة على سبيل الاحتجاجات الفكريّة فافهم ذلك .

وبذلك يندفع أوّلا مايرد على الوجه السابق أنّ المستفاد من كلامه تعالى أنّهم لاحجّة عقليّة لهم على مدّعاهم ولا موجب على هذا لتأخّر علمهم أنّ الحقّ لله إلى يوم القيامة ، ويرتفع ثانيا حديث التقديم و التأخير المذكور الّذي لانكتة له ظاهراً إلّا رعاية السجع .

ومن الممكن أن يكون«الحقّ » فيقوله : « فعلموا أنّ الحقّ لله» مصدرا فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله : « ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين» النور: ٢٥، فكون الحقّ لله هو كونه تعالى حقّاً إن اُريد به الحقّ في ذاته أوكونه منتهيا إليه قائما به

إن اُريد به غيره كما قال تعالى: «الحقّ من ربّك » آل عمران : ٦٠ ولم يقل : الحقّ مع ربّك .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : «وقالوا إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا» الآية قال : نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام والهجرة وقالوا إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا فقال الله عزّ وجلّ : « أولم نمكّن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كلّ شيء رزقا من لدنّا ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » .

أقول : وروي هذا المعنى في كشف المحجّة وروضة الواعظين للمفيد ورواه في الدرّ المنثور عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس .

وفي الدرّ المنثور أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عبّاس أنّ الحارث بن عامر بن نوفل الّذي قال : « إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة» الآية قال : يختار الله عزّ وجلّ الإمام وليس لهم أن يختاروا .

أقول : وهو من الجري مبنيّاً على وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى كالنّبيّ ، وقدمر تفصيل الكلام فيه .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «ونزعنا من كلّ اُمّة شهيدا » يقول : من هذه الاُمّة إمامها .

أقول : وهو من الجري .

☆☆☆

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَيكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيوٰةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

﴿ بيان ﴾

قصّة قارون من بني إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعدما حكى قول المشركين : «إن نتّبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا » وأجاب عنه بما مرّ من الأجوبة ليعتبروا بها فقد كانت حاله تمثّل حالهم ثم أدّاه الكفر بالله إلى ما أدّى من سوء العاقبة فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابه ، فقد آتاه الله من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة اُولي القوّة فظنّ أنّه هو الّذي جمعه بعلمه وجودة فكره وحسن تدبيره فأمن العذاب الإلهيّ وآثر الحياة الدنيا على الآخرة وبغى الفساد في الأرض فخسف الله به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين .

قوله تعالى « إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة اُولي القوّة » قال في المجمع : البغي طلب العتوّ بغير حقّ . قال : والمفاتح جمع مفتح والمفاتيح جمع مفتاح ومعناهما واحد وهو عبارة عمّا يفتح به الأغلاق . قال : وناء بحمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه . انتهى وقال غيره : ناء به الحمل إذا أثقله حتّى أماله وهو الأوفق للآية .

وقال في المجمع أيضاً : العصبة الجماعة الملتفّ بعضها ببعض . وقال : واختلف في معنى العصبة فقيل : ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد ، وقيل : ما بين عشرة إلى أربعين عن قتادة ، وقيل : أربعون رجلاً عن أبي صالح[1] ، وقيل : ما بين الثلاثة إلى العشرة عن ابن عباس ، وقيل : إنّهم الجماعة يتعصّب بعضهم لبعض . انتهى و يزيّف غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف: «ونحن عصبة» يوسف : ٨ ، وهم تسعة نفر .

و المعنى إنّ قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتوّ عليهم بغير حقّ وأعطيناه

(١) وروى في الدر المنثور عن أبي صالح سبعين .

من الكنوزما إنّ مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوّة ، وذكر جمع من المفسّرين أنّ المراد بالمفاتح الخزائن ، وليس بذاك .

قوله تعالى : « إذ قال له قومه لاتفرح إنّ الله لايحبّ الفرحين » فسّر الفرح بالبطر و هو لازم الفرح و السرور المفرط بمتاع الدنيا فإنّه لايخلو من تعلّق شديد بالدنيا ينسي الآخرة ويورث البطر و الأشر ولذا قال تعالى : « ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحبّ كلّ مختال فخور » الحديد : ٢٣ .

ولذا أيضاً علّل النهي بقوله : « إنّ الله لايحبّ الفرحين » .

قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » إلى آخر الآية أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله و وضعه فيما فيه مرضاته تعالى .

وقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » أي لاتترك ماقسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسيّ واعمل فيه لآخرتك لأنّ حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الّذي يبقى له

وقيل : معناه لاتنس أنّ نصيبك من الدنيا ـ وقد أقبلت عليك ـ شيء قليل ممّا اُوتيت وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلاً والباقي فضل ستتركه لغيرك فخذ منها ما يكفيك وأحسن بالفضل وهذا وجه جيّد . وهناك وجوه اُخر غير ملائمة للسياق .

وقوله : «وأحسن كما أحسن الله إليك » أي أنفقه لغيرك إحسانا كما آتاكه الله إحسانا من غير أن تستحقّه وتستوجبه ، وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله : « ولاتنس نصيبك من الدنيا» على أوّل الوجهين السابقين ومتمّمة له على الوجه الثاني .

وقوله : « ولاتبغ الفساد في الأرض إنّ الله لايحبّ المفسدين» أي لاتطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة إنّ الله لايحبّ المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح والإصلاح .

قوله تعالى : «قال إنّما اُوتيته على علم عندي» إلى آخر الآية . لاشكّ أنّ قوله « إنّما اُوتيته على علم عندي » جواب عن جميع ماقاله المؤمنون من قومه ونصحوه به

وكان كلامهم مبنيّاً على أنّ ماله من الثروة إنّما آتاه الله إحسانا إليه وفضلاً منه من غير استيجاب واستحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة ويحسن به إلى الناس ولا يفسد في الأرض بالاستعلاء والاستكبار والبطر .

فأجاب بنفي كونه إنّما اُوتيه إحسانا من غير استحقاق ودعوى أنّه إنّما اُوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره وليس عند غيره ذلك ، وإذا كان ذلك باستحقاق فقد استقلّ بملكه وله أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء ويستدرّه في أنواع التنعّم وبسط السلطة والعلوّ والبلوغ إلى الآمال والأمانيّ .

وهذه المزعمة الّتي ابتلي بها قارون فأهلكته ـ أعني زعمه أنّ الّذي حصّل له الكنوز وساق إليه القوّة والجمع هو نبوغه العلميّ في اكتساب العزّة وقدرته النفسانيّة لاغير ـ مزعمة عامّة بين أبناء الدنيا لايرى الواحد منهم فيما ساقه إليه التقدير ووافقته الأسباب الظاهرة من عزّة عاجلة وقوّة مستعارة إلّا أنّ نفسه هي الفاعلة له وعلمه هو السائق له إليه وخبرته هي الماسكة له لأجله .

وإلى عموم هذه المزعمة وركون الإنسان إليها بالطبع يشير قوله تعالى : «وإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ثمّ إذا خوّلناه نعمة منّا قال إنّما اُوتيته على علم بل هي فتنة ولكنّ أكثرهم لايعلمون قد قالها الّذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون فأصابهم سيّآت ماكسبوا والّذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيّآت ماكسبوا وماهم بمعجزين أو لم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » الزمر : ٥٢ ، وقال : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة و آثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن » المؤمن : ٨٣ ، وعرض الآيات على قصّة قارون لايبقي شكّا في أنّ المراد بالعلم في كلامه ما قدّمناه .

وفي قوله : « إنّما اُوتيته » من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه كما في قول الناصحين له : « فيما آتاك الله» نوع إعراض عن ذكره تعالى و إزراء بساحة كبريائه .

وقوله : « أولم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعا » استفهام توبيخيّ وجواب عن قوله : « إنّما اُوتيته على علم عندي » بأيسر مايمكن أن يتنبّه به لفساد قوله فإنّه كان يرى أنّ الّذي اقتنى به المال وهو يبقيه له ويمتّعه منه هو علمه الّذي عنده وهو يعلم أنّه كان فيمن قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً ، وكان ماله من القوّة والجمع عن علم عنده على زعمه ، وقد أهلكه الله بجرمه ، فلو كان العلم الّذي يغترّ ويتبجّح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتّع منه ولم يكن بإيتاء الله فضلا وإحسانا لنجّاهم من الهلاك ومتّعهم من أموالهم و دافعوا بقوّتهم وانتصروا بجمعهم .

وقوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ظاهر السياق أنّ المراد به بيان السنّة الإلهيّة في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء إلى مالفّقوه من المعاذير أو هيّؤه من التذلّل والإنابة ليرجوا بذلك النجاة كما أنّ اُولي الطول والقوّة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكّمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثمّ العذاب ، وربّما صرف المجرم بما لفّقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكنّ الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لايسأل المجرمين عن ذنوبهم وإنّما يقضي عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود .

والظاهر على هذا أن تكون الجملة من تتمّة التوبيخ السابق ويكون جوابا عن إسناده ثروته إلى علمه ، ومحصّله أنّ المؤاخذة الإلهيّة ليست كمؤاخذة الناس حتّى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفّقه من الجواب حتّى ينتفع في ذلك بعلمه ، بل هو سبحانه عليم شهيد لايسأل المجرم عن ذنبه وإنّما يؤاخذه بذنبه ، وأيضاً يؤاخذه بغتة وهو لا يشعر .

هذا مايعطيه السياق في معنى الآية ولهم فيها أقاويل اُخرى :

فقيل : المراد بالعلم في قوله : « إنّما اُوتيته على علم عندي » علم التوراة فإنّه كان أعلم بني إسرائيل بها .

وقيل : المراد علم الكيميا وكان قد تعلّمه من موسى ويوشع بن نون و كالب بن

يوقنّا والمراد بكون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس وقد صنع به مقداراً كثيراً من الذهب .

و قيل : المراد بالعلم علم استخراج الكنوز و الدفائن وقد استخرج به كنوزا ودفائن كثيرة .

و قيل: المراد بالعلم علم الله تعالى والمعنى اُوتيته على علم من الله وتخصيص منه قصدني به ، ومعنى قوله : «عندي» هو كذلك في ظنّي ورأيي .

وقيل : العلم علم الله لكنّه بمعنى المعلوم و المعنى اُوتيته على خير علمه الله تعالى عندي ، و «على» على جميع هذه الأقوال للاستعلاء وجوّز أن تكون للتعليل .

و قيل : المراد بالسؤال في قوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » سؤال يوم القيامة والمنفيّ سؤال الاستعلام لأنّ الله أعلم بذنوبهم لاحاجة له إلى السؤال والملائكة يعلمونها من صحائف أعمالهم و يعرفونهم بسيماهم و أمّا قوله تعالى : « وقفوهم إنّهم مسؤلون » الصافات : ٢٤ فهو سؤال تقريع وتوبيخ لاسؤال استعلام ، ويمكن أن يكون السؤال في الآيتين بمعنى واحد والنفي والإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة فيسألون في موقف ولا يسألون في آخر فلاتناقض بين الآيتين .

وقيل : الضمير في قوله : « عن ذنوبهم » لمن هو أشدّ و المراد بالمجرمين غيرهم و المعنى لا يسأل عن ذنوب من أهلكه الله من أهل القرون السابقة غيرهم من المجرمين .

وهذه كلّها وجوه من التفسير لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته قال الّذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما اُوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم » الحظّ هو النصيب من السعادة و البخت » .

وقوله : « يريدون الحياة الدنيا» أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جهل من الآخرة وما أعدّ الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى: « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم: ٣٠ و لذلك عدّوا ما اُوتيه قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد وشرط .

قوله تعالى : « وقال الّذين أُوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » الخ الويل الهلاك ويستعمل للدّعاء بالهلاك وزجراً عمّا لا يرتضى ، وهو في المقام زجر عن التمنّي .

والقائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أُولئك الجهلة الّذين تمنّوا أن يؤتوا مثل ما أُوتي قارون وعدّوه سعادة عظيمة على الإطلاق ، ومرادهم أنّ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ممّا أُوتي قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنّوه .

وقوله : « وما يلقّاها إلّا الصابرون » التلقية التفهيم و التلقّي التفهّم و الأخذ والضمير ـ على ماقالوا ـ للكلمة المفهومة من السياق والمعنى وما يفهم هذه الكلمة ـ وهي قولهم : ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ـ إلّا الصابرون .

وقيل : الضمير للسيرة أو الطريقة ومعنى تلقّيها فهمها أو التوفيق للعمل بها .

و الصابرون هم المتلبّسون بالصبر عند الشدائد و على الطاعات وعن المعاصي ، و وجه كونهم هم المتلقّين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أنّ التصديق بكون ثواب الآخرة خيراً من الحظّ الدينوي ـ وهو لا ينفكّ عن الإيمان والعمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء والحرمان عن كثير من المشتهيات ـ لا يتحقّق إلّا ممّن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع وعصيان النفس الأمّارة .

قوله تعالى : « فخسفنا به وبداره الأرض » إلى آخر الآية الضميران لقارون والجملة متفرّعة على بغيه .

وقوله : « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » الفئة الجماعة يميل بعضهم إلى بعض ، وفي النصر والانتصار معنى المنع والامتناع ، ومحصّل المعنى فما كان له جماعة يمنعونه العذاب وما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظنّ أنّ الّذي يجلب إليه الخير و يدفع عنه الشرّ هو قوّته و جمعه اللّذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه ولم تفده قوّته من دون الله وبان أنّ الله سبحانه هو الّذي آتاه ما آتاه .

فالفاء في قوله : « فما كان » لتفريع الجملة على قوله : « فخسفنا به » الخ أي فظهر بخسفنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدّعيه لنفسه من الاستحقاق والاستغناء عن الله

سبحانه وأنّ الّذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشرّ هو قوّته وجمعه وقد اكتسبهما بنبوغه العلميّ .

قوله تعالى : « وأصبح الّذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » الخ ذكروا أنّ «وي» كلمة تندّم وربّما تستعمل للتعجّب وكلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندّم أسبق إلى الذهن .

وقوله : « كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » اعتراف منهم ببطلان ماكان يزعمه قارون وهم يصدّقونه أنّ القوّة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تدبيره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقه بمشيّة من الله .

والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشكّ و التردّد لكنّهم إنّما استعملوا في كلامهم «كأنّ» للدلالة على ابتداء تردّدهم في قول قارون وقد قبلوه وصدّقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال .

والدليل على ذلك قولهم بعده : «لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا» على طريق الجزم والتحقيق .

وقوله : « ويكأنّه لايفلح الكافرون » تندّم منهم ثانيا و انتزاع ممّا كان لازم تمنّيهم مكان قارون .

قوله تعالى : «تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّا في الأرض ولا فسادا و العاقبة للمتّقين » الآية وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصّة .

وقوله : « تلك الدار الآخرة » الإشارة إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وبهائها وعلوّ مكانتها وهو الشاهد على أنّ المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسّروها بالجنّة .

وقوله : « نجعلها للّذين لايريدون علوّا في الأرض ولا فسادا » أي نختصّها بهم وإرادة العلوّ هو الاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإنّ الله بنى شرائعه الّتي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته و خلقته ولا تقتضي فطرته إلّا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانيّة الأرضيّة

فكلّ معصية تقضي إلى فساد في الأرض بلاواسطة أو بواسطة قال تعالى: «ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس» الروم: ٤١.

ومن هنا ظهر أنّ إرادة العلوّ من مصاديق إرادة الفساد وإنّما اُفردت وخصّت بالذكر اعتناء بأمرها ومحصّل المعنى تلك الدار الآخرة السعيدة نخصّها بالّذين لايريدون فسادا في الأرض بالعلوّ على عبادالله ولا بأيّ معصية اُخرى.

والآية عامّة يخصّصها قوله تعالى: «إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيّآتكم وندخلكم مدخلا كريما» النساء: ٣١.

وقوله: «والعاقبة للمتّقين» أي العاقبة المحمودة الجميلة وهي الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة في الدنيا والآخرة لكن سياق الآيتين يؤيّد الأوّل.

قوله تعالى: «من جاء بالحسنة فله خير منها» أي لأنّها تتضاعف له بفضل من الله قال تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» الانعام: ١٦٠.

قوله تعالى: «ومن جاء بالسيّئة فلا يجزى الّذين عملوا السيّآت إلّا ماكانوا يعملون» أي لا يزيدون على ما عملوا شيئاً وفيه كمال العدل كما في جزاء الحسنة بخير منها كمال الفضل.

وكان مقتضى الظاهر في قوله: «فلا يجزى الّذين عملوا» الخ الإضمار ولعلّ في وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أنّ هذا الجزاء إنّما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية وأحاطت به الخطيئة كما يفيده جمع السيّآت وقوله: «كانوا يعملون» الدالّ على الإصرار والاستمرار وأمّا من جاء بالسيّئة والحسنة فمن المرجوّ أن يغفرالله له كما قال: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنّ الله غفور رحيم» التوبة: ١٠٢.

وليعلم أنّ الملاك في الحسنة والسيّئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان وبها تسمّى الأعمال حسنة أوسيّئة وعليها ـ لا على متن العمل الخارجيّ الّذي هو نوع من الحركة ـ يثاب الإنسان أو يعاقب قال تعالى: «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» البقرة: ٢٨٤.

و به يظهر الجواب عمّا استشكل على إطلاق الآية بأنّ التوحيد حسنة ولا يعقل خيرمنه و أفضل فالآية إمّا خاصّة بغيرالاعتقاداتالحقّة أو مخصّصة بالتوحيد .

و ذلك أنّ الأثر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه و إن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار .

على أنّ التوحيد أيّاً مّا فرض يقبل الشدّة و الضعف و الزيادة و النقيصة و إذا ضوعف عند الجزاء كما تقدّم كان مضاعفه خيراً من غيره .

(بحث روائي)

في الدّر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه عن ابن‌عبّاس أنّ قارون كان من قوم موسى قال : كان ابن عمّه وكان يبتغي العلم حتّى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتّى بغى على موسى و حسده .

فقال له موسى عليه‌السلام : إنّ الله أمرني‌أن‌آخذ الزكاة فأبى‌فقال : إنّ موسى‌يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة و جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنّه فجربك . قالت نعم .

فجاء قارون إلى موسى عليه السّلام قال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال : نعم فجمعهم فقالوا له : بم أمرك ربّك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً و أن تصلوا الرحم و كذا وكذا و قد أمرني في الزاني إذا زنى و قد أحصن أن يرجم . قالوا : و إن كنت أنت ؟ قال : نعم . قالوا : فإنّك قد زنيت قال : أنا ؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه‌السلام : أنشدتك‌بالله إلّاما صدقت . قالت : أما إذا نشدتني فإنّهم دعوني وجعلوا

لي جعلا على أن أقذفك بنفسي و أنا أشهد أنك بريء و أنك رسول الله .

فخرّ موسى عليه السلام ساجدا يبكي فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلّطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى فقال : خذيهم فغيّبتهم فأوحى الله يا موسى سألك عبادي و تضرّعوا إليك فلم تجبهم فوعزّتي لو أنّهم دعوني لأجبتهم .

قال ابن عبّاس : و ذلك قوله تعالى « فخسفنا به و بداره الأرض » خسف به إلى الأرض السفلى .

اقول : و روى فيه أيضاً عن عبدالرزّاق و ابن أبي حاتم عن ابن نوفل الهاشميّ القصّة لكن فيها أنّ المرأة اُحضرت إلى مجلس قارون لتشهد عند الملإ من بني إسرائيل على موسى عليه السلام بالفجور و تشكوه إلى قارون فجاءت إليه واعترفت عند الملإ بالحقّ فبلغ ذلك موسى عليه السلام فشكاه إلى ربّه فسلّطه الله عليه .

و روى القميّ في تفسيره في القصّة أنّ موسى عليه السلام جاء إلى قارون و بلّغه حكم الزكاة فاستهزء به وأخرجه من داره فشكاه إلى ربّه فسلّطه الله عليه فخسف به و بداره الأرض والرواية موقوفة مشتملة على اُمور منكرة و لذلك تركنا نقلها كما أنّ روايتي ابن عبّاس و ابن نوفل أيضاً موقوفتان .

على أنّ رواية ابن عباس تقصّص بغيه على موسى عليه السلام و الّذي تقصّه الآيات بغيه على بني إسرائيل ، و تشير إلى أنّ العلم الّذي عنده هوما حصّله بالتعلّم وظاهر الآية كما مرّ أنّه العلم بطرق تحصيل الثروة ونحوها .

و قد سيقت القصّة في التوراة الحاضرة على نحو آخر ففي الإصحاح السادس عشر من سفر العدد : و أخذ قورح بن يصهار بن نهات بن لاوي و داثان و أبيرام ابنا أليآب و اُون بن فالت بنو راُوبين يقاومون موسى مع اُناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوّين للاجتماع ذوي اسم . فاجتمعوا على موسى و هارون و قالوا لهما كفاكما . إنّ كلّ الجماعة بأسرها مقدّسة وفي وسطها الربّ فما بالكما ترتفعان

على جماعة الرب؟.

فلمّا سمع موسى سقط على وجهه ثمّ كلّم قورح و جميع قومه قائلا غداً يعلن الربّ من هوله؟ ومن المقدس؟ حتّى يقرّبه إليه فالّذي يختاره يقرّبه إليه. افعلوا هذا: خذو الكم محابر قورح وكلّ جماعته واجعلوا فيها نارا وضعوا عليها بخوراً أمام الربّ غدا فالرجل الّذي يختاره الربّ هو المقدّس. كفاكم يا بني لاوي.

ثمّ سيقت القصّة و ذكرفيها حضورهم غداومجيئهم بالمجامر وفيها النار والبخور واجتماعهم على باب خيمة الاجتماع ثمّ قيل: انشقّت الأرض الّتي تحتهم و فتحت الأرض فاها وابتلعتهم و بيوتهم وكلّ من كان لقورح مع كلّ الأموال فنزلوا هم وكلّ ما كان لهم أحياء إلى الهاوية فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة، و كلّ إسرائيل الّذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنّهم قالوا: لعلّ الأرض تبتلعنا وخرجت نار من عند الربّ و أكلت المئتين والخمسين رجلا الّذين قرّبوا البخور. انتهى موضع الحاجة.

و في المجمع في قوله تعالى: «إنّ قارون كان من قوم موسى»: و هو ابن خالته عن عطاء عن ابن عبّاس و هو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: «ما إنّ مفاتحه لتنوء» الآية قال: كان يحمل مفاتيح خزائنه العصبة أولوا القوّة.

و في المعاني بإسناده عن موسى بن إسماعيل بن موسي بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن جدّه عن آبائه عن عليّ عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: «ولاتنس نصيبك من الدنيا» قال: لاتنس صحّتك و قوّتك و فراغك و شبابك و نشاطك أن تطلب بهاالآخرة.

و في تفسير القميّ في قوله تعالى: «فخرج على قومه في زينته» قال: في الثياب المصبّغات يجرّها بالأرض.

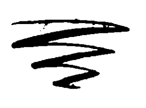
و في المجمع و روى زاذان عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه كان يمشي في الأسواق و هو وال يرشد الضّالّ و يعين الضعيف و يمرّ بالبيّاع و البقّال فيفتح عليه القرآن ويقرء: «تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لايريدون علوّاً في الأرض ولافسادا» ويقول

نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة و أهل القدرة من سائر الناس .

و فيه روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية « تلك الدار الآخرة » الآية

اقول : و عن السيد ابن طاوس في سعد السعود أنّه رواه عن الطبرسيّ هكذا : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها .

و في الدرّ المنثور أخرج المحامليّ والديلميّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في الآية قال : التجبّر في الأرض والأخذ بغير الحقّ .



☆ ☆ ☆

إنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

﴿بيان﴾

الآيات خاتمة السورة و فيها وعد جميل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله سبحانه سيمنّ عليه برفع قدره و نفوذ كلمته وتقدّم دينه وانبساط الأمن والسلام عليه و على المؤمنين به كما فعل ذلك بموسى و بني إسرائيل ، و قدكانت قصّة موسى وبني إسرائيل مسوقة في السورة لبيان ذلك .

قوله تعالى : «إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد» إلى آخر الآية الفرض ـ على ما ذكروه ـ بمعنى الإيجاب فمعنى « فرض عليك القرآن » أي أوجب عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة .

و أحسن منه قول بعضهم : إنّ المعنى أوجب عليك تلاوته و تبليغه و العمل به و ذلك لكونه أوفق لقوله : « لرادّك إلى معاد » بما سيجيء من معناه .

وقوله : «لرادّك إلى معاد» المعاد اسم مكان أو زمان من العود وقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل : هو مكّة فالآية وعد له أنّ الله سيردّه بعد هجرته إلى مكّة ثانياً ، وقيل : هو الموت، وقيل : هو القيامة ، وقيل: هو المحشر ، وقيل هو المقام المحمود و

هو موقف الشفاعة الكبرى ، وقيل :هو الجنة ، وقيل : هو بيت المقدس ، وهو في الحقيقة وعد بمعراج ثان يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأوّل ، و قيل : هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جلّ الأقوال السابقة أو كلّها .

والّذي يعطيه التدبّر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحا بما كانت القصّة المسرودة في أوّل السورة تلوّح إليه ثمّ الآيات التالية لها تؤيّده .

فإنّه تعالى أورد قصّة بني إسرئيل و موسى عليه السلام في أوّل السورة ففصّل القول في أنّه كيف منّ عليهم بالأمن والسلام و العزّة والتمكّن بعد ما كانوا أذلّاء مستضعفين بأيدي آل فرعون يذبّحون أبناءهم و يستحيون نساءهم ، و قد كانت القصّة تدلّ بالالتزام ـ ومطلع السورة يؤيّده ـ على وعد جميل للمؤمنين أنّ الله سبحانه سينجّيهم ممّا هم عليه من الفتنة و الشدّة والعسرة و يظهر دينهم على الدين كلّه و يمكّنهم في الأرض بعد ما كانوا لاسماء تظلّهم ولا أرض تقلّهم .

ثمّ ذكر بعد الفراغ من القصّة أنّ من الواجب في الحكمة أن ينزّل كتابا يهدي الناس إلى الحقّ تذكرة و إتماما للحجّة ليتّقوا بذلك من عذاب الله كما نزّله على موسى بعد ما أهلك القرون الاُولى و كما نزّل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و إن كذّبوا به عناداً للحقّ و إيثاراً للدنيا على الآخرة .

و هذا السياق يرجّي السامع أنّه تعالى سيتعرّض صريحا لما أشار إليه في سرد القصّة تلويحا فاذا سمع قوله : « إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » لم يلبث دون أن يفهم أنّه هو الوعد الجميل الّذي كان يترقّبه و خاصّة مع الابتداء بقوله : « إنّ الّذي فرض عليك القرآن » و قد قدّم تنظير التوراة بالقرآن و قد كان ما قصّه في إنجاء بني إسرائيل مقدّمة لنزول التوراة حتّى يكونوا بالأخذ بها و العمل بها أئمّة و يكونوا هم الوارثين .

فمعنى الآية أنّ الّذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس و تبلّغه و تعملوا به سيردّك و يصيّرك إلى محلّ تكون هذه الصيرورة منك إليه عودا و يكون هو معاداً لك كما فرض التوراة على موسى و رفع به قدره و قدر قومه ، و من المعلوم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم

كان بمكّة على ما فيها من الشدّة والفتنة ثمّ هاجر منها ثمّ عاد إليها فاتحاً مظفّرا و ثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان ملّته وكسرت الأصنام وانهدم بنيان الشرك والمؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلّاء معذّبين .

و في تنكير قوله : « معاد » إشارة إلى عظمة قدر هذا العود و أنّه لايقاس إلى ما قبله من القطون بها و التاريخ يصدّقه .

و قوله : « قل ربّي أعلم من جاء بالهدى و من هو في ضلال مبين » يؤيّد ما قدّمنا من المعنى فإنّه يحاذي قول موسى عليه السلام ـ لمّا كذّبوه و رموا آياته البيّنات بأنّها سحر مفترى ـ : « ربّي أعلم بمن جاء بالهدى ومن تكون له عاقبة الدار » فأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للفراعنة من مشركي قومه لمّا كذّبوه ورموه بالسحر ما قاله موسى لآل فرعون لمّا كذّبوه ورموه بالسحر للتشابه التامّ بين مبعثيهما و سير دعوتهما كما يظهر من القصّة و يظهر ذلك تمام الظهور بالتأمّل في قوله تعالى : « إنّا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا » المزمّل : ١٦ .

و لعلّ الاكتفاء بالشطر الأوّل من قول موسى عليه السلام والسكوت عن الشطر الثاني أعني قوله : « ومن تكون له عاقبة الدار » لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدّى حدّ الإشارة والإيماء كما يستشمّ من سياق قوله : « لرادّك إلى معاد » أيضا حيث خصّ الخطاب بالنبيّ صلى الله عليه وآله و نكّر معادا .

و كيف كان فالمراد بقوله : « من جاء بالهدى » النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه و بقوله : « و من هو في ضلال مبين » المشركون من قومه ، و اختلاف سياق الجملتين ـ حيث قيل في جانبه صلى الله عليه وآله وسلم : « من جاء بالهدى » و في جانبهم : « من هو في ضلال مبين » فقوبل بين ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم واهتدائه ـ لكون تكذيبهم متوجّها بالطبع إلى ما جاء به لا إلى نفسه .

و قد ذكروا في قوله : « أعلم من جاء بالهدى » أنّ « من » منصوب بفعل مقدّر يدلّ عليه « أعلم » والتقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أنّ أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به ، و ذكر بعضهم أنّه منصوب بأعلم وهو بمعنى عالم ولا دليل عليه ، و

ما أذكر قائلا بأنّه منصوب بنزع الخافض و إن لم يظهر فيه النصب لبنائه و التقدير ربّي أعلم بمن جاء بالهدى ، ولا دليل على منعه .

قوله تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربّك فلا تكونن ظهيرا للكافرين » صدر الآية تقرير للوعد الّذي في قوله : « إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد » أي إنّه سيردّك إلى معاد ـ و ماكنت ترجوه كما ألقى إليك الكتاب و ما كنت ترجوه .

و قيل : تذكرة استينافيّة لنعمته تعالى عليه صلى الله عليه وآله وسلم و هذا وجه وجيه و تقريره أنّه تعالى لمّا وعده بالردّ إلى معاد و فيه ارتفاع ذكره و تقدّم دعوته و انبساط دينه خطّ له السبيل الّتي يجب عليه سلوكها بجهد و مراقبة فبيّن له أنّ إلقاء الكتاب إليه لم يكن على نهج الحوادث العاديّة الّتي من شأنها أن ترتجى و تترقّب بل كانت رحمة خاصّة من ربّه و قد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة و في تقدّم دعوته و بلوغها الغاية الّتي وعدها أن لا ينصر الكافرين و لا يطيعهم و يدعو إلى ربّه ولا يكون من المشركين ولا يدعو معه إلها آخر .

وقوله : «إلاّ رحمة من ربّك » استثناء منقطع أي لكنّه اُلقي إليك رحمة من ربّك و ليس بإلقاء عاديّ يرجى مثله .

و قوله : « فلا تكونن ظهيرا للكافرين» تفريع على قوله : « إلّا رحمة من ربّك» أي فإذا كان إلقاؤه إليك رحمة من ربّك خصّك بها و هو فوق رجائك فتبرّء من الكافرين ولا تكن معينا و ناصراً لهم .

و من المحتمل قريبا أن يكون في الجملة نوع محاذاة لقول موسى عليه السلام ـ لمّا قتل القبطيّ ـ : « ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » و على هذا يكون في النهي عن إعانتهم إشارة إلى أنّ إلقاء الكتاب إليه صلى الله عليه وآله نعمة أنعمها الله عليه يهدي به إلى الحقّ و يدعو إلى التوحيد فعليه أن لا يعين الكافرين على كفرهم ولا يميل إلى صدّهم إيّاه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى عليه السلام ربّه بما أنعم عليه من الحكم و العلم أن لا يكون ظهيرا للمجرمين أبدا ، و سيأتي أنّ قوله : « ولا يصدّنّك

الخ بمنزلة الشارح لهذه الجملة .

قوله تعالى : « ولا يصدّنّك عن آيات الله بعد إذ اُنزلت إليك » إلى آخر الآية نهي له صلى الله عليه وآله وسلم عن الانصراف عن آيات الله بلسان نهي الكفّار عن الصدّ و الصرف و وجهه كون انصرافه مسبّبا لصدّهم و هو كقوله لآدم و زوجه : « فلا يخرجنّكما من الجنّة » أي لاتخرجا منها بإخراجه لكما بالوسوسة .

والظاهر أنّ الآية و ما بعدها في مقام الشرح لقوله : « فلا تكونن ّ ظهيراً للكافرين » و فائدته تأكيد النهي بعدّ موارده واحدا بعد واحد فنهاه أوّلا عن الانصراف عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنّه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأوّلين اكتتبها ، و أمره ثانيا أن يدعو إلى ربّه ، و نهاه ثالثا أن يكون من المشركين وفسّره بأن يدعو مع الله إلها آخر .

و قد كرّر صفة الربّ مضافا إليه صلى الله عليه وآله وسلم للدلالة على اختصاصه بالرحمة والنعمة وأنّه صلى الله عليه وآله وسلم متفرّد في عبادته لايشاركه المشركون فيها .

قوله تعالى : « ولا تدع مع الله إلها آخر » قد تقدّم أنّه كالتفسير لقوله : « ولا تكوننّ من المشركين » .

قوله تعالى : « لا إله إلّا هو كلّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله : « ولاتدع مع الله إلها آخر » أي لأنّه لا إله غيره وما بعدها في مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيتّضح .

وقوله : « كلّ شيء هالك إلّا وجهه » الشيء مساوللموجود ويطلق على كلّ أمر موجود حتّى عليه تعالى كما يدلّ عليه قوله : « قل أيّ شيء أكبر شهادة قل الله » الأنعام : ١٩ ، و الهلاك البطلان و الانعدام .

والوجه والجهة واحد كالوعد والعدة ، ووجه الشيء في العرف العامّ مايستقبل به غيره ويرتبط به إليه كما أنّ وجه الجسم السطح الظاهر منه ووجه الإنسان النصف المقدّم من رأسه ووجهه تعالى مايستقبل به غيره من خلقه ويتوجّه إليه خلقه به وهو صفاته الكريمة من حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وماينتهي إليها من صفات الفعل كالخلق

والرزق والإحياء والإماتة والمغفرة والرحمة وكذا آياته الدالّة عليه بما هي آياته .

فكلّ شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لاحقيقة له إلّا ماكان عنده ممّا أفاضه الله عليه وأمّا مالاينسب إليه تعالى فليس إلّا ما اختلقه وهم المتوهّم أو سرابا صوّره الخيال وذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقة إلّا أنّها حجارة أو خشبة أوشيء من الفلزّات وأمّا أنّها أرباب أو آلهة أو نافعة أوضارّة أوغير ذلك فليست إلّا أسماء سمّاها عبدتهم وكالإنسان ليس له من الحقيقة إلّا ما أودعه فيه الخلقة من الروح والجسم وما اكتسبه من صفات الكمال والجميع منسوبة إلى الله سبحانه وأمّا مايضيفه إليه العقل الاجتماعيّ من قوّة وسلطة ورئاسة و وجاهة و ثروة و عزّة و أولاد وأعضاد فليس إلّا سرابا هالكا واُمنيّة كاذبة وعلى هذا السبيل سائر الموجودات .

فليس عندها من الحقيقة إلّا ما أفاض الله عليها بفضله وهي آياته الدالّة على صفاته الكريمة من رحمة ورزق وفضل و إحسان وغير ذلك .

فالحقيقة الثابتة في الواقع الّتي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة و آياته الدالّة عليها والجميع ثابتة بثبوت الذات المقدّسة .

هذا على تقدير كون المراد بالهالك في الآية الهالك بالفعل وعلى هذا يكون محصّل تعليل كلمة الإخلاص بقوله : «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» أنّ الإله و هو المعبود بالحقّ إنّما يكون إلها معبودا إذا كان أمراً ذا حقيقة وواقعيّة غير هالك ولا باطل له تدبير في العالم بهذا النعت وكلّ شيء غيره تعالى هالك باطل في نفسه إلّا ماكان وجها له منتسباً إليه فليس في الوجود إله غيره سبحانه .

والوثنيّون وإن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوبا إليه تعالى ومن جهته إلّا أنّهم يجعلونها مستقلّة في التدبير مقطوعة النسبة في ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه ، ولذلك يعبدونها من دون الله ، ولا استقلال لشيء في شيء عنه تعالى فلا يستحقّ العبادة إلّا هو .

وههنا وجه آخر أدقّ منه بناء على أنّ المراد بالوجه ذات الشيء فقد ذكر بعضهم ذلك من معاني الوجه كما يقال : وجه النهار و وجه الطريق لنفسهما وإن أمكنت

المناقشة فيه ، وذكر بعض آخر: أنّ المراد به الذات الشريفة كما يقال: وجوه الناس أي أشرافهم وهو من المجاز المرسل أو الاستعارة وعلى كلا التقديرين فالمراد أنّ غيره تعالى من الموجودات ممكنة والممكن وإن كان موجودا بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر إلى حدّ ذاته هالك في نفسه والّذي لا سبيل للبطلان والهلاك إليه هو ذاته الواجبة بذاتها .

و محصّل التعليل على هذا المعنى أنّ الإله المعبود بالحقّ يجب أن يكون ذاتا بيده شيء من تدبير العالم ، والتدبير الكوني لا ينفكّ عن الخلق والإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شيء ويدبّر أمرها شيء آخر ـ وقد أوضحناه مراراً في هذا الكتاب ـ ولا يكون الخالق الموجد إلّا واجب الوجود ولا واجب إلّا هو تعالى فلا إله إلّا هو .

وقولهم : إنّه تعالى أجلّ من أن يحيط به عقل أو وهم فلا يمكن التوجّه العباديّ إليه فلابدّ أن يتوجّه بالعبادة إلى بعض مقرّبي حضرته من الملائكة الكرام وغيرهم ليكونوا شفعاء عنده .

مدفوع بمنع توقّف التوجّه بالعبادة على العلم الإحاطيّ بل يكفي فيه المعرفة بوجه و هو حاصل بالضرورة .

وأمّا على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبله الهلاك والفناء بناء على ما قيل : إنّ اسم الفاعل ظاهر في الاستقبال فظاهر الآية أنّ كلّ شيء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلّا وجهه. نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله في الزمانيّات انتهاء أمد وجودها وبطلانها بعده و في غيرها كون وجودها محاطاً بالفناء من كلّ جانب .

وهلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائي وخلوّ النشأة الاُولى عنها بانتقالها إلى النشأة الاُخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده ، و أمّا البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعة في أنّ كلّ شيء مرجعه إلى الله وأنّه المنتهى و إليه الرُّجعى وهو الّذي يبدىء الخلق ثمّ يعيده .

فمحصّل معنى الآية ـ لو اُريد بالوجه صفاته الكريمة ـ أنّ كلّ شيء سيخلّي

مكانه ويرجع إليه إلّا صفاته الكريمة الّتي هي مبادي فيضه فهي تفيض ثمّ تفيض إلى ما لا نهاية له وإلا له يجب أن يكون كذلك لا ببطلان لذاته ولا انقطاع لصفاته الفيّاضة وليس شيء غيره تعالى بهذه الصفة فلا إله إلّا هو .

ولو اُريد بوجهه الذات المقدّسة فالمحصّل أنّ كلّ شيء سيستقبله الهلاك و الفناء بالرجوع إلى الله سبحانه إلّا ذاته الحقّة الثابتة الّتي لا سبيل للبطلان إليها ـ والصفات على هذا محسوبة من صقع الذات ـ وإلا له يجب أن يكون بحيث لا يتطرّق الفناء إليه وليس شيء غيره بهذه الصفة فلا إله إلّا هو .

وبما تقدّم من التقرير يندفع الاعتراض على عموم الآية بمثل الجنّة والنار والعرش فإنّ الجنّة و النار لا تنعدمان بعد الوجود وتبقيان إلى غير النهاية ، والعرش أيضاً كذلك بناء على ما ورد في بعض الروايات أنّ سقف الجنّة هو العرش .

وجه الاندفاع أنّ المراد بالهلاك هو تبدّل نشأة الوجود والرجوع إلى الله المعبّر عنه بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة والتلبّس بالعود بعد البدء ، وهذا إنّما يكون فيما هو موجود بوجود بدنيّ دنيويّ و أمّا الدار الاخرة و ماهو موجود بوجود اُخروي كالجنّة والنار فلا يتّصف شيء من هذا القبيل بالهلاك بهذا المعنى .

قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ ، و قال : «وما عند الله خير للأبرار » آل عمران : ١٩٨ ، وقال : « سيصيب الّذين أجرموا صغار عند الله و عذاب شديد » الأنعام : ١٢٤ و نظيرتهما خزائن الرحمة كما قال : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه » الحجر : ٢١ ، وكذا اللوح المحفوظ كما قال : « وعندنا كتاب حفيظ» ق : ٤

و أمّا ماذكروه من العرش فقد تقدّم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : « إنّ ربّكم الله » الآية الأعراف : ٥٤ .

ويمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى الّتي تنسب إليه وهي الناحية الّتي يقصد منها ويتوجّه إليه بها ، و تؤيّده كثرة استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله : « يريدون وجهه » الأنعام : ٥٢ و قوله : « إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى »

الليل : ٢٠ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً .

وعليه فتكون عبارة عن كلّ ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأوّل الّذي أوردناه ويكون من مصاديقه أسماؤه و صفاته و أنبياؤه وخلفاؤه ودينه الّذي يؤتى منه .

و إن خصّ الوجه بالدين فحسب - كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق - كان المراد بالهلاك الفساد و عدم الأثر ، وكانت الجملة تعليلا لقوله : «ولا تدع مع الله إلها آخر» وكان ماقبلها قرينة على أنّ المراد بالشيء الدين والأعمال المتعلّقة به و كان محصّل المعنى ولاتتديّن بغير دين التوحيد لأنّ كلّ دين باطل لاأثر له إلّا دينه .

والأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعيّ أو الأعمّ منه ومن التكوينيّ والمعنى :كلّ دين هالك إلّا دينه لأنّ تشريع الدين إليه وإليه ترجعون لا إلى مشرّعي الأديان الاُخر .

هذا مايعطيه التدبّر في الآية الكريمة والمفسّرين فيها أقوال اُخر مختلفة .

فقيل : المراد بالوجه ذاته تعالى المقدّسة وبالهلاك الانعدام والمعنى كلّ شيء في نفسه عرضة للعدم لكون وجوده عن غيره إلّا ذاته الواجبة الموجود ، والكلام على هذا مبنيّ على التشبيه أي كلّ شيء غيره كالهالك لاستناد وجوده إلى غيره .

وقيل : الوجه بمعنى الذات والمراد به ذات الشيء والضمير لله باعتبار أنّ وجه الشيء مملوك له والمعنى كلّ شيء هالك إلّا وجه الله الّذي هو ذات ذلك الشيء ووجوده .

وقيل : المراد بالوجه الجهة المقصودة والضمير لله والمعنى كلّ شيء هالك بجميع ما يتعلّق به إلّا الجهة المنسوبة إليه تعالى وهو الوجود الّذي أفاضه الله تعالى عليه .

وقيل : الوجه هو الجهة المقصودة والمراد به الله سبحانه الّذي يتوجّه إليه كلّ شيء والضمير للشيء والمعنى كلّ شيء هالك إلّا الله الّذي هو الجهة المطلوبة له .

وقيل : المراد بالهلاك الموت والعموم مخصوص بذوي الحياة والمعنى كلّ ذي حياة فانّه سيموت إلّا وجهه .

وقيل : المراد بالوجه العمل الصالح والمعنى أنّ العمل كان في حيّز العدم ، فلمّا فعله العبد ممتثلا لأمره تعالى أبقاه الله من غير إحباط حتّى يثيبه أو أنه بالقبول صار غير قابل للهلاك لأنّ الجزاء قائم مقامه وهو باق .

و قيل : المراد بالوجه جاهه تعالى الّذي أثبته في الناس .

وقيل : الهلاك عامّ لجميع ماسواه تعالى دائماً لكون الوجود المفاض عليها متجدّداً في كلّ آن فهي متغيّرة هالكة دائما في الدنيا والآخرة و المعنى كلّ شيء متغيّر الذات دائما إلّاوجهه .

وهذه الوجوه بين مالا ينطبق على سياق الآية وبين مالا ينجح به حجّتها وبين ماهو بعيد عن الفهم ، وبالتأمّل فيما قدّمناه يظهر ما في كلّ منها فلانطيل .

و قوله : « له الحكم و إليه ترجعون » الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء وعليه يدور التدبير في نظام الكون ، وأمّا كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعّده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع إليه الّذي هو يوم القيامة فإنّ فصل القضاء متفرّع عليه .

و كلتا الجملتين مسوقتان للتعليل وكلّ واحدة منهما وحدها حجّة تامّة على توحّده تعالى بالألوهيّة صالحة لتعليل كلمة الإخلاص ، وقد تقدّم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعيّ .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاريّ والنسائيّ وابن جريروابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل من طرق عن ابن عباس في قوله تعالى : «لرادّك إلى معاد» قال : إلى مكّة . زاد ابن مردويه كما أخرجك منها .

أقول : و روى عنه وعن أبي سعيد الخدريّ أنّ المراد به الموت ، وأيضا عن عليّ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ المراد به الجنّة و انطباقهما على الآية لا يخلو من خفاء .

وروى القمّي في تفسيره عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام وعن أبي خالد الكابليّ عن عليّ بن الحسين عليه السلام أنّ المراد به الرجعة ولعلّه من البطن دون التفسير .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل : وأمّا قوله « كلّ شيء هالك إلّا وجهه » فالمراد كلّ شيء هالك إلّا دينه ، لأنّ من المحال أن يهلك منه كلّ شيء ويبقى الوجه . هو أجلّ وأعظم من ذلك و إنّما يهلك من ليس منه ألا ترى أنّه قال : «كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك » ففصل بين خلقه ووجهه ؟

و في الكافي بإسناده عن سيف عمّن ذكره عن الحارث ابن المغيرة النصريّ قال : سئل أبو عبدالله عليه السلام عن قول الله تبارك و تعالى : « كلّ شيء هالك إلّا وجهه» فقال: ما يقولون فيه ؟ قلت : يقولون : يهلك كلّ شيء إلّا وجه الله فقال : سبحان الله لقد قالوا عظيما إنّما عنى به وجه الله الّذي يؤتى منه .

اقول : و روى مثله في التوحيد بإسناده عن الحارث بن المغيرة النصريّ عنه عليه السلام ولفظه سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « كلّ شيء هالك إلّا وجهه » قال : كلّ شيء هالك إلّا من أخذ طريق الحقّ .

وفي محاسن البرقيّ مثله إلّا أنّ آخره « من أخذ الطريق الّذي أنتم عليه» .

والتشويش الّذي يترا آى في الروايات تطرّق إليها من جهة النقل بالمعنى فإن كان المراد بالوجه الّذي يؤتى منه مطلق ماينسب إليه و كان من صقعه تعالى ومن جانبه كان منطبقا على المعنى الأوّل الّذي قدّمناه في معنى الآية .

و إن كان الوجه بمعنى الدين الذي يتوجّه إليه تعالى بقصده كان المراد بالهلاك البطلان و عدم التأثير و كان المعنى لا إله إلّا هو كلّ دين باطل إلّا دينه الحقّ الّذي يؤتى منه فإنّه سينفع و يثاب عليه ، و قد تقدّمت الإشارة إلى الوجهين في تفسير الآية .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « فلاتكونن ظهيراً للكافرين » قال : المخاطبة للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و المعنى للناس و قوله : « ولا تدع مع الله إلها آخر » المخاطبة للنبيّ صلى الله عليه و آله و المعنى للناس ، و هو قول الصادق عليه السلام : إنّ الله بعث نبيّه صلّى الله عليه وآله بإيّاك أعني و اسمعي يا جارة .



(سورة العنكبوت مكيّة وهي تسع و ستّون آية)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النّٰاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّٰا وَهُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكٰاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّآتِ أَنْ يَسْبِقُونٰا سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فَانَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جٰاهَدَ فَانَّمٰا يُجٰاهِدُ لِنَفْسِهِ انَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كٰانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْانْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حُسْناً وَ انْ جٰاهَدٰاكَ لِتُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا الَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَانَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُواالصّٰالِحٰاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصّٰالِحِينَ (٩) وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللّٰهِ فَاذٰا اُوذِىَ فِى اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّٰاسِ كَعَذٰابِ اللّٰهِ وَلَئِنْ جٰاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ انّٰا كُنّٰا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمٰا فِى صُدُورِ الْعٰالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰافِقِينَ (١١) وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰايٰاكُمْ وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ مِنْ شَيْءٍ انَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقٰالَهُمْ وَ أَثْقٰالاً مَعَ أَثْقٰالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَمّٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) .

﴿ بيان ﴾

يلوح من سياق آيات السورة وخاصّة ما في صدرها من الآيات أنّ بعضا ممّن آمن بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بمكّة قبل الهجرة رجع عنه خوفا من فتنة كانت تهدّده من قبل المشركين فانّ المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملّتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتّبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم و عذّبوهم ليعيدوهم إلى ملّتهم .

يشير إلى ذلك قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » الآية ، و قوله : « و من الناس من يقول آمنا بالله فإذا اُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » الآية .

و كأنّ في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع و إلحاح منهما عليه في الارتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشمّ من قوله تعالى : « و وصّينا الإنسان بوالديه حسنا و إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الآية و قد نزلت السورة في شأن هؤلاء .

فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها و ختامها والسياق الجاري فيها أنّ الّذي يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرّد قولهم : آمنّا بالله بل هو حقيقة الإيمان الّتي لاتحرّكها عواصف الفتن ولاتغيّرها غير الزمن وهي إنّما تتثبّت و تستقرّ بتوارد الفتن و تراكم المحن ، فالناس غير متروكين بمجرّد أن يقولوا : آمنا بالله دون أن يفتنوا ويمتحنوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمنّ الله الّذين صدقوا و يعلم الكاذبين .

فالفتنة و المحنة سنّة إلهيّة لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الاُمم الماضين كقوم نوح و عاد وثمود و قوم إبراهيم و لوط و شعيب و موسى فاستقام منهم من استقام و هلك منهم من هلك و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فعلى من يقول : آمنت بالله أن يصبر على إيمانه و يعبد الله وحده فإن تعذّر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة ولا يخف عسر المعاش فإنّ الرزق على الله و كأيّن من دابّة لا تحمل رزقها الله يرزقها و إيّاه .

و أمّا المشركون الّذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلاّ أن يقولوا ربّنا الله فلايحسبوا أنهم يعجزون الله و يسبقونه فأمّا فتنتهم للمؤمنين و إيذاؤهم و تعذيبهم فإنّما هي فتنة لهم و للمؤمنين غير خارجة عن علم الله و تقديره ، فهي فتنته وهي محفوظة عليهم إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا و إن شاء أخّرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه ومالهم من محيص .

و أمّا ما لفّقوه من الحجّة وركنوا إليه من باطل القول فهوداحض مردود إليهم والحجّة قائمة تامّة عليهم .

فهذا محصّل غرض السورة و مقتضى ذلك كون السورة كلّها مكّيّة ، و قول القائل : إنها مدنيّة كلّها أو معظمها أو بعضها ـ وسيجيء في البحث الروائيّ التالي ـ غير سديد فمضامين آيات السورة لاتلائم إلّا زمن العسرة و الشدّة قبل الهجرة .

قوله تعالى : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لايفتنون » الحسبان هوالظنّ ، وجملة «أن يتركوا » قائمة مقام مفعوليه ، و قوله : « أن يقولوا » بتقدير باء السببيّة ، و الفتنة الامتحان وربّما تطلق على المصيبة والعذاب ، والأوفق للسياق هو المعنى الأوّل ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى أظنّ الناس أن يتركوا فلا يتعرّض لحالهم ولايمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرّد قولهم : آمنّا .

و قيل : المعنى أظنّ الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببليّة ولاتصيبهم مصيبة لقولهم: آمنا بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كلّ مكروه يصيب الإنسان مدى حياته . ولا يخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات .

قوله تعالى : « و لقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ

الكاذبين » اللامان للقسم ، و قوله : « و لقد فتنّا الّذين من قبلهم » حال من الناس في قوله : « أحسب الناس » أو من ضمير الجمع في قوله « لا يفتنون » و على الأوّل فالإنكار والتوبيخ متوجّه إلى ظنّهم أنّهم لا يفتنون مع جريان السنّة الإلهيّة على الفتنة و الامتحان ، و على الثاني إلى ظنّهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوماً ولا يفتن آخرين ، ولعلّ الوجه الأوّل أوفق للسياق .

فالظاهر أنّ المراد بقوله : « ولقد فتنّا الّذين من قبلهم » أنّ الفتنة والامتحان سنّة جارية لنا وقد جرت في الّذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن تجد لسنّة الله تبديلا .

و قوله : « فليعلمنّ الله الّذين صدقوا » الخ تعليل لما قبله ، والمراد بعلمه تعالى بالّذين صدقوا و بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة و الامتحان الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة وعدم ثبوته فيها حقيقة فإنّ السعادة الّتي تترتّب على الإيمان المدعوّ إليه وكذا الثواب إنّما تترتّب على حقيقة الإيمان الّذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاره والصبر على طاعة الله و الصبر عن معصية الله لا على دعوى الإيمان المجرّدة .

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعليّ الّذي هو نفس الأمر الخارجي فإنّ الاُمور الخارجيّة بنفسها من مراتب علمه تعالى ، و أمّا علمه تعالى الذاتيّ فلا يتوقّف على الامتحان البتّة .

والمعنى أحسبوا أن يتركوا ولا يفتنوا بمجرّد دعوى الإيمان و إظهاره والحال أنّ الفتنة سنّتنا و قد جرت في الّذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميّز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب اُولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبة عن قلوب اُولئك .

و الالتفات في قوله : « فليعلمنّ الله » إلى اسم الجلالة قيل : للتهويل و تربية المهابة ، و الظاهر أنّه في أمثال المقام لإفادة نوع من التعليل و ذلك أنّ الدعوة إلى الإيمان والهداية إليه و الثواب عليه لمّا كانت راجعة إلى المسمّى بالله الّذي منه يبدء كلّ شيء و به يقوم كلّ شيء و إليه ينتهي كلّ شيء بحقيقته فمن الواجب أن يتميّز

عنده حقيقة الإيمان من دعواه الخالية و يخرج عن حال الإبهام إلى حال الصراحة ولذلك عدل عن مثل قولنا : فلنعلمن إلى قوله : « فليعلمن الله » .

قوله تعالى : « أم حسب الّذين يعملون السيّآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون » أم منقطعة ، والمراد بقوله : « الّذين يعملون السيّآت » المشركون الّذين كانوا يفتنون المؤمنين و يصدّونهم عن سبيل الله كما أنّ المراد بالناس في قوله : « أحسب الناس » هم الّذين قالوا : آمنّا و هم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنة والتعذيب .

و المراد بقوله : « أن يسبقونا » الغلبة والتعجيز بسبب فتنة المؤمنين و صدّهم عن سبيل الله - على ما يعطيه السياق .

و قوله : « ساء ما يحكمون » تخطئة لظنّهم أنّهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة وصدّ فإنّ ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم وصدّ لهم عن سبيل السعادة ولا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله .

وقيل : مفاد الآية توبيخ العصاة من المؤمنين و هم المراد بقوله : « الّذين يعملون السيّآت » والمراد بالسيّآت المعاصي الّتي يقترفونها غير الشرك ، و أنت خبير بأنّ السياق لا يساعد عليه .

و قيل : المراد بعمل السيّآت أعمّ من الشرك و اقتراف سائر المعاصي فالآية عامّة لاموجب لتخصيصها بخصوص الشرك أو بخصوص سائر المعاصي دون الشرك .

و فيه أنّ اعتبار الآية من حيث وقوعها في سياق خاصّ من السياقات أمر و اعتبارها مستقلّة في نفسها أمر آخر والّذي يقتضيه الاعتبار الأوّل و هو العمدة بالنظر إلى غرض السورة هو ما قدّمناه من المعنى ، و أمّا الاعتبار الثاني فمقتضاه العموم ولا ضير فيه على ذلك التقدير .

قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت وهو السميع العليم » إلى تمام ثلاث آيات . لمّا وبّخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان و رجوعهم عنه بأيّ فتنة و إيذاء من المشركين و وبّخ المشركين على فتنتهم و إيذائهم المؤمنين و

صدّهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نورالله و تعجيزا له فيما شاء و خطّأ الفريقين فيما ظنّوا ـ

رجع إلى بيان الحقّ الّذي لامعدل عنه والواجب الّذي لامخلص منه فبيّن في هذه الآيات الثلاث أنّ من يؤمن بالله لتوقّع الرجوع إليه و لقائه فليعلم أنّه آت لامحالة و أنّ الله سميع لأقواله عليم بأحواله و أعماله فليأخذ حذره وليؤمن حقّ الإيمان الّذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيذاء و ليجاهد في الله حقّ جهاده ، وليعلم أنّ الّذي ينتفع بجهاده هو نفسه ولا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه ولا إلى غيره من العالمين وليعلم أنّه إن آمن و عمل صالحا فإنّ الله سيكفّر عنه سيّآته ويجزيه بأحسن أعماله والعلمان الأخيران يؤكّدان العلم الأوّل و يستوجبان لزومه الإيمان و صبره على الفتن و المحن في جنب الله .

فقوله : « من كان يرجو لقاء الله » رجوع إلى بيان حال من يقول : آمنت فإنّه إنّما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقّعه الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة إن لولا المعاد لغى الدين من أصله فالمراد بقوله : « من كان يرجو لقاء الله » من كان يؤمن بالله أو من كان يقول : آمنت بالله ، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبّب .

والمراد بلقاء الله وقوف العبد موقفا لا حجاب بينه و بين ربّه كما هو الشأن يوم القيامة الّذي هو ظرف ظهور الحقائق قال تعالى : « ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين » .

و قيل : المراد بلقاء الله هو البعث ، و قيل : الوصول إلى العاقبة من لقاء ملك الموت و الحساب والجزاء ، و قيل : المراد ملاقاة جزاء الله من ثواب أو عقاب و قيل : ملاقاة حكمه يوم القيامة ، والرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف .

وهذه وجوه مجازيّة بعيدة لاموجب لها إلّا أن يكون من التفسير بلازم المعنى .

و قوله : « فإنّ أجل الله لآت» الأجل هو الغاية الّتي ينتهي إليها زمان الدين و نحوه و قد يطلق على مجموع ذلك الزمان و الغالب في استعماله هو المعنى الأوّل .

و « أجل الله » هو الغاية الّتي عيّنها الله تعالى للقائه ، و هو آت لا ريب فيه وقد أكّد القول تأكيدا بالغا ، و لازم تحتّم إتيان هذا الأجل وهو يوم القيامة أن لا

يسامح في أمره ولا يستهان بأمر الايمان بالله حقّ الإيمان والصبر عليه عند الفتن و المحن من غير رجوع وارتداد ، وقد زاد في تأكيد القول بتذييله بقوله : « وهو السميع العليم» إذ هو تعالى لمّا كان سميعا لأقوالهم عليما بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل : آمنت بالله إلّا عن ظهر القلب ومع الصبر على كلّ فتنة ومحنة .

ومن هنا يظهر أنّ ذيل الآية : «فإنّ أجل الله لآت» الخ من قبيل وضع السبب موضع المسبّب كما كان صدرها : « من كان يرجو لقاء الله » أيضاً كذلك ، والأصل من قال : آمنت بالله . فليقله مستقيما صابراً عليه مجاهدا في ربّه .

وقوله : « ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه إنّ الله لغنيّ عن العالمين » المجاهدة والجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة ، وفيه تنبيه لهم أنّ مجاهدتهم في الله بلزوم الإيمان والصبر على المكاره دونه ليست ممّا يعود نفعه إلى الله سبحانه حتّى لايهمّهم ويلغو بالنسبة إليهم أنفسهم بل إنمّا يعود نفعه إليهم أنفسهم لغناه تعالى عن العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان ويصبروا على المكاره دونه .

فقوله : « ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه » تأكيد لحجّة الآية السابقة وقوله : «إنّ الله لغنيّ عن العالمين » تعليل لماقبله .

والالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة في الآيتين نظير مامرّ من الالتفات في قوله : « فليعلمنّ الله الّذين صدقوا » الآية .

وقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيّآتهم ولنجزينّهم أحسن الّذي كانوا يعملون » بيان لعاقبة إيمانهم حقّ الإيمان المقارن للجهاد ويتبيّن به أنّ نفع إيمانهم يعود إليهم لا إلى الله سبحانه وأنّه عطيّة من الله وفضل .

وعلى هذا فالآية لاتخلو من دلالة ما على أنّ الجهاد في الله هو الإيمان والعمل الصالح فإنّها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة « ومن جاهد » من قوله في هذه الآية « والّذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وتكفير السيّآت هو العفو عنها والأصل في معنى الكفر هو الستر ، وقيل : تكفير السيّآت هو تبديل كفرهم السابق إيمانا و معاصيهم السابقة طاعات ، وليس بذاك .

وجزاؤهم بأحسن الّذي كانوا يعملون هو رفع درجتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة وخسّة فيعاملون في كلّ واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاة و إن اشتملت على بعض جهات الرداءة وهكذا .

قوله تعالى : « و وصّينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الخ التوصية العهد وهو ههنا الأمر ، وقوله : «حسنا» مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف و التقدير : و وصّينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن إليهما وهذا مثل قوله : « وقولوا للناس حسنا» أي قولا حسنا أو ذا حسن ، ويمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل ، وربّما وجّه بتوجيهات اُخر .

وقوله : « و إن جاهداك على أن تشرك بي » الخ تتميم للتوصية بخطاب شفاهيّ للإنسان بنهيه عن إطاعة والديه إن دعواه إلى الشرك والوجه في ذلك أنّ التوصية في معنى الأمر فكأنّه قيل : وقلنا للإنسان أحسن إلى والديك وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

ولم يقل : وأن لا يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك الخ لما في الخطاب من الصراحة وارتفاع الإبهام ولذلك قال أيضاً : « لتشرك بي » بضمير المتكلّم وحده فافهمه ويؤل معنى الجملة إلى أنّا نهيناه عن الشرك طاعة لهما ورفعنا عنه كلّ إبهام .

وفي قوله : « ما ليس لك به علم» إشارة إلى علّة النهي عن الطاعة فإنّ دعوتهما إلى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة إلى الجهل وعبادة ما ليس له به علم افتراءً على الله وقد نهى الله عن اتّباع غير العلم قال:«ولا تقف ما ليس لك به علم» أسرى:٣٨،وبهذه المناسبة ذيّلها بقوله : «إليّ مرجعكم فاُنبّئكم بما كنتم تعملون» أي ساُعلمكم ما معنى أعمالكم ومنها عبادتكم الأصنام وشرككم بالله سبحانه .

ومعنى الآية :وعهدنا إلى الإنسان في والديه عهدا حسنا ـ وأمرناه أن أحسن إلى والديك ـ وإن بذلا جهدهما أن تشرك بي فلا تطعهما لأنّه اتّباع ما ليس لك به علم .

وفي الآية - كما تقدّمت الإشارة إليه - توبيخ تعريضيّ لبعض من كان قد آمن ثمّ رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه .

قوله تعالى : « والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين » معنى الآية ظاهر ، وفي وقوعها بعد الآية السابقة وفي سياقها ، دلالة على وعد جميل منه تعالى و تطييب نفس لمن ابتلي من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما وفارقهما يقول سبحانه : إن جاهداه على الشرك فعصاهما وهجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإنّا سنرزقه خيراً منهما وندخله بإيمانه وعمله الصالح في الصالحين وهم العباد المنعّمون في الجنّة قال تعالى : « يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي » الفجر : ٣٠ .

و أمّا إرادة المجتمع الصالح في الدنيا فبعيد من السياق .

قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا اُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » إلى آخر الآية لمّا كان إيمان هؤلاء مقيّدا بالعافية والسلامة مغيّى بالإيذاء والابتلاء لم يعدّه إيمانا بقول مطلق ولم يقل : ومن الناس من يؤمن بالله بل قال : « ومن الناس من يقول آمنّا بالله » فالآية بوجه نظيرة قوله : « ومن الناس من يعبدالله على حرف فإن أصابه خيرا طمأنّ به و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحجّ : ١١ .

و قوله : « فإذا اُوذي في الله » أي اُوذي لأجل الإيمان بالله بناء على أنّ في للسببيّة كما قيل وفيه عناية كلاميّة لطيفة بجعله تعالى -أي جعل الإيمان بالله- ظرفا للإيذاء ولمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أنّ الإيذاء منتسب إليه تعالى انتساب المظروف إلى ظرفه وينطبق على معنى السببيّة والغرضيّة ونظيره قوله : « ياحسرتا على مافرّطت في جنب الله » الزمر : ٥٦ : وقوله « والّذين جاهدوا فينا » العنكبوت : ٦٩ .

وقيل : معنى الإيذاء في الله هو الإيذاء في سبيل الله وكأنّه مبنيّ على تقدير مضاف محذوف .

وفيه أنّ العناية الكلاميّة مختلفة فالإيذاء في الله ماكان السبب فيه محض الإيمان

بالله وهو قولهم : ربّنا الله ، و الإيذاء في سبيل الله ماكان سببه سلوك السبيل التي هي الدين قال تعالى : « فالّذين هاجروا واُخرجوا من ديارهم و اُوذوا في سبيلي » آل عمران : ١٩٥ ومن الشاهد على تغاير الاعتبارين قوله في آخر السورة : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » حيث جعل الجهاد في الله طريقا إلى الاهتداء إلى سبله ولوكانا بمعنى واحد لم يصحّ ذلك .

وقوله : « جعل فتنة الناس كعذاب الله » أي نزّل العذاب والإيذاء الّذي يصيبه من الناس في وجوب التحرّز منه منزلة عذاب الله الّذي يجب أن يتحرّز منه فرجع عن الايمان إلى الشرك خوفا وجزعا من فتنتهم مع أنّ عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبّد الّذي يستتبع الهلاك الدائم .

وقوله : « ولئن جاء نصر من ربّك ليقولنّ إنّا كنّا معكم » أي لئن أتاكم من قبله تعالى مافيه فرج ويسر لكم من بعدما أنتم فيه من الشدّة والعسرة من قبل أعداء الله ليقولنّ هؤلاء إنّا كنّا معكم فلنا منه نصيب .

و « ليقولنّ » بضمّ اللام صيغة جمع ، والضمير راجع إلى « من » باعتبار المعنى كما أنّ ضمائر الإفراد الاُخر راجعة إليها باعتبار اللفظ .

وقوله : «أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين» استفهام إنكاريّ فيه ردّ دعواهم أنّهم مؤمنون بأنّ الله أعلم بما في الصدور ولا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان .

والمراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من اُولي العقل إنسانا كان أو غيره كالجنّ والملك ، ولوكان المراد به جميع المخلوقات من ذوي الشعور وغيرهم كان المراد بالصدور البواطن وهو بعيد .

قوله تعالى : « وليعلمنّ الله الّذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين » من تتمّة الكلام في الآية السابقة والمحصّل أنّ الله مع ذلك يميّز بين المؤمنين و المنافقين بالفتنة والامتحان .

وفي الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين وذلك لكون إيمانهم مقيّداً بعدم الفتنة وهم يظهرونه مطلقا غير مقيّد والفتنة سنّة إلهيّة جارية لامعدل عنها .

وقد استدلّ بالآيتين على أنّ السورة أو خصوص هذه الآيات مدنيّة وذلك أنّ الآية تحدّث عن النفاق والنفاق إنّما ظهر بالمدينة بعد الهجرة وأمّا مكّة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة ولا للمسلمين فيها إلّا الذلّة والإهانة والشدّة و الفتنةولا للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في المجتمع العربيّ يومئذ وخاصّة عند قريش عزّة ولا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعوه إلى أن يتظاهر بالإيمان وهو ينوي الكفر .

على أنّ قوله في الآية : « ولئن جاء نصر من ربّك ليقولنّ إنّا كنّا معكم » يخبر عن النصر وهو الفتح والغنيمة وقد كان ذلك بالمدينة دون مكّة .

ونظير الآيتين قوله السابق : « ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه » ضرورة أنّ الجهاد والقتال إنّما كان بالمدينة بعد الهجرة .

وهو سخيف : أمّا حديث النفاق فالّذي جعل في الآية ملاكاللنفاق وهو قولهم : آمنّا بالله حتّى إذا اُوذوا في الله رجعوا عن قولهم كان جائز التحقّق في مكّة كما في غيرها وهو ظاهر بل الّذي ذكر من الإيذاء والفتنة إنّماكان بمكّة فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة .

وأمّا حديث النصر فالنصر غير منحصر في الفتح والغنيمة فله مصاديق اُخر يفرّج الله بها عن عباده . على أنّ الآية لاتخبر عنه بما يدلّ على التحقّق فقوله : « فإذا اُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربّك قالوا إنّا كنّامعكم» يدلّ على تحقّق الإيذاء والفتنة حيث عبّر بإذا الدالّة على تحقّق الوقوع بخلاف مجيىء النصرحيث عبّر عنه بإن الشرطيّة الدالّة على إمكان الوقوع دون تحقّقه .

و أمّا قوله تعالى : « ومن جاهد » الخ فقد اتّضح ممّا تقدّم أنّ المراد به جهاد النفس دون مقاتلة الكفّارفالحقّ أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنيّة .

قوله تعالى : «وقال الّذين كفروا للّذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنّهم لكاذبون » المراد بالّذين كفروا مشركومكّة الّذين أبدوا الكفر أوّل مرّة بالدعوة الحقّة ، وبالّذين آمنوا المؤمنون بها أوّل مرّة

وقولهم لهم: «اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم» نوع استمالة لهم وتطييب لنفوسهم أن لو رجعوا إلى الشرك واتّبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أيّ حال: إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو، وإن كانت فهم حاملون لها عنهم، ولذلك لم يقولوا: ولنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

فكأنّهم قالوا: لنفرض أنّ اتّباعكم لسبيلنا خطيئة فإنّا نحملها عنكم ونحمل كلّ ما يتفرّع عليه من الخطايا أو إنّا نحمل عنكم خطاياكم عامّة ومن جملتها هذه الخطيئة.

وقوله: «وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء» ردّ لقولهم: «ولنحمل خطاياكم» وهو ردّ محفوف بحجّة إذ لو كان اتّباعهم لسبيلهم ورجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين وانتقالها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله ورضى فهو الّذي يؤاخذهم به ويجازيهم وهو سبحانه يصرّح ويقول: «ماهم بحاملين من خطاياهم من شيء» وقد عمّم النفي لكلّ شيء من خطاياهم.

وقوله: «إنّهم لكاذبون» تكذيب لهم لما أنّ قولهم: «ولنحمل خطاياكم» يشتمل على دعوى ضمنيّ أنّ خطاياهم تنتقل إليهم لو احتملوها وأنّ الله يجيز لهم ذلك.

قوله تعالى: «وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون» من تمام القول السابق في ردّهم وهو في محلّ الاستدراك أي إنّهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعليها لكنّهم حاملون أثقالا وأحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا إلى أثقال أنفسهم وأحمالها لما أنّهم ضالّون مضلّون.

فالآية في معنى قوله تعالى: «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم».

وقوله: «وليسألنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون» فشركهم افتراء على الله سبحانه وكذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه وأنّ الله يجيز لهم ذلك.

بحث روائى

في الدرّ المنثور أخرج ابن الضريس والنحّاس وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن ابن عبّاس وأيضاً ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قالا : نزلت سورة العنكبوت بمكّة.

اقول : و قد نقل في روح المعاني عن البحر عن ابن عبّاس أنّ السورة مدنيّة.

و في المجمع قيل : نزلت الآية يعني قوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا» في عمّار بن ياسر وكان يعذّب في الله عن ابن جريج .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن الشعبيّ في قوله : « الم أحسب الناس أن يتركوا » الآية قال : اُنزلت في اُناس بمكّة قد أقرّوا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من المدينة لمّا نزلت آية الهجرة أنّه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتّى تهاجروا ـ قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فردّوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنّه نزل فيكم آية كذا و كذا فقالوا : نخرج فإن اتّبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتّبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل و منهم من نجا فأنزل الله فيهم : « ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثمّ جاهدوا و صبروا إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم » .

و فيه أخرج ابن جرير عن قتادة « و من الناس من يقول آمنّا بالله ـ إلى قوله ـ و ليعلمنّ المنافقين » قال : هذه الآيات نزلت في القوم الّذين ردّهم المشركون إلى مكّة ، وهذه الآيات العشر مدنيّة .

و فيه أخرج ابن جرير عن الضحّاك في قوله : « ومن الناس من يقول آمنّا بالله» قال : ناس من المنافقين بمكّة كانوا يؤمنون فإذا اُوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر و الشرك مخافة من يؤذيهم و جعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله .

و فيه أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سعد بن أبي وقّاص قال : قالت اُمّي : لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتّى تكفر بمحمّد فامتنعت من الطعام

والشراب حتّى جعلوا يسجرون فاها بالعصا فنزلت هذه الآية « و وصّينا الإنسان بوالديه حسنا » الآية .

وفي المجمع قال الكلبيّ نزل قوله : « ومن الناس من يقول » الاية في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي و ذلك أنّه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبيّ صلى الله عليه وآله فحلفت اُمّه أسماء بنت مخرمة بن أبي جندل التميميّ أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل كنّا حتّى يرجع إليها فلمّا رآى ابناها أبوجهل والحارث ابنا هشام ـ و هما أخوا عيّاش لاُمّه ـ جزعها ركبا في طلبه حتّى أتيا المدينة فلقياه و ذكرا له القصّة فلم يزالا به حتّى أخذ عليهما المواثيق أن لا يصرفاه عن دينه و تبعهما و قد كانت اُمّه صبرت ثلاثة أيّام ثمّ أكلت و شربت .

فلمّا خرجوا من المدينة أخذاه و أوثقاه كتافا و جلّده كلّ واحد منهما مائة جلدة حتّى برىء من دين محمّد جزعا من الضرب و قال ما لا ينبغي فنزلت الآية و كان الحارث أشدّهما عليه فحلف عيّاش لئن قدر عليه خارجا من الحرم ليضربنّ عنقه .

فلمّا رجعوا إلى مكّة مكثوا حينا ثمّ هاجر النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنون إلى المدينة و هاجر عيّاش و حسن إسلامه و أسلم الحارث بن هشام وهاجر إلى المدينة وبايع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الإسلام ولم يحضر عيّاش فلقيه عيّاش يوما بظهر قبا ولم يشعر بإسلامه فضرب عنقه فقيل له : إنّ الرجل قد أسلم فاسترجع عيّاش و بكى ثمّ أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فأخبره بذلك فنزل : « و ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلّا خطأً » الآية .

اقول : و أنت ترى اختلاف الروايات في سبب نزول الآيات و قد تقدّم أنّ الّذي يعطيه سياق آيات السورة أنّها مكّيّة محضة .

و في الكافي عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد عن معمّر بن خلّاد قال : سمعت أباالحسن عليه السلام يقول : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا بالله وهم لا يفتنون » ثمّ قال لي : ماالفتنة ؟ قلت: جعلت فداك الفتنة في الدين فقال : يفتنون كما يفتن الذهب . ثمّ قال : يخلصون كما يخلص الذهب .

و في المجمع قيل : إنّ معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم وأموالهم . وهو المرويّ

عن أبي عبدالله عليه السلام .

و فيه في قوله تعالى : « أويلبسكم شيعا » و في تفسير الكلبي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قام النبيّ صلى الله عليه وآله فتوضّأ و أسبغ وضوءه ثمّ قام و صلّى فأحسن صلاته ثمّ سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم أويلبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض .

فنزل جبرئيل ولم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين فقال صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل ما بقاء اُمّتي مع قتل بعضهم بعضا ؟ فقام و عاد إلى الدعاء فنزل : الم أحسب النّاس أن يتركوا » الآيتان فقال : لابدّ من فتنة يبتلي بها الاُمّة بعد نبيّها ليتعيّن الصادق من الكاذب لأنّ الوحي انقطع و بقي السيف و افتراق الكلمة إلى يوم القيامة .

و في نهج البلاغة : و قام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها ؟ فقال عليه السلام : لمّا أنزل الله سبحانه قوله : « الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون » علمت أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا فقلت : يا رسول الله ماهذه الفتنة الّتي أخبرك الله بها ؟ فقال : ياعليّ إنّ اُمّتي سيفتنون من بعدي .

و في التوحيد عن عليّ عليه السلام ـ في حديث طويل و قد سأله رجل عن آيات من القرآن ـ و قوله : « من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت » يعني بقوله من كان يؤمن بأنّه مبعوث فإنّ وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء ههنا ليس بالرؤية واللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنّه يعني بذلك البعث .

اقول : مراده عليه السلام نفي الرؤية الحسّيّة والتفسير بلازم المعنى .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله » الآية قال : من أحبّ لقاء الله جاءه الأجل «ومن جاهد» نفسه عن اللّذات والشهوات والمعاصي «فإنّما يجاهد لنفسه إنّ الله لغنيّ عن العالمين». «ووصّينا الإنسان بوالديه حسنا» قال : هما اللّذان ولداه .

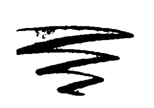
وفيه في قوله تعالى : « وقال الّذين كفروا للّذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل

خطاياكم » قال : كان الكفّار يقولون للمؤمنين : كونوا معنا فإنّ الّذي تخافون أنتم ليس بشيء فإن كان حقّا نتحمّل عنكم ذنوبكم. فيعذّبهم الله عزّوجلّ مرّتين : مرّة بذنوبهم ومرّة بذنوب غيرهم .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف وابن المنذر عن ابن الحنفيّة قال : كان أبوجهل وصناديد قريش يتلقّون الناس إذاجاؤا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يسلمون يقولون : إنّه يحرّم الخمر ويحرّم الزنا ويحرّم ماكانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية « وليحملنّ أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » .

و فيه أخرج أحمد عن حذيفة قال : سأل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمسك القوم ثمّ إنّ رجلا أعطاه فأعطى القوم فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : من سنّ خيراً فاستنّ به كان له أجره ومن اُجور من تبعه غير منتقص من اُجورهم شيأ ومن سنّ شرّا فاستنّ به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيأ .

أقول : وفي هذا المعنى روايات اُخر وفي بعضها تفسير قوله : « وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » بذلك .



☆☆☆

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي

الْحَيوةِ الدُّنيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَاوٰيكُمُ النّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ اِنّى مُهاجِرٌ اِلٰى رَبّى اِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ اِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ اَجْرَهُ فِى الدُّنْيا وَ اِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطاً اِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اِنَّكُمْ لَتَاْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ اَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) اَئِنَّكُمْ لَتَاْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَاْتُونَ فِى نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ اِلّا اَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمّا جاءَتْ رُسُلُنا اِبْرٰهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قالُوا اِنّا مُهْلِكُوا اَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ اِنَّ اَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ اِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ اَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ اَهْلَهُ اِلَّا امْرَاَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢) وَلَمّا اَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ اِنّا مُنَجُّوكَ وَ اَهْلَكَ اِلَّا امْرَاَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) اِنّا مُنْزِلُونَ عَلٰى اَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣۴) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَ اِلٰى مَدْيَنَ اَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠).

﴿ بيان ﴾

لمّا ذكر سبحانه في صدر السورة أنّ الفتنة سنّة إلهيّة لامعدل عنها وقد جرت في الاُمم السابقة عقّب ذلك بالإشارة إلى قصص سبعة من الأنبياء الماضين واُممهم وهم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام فتنهم الله و امتحنهم فنجى منهم من نجى وهلك منهم من هلك ، وقد ذكر سبحانه في الثلاثة الاُول النجاة والهلاك معاً وفي الأربعة الأخيرة الهلاك فحسب .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » في المجمع : الطوفان الماء الكثير الغامر لأنّه يطوف بكثرته في نواحي الأرض انتهى ، وقيل : هو كلّ ما يطوف بالشيء على كثرة وشدّة من السيل والريح و الظلام و الغالب استعماله في طوفان الماء .

والتعبير بألف سنة إلّا خمسين عاما دون أن يقال : تسعمائة وخمسين سنة للتكثير والآية ظاهرة في أنّ الألف إلّا خمسين مدّة دعوه نوح عليه السلام ما بين بعثته إلى أخذ

الطوفان فيغايرما في التوراة الحاضرة أنّها مدّة عمره عليه السلام وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سورة هود ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » أي فأنجينا نوحاً وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهله وعدّة قليلة من المؤمنين به ولم يكونوا ظالمين .

وقوله : « وجعلناها آية للعالمين » الظاهر أنّ الضمير للواقعة أو للنجاة و أمّا رجوعه إلى السفينة فلا يخلو من بعد ، و العالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة بهم .

قوله تعالى : « و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله و اتّقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » معطوف على قوله : « نوحا » أي وأرسلنا إبراهيم إلى قومه .

وقوله لقومه : «اعبدوا الله و اتّقوه » دعوة إلى التوحيد و إنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر .

على أنّ الوثنيّة لايعبدون الله سبحانه وإنّما يعبدون غيره زعما منهم أنّه تعالى لايمكن أن يعبد إلّا من طريق الأسباب الفعّالة في العالم المقرّبة عنده كالملائكة والجنّ ولو عبد لكان معبوداً وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله : « اعبدوا الله » تفيد الدعوة إليه وحده وإن لم تقيّد بأداة الحصر .

قوله تعالى : « إنّما تعبدون من دون الله أوثانا و تخلقون إفكا » إلى آخر الآية ، الأوثان جمع وثن بفتحتين وهو الصنم ، والإفك الأمر المصروف عن وجهه قولا أو فعلا .

وقوله : « إنّما تعبدون من دون الله أوثانا » بيان لبطلان عبادة الأوثان ويظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقّة وبالجملة انحصار العبادة الحقّة فيه تعالى و«أوثانا» منكّر للدلالة على وهن أمرها وكون اُلوهيّتها دعوى مجرّدة لا حقيقة وراءها أي لاتعبدون من دون الله إلّا أوثانا من أمرها كذا وكذا .

ولذا عقّب الجملة بقوله : « وتخلقون إفكا » أي وتفتعلون كذبا بتسميتها آلهة

وعبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنّه هو الله الواحد دون الأوثان .

وقوله : « إنّ الّذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة وعبادتها ومحصّله أنّ هؤلاء الّذين تعبدون من دون الله وهم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكة والجنّ إنّما تعبدونهم لجلب النفع وهو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم ويدرّوا عليكم الرزق لكنّهم ليسوا يملكون لكم رزقا فإنّ الله هو الّذي يملك رزقكم الّذي هو السبب الممدّ لبقائكم لأنّه الّذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممدّا لبقائكم والملك تابع للخلق والإيجاد .

ولذلك عقّبه بقوله : « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له » أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنّه هو الّذي يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله واشكروا له على ما رزقكم وأنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم .

وقوله : « إليه ترجعون » في مقام التعليل لقوله : « واعبدوه واشكروا له » ولذا جيىء بالفصل من غير عطف ، وفي هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع والحساب إذ لولا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصّل لأنّ الرزق وما يجري مجراه له أسباب خاصّة كونيّة غير العبادات و القربات ولا يزيد ولا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان والكفر والعبادة والشكر وخلافهما فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادة و الشكر دون ابتغاء الرزق .

قوله تعالى : « وإن تكذّبوا فقد كذّب اُمم من قبلكم وما على الرسول إلّا البلاغ المبين » الظاهر أنّه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام ، وذكر بعضهم أنّه خطاب منه تعالى لمشركي قريش ولا يخلو من بعد .

ومعنى الشرط والجزاء في صدر الآية أنّ التكذيب هو المتوقّع منكم لأنّه كالسنّة الجارية في الاُمم المشركة وقد كذّب من قبلكم وأنتم منهم وفي آخرهم وليس عليّ بما أنا رسول إلّا البلاغ المبين .

ويمكن أن يكون المراد أنّ حالكم في تكذيبكم كحال الاُمم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيأ حلّ بهم عذاب الله ولم يكونوا بمعجزين في الأرض ولا في السماء ولم يكن

لهم من دون الله من ولي ّ ولا نصير ، فكذلكم أنتم ، وقوله : « وماعلى الرسول » يناسب الوجهين جميعاً .

قوله تعالى : «أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم ّ يعيده إن ّ ذلك على الله يسير» هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصّة تقيم الحجّة على المعاد وترفع استبعادهم له متعلّقة بما تقدّم من حيث إن ّ العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير إليه قول إبراهيم : « إليه ترجعون وإن تكذّبوا فقد كذّب اُمم من قبلكم » .

فقوله : «أولم يروا » الخ الضمير فيه للمكذّبين من جميع الاُمم من سابق ولاحق والمراد بالرؤية النظر العلمي ّ دون الرؤية البصريّة ، و قوله « كيف يبدىء الله الخلق ثم ّ يعيده » في موضع المفعول لقوله : « يروا» بعطف « يعيده» على موضع «يبدىء» خلافا لمن يرى عطفه على « أولم يروا » والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى أولم يعلموا كيفيّة الإبداء ثم ّ الإعادة أي إنّهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن ، و قوله : «إن ّ ذلك على الله يسير » الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء وفيه رفع الاستبعاد لأنّه إنشاء بعد إنشاء و إذ كانت القدرة المطلقة تتعلّق بالإيجاد فهي جائزة التعلّق بالإنشاء بعد الإنشاء وهي في الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار وإنزال للسائرين إليه في دار القرار .

و قول بعضهم : إن ّ المراد بالإبداء ثم ّ الإعادة إنشاء الخلق ثم ّ إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على المعاد الّذي هو إعادة عين ما فنى دون مثله .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدء الخلق ثم ّ الله ينشىء النشأة الآخرة إن ّ الله على كل ّ شيء قدير » الآية إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبي ّ صلى الله عليه وآله أن يخاطبهم بما يتم ّ به الحجّة عليهم فيرشدهم إلى السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق وإنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم وأشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد في عدّتهم و عدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد

في القدرة الإلهيّة فهو ينشيء النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الأُولى فالآية في معنى قوله : « ولقد علمتم النشأة الأُولى فلولا تذكّرون » الواقعة : ٦٢ .

قوله تعالى : « يعذّب من يشاء و يرحم من يشاء و إليه تقلبون » من مقول القول ، والظاهر أنّه بيان لقوله : « ينشيء النشأة الآخرة » و قلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه و جعل باطنه ظاهره و هذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ .

و فسّروا القلب بالردّ قال في المجمع : والقلب هو الرجوع والردّ فمعناه أنّكم تردّون إلى حال الحياة في الآخرة حيث لايملك فيه النفع والضرّ إلّا الله . انتهى و هذا معنى لطيف يفسّر به معنى الرجوع إلى الله والردّ إليه وهو وقوفهم موقفا تنقطع فيه عنهم الأسباب ولا يحكم فيه إلّا الله سبحانه فالآية في معنى قوله : « و ردّوا إلى الله مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » يونس : ٣٠ .

و محصّل المعنى أنّ النشأة الآخرة هي نشأة يعذّب الله فيها من يشاء و هم المجرمون و يرحم من يشاء و هم غيرهم وإليه تردّون فلا يحكم فيكم غيره .

قوله تعالى : « و ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء و ما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير » من مقول القول و توصيف لشأنهم يوم القيامة كما أنّ الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ .

فقوله : « و ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » أي إنّكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه و الخروج من حكمه وسلطانه بالفرار والخروج من ملكه والنفوذ من أقطار الأرض والسماء ، فالآية تجري مجرى قوله: « يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » الرحمان :

و قيل : الكلام في معنى « من في السماء » فحذف من لدلالة الكلام عليه والتقدير و ما أنتم بمعجزين في الأرض ولامن في السماء بمعجزين في السماء .

وهو بعيد ودلالة الكلام عليه غير مسلّمة ولو بني عليه لكفى فيه أنّ الخطاب للأعمّ من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجنّ والملك والمعنى : و ما

أنتم معاشر الخلق بمعجزين في الأرض ولا في السماء .

و قوله : « و ما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير » أي ليس لكم اليوم وليّ من دون الله يتولّى أمركم فيغنيكم من الله ولا نصير ينصركم فيقوّي جانبكم و يتمّم ناقص قوّتكم فيظهركم عليه سبحانه .

فالآية ـ كما ترى ـ تنفي ظهورهم على الله و تعجيزهم له بالخروج والامتناع عن حكمه بأقسامه فلاهم يستقلّون بذلك و هو قوله : « و ما أنتم بمعجزين » الخ ولا غيرهم يستقلّ بذلك و هو قوله : « و مالك من دون الله من وليّ » ولا المجموع منهم و من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله : « ولا نصير » .

قوله تعالى : «والّذين كفروا بآيات الله ولقائه اُولئك يئسوا من رحمتي واولئك لهم عذاب أليم » خطاب مصروف إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خارج من مقول القول السابق «قل سيروا في الأرض » الخ والمطلوب فيه أن ينبئه صلى الله عليه وآله صريح الحقّ فيمن يشقى و يهلك يوم القيامة فإنّه أبهم ذلك في قوله أوّلا : « يعذّب من يشاء و يرحم من يشاء » .

و من الدليل عليه الخطاب في « اُولئك » مرّتين و لوكان من كلام النبيّ صلى الله عليه وآله لقيل : « اُولئكم » .

و يؤيّد ذلك أيضا قوله : « من رحمتي » فإنّ الانتقال من مثل قولنا : اُولئك يئسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله : « اُولئك يئسوا من رحمتي» يفيد التصديق والاعتراف مضافا إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب ، و يؤيّد ذلك أيضاً تكرار الإشارة و ما في السياق من التأكيد .

وكانّ في تخصيص النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الإخبار تقوية لنفسه الشريفة و عزلاً لهم عن صلاحية السمع لمثله و هم لا يؤمنون .

والمراد بآيات الله ـ على ما يفيده إطلاق اللفظ ـ جميع الأدلّة الدالّة على الوحدانيّة و النبوّة والمعاد من الآيات الكونيّة والمعجزات النبويّة و منها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء وهو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاصّ بعد العامّ والوجه فيه الاشارة إلى أهمّيّة الإيمان بالمعاد

إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحقّ من أصله و هو ظاهر .

والمراد بالرحمة ما يقابل العذاب و يلازم الجنّة وقد تكرّر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله : « فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصلحات فيدخلهم ربّهم في رحمته » الجاثية : ٣٠ و قوله : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما » الإنسان : ٣١ .

والمراد بإسناد اليأس إليهم إمّا تلبّسهم به حقيقة فإنّهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبّدة والجنّة الخالدة و إمّا أنّه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أنّ الجنّة لا يدخلها كافر .

والمعنى والذين جحدوا آيات الله الدالّة على الدين الحقّ وخاصّة المعاد اُولئك يئسوا من الرحمة والجنّة و اُولئك لهم عذاب أليم .

قوله تعالى : «فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا اقتلوه أوحرّقوه فأنجاه الله من النار » الخ تفريع على قوله في صدر القصّة : « و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتّقوه » .

و ظاهر قوله : « قالوا اقتلوه أوحرّقوه » أنّ كلّاً من طرفي الترديد قول طائفة منهم والمراد بالقتل القتل بالسيف ونحوه فهوقولهم أوّل ما ائتمروا ليجازوه و إن اتّفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم » الانبياء : ٦٨ و يمكن أن يكون الترديد من الجميع لتردّدهم في أمره أوّلاً ثمّ اتّفاقهم على إحراقه .

و قوله : « فأنجاه الله من النار » فيه حذف و إيجاز و تقديره ثمّ اتّفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها ، و قد فصّلت القصّة في مواضع من كلامه تعالى .

قوله تعالى : « و قال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم في الحياة الدنيا» إلى آخر الآية إذكان لا حجّة عقليّة لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم ممّا يستنّون به إلّا الاستنان بسنّة من يعظّمونه و يحترمون جانبه كالآباء للأبناء والرؤساء المعظّمين لأتباعهم والأصدقاء لأصدقائهم و بالأخرة الاُمّة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة

ما يحفظ السنن القوميّة معمولا بها قائمة على ساقها .

فالاستنان بسنّة الوثنيّة بالحقيقة من آثار المودّات الاجتماعيّة يرى العامّة ذلك بعضهم من بعض فتبعثه المودّة القوميّة على تقليده والاستنان به مثله ثمّ هذه الاستنان نفسه يحفظ المودّة القوميّة و يقيم الاتّحاد والاتّفاق على ساقه .

هذه حال العامّة منهم و أمّا الخاصة فربّما ركنوا في ذلك إلى مايحسبونه حجّة و ما هو بحجّة كقولهم : إنّ الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به حسّ أو وهم أو عقل فلا يتعلّق به توجّهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرّب إلى بعض من له به عناية كالملائكة والجنّ ليقرّبونا إليه زلفى و يشفعوا لنا عنده .

فقوله : «إنّما اتّخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم في الحياة الدنيا » خطاب منه عليه‌السلام لعامّة قومه في أمر اتّخاذهم الأوثان للمودّة القوميّة ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعيّة ، و قد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم « إذ قال لأبيه و قومه ما هذه التماثيل الّتي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » الأنبياء : ۵٣. « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » الشعراء : ٧۴ .

و من هنا يظهر أنّ قوله : « مودّة بينكم » صالح لأن يكون منصوبا بنزع الخافض بتقدير لام التعليل و المودّة على هذا سبب مؤدّ إلى اتّخاذ الأوثان ، و أن يكون مفعولا له و المودّة غاية مقصودة من اتّخاذ الأوثان لكنّ ذيل الآية إنّما تلائم الوجه الثاني على ما سيظهر .

ثمّ عقّب عليه‌السلام قوله : « إنّما اتّخذتم » الخ بقوله : « ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » يبيّن لهم عاقبة اتّخاذهم الأوثان للمودّة و هو باطن هذه المودّة المقصودة الّذي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنّهم توسّلوا إلى هذا المتاع القليل بالشرك الّذي هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقة واجتمعوا عليه و توافقوا لكنّهم سيبدو لهم حقيقة عملهم ويلحق بهم وباله فيتبرّء بعضهم من بعض و ينكره بعضهم على بعض .

والمراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبرّيهم منهم كما قال تعالى : « سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدّا » مريم : ٨٢ ، و قال : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ ، و في معناه تبرّي المتبوعين من تابعيهم كما قال تعالى: « إذ تبرّء الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا ورأوا العذاب و تقطّعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ . والمراد بلعن بعضهم بعضا لعن كلّ بعض صاحبه قال تعالى : « كلّما دخلت اُمة لعنت اُختها » الأعراف : ٣٨ .

ثمّ عقّب ذلك بقوله : « و مأواكم النار ومالكم من ناصرين » إشارةً إلى لحوق الوبال و وقوع الجزاء و هو النار الّتي فيها الهلاك المؤبّد و لا ناصر ينصرهم ويدفع عنهم العذاب فهم إنّما توسّلوا إلى المودّة ليتناصروا و يتعاونوا و يتعاضدوا في الحياة لكنّها عادت يوم القيامة معاداة و مضادّة و أورثت تبرّيا وخذلانا .

قوله تعالى : «فآمن له لوط وقال إنّي مهاجر إلى ربّي إنّه هو العزيز الحكيم» أي آمن به لوط والإيمان يتعدّى باللام كما يتعدّى بالباء والمعنى واحد .

وقوله : «وقال إنّي مهاجر إلى ربّي» قيل الضمير راجع إلى لوط ، وقيل : راجع إلى إبراهيم ويؤيّده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم «وقال إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين» الصافّات : ٩٩ .

وكانّ المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه و خروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لا يعترضه فيها المشركون ولا يمنعونه من عبادة ربّه فعدّ المهاجرة مهاجرة إلى الله من المجاز العقليّ .

وقوله : « إنّه عزيز حكيم » أي عزيز لا يذلّ من نصره حكيم لا يضيع من حفظه .

قوله تعالى : « ووهبناله إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذرّيّته النبوّة والكتاب» معناه ظاهر .

قوله تعالى : «وآتيناه أجره في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين » الأجر هو الجزاء الّذي يقابل العمل ويعود إلى عامله والفرق بينه وبين الاُجرة أنّ الاُجرة تختصّ بالجزاء الدنيويّ و الأجر يعمّ الدنيا والآخرة ، و الفرق بينه وبين الجزاء

أنّ الأجر لايقال إلّا في الخير والنافع و الجزاء يعمّ الخير و الشرّ و النافع والضارّ .

و الغالب في كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر في جزاء العمل العبوديّ الّذي أعدّه الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب و درجات الولاية ومنها الجنّة نعم وقع في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لايضيع أجر المحسنين» يوسف : ٩٠ وقوله : « وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوّء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين » يوسف : ٥٦ إطلاق الأجر على الجزاء الدنيويّ الحسن .

فقوله : « و آتيناه أجره في الدنيا » يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيويّ الحسن و الأنسب على هذا أن يكون « في الدنيا » متعلقا بالأجر لابالإيتاء و ربّما تأيّد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام في موضع آخر : « وآتيناه في الدنيا حسنة وإنّه في الآخرة لمن الصالحين » النحل : ١٢٢ فإنّ الظاهر أنّ المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة و إيتاؤها فعليّة إعطائها دون تقديرها وكتابتها .

ويمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعدّ لعامّة المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب في حقّه عليه السلام و إيتائه ذلك في الدنيا وقدتقدّم إحصاء مايذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السلام في قصصه من تفسير سورة الأنعام .

وقوله : «وإنّه في الآخرة لمن الصالحين» تقدّم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : «ولقد اصطفيناه في الدنياوإنّه في الآخرةلمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ في الجزءالأوّل من الكتاب .

قوله تعالى « ولوطا إذ قال لقومه إنّكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدمن العالمين » أي وأرسلنا لوطا أو واذكر لوطا إذ قال لقومه ، و قوله : « إنّكم لتأتون الفاحشة» إخبار بداعي الاستعجاب والإنكار ، والمراد بالفاحشة إتيان الذكران.

وقوله : « ماسبقكم بها من أحد من العالمين » استيناف يوضح معنى الفاحشة ويؤكّده ، وكانّ المراد أنّ هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملةحال من فاعل « لتأتون» .

قوله تعالى : « أئنّكم لتأتون الرجال و تقطعون السبيل و تأتون في ناديكم المنكر » إلى آخر الآية . استفهام من أمر من الحريّ أن لا يصدّقه سامع ولا يقبله ذو لبّ و لذا اُكّد بالنون و اللاّم ، و هذا السياق يشهد أنّ المراد بإتيان الرجل اللواط وبقطع السبيل إهمال طريق التناسل وإلغاؤها وهي إتيان النساء فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهنّ ، وبإتيانهم المنكر في ناديهم ـ والنادي هو المجلس الّذي يجتمعون فيه ولا يسمّى ناديا إلّا إذا كان فيه أهله ـ الإتيان بالفحشاء أو بمقدّماتها الشنيعة بمرئى من الجماعة .

و قيل : المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارّة بديارهم فإنّهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالخذف فأيّهم أصابه كان أولى به فيأخذون ماله وينكحونه و يغرمونه ثلاثة دراهم وكان لهم قاض يقضي بذلك وقيل : بل كانوا يقطعون الطرق ، وقد عرفت أنّ السياق يقضي بخلاف ذلك .

وقيل : المراد بإتيان المنكر في النادي أنّ مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات والقبائح مثل الشتم والسخف والقمار وخذف الأحجار على من مرّ بهم وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط ونحو ذلك ، وقد عرفت ما يقتضيه السياق .

وقوله : «فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين» استهزاء و سخريّة منهم ، ويظهر من جوابهم أنّه كان ينذرهم بعذاب الله وقد قال الله في قصّته في موضع آخر : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » القمر: ٣۶ .

قوله تعالى : « قال ربّ انصرني على القوم المفسدين » سؤال للفتح و دعاء منه عليهم ، وقد عدّهم مفسدين لعملهم الّذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدّد الإنسانيّة بالفناء .

قوله تعالى : « ولمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية إنّ أهلها كانوا ظالمين » إجمال قصّة هلاك قوم لوط ، وقد كان ذلك برسل من الملائكة أرسلهم الله أوّلاً إلى إبراهيم عليه السلام فبشّروه وبشّروا امرأته بإسحاق ويعقوب ثمّ أخبروه بأنّهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، والقصّة مفصّلة في سورة هود وغيرها .

وقوله : « قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية » أي قالوا لإبراهيم وفي الإتيان بلفظ الإشارة القريبة ـ هذه القرية ـ دلالة على قربها من الأرض الّتي كان إبراهيم عليه السلام نازلا بها ، وهي الأرض المقدّسة .

وقوله : « إنّ أهلها كانوا ظالمين » تعليل لإهلاكهم بأنّهم ظالمون قد استقرّت فيهم رذيلة الظلم ، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : إنّهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمر للإشارة إلى أنّ ظلمهم ظلم خاصّ بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الّذي كان الناس مبتلين به يومئذ كأنّه قيل : إنّ أهلها بما أنّهم أهلها ظالمون .

قوله تعالى : « قال إنّ فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين » ظاهر السياق أنّه عليه السلام كان يريد بقوله : «إنّ فيها لوطا» أن يصرف العذاب بأنّ فيها لوطا وإهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنّهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممّن لا يشمله العذاب وهم أهله إلّا امرأته .

لكنّه عليه السلام لم يكن ليجهل أنّ الله سبحانه لا يعذّب لوطاً وهو نبيّ مرسل ، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنّه يخوّفه ويزعره ويفزعه بقهره عليهم بل كان عليه السلام يريد بقوله : « إنّ فيها لوطا » أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط ، فاُجيب بأنّهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلّا امرأته كانت من الغابرين .

والدليل على هذا الّذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصّة : « فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربّك وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود » هود : ٧٦ فالآيات أظهر ما يكون في أنّ إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه .

فظاهر كلامه عليه السلام في الآية الّتي نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جاراه الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره وأجابوا بأنّهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها وعالمون بأنّ فيها لوطاً ومعه أهله ممّن لا ينبغي أن يعذّب لكنّهم سينجّونه وأهله إلّا امرأته لكنّ

الّذي أراده إبراهيم عليه السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فاُجيب بأنّه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورة هود .

وللقوم في قوله : « إنّ أهلها كانوا ظالمين » وقوله : «قال إنّ فيها لوطا» مشاجرات طويلة أعرضنا عن التعرّض لها لعدم الجدوى من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات.

قوله تعالى : « ولمّا أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن » إلى آخر الآية ضميرا الجمع في «سيء بهم وضاق بهم» للرسل والباء للسببيّة أي أخذته المساءة وهي سوء الحال بسببهم وضاقت طاقته بسببهم لكونهم في صور شبّان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثمّ قصد القوم إيّاهم بالسوء وضعف لوط من أن يدفعهم عنهم وهم ضيف له نازلون بداره .

و قوله : « وقالوا لا تخف ولا تحزن» أي لا خطر محتملا يهدّدك ولا مقطوعا يقع عليك فإنّ الخوف إنّما هو في المكروه الممكن والحزن في المكروه الواقع .

وقوله : « إنّا منجّوك وأهلك إلّا امرأتك كانت من الغابرين » أي الباقين في العذاب تعليل لنفي الخوف و الحزن .

قوله تعالى : «إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون» بيان لما يشير إليه قوله : « إنّا منجّوك و أهلك » من العذاب ، و الرجز العذاب .

قوله تعالى : « ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون » ضمير التأنيث للقرية والترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتّقوا الله وهي الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب .

وهي اليوم مجهولة المحلّ لا أثر منها و ربّما يقال : إنّ الماء غمرها بعد وهي بحر لوط ، لكنّ الآية ظاهرة - كما ترى - أنّها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن وأوضح منها قوله تعالى : «وإنّها لبسبيل مقيم» الحجر: ٧٦ ، وقوله : «وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » الصافّات : ١٣٨ .

قوله تعالى : « و إلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين » يدعوهم إلى عبادة الله و هو التوحيد وإلى رجاء

اليوم الآخر وهو الاعتقاد بالمعاد وأن لايفسدوا في الأرض وكانت عمدة إفسادهم فيها ـ على ماذكر في قصّتهم في مواضع اُخر ـ نقص الميزان والمكيال .

قوله تعالى : « فكذّبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » الرجفة الاضطراب الشديدعلى ما ذكره الراغب ، والجثم والجثوم في المكان القعود فيه أوالبروك على الأرض و هو كناية عن الموت والمعنى فكذّبوا شعيبا فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميّتين لاحراك بهم .

و قال في قصّتهم في موضع آخر : « و أخذت الّذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين » هود : ٩٤ و قال : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » حم السجدة : ١٣ ، و يستظهر من ذلك أنّهم اُهلكوا بالصيحة والرجفة .

قوله تعالى : « و عادا وثمود و قدتبيّن لكم من مساكنهم » إلى آخر الآية غيّرالسياق تفنّنا فبدء بذكر عاد وثمود وكذا في الآية التالية بدءبذكرقارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الاُمم المذكورين سابقا حيث بدء بذكر أنبيائهم كنوح و إبراهيم ولوط و شعيب . و قوله : « و عاداً و ثمود » منصوبان بفعل مقدّر تقديره واذكر عاداً و ثمود .

و قوله : « وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل و كانوا مستبصرين » تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعاريّة عن تحبيب أعمالهم السيّئة إليهم و تأكيد تعلّقهم بها و صدّه إيّاهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله الّتي هي سبيل الفطرة ، و لذا قال بعضهم : إنّ المراد بكونهم مستبصرين أنّهم كانوا قبل ذلك على الفطرة الساذجة.

لكنّ الظاهر ـ كما تقدّم في تفسير قوله : « كان الناس اُمّة واحدة فبعث الله النبيّين » البقرة : ٢١٣ أنّ عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح عليه‌السلام و عاد وثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله و دين التوحيد، و هو دين الفطرة .

قوله تعالى : « وقارون و فرعون وهامان وقدجاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض و ما كانوا سابقين » السبق استعارة كنائيّة من الغلبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فكلاً أخذنا بذنبه » إلى آخر الآية أي كلّ واحدة من الاُمم المذكورين أخذناها بذنبها ثمّ أخذ في التفصيل فقال : « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » والحاصب الحجارة و قيل : الريح الّتي ترمي بالحصا و على الأوّل فهم قوم لوط ، و على الثاني قوم عاد « ومنهم من أخذته الصيحة » وهم قوم ثمود وقوم شعيب « ومنهم من خسفنا به الأرض » و هو قارون « و منهم من أغرقنا » و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما .

ثمّ عاد سبحانه إلى كافّة القصص المذكورة و ما انتهى إليه أمر تلك الاُمم من الأخذ والعذاب فبيّن ببيان عامّ أنّ الّذي أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال : « وما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأنّ الدار دار الفتنة والامتحان وهي السنّة الإلهيّة الّتي لامعدل عنها فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه و من ضلّ فعليها .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيريّ عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث يذكر فيه معاني الكفر قال : والوجه الخامس من الكفر كفر البراءة قال تعالى : « و قال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم في الحياة الدنيا و يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » يعني يتبرّء بعضكم من بعض . الحديث .

أقول : و روى هذا المعنى في التوحيد عن عليّ عليه السلام في حديث طويل يجيب فيه عمّا سئل عنه من تهافت الآيات وفيه : «والكفر في هذه الآية البراءة يقول : يتبرّء بعضهم من بعض ، و نظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان : « إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل » و قول إبراهيم خليل الرحمان : «كفرنا بكم » أي تبرّأنا » .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الخذف[1] و هو قول الله : « و تأتون في ناديكم المنكر » .

---

(١) الخذف بالحصاة والنواة الرمى بها من بين السبابتين .

أقول : و روى هذا المعنى أيضاً عن عدّة من أصحاب الجوامع عن اُمّ هانيء بنت أبي طالب ولفظ الحديث : قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله : «وتأتون في ناديكم المنكر» قال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ابن السبيل و يسخرون منهم .

و في الكافي بإسناده عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال : فقال لهم إبراهيم : لماذا جئتم ؟ قالوا : في إهلاك قوم لوط . فقال لهم : إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم ؟ فقال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيها خمسون ؟ قال : لا . قال فإن كان فيها ثلاثون ؟ قال : لا ، قال :فإن كان فيها عشرون ؟ قال : لا ، قال : فإن كان فيها عشرة ؟ قال : لا. قال : فإن كان فيها خمسة ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها واحد ؟ قال : لا . قال : فإنّ فيها لوطا ؟ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه و أهله إلّا امرأته كانت من الغابرين .

قال الحسن بن عليّ عليه السلام : لا أعلم هذا القول إلّا وهو يستبقيهم و هو قول الله عزّوجلّ : « يجادلنا في قوم لوط » .

✩ ✩ ✩

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ اَوْلِيٰاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ اِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْكٰانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) اِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْاَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰا اِلَّا الْعٰالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰاتِ وَ الْاَرْضَ بِالْحَقِّ اِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اُتْلُ مٰا اُوحِيَ اِلَيْكَ مِنَ الْكِتٰابِ وَ أَقِمِ الصَّلٰوةَ اِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّٰهِ أَكْبَرُ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلٰا تُجٰادِلُوا أَهْلَ الْكِتٰابِ اِلّٰا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ اِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنّٰا بِالَّذِي اُنْزِلَ اِلَيْنٰا وَ اُنْزِلَ اِلَيْكُمْ وَ اِلٰهُنٰا وَ اِلٰهُكُمْ وٰاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَ كَذٰلِكَ اَنْزَلْنٰا اِلَيْكَ الْكِتٰابَ فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلٰاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا اِلَّا الْكٰافِرُونَ (٤٧) وَمٰا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَلٰا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ اِذاً لَارْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ اُوتُوا الْعِلْمَ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا اِلَّا الظّٰالِمُونَ (٤٩) وَ قٰالُوا لَوْلٰا اُنْزِلَ عَلَيْهِ آيٰاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ اِنَّمَا الْاٰيٰاتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ اِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ

يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥).

﴿بيان﴾

تتضمّن الآيات تذييلا لقصص اُولئك الاُمم الماضية الهالكة بمثل ضربه الله سبحانه لاتّخاذهم أولياء من دون الله فبيّن فيه أنّ بناءهم ذلك أوهن البناء ينادي ببطلانه و فساده خلق السماوات والأرض وأنهم ليس لهم من دونه من وليّ كما يذكره هذا الكتاب.

و من هنا ينتقل إلى أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة هذا الكتاب الّذي اُوحي إليه و إقامة الصلاة ودعوة أهل الكتاب بقول ليّن ومجادلة حسناء ويجيب عن اقتراح المشركين على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتيهم بآيات غير القرآن وأن يعجّلهم بالعذاب الّذي ينذرهم به.

قوله تعالى : « مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتا » إلى آخر الآية. العنكبوت معروف و يطلق على الواحد والجمع و يذكّر و يؤنّث.

العناية في قوله : « مثل الّذين اتّخذوا » الخ باتّخاذ الأولياء من دون الله ولذا

جيىء بالموصول والصلة كما أنّ العناية في قوله : « كمثل العنكبوت اتّخذت في بيتا » إلى اتّخاذ ها البيت فيؤل المعنى إلى أنّ صفة المشركين في اتّخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتّخاذها بيتا له نبأ ـ و هو الوصف الّذي يدلّ عليه تنكير « بيتا » .

و يكون قوله : « و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت » بيانا لصفة البيت الّذي أخذته العنكبوت ولم يقل : إنّ أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذاً للجملة بمنزلة المثل السائر الّذي لا يتغيّر .

و المعنى أنّ اتّخاذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الّذين يتولّونهم و يركنون إليهم كاتّخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلّا اسمه لا يدفع حرّاً ولا برداً ولا يكنّ شخصا ولا يقي من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلّا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضرّون ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

و مورد المثل هو اتّخاذ المشركين آلهة من دون الله فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتّخاذ الآلهة زعمهم أنّ لهم ولاية لأمرهم و تدبيرا لشأنهم من جلب الخير إليهم و دفع الشرّ عنهم والشفاعة في حقّهم .

و الآية ـ مضافا إلى إيفاء هذه النكتة ـ تشمل بإطلاقها كلّ من اتّخذ في أمر من الأمور و شأن من الشؤن وليّا من دون الله يركن إليه و يراه مستقلّا في أثره الّذي يرجوه منه و إن لم يعدّ من الأصنام إلّا أن يرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول والأئمة و المؤمنين كما قال تعالى : « و ما يؤمن أكثرهم بالله إلّا و هم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

و قوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون أنّ مثلهم كمثل العنكبوت ما اتّخذوهم أولياء . كذا قيل .

قوله تعالى : « إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » يمكن أن يكون « ما » في « ما يدعون » موصولة أو نافية أو استفهاميّة أو مصدريّة و « من » في «من شيء » على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد وعلى الباقي للتبيين وأرجح

الاحتمالات الأوّلان و أرجحهما أوّلهما .

والمعنى على الثاني أنّ الله يعلم أنّهم ليسوا يدعون من دونه شيأ أي أنّ الّذي يعبدونه من الآلهة لاحقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشّاف توكيداً للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيأ .

والمعنى على الأوّل أنّ الله يعلم الشيء الّذي يدعون من دونه ولا يجهل ذلك فيكون كناية عن أنّ المثل الّذي ضربه في محلّه ، و ليس لأوليائهم من الولاية إلّا اسمها .

ويؤكّد هذا المعنى الاسمان الكريمان : العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الّذي لايغلبه شيء فلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لايشاركه في الخلق و الإيجاد أحد الحكيم الّذي يأتي بالمتقن من الفعل والتدبير فلا يفوّض تدبير خلقه إلى أحد ، و هذا كالتمهيد لما سيبيّن في قوله خلق الله السماوات والأرض بالحقّ » .

قوله تعالى : « و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلّا العالمون » يشير إلى أنّ الأمثال المضروبة في القرآن على أنّها عامّة تقرع أسماع عامّة الناس لكنّ الإشراف على حقيقة معانيها ولبّ مقاصدها خاصّة لأهل العلم ممّن يعقل حقائق الأمور ولا ينجمد على ظواهرها .

والدليل على هذا المعنى قوله : « ولا يعقلها » دون أن يقول : و ما يؤمن بها أو ما في معناه .

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقّيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظّ له منها إلّا تلقّي ألفاظها و تصوّر مفاهيمها الساذجة من غير تعمّق فيها و سبر لأغوارها و من سامع يتلقّى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثمّ يغور في مقاصدها العميقة و يعقل حقائقها الأنيقة .

و فيه تنبيه على أنّ تمثيل اتّخاذهم أولياء من دون الله باتّخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرّد تمثيل شعريّ ودعوى خالية من البيّنة بل متّك على حجّة برهانيّة و حقيقة حقّة ثابتة وهي الّتي تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين» المراد بكون خلق السماوات والأرض بالحق نفي اللعب في خلقها كما قال تعالى « وما خلقنا السماوات و الأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون » الدخان : ٣٩.

فخلق السماوات والأرض على نظام ثابت لايتغير و سنة إلهية جارية لاتختلف ولا تتخلف ، والخلق والتدبير لايختلفان حقيقة ولاينفك أحدهما عن الآخر[1] وإذ كان الخلق والصنع ينتهي إليه تعالى انتهاء ضروريا ولا محيص فالتدبير أيضا له ولا محيص و ما من شيء غيره تعالى إلا و هو مخلوقه القائم به المملوك لايملك لنفسه نفعا ولاضرا، و من المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لالعب فيه والجد الذي لاهزل فيه .

فلو تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لايملك شيأ بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب وتفويضه تعالى أمر التدبير إليه لعبا منه تعالى و تقدس إذ ليس إلا فرضا لاحقيقة له ووهما لا واقع له وهو معنى اللعب .

و منه يظهر أن ولاية من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت العنكبوت كذلك .

و قوله : « إن في ذلك لآية للمؤمنين » تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم و لغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم .

قوله تعالى : « اتل ما أوحي إليك من الكتاب و أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر و لذكر الله أكبر » الخ لما ذكر إجمال قصص الأمم و ما انتهى إليهم شركهم و ارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم انتقل من

---

(١) و ذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون ومعناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم و ترتيب يؤدى الى غايات حقة و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الايجاد باعتبار قياس الشيء الى آخر مثله و انضمامه اليه فليس وراء الخلق و الايجاد شيء . منه .

ذلك ـ مستأنفا للكلام ـ إلى أمره صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة ما اُوحي إليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك و ارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البيّنات الّتي تتضمّن حججا نيّرة على الحقّ و تشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار و الوعد والوعيد يرتدع بتلاوة آياته تاليه و من سمعه .

و شفّعه بالأمر بإقامة الصلاة الّتي هي خير العمل و علّل ذلك بقوله : « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » والسياق يشهد أنّ المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلّيّة التامّة .

فلطبيعة هذا التوجّه العباديّ ـ إذا أتى به العبد و هو يكرّره كلّ يوم خمس مرّات و يداوم عليه و خاصّة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به و يهتمّ فيه بما اهتمّ به ـ أن يردعه عن كلّ معصية كبيرة يستشنعه الذوق الدينيّ كقتل النفس عدوانا و أكل مال اليتيم ظلما و الزنا واللواط ، و عن كلّ ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعاً جامعا بين التلقين والعمل .

و ذلك أنّه يلقّنه أوّلا بما فيه من الذكر الإيمان بوحدانيّته تعالى والرسالة و جزاء يوم الجزاء و أن يخاطب ربّه بإخلاص العبادة والاستعانة به و سؤال الهداية إلى صراطه المستقيم متعوّذا من غضبه و من الضلال ، و يحمله ثانيا على أن يتوجّه بروحه و بدنه إلى ساحة العظمة والكبرياء و يذكر ربّه بحمده والثناء عليه و تسبيحه و تكبيره ثمّ السلام على نفسه و أترابه و جميع الصالحين من عباد الله .

مضافا إلى حمله إياه على التطهّر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرّز عن الغصب في لباسه و مكانه و استقبال بيت ربّه فالإنسان لو داوم على صلاته مدّة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتّة ، ولو أنّك وكّلت على نفسك من يربّيها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن وتتحلّى بأدب العبوديّة لم يأمرك بأزيد ممّا تأمرك به الصلاة ولا روّضك بأزيد ممّا تروّضك به .

وقد استشكل على الآية بأنّا كثيراً ما نجد من المصلّين من لا يبالي ارتكاب الكبائر

ولا يرتدع عن المنكرات فلاتنهاه صلاته عن الفحشاء و المنكر .

و لذلك ذكر بعضهم أنّ الصلاة في الآية بمعنى الدعاء والمراد الدعوة إلى أمرالله والمعنى أقم الدعوة إلى أمر الله فإنّ ذلك يردع الناس عن الفحشاء والمنكر . و فيه أنّه صرف الكلام عن ظاهره .

و ذكر آخرون أنّ الصلاة في الآية في معنى النكرة والمعنى أنّ بعض أنواع الصلاة أو أفرادها يوجب الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو كذلك وليس المراد الاستغراق حتّى يرد الإشكال .

وذكر قوم أنّ المراد نهيها عن الفحشاء و المنكر مادامت قائمة والمصلّي في صلاته كأنّه قيل : إنّ المصلّي مادام مصلّيا في شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء والمنكر .

و قال بعضهم : إنّ الآية على ظاهرها والصلاة بمنزلة من ينهى و يقول : لاتفعل كذا ولا تقترف كذا لكنّ النهي لا يستوجب الانتهاء فليس نهي الصلاة بأعظم من نهيه تعالى كما في قوله : « إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر » النحل : ٩٠ و نهيه تعالى لايستوجب الانتهاء و ليس الإشكال إلّا مبنيّاً على توهّم استلزام النهي للانتهاء و هو توهّم باطل .

و عن بعضهم في دفع الإشكال أنّ الصلاة تقام لذكرالله كما قال تعالى : « أقم الصلاة لذكري » و من كان ذاكراً لله تعالى منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه و كلّ من تراه يصلّي و يأتي بالفحشاء والمنكر فهو بحيث لولم يصلّ لكان أشدّ إتيانا فقد أثّرت الصلاة في تقليل فحشائه و منكره .

و أنت خبير بأنّ شيئا من هذه الأجوبة لايلائم سياق الحكم والتعليل في الاية فإنّ الّذي يعطيه السياق أنّ الأمر بإقامة الصلاة إنّما علّل بقوله : « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر » ليفيد أنّ الصلاة عمل عباديّ يورث إقامته صفة روحيّة في الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء و المنكر فتتنزّه النفس عن الفحشاء والمنكر و تتطهّر عن قذارة الذنوب و الآثام .

فالمراد به التوسّل إلى ملكة الارتداع التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو

الاقتضاء لأنّها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الجواب الثاني ، ولأنّها أثر الاشتغال بالصلاة مادام مشتغلا بها كما في الجواب الثالث ، ولا أنّ المراد هو التوسّل إلى تلقّي نهي الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيها كأنّه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها . كما في الجواب الرابع ، ولا أنّ المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الّذي تشتمل عليه عن الفحشاء والمنكر كما في الجواب الخامس .

فالحقّ في الجواب أنّ الردع أثر طبيعة الصلاة الّتي هي توجّه خاصّ عباديّ إلى الله سبحانه و هو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب و العلّيّة التامّة فربّما تخلّف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع الّتي تضعّف الذكر و تقرّبه من الغفلة والانصراف عن حاقّ الذكر فكلّما قوي الذكر و كمل الحضور والخشوع وتمحّض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء والمنكر و كلّما ضعف ضعف الأثر .

وأنت إذا تأمّلت حال بعض من تسمّى بالإسلام من الناس وهو تارك للصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم و الحجّ والزكاة والخمس وعامّة الواجبات الدينيّة ولا يفرّق بين طاهر و نجس و حلال و حرام فيذهب لوجهه لا يلوي على شيء ثمّ إذا قست إليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة ممّا يسقط به التكليف ، وجدته مرتدعا عن كثير ممّا يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثمّ إذا قست إليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعاً منه و على هذا القياس .

و قوله : «ولذكر الله أكبر» قال الراغب في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ إلّا أنّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره . و تارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول و لذلك قيل : الذكر ذكران ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ ، و كلّ قول يقال له ذكر . انتهى .

و الظاهر أنّ الأصل في معناه هو المعنى الأوّل و تسمية اللفظ ذكرا إنّما هو لاشتماله على المعنى القلبيّ والذكر القلبيّ بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتّب على سببه و الغاية المقصودة من الفعل .

والصلاة تسمّى ذكراً لاشتمالها على الأذكار القوليّة من تهليل و تحميد وتنزيه و هي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنّها بمجموعها ممثّل لعبوديّة العبد لله سبحانه كما قال : « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » الجمعة : ٩ و هي باعتبار آخر أمر يترتّب عليه الذكر ترتّب الغاية على ذي الغاية يشير إليه قوله تعالى : « وأقم الصلاة لذكري » طه : ١٤ .

والذكر الّذي هو غاية مترتّبة على الصلاة أعني الذكر القلبيّ بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسيانا أو إدامة استحضاره - أفضل عمل يتصوّر صدوره عن الإنسان وأعلاه كعبا وأعظمه قدراً وأثراً فإنّه السعادة الأخيرة الّتي هيّئت للإنسان و مفتاح كلّ خير .

ثمّ إنّ الظاهر من سياق قوله : « و أقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر » أنّ قوله : « و لذكر الله أكبر » متّصل به مبيّن لأثر آخر للصلاة وهو أكبر ممّا بيّن قبله ، فيقع قوله : « و لذكر الله أكبر » موقع الاضراب و الترقّي و يكون المراد بالذكر القلبيّ الّذي يترتّب على الصلاة ترتّب الغاية على ذي الغاية فكأنّه قيل : أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء و المنكر بل الّذي تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي من النهي عن الفحشاء والمنكر لأنّه أعظم ما يناله الإنسان من الخير و هو مفتاح كلّ خير والنهي عن الفحشاء و المنكر بعض الخير .

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة والجملة أيضا واقعة موقع الإضراب والمعنى بل الّذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة الّتي هي ذكر الله أكبر من هذا الأثر الّذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر لأنّ النهي أثر من آثارها الحسنة و« ذكر الله » على الاحتمالين جميعا من المصدر المضاف إلى مفعوله و المفضّل عليه لقوله : « أكبر » هو النهي عن الفحشاء والمنكر .

و لهم في معنى الذكر و كون المضاف إليه فاعلا أو مفعولا للمصدر و كون المفضّل عليه خاصّا أو عامّا أقوال اُخر :

فقيل : معني الآية ذكرِ الله العبد أكبر من ذكرِ العبد لله تعالي وذلك أنّ الله

تعالى يذكر من ذكره لقوله : « فاذكروني أذكركم» البقرة : ١٥٢ و قيل المعنى ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة و قيل المعنى لذكر الله العبد أكبر من كلّ شيء .

وقيل : المعنى لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل : المعنى لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة ، وقيل : المعنى لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله ، وقيل: المعنى للصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وقيل : المعنى لذكر العبد لله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما أكبر من زجر الصلاة وردعها ، وقيل: إنّ قوله : « أكبر» معرّى من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضّل عليه كقوله : «ما عند الله خير من اللّهو» .

فهذه أقوال لهم متفرّقة أغمضنا عن البحث عمّا فيها إيثارا للاختصار ، والتدبّر في الآية يكفي مؤنة البحث على أنّ التحكّم في بعضها ظاهر لا يخفى .

وقوله : «والله يعلم ما تصنعون» أي ما تفعلونه من خير أو شرّ فعليكم أن تراقبوه ولا تغفلوا عنه ففيه حثّ وتحريض على المراقبة وخاصّة على القول الأوّل .

قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالّتي هي أحسن إلّا الّذين ظلموا منهم » لمّا أمر في قوله : « اتل ما اُوحي إليك» الخ بالتبليغ و الدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقّبه ببيان كيفيّة الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب وهم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس والصابئون ـ إلاّ بالمجادلة الّتي هى أحسن المجادلة .

والمجادلة إنّما تحسن إذا لم تتضمّن إغلاظا وطعنا و إهانة ، فمن حسنها أن تقارن رفقاً ولينا في القول لا يتأذّى به الخصم وأن يقترب المجادل من خصمه ويدنو منه حتّى يتّفقا ويتعاضدا لإظهار الحقّ من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن .

ولهذا لمّا نهى عن مجادلتهم إلاّ بالّتي هي أحسن استثنى منه الّذين ظلموا منهم فإنّ المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق واللين و الاقتراب في المطلوب بل يتلقّى حسن الجدال نوع مذلّة وهوان للمجادل ويعتبره تمويها واحتيالاً

لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجع معهم المجادلة بالأحسن .

ولهذا أيضاً عقّب الكلام ببيان كيفيّة الاقتراب معهم وبناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه ويتعاضدان على ظهور الحقّ فقال : « وقولوا آمنّا بالّذي أُنزل إلينا واُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون » أي على تلك الصفة وهي الإسلام لله و تصديق كتبه ورسله أنزلنا إليك القرآن .

وقيل : المعنى مثل ما أنزلنا إلى موسى وعيسى الكتاب أنزلنا إليك الكتاب وهو القرآن .

فقوله : « فالّذين آتيناهم الكتاب » الخ تفريع على نحو نزول الكتاب أي لمّا كان القرآن نازلا في الإسلام لله وتصديق كتبه ورسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله وتصديق كتبه ورسله ، ومن هؤلاء وهم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به وما يجحد بآياتنا ولا ينكرها من أهل الكتاب وهؤلاء المشركين إلّا الكافرون وهم الساترون للحقّ بالباطل .

وقد احتمل أن يكون المراد بالّذين آتيناهم الكتاب المسلمين و المشار إليه بهؤلاء أهل الكتاب وهو بعيد ، ومثله في البعد إرجاع الضمير في « يؤمن به » إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله .

و في قوله : « ومن هؤلاء من يؤمن به » نوع استقلال لمن آمن به من المشركين.

قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط والمراد به في الآية الثاني بقرينة المقام ، والخطّ الكتابة ، والمبطلون جمع مبطل وهو الّذي يأتي بالباطل من القول ، ويقال أيضاً للّذي يبطل الحقّ أي يدّعي بطلانه والأنسب في الآية المعني الثاني وإن جاز أن يراد المعني الأوّل .

وظاهر التعبير في قوله: « وما كنت تتلو » الخ نفي العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلو وتخطّ كما يدلّ عليه قوله في موضع آخر: « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله » يونس: ١٦ .

وقيل المراد به نفي القدرة أي ما كنت تقدر أن تتلو وتخطّ من قبله والوجه الأوّل أنسب بالنسبة إلى سياق الحجّة وقد أقامها لتثبيت حقّيّة القرآن ونزوله من عنده .

وتقييد قوله: « ولا تخطّه » بقوله: « بيمينك » نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل: رأيته بعيني وسمعته بأذني .

والمعنى وما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرء كتابا ولا كان من عادتك أن تخطّ كتابا وتكتبه ـ أي ما كنت تحسن القراءة والكتابة لكونك اُمّيّا ـ ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الّذين يبطلون الحقّ بدعوى أنّه باطل لكن لمّا لم تحسن القراءة والكتابة واستمررت على ذلك وعرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم ومعاشرتك معهم لم يبق محلّ ريب لهم في أمر القرآن النازل إليك أنّه كلام الله تعالى وليس تلفيقا لفّقته من كتب السابقين ونقلته من أقاصيصهم وغيرهم حتّى يرتاب المبطلون ويعتذروا به .

قوله تعالى: « بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين اُوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلّا الظالمون » إضراب عن مقدّر يستفاد من الآية السابقة كأنّه لمّا نفى عنه صلّى الله عليه وآله التلاوة والخطّ معا تحصّل من ذلك أنّ القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدّر بقوله: « بل هو ـ أي القرآن ـ آيات بيّنات في صدور الّذين اُوتوا العلم » .

وقوله: « وما يجحد بآياتنا إلّا الظالمون » المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عنادا وتعنّتا .

قوله تعالى: « وقالوا لولا اُنزل عليه آيات من ربّه قل إنّما الآيات عند الله وإنّما أنا نذير مبين » لمّا ذكر الكتاب وأمر النبيّ ﷺ أن يتلوه ويدعوهم إليه به وأنّ منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وهم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية

والآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الّذي هو آية النبوّة واقتراحهم على النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يأتيهم بآيات غيره والجواب عنه .

فقوله : « وقالوا لولا اُنزل عليه آيات من ربّه » اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضاً منهم أنّه ليس بآية وزعماً منهم أنّ النبيّ يجب أن يكون ذا قوّة إلهيّة غيبيّة يقوى على كلّ ما يريد ، وفي قولهم : لولا اُنزل عليه، دون أن يقولوا: لولا يأتينا بآيات نوع سخريّة كقولهم : « يا أيّها الّذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون لوما تأتينا بآية إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ .

وقوله : « قل إنّما الآيات عندالله » جواب عن زعمهم أنّ من يدّعي الرسالة يدّعي قوّة غيبيّة يقدر بها على كلّ ما أراد بأنّ الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد و كيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره فليس إلى النبيّ شيء إلّا أن يشاء الله ثمّ زاده بيانا بقصر شأن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في الإنذار فحسب بقوله : « وإنّما أنا نذير مبين » .

قوله تعالى : « أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » إلى آخر الآية توطئة و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنّه ليس بآية ، والاستفهام للانكار و الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أي يكفيهم آيةً هذا الكتاب الّذي أنزلناه عليك وهو يتلى عليهم فيسمعونه ويعرفون مكانته من الإعجاز وهو مملوّ رحمة و تذكرة للمؤمنين .

قوله تعالى : « قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً» إلقاء جواب إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليجيبهم به و هو أنّ الله سبحانه شهيد بيني وبينكم فيما نتخاصم فيه وهو أمر الرسالة فإنّه سبحانه يشهد في كلامه الّذي أنزله عليّ برسالتي وهو تعالى يعلم ما في السماوات والأرض من غير أن يجهل شيأ وكفى بشهادته لي دليلا على دعواي .

وليس لهم أن يقولوا إنّه ليس بكلام الله لمكان تحدّيه مرّة بعد مرّة في خلال الآيات ومنه يعلم أنّ قوله : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم » ليس دعوى مجرّدة أو كلاماً خطابيّاً بل هو بيان استدلاليّ وحجّة قاطعة على ماعرفت .

وقوله «و الّذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اُولئك هم الخاسرون» قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الّذي فيه شهادته على الرسالة وهم بكفرهم بالله

الحقّ يؤمنون بالباطل ولذلك خسروا في إيمانهم .

قوله تعالى : « و يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمّى لجاءهم العذاب وليأتينّهم بغتة وهم لا يشعرون » إشارة إلى قولهم كقول متقدّميهم : ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وقد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله : « و لئن أخّرنا عنهم العذاب إلى اُمّة معدودة ليقولنّ ما يحبسه » هود : ٨ .

والمراد بالأجل المسمّى هو الّذي قضاه لبني آدم حين أهبط آدم إلى الأرض فقال : « ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ ، وقال : « ولكلّ اُمّة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الأعراف : ٣٤ .

وهذا العذاب الّذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمّى هو الّذي يستحقّونه لمطلق أعمالهم السيّئة كما قال عزّ من قائل : « وربّك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » الكهف : ٥٨ ولا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إمهال وإنظار قال تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون » أسرى : ٥٩ .

قوله تعالى : « يستعجلونك بالعذاب و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب » إلى آخر الآية تكرار « يستعجلونك » للدلالة على كمال جهلهم وفساد فهمهم وأنّ استعجالهم استعجال لأمر مؤجّل لا معجّل أوّلا و استعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنّهم مجزيّون بأعمالهم الّتي لا تفارقهم ثانيا .

والغشاوة والغشاية التغطية بنحو الإحاطة وقوله : « يوم يغشاهم » ظرف لقوله : « محيطة » والباقي ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « وما يعقلها إلّا العالمون » روى الواحديّ بالإسناد عن جابر قال : تلا النبيّ صلّى الله عليه وآله هذه الآية وقال : العالم الّذي يعقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه .

وفيه في قوله تعالى : « إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وروى أنس بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه وآله من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بعدا .

اقول : ورواه في الدرّ المنثور عن عمران بن الحصين وابن مسعودوابن عباس و ابن عمر عنه ﷺ ورواه القميّ في تفسيره مضمراً مرسلاً .

وفيه وأيضاً عن النبيّ ﷺ : لاصلاة لمن لم تطع الصلاة وطاعة الصلاة أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر .

اقول : ورواه في الدرّ المنثور عن ابن مسعود وغيره .

وفيه وروى أنس أنّ فتى من الأنصار كان يصلّي الصلوات مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ فقال : إنّ صلاته تنهاه يوما مّا .

وفيه وروى أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من أحبّ أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل ، فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء و المنكر فبقدر مامنعته قبلت صلاته .

وفي تفسير القميّ في قوله تعالى : « ولذكرالله أكبر » في رواية أبي الجارودعن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « و لذكر الله أكبر » يقول : ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إيّاه ألاترى أنّه يقول : « اذكروني أذكركم » .

أقول : وهذا أحد المعاني الّتي تقدّم نقلها .

و في نور الثقلين عن مجمع البيان و روى أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ذكرالله عندما أحلّ وحرّم .

وفيه عن معاذبن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عزّ وجلّ .

وفيه وقال ﷺ : يامعاذ إنّ السابقين الّذين يسهرون بذكرالله عزّ وجلّ ومن أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليكثر من ذكر الله عزّ وجلّ .

وفي الكافي بإسناده عن العبديّ عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : «بل

هو آيات بيّنات في صدور الّذين اُوتوا العلم » قال : هم الأئمّة .

أقول : وهذا المعنى مرويّ في الكافي وفي بصائر الدرجات بعدّة طرق : وهو من الجري بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية .

وفي البصائر بإسناده عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له : « بل هو آيات بيّنات في صدور الّذين اُوتوا العلم » فقال : أنتم هم من عسى أن يكونوا ؟

وفي الدرّ المنثور أخرج الإسماعيليّ في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة قال : كان ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : إنّ أحمق الحمق وأضلّ الضلالة قوم رغبوا عمّا جاء به نبيّهم إلى نبيّ غير نبيّهم و إلى اُمّة غير اُمّتهم ثمّ أنزل الله « أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » الآية .

و فيه أخرج ابن عساكر عن ابن أبي مليكة قال : أهدى عبدالله بن عامر بن كريز إلى عائشة هديّة فظنّت أنّه عبدالله بن عمر فردّتها و قالت : يتتبّع الكتب وقد قال الله : « أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فقيل لها : إنّه عبدالله بن عامر فقبلتها .

أقول : ظاهر الروايتين وخاصّة الاُولى نزول الآية في بعض الصحابة وسياق الآيات يأبى ذلك .

☆ ☆ ☆

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) .

﴿ بيان ﴾

لمّا استفرغ الكلام في توبيخ من ارتدّ عن دينه من المؤمنين خوف الفتنة عطف الكلام على بقيّة المؤمنين ممّن استضعفه المشركون بمكّة وكانوا يهدّدونهم بالفتنة والعذاب فأمرهم أن يصبروا و يتوكّلوا على ربّهم و أن يهاجروا منها إن أشكل عليهم أمر الدين و إقامة فرائضه ، وأن لا يخافوا أمر الرزق فإنّ الرزق على الله سبحانه و هو يرزقهم إن ارتحلوا و هاجروا كما كان يرزقهم في مقامهم .

قوله تعالى : « يا عبادي الّذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون » توجيه للخطاب إلى المؤمنين الّذين وقعوا في أرض الكفر لا يقدرون على التظاهر بالدين الحقّ والاستنان بسنّته ويدلّ على ذلك ذيل الآية .

و قوله : « إنّ أرضي واسعة » الّذي يظهر من السياق أنّ المراد بالأرض هذه الأرض التي نعيش عليها و إضافتها إلى ضمير التكلّم للإشارة إلى أنّ جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أيّ قطعة منها كانت ، و وسعة الأرض كناية عن أنّه إن امتنع في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحقّ و العمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها

ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أيّ حال .

و قوله : « فإيّاي فاعبدون » الفاء الاُولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي و الفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام ، والظاهر أنّ تقديم « إيّاي » لإفادة الحصر فيكون قصر قلب والمعنى لاتعبدوا غيري بل اعبدوني ، و قوله : « فاعبدون » قائم مقام الجزاء .

و محصّل المعنى أنّ أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لعبادتي اُخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي ولاتعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا إلى غيرها و اعبدوني وحدي فيها .

قوله تعالى : « كلّ نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون » الآية تأكيد للأمر السابق في قوله : « فإيّاي فاعبدون » وكالتوطئة لقوله الآتي : « الّذين صبروا » الخ.

و قوله : « كلّ نفس ذائقة الموت » من الاستعارة بالكناية والمراد أنّ كلّ نفس ستموت لامحالة ، والالتفات في قوله : « ثمّ إلينا ترجعون » من سياق التكلّم وحده إلى سياق التكلّم مع الغير للدلالة على العظمة .

و محصّل المعنى أنّ الحياة الدنيا ليست إلّا أيّاماً قلائل و الموت وراءه ثمّ الرجوع إلينا للحساب فلا يصدّنّكم زينة الحياة الدنيا ــ وهي زينة فانية ــ عن التهيّؤ للقاء الله بالايمان والعمل ففيه السعادة الباقية و في الحرمان منه هلاك مؤبّد مخلّد .

قوله تعالى : «والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنّهم من الجنّة غرفا » الخ بيان لأجر الإيمان والعمل الصالح بعد الموت والرجوع إلى الله و فيه حثّ و ترغيب للمؤمنين على الصبر في الله والتوكّل على الله ، و التبوئة الإنزال على وجه الاقامة ، والغرف جمع غرفة وهي في الدار ، العليّة العالية .

و قد بيّن تعالى أوّلا ثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثمّ سمّاهم عاملين إذ قال : « و نعم أجر العاملين » ثمّ فسّر العاملين بقوله : « الّذين صبروا و على ربّهم يتوكّلون » فعاد بذلك الصبر و التوكّل سمة خاصّة للمؤمنين فدلّ بذلك كلّه أنّ المؤمن إنّما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله و توكّل عليه فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كلّ

أذى وجفوة ما يجد إلى العيشة الدينيّة سبيلا فإذا تعذّرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج و ليهاجر إلى أرض غيرها وليصبر على ما يصيبه من التعب والعناء في الله .

قوله تعالى : « الّذين آمنوا و على ربّهم يتوكّلون » وصف للعاملين ، والصبر أعمّ من الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية ، و إن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكّة المأمورين بالهجرة .

قوله تعالى : « وكأيّن من دابّة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإيّاكم و هو السميع العليم » كأيّن للتكثير ، و حمل الرزق هو ادّخاره كما يفعله الإنسان و النمل والفار والنحل من سائر الحيوان .

و في الآية تطييب لنفس المؤمنين و تقوية لقلوبهم أنّهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا و لا يموتون جوعا فرازقهم ربّهم دون أوطانهم يقول : و كثير من الدوابّ لا رزق مدّخر لها يرزقها الله و يرزقكم معاشر الآدميّين الّذين يدّخرون الأرزاق وهو السميع العليم .

و في تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى الحجّة على مضمونها و هو أنّ الإنسان و سائر الدوابّ محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم إليه والله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه و مقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم .

(بحث روائي)

في تفسير القمّي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يا عبادي الّذين آمنوا إنّ أرضي واسعة » يقول : لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإنّ أرضي واسعة ، وهو يقول : « فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض » فقال : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

و في المجمع و قال أبو عبد الله عليه السلام : معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فاخرج منها إلى غيرها .

و في العيون بإسناده إلى الرضا عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لمّا نزلت « إنّك ميّت و إنّهم ميّتون » قلت : يا ربّ أيموت الخلائق كلّهم و يبقى الأنبياء ؟ فنزلت « كلّ نفس ذائقة الموت » .

اقول : و رواه أيضاً في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن عليّ ، ولا يخلو متنه عن شيء فإنّ قوله : « إنّك ميّت و إنّهم ميّتون » يخبر عن موته صلى الله عليه وآله وسلم و موت سائر الناس ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أنّ الأنبياء المتقدّمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله : أيموت الخلائق كلّهم ويبقى الأنبياء .

و في المجمع عن عطاء عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى دخلنا بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر و يأكل فقال لي : يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله . قال : أنا أشتهيه و هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما و لو شئت لدعوت ربّي فأعطاني مثل ملك كسرى و قيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت مع قوم يخبأون رزق سنتهم لضعف اليقين فوالله ما برحنا حتّى نزلت « و كأيّن من دابّة لا تحمل رزقها الله يرزقها و إيّاكم و هو السميع العليم » .

أقول : و قد روى الرواية في الدرّ المنثور و ضعّف سندها وهي مع ذلك لا تلائم وقوع الآية في سياق ما تقدّمها .



☆ ☆ ☆

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ اِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهٰا لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمٰا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيٰا اِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ اِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوٰانُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَاِذٰا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰيهُمْ اِلَى الْبَرِّ اِذٰاهُمْ يُشْرِكُونَ(٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللّٰهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكٰافِرِينَ (٦٨) وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ اِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

﴿ بيان ﴾

الآيات تصرف الخطاب عن المؤمنين إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو في المعنى خطاب عامّ يشمل الجميع و إن كان في اللفظ خاصّا به صلى الله عليه و آله و سلم لأنّ الحجج المذكورة فيها ممّا يناله الجميع .

والآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما اُلقي في الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به فإنّهم يعترفون أنّ خالق السماوات والأرض و مدبّر الشمس والقمر ـ و عليهما مدار الأرزاق ـ هو الله و أنّ منزل الماء من السماء و محيي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه ثمّ يدعون غيره ليرزقهم وهم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثمّ إذا أنجاهم عبدوا غيره و يقيمون في حرم آمن و هو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل و يجحدون الحقّ و يكفرون بنعمة الله .

و ما ختمت به السورة من قوله : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » يلائم ما في مفتتح السورة « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ـ إلى أن قال ـ و من جاهد فإنّما يجاهد لنفسه » الخ .

قوله تعالى : « و لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض و سخّر الشمس والقمر ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون » .

خلق السماوات والأرض من الايجاد وتسخير الشمس و القمر ـ و ذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع والغروب والقرب والبعد من الأرض ـ من التدبير الّذي يتفرّع عليه كينونة أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق والتدبير لا ينفكّ أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر .

و إذا كان الله هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونة الأرزاق كان هو الّذي يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممّن لا يملك شيئاً و هو قوله : « فأنّى يصرفون » أي فإذا كان الخلق و تدبير الشمس والقمر إليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام وعبادته .

قوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له إنّ الله بكلّ شيء عليم » في الآية تصريح بما تلوّح إليه الآية السابقة ، والقدر التضييق ويقابله البسط والمراد به لازم معناه و هو التوسعة ، و وضع الظاهر موضع المضمر في قوله : « إنّ الله بكلّ شيء عليم » للدلالة على تعليل الحكم والمعنى وهو بكلّ شيء عليم لأنّه الله .

و المعنى الله يوسّع الرزق على من يشاء من عباده ويضيّقه على من يشاء ـ ولا يشاء إلّا على طبق المصلحة ـ لأنّه بكلّ شيء عليم لأنّه الله الّذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال .

قوله تعالى : «ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ـ إلى قوله ـ لا يعقلون » المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات في الربيع .

وقوله : « قل الحمد لله » أي احمد الله على تمام الحجّة عليهم باعترافهم بأنّ الله هو المدبّر لأمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام وأرباب الأصنام .

وقوله : « بل أكثرهم لا يعقلون» أي لا يتدبّرون الآيات ولا يحكّمون العقول حتّى يعرفوا الله ويميّزوا الحقّ من الباطل فهم لا يعقلون حقّ التعقّل .

قوله تعالى « وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإنّ الدار الآخره لهي الحيوان لوكانوا يعلمون» اللهو ما يلهيك ويشغلك عمّا يهمّك فالحياة الدنيا من اللّهو لأنّها تلهي الإنسان و تشغله بزينتها المزوّقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية .

و اللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاماً خيالياً لغاية خيالية كملاعب الصبيان والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه و يتولّعون به ساعة ثمّ يتفرّقون وسرعان ما يتفرّقون .

على أنّ عامّة المقاصد الّتي يتنافس فيها المتنافسون ويتكالب عليه الظالمون اُمور وهميّة سرابيّة كالأموال والأزواج والبنين وأنواع التقدّم والتصدّر والرئاسة والمولوية و الخدم والأنصار وغيرها فالإنسان لا يملك شيأ منها إلّا في ظرف الوهم والخيال .

وأمّا الحياة الآخرة الّتي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعيّ الّذي اكتسبه بإيمانه وعمله الصالح فهي المهمّة الّتي لا لهو في الاشتغال بها والجدّ الّذي لا لعب فيها ولا لغو ولا تأثيم ، والبقاء الّذي لا فناء معه ، واللّذّة التي لا ألم عندها ، والسعادة الّتي لا شقاء دونها ، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة .

و هذا معنى قوله سبحانه : « وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب و إنّ الدار الآخرة لهي الحيوان » .

وفي الآية ـ كما ترى ـ قصر الحياة الدنيا في اللّهو واللّعب والإشارة إليها بهذه المفيدة للتحقير وقصر الحياة الآخرة في الحيوان وهو الحياة وتأكيده بأدوات التأكيد كإنّ واللّام وضمير الفصل والجملة الاسميّة .

وقوله : « لوكانوا يعلمون » أي لوكانوا يعلمون لعلموا أنّ الأمر كما وصفنا .

قوله تعالى : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذاهم يشركون» تفريع على ما تحصّل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنّهم يؤفكون وأنّ كثيراً منهم لا يعقلون أي لمّا كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والجحد فإذاركبوا الخ .

والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرّك و هو متعدّ بنفسه و تعديته في الآية بفي لتضمّنه معنى الاستقرار أوما يشبهه والمعنى فإذا ركبوا مستقرّين في الفلك أو استقرّوا في الفلك راكبين ، ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضا آخر وكفرانا للنعمة .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم و ليتمتّعوا فسوف يعلمون » اللّام في « ليكفروا » و « ليتمتّعوا » لام الأمر و أمرالآمر بما لا يرتضيه تهديد و إنذار كقولك لمن تهدّده : « افعل ما شئت » قال تعالى : « اعملوا ما شئتم إنّه بما تعملون بصير » حمٓ السجدة : ۴۰ .

و احتمل كون اللّام للغاية والمعنى أنّهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم إلى كفران النعمة الّتي آتيناهم وإلى التمتّع ، و أوّل الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية : « فسوف يعلمون» و يؤيّده قوله في موضع آخر : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوافسوف تعلمون » الروم : ۳۴ و لذا قرأه من قرء « و ليتمتّعوا » بسكون اللّام إذ لا يسكن غير لام الأمر .

قوله تعالى : « أولم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا و يتخطّف الناس من حولهم» الحرم الآمن هو مكّة و ما حولها وقد جعله الله مأمنا بدعاء إبراهيم عليه السلام والتخطّف كالخطف استلاب الشيء بسرعة و اختلاسه و قد كانت العرب يومئذ تعيش في التغاور

والتناهب و لا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل والسبي والنهب لكنّهم يحترمون الحرم ولا يتعرّضون لمن أقام بها فيها .

والمعنى أولم ينظروا أنّا جعلنا حرما آمنا لا يتعرّض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب و الحال أنّ الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم .

و قوله : « أفبالباطل يؤمنون و بنعمة الله يكفرون » توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة وهي نعمة عظيمة بالكفران لكنّهم يؤمنون بالأصنام وهي باطلة ليس لها إلّا الاسم .

قوله تعالى : « و من أظلم ممّن افترى على الله كذبا أو كذّب بالحق لمّا جاءه أليس في جهنّم مثوى للكافرين » تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشدّ الظلم و أعظمه وهو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة و أنّ الله اتّخذهم شركاء لنفسه ، و تكذيب الإنسان بالحقّ لمّا جاءه والوصفان جميعا موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام و كذّبوا بالقرآن لمّا جاءهم فهم كافرون و مثوى الكافرين و محلّ إقامتهم في الآخرة جهنّم .

قوله تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ الله لمع المحسنين » الجهد الوسع والطاقة والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدوّ الظاهر و مجاهدة الشيطان و مجاهدة النفس كذا ذكره الراغب .

و قوله : «جاهدوا فينا » أي استقرّ جهادهم فينا و هو استعارة كنائيّة عن كون جهده مبذولا فيما يتعلّق به تعالى من اعتقاد و عمل ، فلا ينصرف عن الإيمان به و الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه .

و قوله : « لنهدينّهم سبلنا » أثبت لنفسه سبلا وهي أيّاًمّا كانت تنتهي إليه تعالى فإنّما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل وهو غايتها فسبله هي الطرق المقرّبة منه والهادية إليه تعالى ، و إذ كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية إلى السبل هداية على هداية فتنطبق على مثل قوله تعالى : « و الّذين اهتدوا زادهم هدى » القتال : ١٧ .

ومما تقدم يظهر أن لاحاجة في قوله : « فينا » إلى تقدير مضاف كشأن والتقدير في شأننا .

و قوله : « و إن الله لمع المحسنين » قيل : أي معية النصرة و المعونة و تقدم الجهاد المحتاج إليهما قرينة قوية على إرادة ذلك انتهى وهو وجه حسن و أحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة و العناية فيشمل معية النصرة والمعونة و غيرهما من أقسام العنايات الّتي له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم و شمول رحمته لهم ، و هذه المعيّة أخص من معيّة الوجود الّذي ينبىء عنه قوله تعالى : «و هو معكم أينما كنتم» الحديد : ٤ .

و قد تقدمت الإشارة إلى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الحيوان و هو يسعى لدار الغرور .

و فيه أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا و العرب أكثر منا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً » الآية .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولأشياعهم .

سورة الروم مكيّة وهي ستّون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللّٰهِ لَا يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠) اللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَؤُا وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ

فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَ امَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩).

﴿ بيان ﴾

تفتتح السورة بوعد من الله وهو أنّ الروم ستغلب الفرس في بضع سنين بعد انهزامهم أيّام نزول السورة عن الفرس ثمّ تنتقل منه إلى ذكر ميعاد أكبر وهو الوعد بيوم يرجع الكلّ فيه إلى الله وتقيم الحجّة على المعاد ثمّ تنعطف إلى ذكر آيات الربوبيّة وتصف صفاته تعالى الخاصّة به ثمّ تختتم السورة بوعد النصر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و تؤكّد القول فيه إذ تقول : « فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفّنّك الّذين لا يوقنون » وقد قيل قبيل ذلك : « وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين » .

فغرض السورة هو الوعد القطعيّ منه تعالى بنصره دينه وقد قدّم عليه نصر الروم على الفرس في بضع سنين من حين النزول ليستدلّ بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد ، وكذا يحتجّ به ومن طريق العقل على أنّه سينجز وعده بيوم القيامة لاريب فيه .

قوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الأرض» الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطوريّة وسيعة منبسطة إلى الشامات وقعت بينهم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريب من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت الروم ، والظاهر أنّ المراد بالأرض أرض الحجاز واللّام للعهد .

قوله تعالى : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» ضمير الجمع الأوّل للروم وكذا الثالث و أمّا الثاني فقد قيل إنّه للفرس والمعنى والروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون ، ويمكن أن يكون الغلب من المصدر المبنيّ للمفعول والضمير للروم كالضميرين قبلها وبعدها فلا تختلف الضمائر والمعنى والروم من بعد مغلوبيّتهم سيغلبون . و البضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة .

قوله تعالى : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قبل وبعد مبنيّان على الضمّ فهناك مضاف إليه مقدّر و التقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم ومن بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

وقيل المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين والمعنى الأوّل أرجح إن لم يكن راجحاً متعيّناً .

قوله تعالى : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » الظرف متعلق بيفرح وكذا قوله : «بنصر» والمعنى ويوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم ، ثمّ استأنف و قال : « ينصر من يشاء » تقريراً لقوله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

وقوله : « وهو العزيز الرحيم » أي عزيز يعزّ بنصره من يشاء رحيم يخصّ برحمته من يشاء .

و في الآية وجوه اُخر ضعيفة ذكروها :

منها أنّ قوله : « و يومئذ » عطف على قوله : « من قبل » والمراد به شمول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل و الحال كأنّه قيل : لله الأمر من قبل و من بعد ويومئذ ثمّ ابتدء و قيل : يفرح المؤمنون بنصر الله . و فيه أنّه يبطل انسجام الآية و ينقطع به آخرها عن أوّلها .

و منها أنّ قوله : « بنصر » متعلّق بقوله : « المؤمنون » دون « يفرح » ويدلّ بالملازمة المقاميّة أنّ غلبة الروم بنصر من الله .

و فيه أنّ لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس و يوم غلبة الروم جميعا فإنّ في الغلبة نصرا و كلّ نصرمن الله قال تعالى : « وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران : ١٢۶ فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجّح فافهمه .

ومنها أنّ المرادبنصرالله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدردون نصرالروم على الفرس و إن توافق النصران زمانا فكانّه قيل : إنّ الروم سيغلبون في بضع سنين و يوم يغلبون يغلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصرالله إيّاهم .

و فيه أنّ هذا المعنى لا يلائم قوله بعد : « ينصر من يشاء »

و منها أنّ المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم ، و قيل : النصر هو استيلاء بعض الكفّار على بعض و تفرّق كلمتهم و انكسار شوكتهم . و هذان وما يشبههما وجوه لا يعبؤبها .

قوله تعالى : « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » « وعد الله» مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد الله وعداً وإخلاف الوعد خلاف إنجازه وقوله : « وعدالله » تأكيد وتقرير للوعد السابق في قوله : « سيغلبون » و « يفرح المؤمنون » كما أنّ قوله : « لا يخلف الله وعده » تأكيد و تقرير لقوله : « وعدالله » .

و قوله : « لا يخلف الله وعده » كقوله : « إنّ الله لا يخلف الميعاد » الرعد : ٣١ و خلف الوعد وإن لم يكن قبيحا بالذات لأنّه ربّما يحسن عندالاضطرار لكنّه سبحانه لا يضطرّه ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال .

على أنّ خلف الوعد يلازم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى .

على أنّه تعالى أخبر في كلامه بأنّه لايخلف الميعاد و هوأصدق الصادقين و هو القائل عزّمن قائل : « والحقّ أقول » ص : ٨۴ .

و قوله : « ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » أي هم جهلاء بشؤونه تعالى لايثقون بوعده و يقيسونه إلى أمثالهم ممّن يصدّق و يكذب و ينجز ويخلف .

قوله تعالى : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »

جملة « يعلمون » على ما ذكره في الكشّاف بدل من قوله : « لا يعلمون » و في هذا الإبدال من النكتة أنّه أبدله منه و جعله بحيث يقوم مقامه و يسدّ مسدّه ليعلمك أنّه لا فرق بين عدم العلم الّذي هو الجهل و بين وجود العلم الّذي لا يتجاوز الدنيا انتهى .

و قيل : الجملة استئنائيّة لبيان موجب جهلهم بأنّ وعد الله حقّ و أنّ لله الأمر من قبل و من بعد و أنّه ينصر المؤمنين على الكافرين . انتهى و هذا أظهر .

و تنكير « ظاهراً » للتحقير و ظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها و هو الّذي يناله حواسّهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم إلى اقتنائها والعكوف عليها والإخلاد إليها و نسيان ماوراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلّقة بها والغفلة عمّا فيه خيرهم و نفعهم بحقيقة معنى الكلمة .

و قيل : الظهور في الآية بمعنى الزوال و استشهد بقوله :

و عيّرها الواشون أنّي اُحبّها	وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمعنى يعلمون أمراً زائلا لا بقاء له لكنّه معنى شاذّ الاستعمال .

قوله تعالى : « أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض و ما بينهما إلّا بالحقّ و أجل مسمّى » الخ المراد من خلق السماوات والأرض و ما بينهما - و ذلك جملة العالم المشهود - بالحقّ أنّها لم تخلق عبثا لا غاية لها وراءها بأن يوجد و يعدم ثمّ يوجد ثمّ يعدم من غير غرض و غاية فهو تعالى إنّما خلقها لغاية تترتّب عليها .

ثمّ إنّ العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتّى يحتمل كون كلّ جزء لاحق غاية للجزء السابق و كلّ آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم وهذا المعنى هوالمراد بتقييد قوله : « ما خلق الله السماوات والأرض و ما بينهما » بقوله : « وأجل مسمّى » بعد تقييده بقوله : « إلّا بالحقّ » .

فقوله : «أولم يتفكّروا في أنفسهم » الاستفهام للتعجيب ، وكونهم في أنفسهم استعارة كنائيّة عن فراغ البال وحضور الذهن كأنّهم عند اشتغالهم باُمور الدنيا وسعيهم للمعيشة

و تشوّش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرّين في أنفسهم فيكون تفكّرهم حينئذ مجتمعا غير متفرّق فيهديهم إلى الحقّ و يرشدهم إلى الواقع .

وقيل : المراد بتفكّرهم في أنفسهم أن يتفكّروا في خلق أنفسهم و أنّ الواحد منهم محدث و المحدث ـ بالفتح ـ يحتاج إلى محدث ـ بالكسر ـ قديم حيّ قادر عليم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثا بل لغاية مطلوبة وليست تعود إليه نفسه لغناه المطلق بل إلى الخلق و هو الثواب ولا يكون إلّا لصالح العمل فلا بدّ من دين مشرّع يميّز العمل الصالح من السيّىء فلا بدّ من دار يمتحنون فيها وهي الدنيا و دار يثابون فيها وهي الآخرة .

و فيه أنّ الجملة أعني قوله : « أولم يتفكّروا في أنفسهم » صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتّصال قوله : « ما خلق الله السماوات » الخ بها يأباه لاستلزامه بطلان الاتّصال لعدم الارتباط بين صدر الآية و ذيلها على هذا التقدير .

وقوله : « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ و أجل مسمّى » هو الفكر الّذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم و تقريره على ما تقدّم أنّ الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلّا ولا بعضا إلّا خلقا ملابسا للحقّ أو مصاحبا للحقّ أي لغاية حقيقيّة لا عبثا لا غاية له و إلّا إلى أجل معيّن فلا يبقى شيء منها إلى مالا نهاية له بل يفنى و ينقطع و إذا كان كلّ من أجزائه والمجموع مخلوقا ذا غاية تترتّب عليها و ليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتّبة عليه بعد انقطاع وجوده و فنائه ، و هذا هو الآخرة الّتي ستظهر بعد انقضاء الدنيا و فنائها .

و قوله : « و إنّ كثيرا من الناس بلقاء ربّهم كافرون » مسوق سوق التعجيب كما بدئت الآية باستفهام التعجيب ، والمراد بلقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد ، وقد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجبا فكيف يمكن أن يتبدؤا منه ثمّ لا ينتهوا إليه ، و لذلك أكّده بإنّ إشارة إلى أنّ الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدّق به .

قوله تعالى : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم »

إلى آخر الآية ، لمّا ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد وذلك أمر يلغو معه الدين الحقّ ذكّرهم حال الاُمم الكافرة وما انتهت إليه من سوء العذاب لعلّهم يعتبرون بها فيرجعوا عمّا هم عليه من الكفر. وإثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث والتعمير ونحو ذلك .

و قوله : « و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي بالكفر و المعاصي .

قوله تعالى : « ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤا السوآى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » بيان لما انتهى إليه أمر اُولئك الظالمين ولذا عبّر بثمّ و« عاقبة » بالنصب خبر كان و اسمه « السوآى » قدّم الخبر عليه لإفادة الحصر و « أساؤا » مقطوع عن المتعلّق بمعنى عملوا السوء ، والسوآى الخلّة الّتي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و « أن كذّبوا بآيات الله » بحذف لام التعليل و التقدير لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها .

والمعنى ثمّ كان سوء العذاب هو الّذي انتهى إليه أمر اُولئك الّذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها .

و قيل : إنّ « السوآى » مفعول لقوله : « أساؤا » و خبر كان هو قوله : « أن كذّبوا » الخ والمراد أنّ المعاصي ساقتهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها .

و فيه أنّه في نفسه معنى صحيح لكنّ المناسب للمقام هو المعنى الأوّل لأنّ المقام مقام الاعتبار والإنذار والمناسب له بيان انتهاء معاصيهم إلى سوء العذاب لا انتهاء معاصيهم المتفرّقة إلى التكذيب والاستهزاء الّذي هو أعظمها .

قوله تعالى : « الله يبدء الخلق ثمّ يعيده ثمّ إليه ترجعون » بعد ما ذكر الحجّة و تكذيب كثير من الناس لخّص القول في نتيجتها و هو أنّ البدء والعود بيده سبحانه و سيرجع إليه الجميع ، والمراد بالخلق المخلوقون و لذا أرجع إليه ضمير الجمع في « ترجعون » .

قوله تعالى : « و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع إليه تعالى للحساب والجزاء ، والإبلاس اليأس عن الله و فيه كلّ الشقاء .

قوله تعالى : « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » يريد أنّهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتّخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله و كانوا بعبادة شركائهم كافرين ساترين .

قوله تعالى : « و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون ـ إلى قوله ـ محضرون » قال في المجمع : الروضة البستان للتناهي منظراً وطيباً انتهى ، و قال في المفردات : الحبر الأثر المستحسن ـ إلى أن قال ـ وقوله عزّ وجلّ : « في روضة يحبرون » أي يفرحون حتّى يظهر عليهم حبار نعيمهم انتهى .

والمراد بتفرّق الخلق يومئذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول اُولئك الجنّة على ما يشير إليه الآيتان التاليتان .

و لزوم هذا التميّز و التفرّق في الوجود هو الّذي أخذه الله سبحانه حجّة على ثبوت المعاد حيث قال : « أم حسب الّذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالّذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون » الجاثية : ٢١ .

قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض و عشيّاً و حين تظهرون » لمّا ذكر أنّه يبدء الخلق ثمّ يعيدهم و يرجعهم للقائه فيفرّقهم طائفتين أهل الجنّة والنعمة و أهل النار والعذاب أمّا أهل الجنّة فهم المؤمنون العاملون للصالحات و أمّا أهل النار فهم الكفّار المكذّبون لآيات الله و قد ذكر أنّهم كانوا في الدنيا أهل قوّة و نعمة لكنّهم نسوا الآخرة وكذّبوا بآيات الله واستهزؤا بها حتّى انتهى بهم الأمر إلى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فتحصّل من ذلك أنّ في دار الخلقة تدبيرا إلهيّا متقنا صالحا جميلا على أجمل ما يكون و أنّ للإنسان على توالي الأزمنة والدهور آثاماً و خطيئات من العقيدة السيّئة في حقّ ربّه واتّخاذ شركاء له و إنكار لقائه إلى سائر المعاصي .

ذيّل الكلام بتسبيحه كلّما تجدّد حين بعد حين و تحميده على صنعه و تدبيره

في السماوات والأرض وهومجموع العالم المشهود فهوسبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطلة و الأعمال الرديّة و محمود في جميع ما خلقه و دبّره في السماوات والأرض .

و من هناك يظهر :

أوّلا أنّ التسبيح و التحميد في الآيتين إنشاء تنزيه و ثناء منه تعالى لا من غيره حتّى يكون المعنى قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله فقدتكرّر في كلامه تعالى تسبيحه وتحميده لنفسه كقوله : « سبحان ربّك ربّ العزّة » الصافات : ١٨٠ وقوله : « الحمدلله الّذي نزّل الفرقان على عبده » الفرقان : ١ .

و ثانيا أنّ المراد بالتسبيح والتحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليوميّة المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدّرا والمعنى قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله .

و ثالثا أنّ قوله : « و له الحمد في السماوات و الأرض » معترضة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه ، و قوله : « و عشيّاً و حين تظهرون » معطوفان على محلّ « حين تمسون » لا على قوله : « في السموات والأرض » حتّى يختصّ المساء و الصباح بالتسبيح والسماوات والأرض والعشيّ والظهيرة بالتحميد بل الأوقات ومافيها للتسبيح والأمكنة و ما فيها للتحميد .

فالسياق يشير إلى أنّ ما في السماوات و الأرض من خلق وأمر هو لله يستدعي بحسنه حمداً و ثناءً لله سبحانه و أنّ للإنسان على مرّ الدهور و تغيّر الأزمنة والأوقات من الشرك والمعصية ما يتنزّه عنه ساحة قدسه تعالى و تقدّس .

نعم ههنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد والتسبيح وهو أنّ الأزمنة والاوقات على تغيّرها و تصرّمها من جملة ما في السموات و الأرض فهي بوجودها يثني على الله تعالى ، ثمّ كلّ مافي السماوات والأرض بفقرها إليه تعالى و ذلّتها دونه و نقصها بالنسبة إلى كماله تعالى تسبّحه كما قال : « وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده » أسرى : ٤٤ لكن هذا الاعتبار غير منظور إليه في الآيتين اللّتين نحن فيهما .

و للمفسّرين في الآيتين أقوال اُخر متفرّقة أشرنا إلى المهمّ منها في الوجوه الّتي قدّمناها .

و تغيير السياق في قوله : « و عشيّا » لكون العشيّ لم يبن منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء والصباح و الظهيرة حيث بني منها الإمساء والاصباح والإظهار بمعنى الدخول في المساء والصباح و الظهيرة كذا قيل .

و الخطاب الّذي في الآيتين في قوله : « تمسون وتصبحون و تظهرون » ليس من الالتفات في شيء بل تعميم للخطاب الّذى للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم منذ شرعت السورة والمعنى فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزّه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء و حينما دخلتم في صباح وفي العشيّ وحينما دخلتم في ظهيرة وله الثناء الجميل في السماوات و الأرض .

و نظير هذا التعميم ما في قوله سابقا : « و إليه ترجعون » ولاحقا في قوله : « و كذلك تخرجون » .

قوله تعالى : « يخرج الحيّ من الميّت و يخرج الميّت من الحيّ و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون » ظاهر إخراج الحيّ من الميّت و بالعكس خلق ذوي الحياة من الأرض الميتة ثمّ تبديل ذوي الحياة أرضا ميتة ، وقد فسّر بخلق المؤمن من الكافر و خلق الكافر من المؤمن فإنّه يعدّ المؤمن حيّا و الكافر ميتا قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نوراً » الانعام : ١٢٢ .

و أمّا إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض وابتهاجها بالنبات في الربيع والصيف بعد خمودها في الخريف والشتاء و قوله : « و كذلك تخرجون » أي تبعثون و تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها ، و قد تقدّم تفسير نظير صدر الآية و ذيلها مرارا .

﴿بحث روائى﴾

في الدرّ المنثور أخرج أحمد والترمذيّ و حسّنه والنسائي و ابن المنذر وابن أبي حاتم و الطبرانيّ في الكبير والحاكم و صحّحه وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل والضياء عن ابن عبّاس في قوله : « الٓمٓ غلبت الروم » قال : غُلبت وغَلبت .

قال : كان المشركون يحبّون أن يظهر فارس على الروم ، لأنّهم أصحاب أوثان و كان المسلمون يحبّون أن يظهر الروم على فارس لأنّهم أصحاب كتاب فذكروه لأبي-بكر فذكره أبوبكر لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أما إنّهم سيغلبون فذكره أبوبكر لهم فقالوا : اجعل بيننا و بينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا و كذا و إن ظهرتم كان لكم كذا و كذا فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال : ألاّجعلته - أراه قال : - دون العشر ، فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله : الم غلبت الروم فغُلبت ثمّ غَلبت بعد .

يقول الله : « لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » قال سفيان : سمعت أنّهم قد ظهروا يوم بدر .

اقول : و في هذا المعنى روايات اُخر مختلفة المضامين في الجملة ففي بعضها أنّ المقامرة كانت بين أبي بكر و اُبيّ بن خلف و في بعضها أنّها كانت بين المسلمين والمشركين و كان أبو بكر من قبل المسلمين و اُبيّ من قبل المشركين ، و في بعضها أنّها كانت بين الطائفتين ، و في بعضها بين أبي بكر و بين المشركين كما في هذه الرواية .

ثمّ الأجل المضروب في بعضها ثلاث سنين ، و في بعضها خمس ، و في بعضها ستّ ، و في بعضها سبع سنين .

و في بعضها أنّ الأجل المضروب أوّلا انقضى بمكّة و هو سبع سنين فمادّهم أبوبكر سنتين بأمر من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فغلبت الروم ، وفي بعضها خلافه .

ثمّ في بعضها أنّ الأجل الثاني انقضى بمكّة وفي بعضها أنّه انقضى بعد الهجرة و كانت غلبة الروم يوم بدر ، و في بعضها يوم الحديبية .

و في بعضها أنّ أبابكر لمّا قمرهم بغلبة الروم أخذ منهم الخطر و هو مائة قلوص و جاء به إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنّه سحت تصدّق به .

والّذي تتّفق فيه الروايات أنّه قامرهم فقمرهم وكان القمار بإشارة من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و وجّه ذلك بأنّه كان قبل تحريم القمار فإنّه حرّم مع الخمر في سورة المائدة وقد نزلت في آخر عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد تحقّق بما قدّمناه في تفسير آية الخمر و الميسر أنّ الخمر كانت محرّمة من أوّل البعثة و كان من المعروف من الدين أنّه يحرّم الخمرو الزنا .

على أنّ الخمر و الميسر من الإثم بنصّ آية البقرة : « يسألونك عن الخمرو الميسر قل فيهما إثم كبير » الآية البقرة : ۲۱۹ . والإثم محرّم بنصّ آية الأعراف : « قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهرمنها وما بطن و الإثم والبغي» الآية الأعراف: ۳۳ والأعراف من العتائق النازلة بمكّة فمن الممتنع أن يشير النبيّ صلى الله عليه وآله بالمقامرة .

و على تقدير تأخّر الحرمة إلى آخر عهد النبيّ صلى الله عليه وآله يشكل قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر لمّا أتى بالخطر إليه إنّه سحت ثمّ قوله : تصدّق به . فلاسبيل إلى تصحيح شيء من ذلك بالموازين الفقهيّة وقد تكلّفوا في توجيه ذلك بما لا يزيد إلّا إشكالا .

ثمّ إنّ ما في الرواية أنّ الفرس كانوا عبدة الأوثان لا يوافق ماكان عليه القوم فانهم وإن كانوا مشركين لكنّهم كانوا لا يتّخذون أوثانا .

و في تفسير القمّيّ في قوله : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون » قال : يرون حاضر الدنيا و يتغافلون عن الآخرة .

و في الخصال و سئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى : « أولم يسيروا في الأرض » فقال : أولم ينظروا في القرآن .

و في تفسير القمّيّ و قوله عزّوجلّ : « و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون » قال : إلى الجنّة والنار .

٭٭٭

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَ مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ ابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦).

﴿بيان﴾

يذكر في هذا الفصل عدّة من الآيات الدالّة على وحدانيّته تعالى في الربوبيّة والألوهيّة ، و يشار فيها إلى امتزاج الخلق والتدبير و تداخلهما ليتّضح بذلك أنّ الرّبوبيّة بمعنى ملك التدبير و الألوهيّة بمعنى المعبوديّة بالحقّ لا يستحقّهما إلّا الله الّذي خلق الأشياء و أوجدها لا كما يزعم الوثني أنّ الخلق لله وحده و التدبير والعبادة لأرباب الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عندالله ، و ليس له سبحانه إلّا أنّه ربّ

الأرباب و إله الآلهة .

قوله تعالى : « و من آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقة الإنسان إلى الأرض فإنّ مراتب تكوّن الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مركبات أرضيّة تنتهي إلى العناصر الأرضيّة .

و قوله : « ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » إذا فجائيّة أي يفاجئكم أنّكم أناسيّ تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيباب أرضيّة المترقّب منها كينونة أرضيّة ميتة اُخرى مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنّه يصير بشرا ذوي حياة و شعور عقليّ ينتشرون في الأرض في سبيل تدبير أمر الحياة فقوله : « ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون » في معنى قوله : « ثمّ أنشأناه خلقا آخر » المؤمنون : ١٤ .

فخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض و تأليفها آية و كينونة هذا المجموع إنسانا ذا حياة و شعور عقليّ آية أو آيات اُخر تدلّ على صانع حيّ عليم يدبّر الأمر و يجري هذا النظام العجيب .

و قد ظهر بهذا المعنى أنّ « ثمّ » للتراخي الرتبيّ و الجملة معطوفة على قوله : « خلقكم » لا على قوله : « أن خلقكم » .

قوله تعالى : « و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » إلى آخر الآية قال الراغب : يقال لكلّ واحد من القرينين من الذكر و الاُنثى من الحيوانات المتزاوجة : زوج و لكلّ قرينين فيها و في غيرها : زوج ، قال تعالى : « و جعل منه الزوجين الذكر و الاُنثى » وقال : « و زوجك الجنّة » و زوجة لغة رديئة و جمعها زوجات ـ إلى أن قال ـ و جمع الزوج أزواج . انتهى .

فقوله : « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » أي خلق لأجلكم ـ أو لينفعكم ـ من جنسكم قرائن و ذلك أنّ كلّ واحد من الرجل و المرأة مجهّز بجهاز التناسل تجهيزاً يتمّ فعله بمقارنة الآخر و يتمّ بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فكلّ واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر و يحصل من المجموع واحد تامّ له أن يلد و ينسل ، و لهذا النقص و الافتقار يتحرّك الواحد منهما إلى الآخر حتّى إذا اتّصل

به سكن إليه لأنّ كلّ ناقص مشتاق إلى كماله و كلّ مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره و هذا هو الشبق المودع في كلّ من هذين القرينين .

و قوله : « و جعل بينكم مودّة و رحمة » المودّة كأنّها الحبّ الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودّة إلى الحبّ كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الّذي هو نوع تأثّر نفسانيّ عن العظمة والكبرياء .

و الرحمة نوع تأثّر نفسانيّ عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال و حاجته إلى رفع نقيصته يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه .

و من أجلى موارد المودّة والرحمة المجتمع المنزليّ فإنّ الزوجين يتلازمان بالمودّة و المحبّة و هما معا و خاصّة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم من القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيويّة فيقومان بواجب العمل في حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم و لولا هذه الرحمة لانقطع النسل و لم يعش النوع قطّ .

و نظير هذه المودّة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدنيّ بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودّة ويرحم المساكين والعجزة والضعفاء الّذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة .

والمراد بالمودّة والرحمة في الآية الاُوليان على يعطيه مناسبة السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآية .

و قوله : « لآيات لقوم يتفكّرون » لأنّهم إذا تفكّروا في الاُصول التكوينيّة الّتي يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة و الاُنوثة الداعيتين إلى الاجتماع المنزليّ والمودّة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدنيّ ثمّ ما يترتّب على هذا الاجتماع من بقاء النوع و استكمال الإنسان في حياتيه الدنيا و الاُخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهيّة في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم .

قوله تعالى : «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» إلى آخر الآية . الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربيّة

والفارسيّة والأُردويّة وغيرها و باختلاف الأَلوان اختلاف الأُمم في ألوانهم كالبياض والسواد والصفرة والحمرة .

و يمكن أن يستفاد اختلاف الأَلسنة من جهة النغم والأَصوات ونحو التكلّم والنطق وباختلاف الأَلوان اختلاف كلّ فردين من أفراد الإِنسان بحسب اللون لودقّق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن .

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلقة على آيات دقيقة دالّة على أنّ الصنع والايجاد مع النظام الجاري فيه لايقوم إلّا بالله ولا ينتهي إلّا إليه .

قوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل و النهار و ابتغاؤكم من فضله » إلى آخر الآية ، الفضل الزيادة على مقدار الحاجة ويطلق على العطيّة لأنّ المعطي إنّما يعطي مافضل من مقدار حاجته ، والمراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق .

وفي خلق الإِنسان ذاقوى فعّالة تبعثه إلى طلب الرزق ورفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة والسعي ثمّ هدايته إلى الاستراحة والسكون لرفع متاعب السعي وتجديد تجهيز القوى وتخصيص الليل والنهار المتعاقبين للسعي والسكون والتسبيب إلى وجود الليل والنهار بأوضاع سماويّة قائمة بالأَرض والشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل مايسمع فإذا وجده حقّاً اتّبعه .

قال في الكشّاف في الآية : هذا من باب اللف وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلّا أنّه فصّل بين القرينين الأَوّلين بالقرينين الآخرين لأنّهما زمانان و الزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللفّ على الاتّحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاؤكم فيهما ، و الظاهر هو الأَوّل لتكرّره في القرآن وأسدّ المعاني مادلّ عليه القرآن . انتهى .

وقد ظهر ممّا تقدّم معنى تذييل الآية بقوله : «إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون» .

قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق خوفا و طمعا وينزّل من السماء ماء فيحيي به الأَرض بعد موتها » الظاهر أنّ الفعل نزّل منزلة المصدر ولذلك لم يصدّر

بأن المصدريّة كما صدّر به قوله : « أن خلقكم » وقوله : « أن خلق لكم » وتنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربيّة جيّدة و عليه يحمل المثل السائر : وتسمع بالمعيديّ خير من أن تراه» ولاضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله « منامكم » «يريكم » « أن تقوم » .

واحتمل في قوله : « يريكم »أن يكون بحذف أن المصدريّة والتقدير أن يريكم البرق وأُيّد بقراءة النصب في يريكم .

واحتمل أن يكون من حذف المضاف والتقدير ومن آياته آية أن يريكم البرق واحتمل أن يكون التقدير ومن آياته آية البرق ثمّ استونف فقيل : يريكم البرق الخ واحتمل أن يكون « من آياته » متعلّقا بقوله : « يريكم » والتقدير ويريكم من آياته البرق ، واحتمل أن يكون « من آياته » حالا من البرق والتقدير ويريكم البرق حال كون البرق من آياته .

وهذه وجوه متفرّقة لا يخفى عليك بعدها على أنّ بعضها يخرج الكلام في الآية عن موافقة السياق في الآيات السابقة النظيرة له كالوجهين الأخيرين .

وقوله : « خوفاً وطمعاً » أي خوفا من الصاعقة وطمعا في المطر وقوله : « وينزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » تقدّم تفسيره كرارا ، وقوله : « إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون » أي إنّ أهل التعقّل يفقهون أنّ هناك عناية متعلّقة بهذه المصالح فليس مجرّد اتّفاق وصدفة .

قوله تعالى : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » القيام مقابل القعود و لمّا كان أعدل حالات الإنسان حيث يقوى به على عامّة أعماله استعير لثبوت الشيء و استقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر قال تعالى : « أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ .

و المراد بقيام السماء و الأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة و سكون وتغيّر و ثبات بأمره تعالى وقد عرّف أمره بقوله : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٣ .

وقوله : « ثمّ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » « إذا » الاُولى شرطيّة و «إذا» الثانية فجائيّة قائمة مقام فاء الجزاء و « من الأرض » متعلّق بقوله: « دعوة » والجملة معطوفة على محلّ الجملة الاُولى لأنّ المراد بالجملة أعني قوله : « ثمّ إذا دعاكم » الخ البعث والرجوع إلى الله وليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتجّ عليه سابقا وسيحتجّ عليه لاحقا .

و أمّا قول القائل : إنّ الجملة على تأويل المفرد وهي معطوفة على « أن تقوم» و التقدير و من آياته قيام السماء والأرض بأمره ثمّ خروجكم إذا دعاكم دعوة من الأرض .

فلازمه كون البعث معدوداً من الآيات وليس منها على أنّ البعث أحد الاُصول الثلاثة الّتي يحتجّ بالآيات عليه ولا يحتجّ به على التوحيد مثلاً بل لو احتجّ فبالتوحيد عليه فافهم ذلك .

ولمّا كانت الآيات المذكورة من خلق البشر من تراب وخلقهم أزواجا واختلاف ألسنتهم وألوانهم ومنامهم و ابتغائهم من فضله وإراءة البرق وتنزيل الماء من السماء كلّها آيات راجعة إلى تدبير أمر الإنسان كان المراد بقوله «أن تقوم السماء والأرض » بمعونة السياق ثبات السماء والأرض على وضعهما الطبيعيّ وحالهما العاديّة ملائمتين لحياة النوع الإنسانيّ المرتبطة بهما وكان قوله : « ثمّ إذا دعاكم » الخ مترتّبا على ذلك ترتّب التأخير أي أنّ خروجهم من الأرض متأخّر عن هذا القيام مقارن لخرابهما كما ينبىء به آيات كثيرة في مواضع مختلفة من كلامه تعالى .

ويظهر بذلك أيضاً أنّ المراد من قوله السابق « ومن آياته خلق السماوات والأرض » خلقهما من جهة ما يرتبطان بالحياة البشريّة وينفعانها .

وقد رتّبت الآيات المذكورة آخذة من بدء خلق الانسان وتكوّنه ثمّ تصنّفه صنفين : الذكر والاُنثى ثمّ ارتباط وجوده بالسماء والأرض واختلاف ألسنتهم وألوانهم ثمّ السعي في طلب الرزق وسكون المنام ثمّ إراءة البرق وتنزيل الأمطار حتّى تنتهي إلى قيام السماء و الأرض إلى أجل مسمّى ليتمّ لهذا النوع الإنساني ماقدّر له من

أمد الحياة ويعقب ذلك البعث فهذا بعض ما في ترتيب ذكر هذه الآيات من النكات .

وقد رتّبت الفواصل أعني قوله « يتفكّرون » « للعالمين » «يسمعون » « يعقلون» على هذا الترتيب لأنّ الإنسان يتفكّر فيصير عالما ثمّ إذا سمع شيأمن الحقائق وعاه ثمّ عقله والله أعلم .

قوله تعالى : « وله من في السماوات والأرض كلّ له قانتون » كانت الآيات المذكورة مسوقة لاثبات ربوبيّته تعالى و اُلوهيّته كما تقدّمت الإشارة إليه ولمّا انتهى الكلام إلى ذكر البعث والرجوع إلى الله عقّب ذلك بالبرهان على إمكانه والحجّة مأخوذة من الخلق والتدبير المذكورين في الآيات السابقة .

فقوله : « وله من في السماوات والأرض » إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقيّ لجميع من في السماوات والأرض وهم المحشورون إليه وذلك لأنّ وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقروحاجة لااستقلال ولااستغناء لهم عنه بوجه من الوجوه وهذا هوالملك الحقيقيّ الّذي أثره جوازتصرّف المالك فيملكه كيف شاء فله تعالىأن يتصرّف في مملوكيه بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة .

وقد أكّد ذلك بقوله : « كلّ له قانتون » والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع ـ على ما ذكره الراغب في المفردات ـ والمراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينيّة ـ على ما يعطيه السياق ـ دون التشريعيّة الّتي ربّما تخلّفت .

و ذلك أنّهم الملائكة والجنّ والإنس فأمّا الملائكة فليس عندهم إلّا خضوع الطاعة و أمّا الجنّ والإنس فهم مطيعون منقادون للعلل والأسباب الكونيّة وكلما احتالوا في إلغاء أثرعلّة من العلل أوسبب من الأسباب الكونية توسّلوا إلى علّة اُخرى وسبب آخر كونيّ ثمّ علمهم وإرادتهم كاختيارهم جميعا من الأسباب الكونيّة فلايكون إلّا ماشاءالله أي الّذي تمّت علله في الخارج ولا يتحقّق ممّا شاؤا إلّا ما أذن فيه وشاءه فهو المالك لهم ولما يملكونه .

☆ ☆ ☆

وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ اَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْاَعْلٰى فِى السَّمٰوَاتِ وَ الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ اَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَاَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ اَنْفُسَكُمْ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْاٰيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا اَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ اَضَلَّ اللّٰهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَاَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّٰهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ اِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَ اَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَ اِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ اِلَيْهِ ثُمَّ اِذَا اَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً اِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) اَمْ اَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَاِذَا اَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ اِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ اِذَاهُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ اِنَّ فِى

ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ وَ اُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوا فِي اَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَاللّٰهِ وَمٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَاُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩).

(بيان)

لمّا انساق الاحتجاج على الوحدانيّة والمعاد من طريق عدّ الآيات الدالّة على ذلك بقوله : « ومن آياته » « ومن آياته » إلى قوله : «وله من في السماوات والأرض» الآية وهو من صفات الفعل غيّر سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعليّة وأوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول يورد في كلّ فصل شيء من صفات الفعل المستوجبة للوحدانيّة والمعاد وهي قوله : «وهو الّذي يبدء الخلق ثمّ يعيده» الخ وقوله : « الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم » الخ وقوله : «الله الّذي يرسل الرياح » الخ وقوله : « الله الّذي خلقكم من ضعف » الخ .

و إنّما لم يبدء الفصل الأوّل باسم الجلالة كما بدء به في الفصول الاُخر لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتّصلة به أعني قوله : « وله من في السماوات والأرض كلّ له قانتون » الّذي هو كالبرزخ المتوسّط بين السياقين فقوله : « وهو الّذي يبدء الخلق ثمّ يعيده » فصل في صورة الوصل .

قوله تعالى : « وهو الّذي يبدء الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه » إلى آخر الآية . بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق والإعادة إنشاء بعد إنشاء .

وقوله : « وهو أهون عليه » الضمير الأوّل للإعادة المفهوم من قوله : « يعيد » والضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق .

وقد استشكل قوله : « وهو أهون عليه » الدالّ ظاهرا على كون الإعادة أسهل وأهون عليه من البدء وهو ينافي كون قدرته مطلقة غير محدودة فإنّ القدرة اللّامتناهية لا تختلف حالها في تعلّقها بشيء دون شيء فتعلّقها بالصعب و السهل على السواء فلا معنى لاسم التفضيل ههنا .

وقد اُجيب عنه بوجوه :

منها أنّ ضمير «عليه» راجع إلى الخلق دونه تعالى و الإعادة أهون على الخلق لأنّه مسبوق بالابتداء الّذي يسهّل الفعل على الفاعل بتحقّقه منه مرّة أو أزيد بخلاف الابتداء الّذي لا يسبقه فعل ، فالابتداء أصعب بالطبع بالنسبة إلى الإعادة والإعادة بالعكس فالمعنى أنّ الإعادة أهون من البدء بالنسبة إلى الخلق وإذا كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنّك بالخالق .

وفيه أنّ رجوع الضمير إلى الخلق خلاف ظاهر الآية .

ومنها أنّ أفعل ههنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هيّن عليه نظير قوله : « ما عندالله خير من اللّهو » .

وفيه أنّه تحكّم ظاهر لادليل عليه .

ومنها أنّ التفضيل إنّما هو للإعادة في نفسها بالقياس إلى الإنشاء الابتدائي لابالنسبة إليه تعالى ووقوع التفضيل بين فعل منه وفعل لابأس به كما في قوله تعالى : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

وهذا هو الّذي يستفاد من كلام الزمخشريّ إذ يقول : فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله : « ثمّ إذا دعاكم » حتّى كأنّها فضّلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثمّ هوّنت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة لكنّها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء انتهى .

وفيه أنّ تقييد الوصف بقوله : « عليه » أصدق شاهد على أنّ القياس الواقع بين الإعادة والإنشاء إنّما هو بالنسبة إليه تعالى لابين نفس الإعادة والإنشاء فالإشكال على ما كان .

ومنها أنّ التفضيل إنّما هو بالنظر إلى الاُصول الدائرة بين الناس و الموازين المتّبعة عندهم لابالنظر إلى الأمر في نفسه ، لما يرون أنّ تكرّر الوقوع حتّى لمرّة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير المسبوق بمثله فكأنّه قيل : والإعادة أهون عليه بالنظر إلى اُصولكم العلميّة المتّبعة عندكم و إلّا فالإنشاء والإعادة بالنسبة إليه تعالى على السواء .

وفيه أنّه معنى صحيح في نفسه لكنّ الشأن في استفادته من اللفظ ولاشاهد عليه من جهة لفظ الآية .

ومنها ماذكره أيضاً في الكشّاف قال : ووجه آخر وهو أنّ الإنشاء من قبيل التفضّل الّذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لايفعله والإعادة من قبيل الواجب الّذي لابدّ له من فعله لأنّها لجزاء الأعمال و جزاؤها واجب و الأفعال إمّا محال و المحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وإمّا مايصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأنّ الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة ، و إمّا تفضّل و التفضّل حاله بين بين للفاعل أن يفعله و أن لا يفعله ، و إمّا واجب لابدّ من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به .

فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع و أقربها من الحصول فلمّا كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع وإذا كانت أبعدها من الامتناع كانت أدخلها في التأتّي والتسهّل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء انتهى .

و فيه أوّلا أنّه مبنيّ على تحقّق الأشياء بالأولويّة دون الوجوب وقد تحقّق في محلّه بطلانه .

وثانيا أنّ القرب والبعد اللّذين ذكرهما تصوير عقليّ محض والسهولة والصعوبة وصفان وجوديّان يتّصف بهما وجود الشيء من حيث صدوره عن فاعله الموجد له ولا يبتني الوصف الوجوديّ على الاعتبار العقليّ .

وثالثا أنّ الإنشاء أيضا كالإعادة في الابتناء على المصلحة وهي الغاية فما لم يكن

الإنشاء ذامصلحة موجبة لم يتحقّق كما أنّ الإعادة كذلك فهما في القرب و البعد من الامتناع على السواء كما قيل .

ورابعا أنّ مقتضى هذا الوجه كون الإعادة أهون من الإنشاء بالنظر إلى أنفسهما فيعود في الحقيقة إلى الوجه الثالث ويتوجّه إليه ماتوجّه إليه .

و الّذي ينبغي أن يقال أنّ الجملة أعني قوله : « وهو أهون عليه » معلّل بقوله بعده : « ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » فهو الحجّة المثبتة لقوله : « وهو أهون عليه » .

والمستفاد من قوله : « و لله المثل الأعلى » الخ أنّ كلّ وصف كماليّ يمثّل به شيء في السماوات والأرض كالحياة والقدرة والعلم والملك والجود والكرم و العظمة والكبرياء و غيرها فللّه سبحانه أعلى ذلك الوصف و أرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال : « ولله الأسماء الحسنى» الأعراف : ١٨٠ .

و ذلك أنّ كلّ وصف من أوصاف الكمال اتّصف به شيء ممّا في السماوات والأرض فله في حدّ نفسه ما يقابله فإنّه ممّا أفاضه الله عليه و هو في نفسه خال عنه فالحيّ منها ميّت في ذاته والقادر منها عاجز في ذاته و لذلك كان الوصف فيها محدوداً مقيّدا بشيء دون شيء و حال دون حال وهكذا فالعلم فيهامثلا ليس مطلقا غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه و كذلك الحياة و القدرة و الملك والعظمة و غيرها .

والله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله والّذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود و صرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه ولا ممات يقابل حياته و هكذا فله سبحانه من كلّ صفة يتّصف به الموجودات السماويّة والأرضيّة ـ وهي صفات غير ممحّضة ولا مطلقة ـ ما هو أعلاها أي مطلقها و محضها .

فكلّ صفة توجد فيه تعالى و في غيره من المخلوقات فالّذي فيه أعلاها و أفضلها والّذي في غيره مفضول بالنسبة إلى ما عنده .

و لمّا كانت الإعادة متّصفة بالهون إذا قيس إلى الإنشاء فيما عند الخلق فهو

عنده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة و مشقّة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق ولا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة و مشقّة عليه تعالى لأنّ المشقّة والصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكلّما قلّت القدرة كثرت المشقّة و كلّما كثرت قلّت حتّى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقّة من رأس وقدرته تعالى غير متناهية فلايشقّ عليه فعل أصلا و هو المستفاد من قوله : « إنّ الله على كلّ شيء قدير » فإنّ القدرة إذا جاز تعلّقها بكلّ شيء لم تكن إلّا غير متناهية فافهم ذلك .

و قوله : « ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض » تقدّم أنّه في مقام الحجّة بالنسبة إلى قوله : « و هو أهون عليه » و محصّله أنّ كلّ صفة كماليّة يتّصف بهشيء ممّا في السماوات و الأرض من جمال أو جلال فإنّ لله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد و محضها من غير شوب و صرفها من غير خلط .

و قوله : « و هو العزيز الحكيم » في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « ولله المثل الأعلى» الخ أي إنّه تعالى عزيز واجد لكلّ مايفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شيء حكيم لايعرض فعله فتور ، ولولم تكن صفة من صفاته مثلا أعلى ممّا عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة ومخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص والقصور فاستذلّه ذاك القصور فلم يكن عزيزا على الإطلاق و أحدث ذاك النقص في فعله ثلمة و فتورا فلم يكن حكيما على الإطلاق .

قوله تعالى : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم ممّا ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » الخ « من » في قوله : « من أنفسكم » لابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلا متّخذا من أنفسكم منتزعا من الحالات الّتي لديكم ، و قوله : « هل لكم » شروع في المثل المضروب والاستفهام للإنكار ، و « ما » في «ممّا ملكت» للنوع أي من نوع ماملكت أيمانكم من العبيدوالإماء ، و «من» في « من شركاء » زائدة و هو مبتدء ، و قوله : « فأنتم فيه سواء » تفريع على الشركة ، و « أنتم » خطاب شامل للمالكين والمملوكين على طريق التغليب ، و قوله : « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » أي تخافون المماليك الشركاء أن تستبدّوا في تصرّف المال المشترك

من غير إذن منهم و رضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار .

و هذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أنّ لله سبحانه ممّا خلق شركاء في الاُلوهيّة والربوبيّة وقد اُلقي المثل في صورة الاستفهام الإنكاريّ : هل يوجد بين مماليككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الأموال الّتي رزقناكم ـ والحال أنّهم مماليك لكم تملكونهم و ما في أيديهم ـ بحيث تخافونهم في التصرّف في أموالكم بغير إذن منهم و رضى كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم ؟ !

لا يكون ذلك أبدا ولا يجوز أن يكون المملوك شريكا لمولاه في ماله و إذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة والجنّ وهم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه وآلهة و أربابا من دونه ؟

ثمّ تمّم الكلام بقوله : «كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون » و فيه تمهيد لما يتلوه من الكلام .

قوله تعالى : « بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلّ الله و مالهم من ناصرين » إضراب عمّا يستفاد من ذيل الآية السابقة والتقدير وهؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقّل بل اتّبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم .

و كان مقتضى الظاهر أن يقال : بل اتّبع الّذين أشركوا و إنّما بدّله من قوله: « بل اتّبع الّذين ظلموا» فوصفهم بالظلم ليتعلّل به ما سيصفهم بالضلال في قوله : « فمن يهدي من أضلّ الله » فالظلم يستتبع الإضلال الإلهيّ قال تعالى : « يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة و يضلّ الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ .

فقوله : « فمن يهدي من أضلّ الله» استفهام إنكاريّ مدلوله الإيآس من نعمة الهداية للمشركين المتّبعين لأهوائهم مع ظهور الحقّ لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم وقد تكرّر في كلامه تعالى : « إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين » .

و قوله : « و مالهم من ناصرين » نفي لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد مالم ينالوا النجاة من الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم و نفي الجمع

دليل على أنّ لغيرهم ناصرين كالشفعاء .

و قول القائل إنّ معنى نفي الناصرين لهم أنّه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطّرد .

و معنى الآية بل اتّبع الّذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقّل فأضلّهم الله بظلمهم ولا هادي يهديهم و ليس لهم ناصرون ينصرونهم .

قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون » الكلام متفرّع على ما تحصّل من الآيات السابقة المثبتة للمبدء والمعاد أي إذا ثبت أنّ الخلق والتدبير لله وحده لا شريك له وهو سيبعث و يحاسب ولا نجاة لمن أعرض عنه و أقبل على غيره فأقم وجهك للدين والزمه فإنّه الدين الّذي تدعو إليه الخلقة الإلهيّة .

و قيل الكلام متفرّع على معنى التسلية المفهوم من سياق البيان السابق الدالّ على ماهو الحقّ وأنّ المشركين لظلمهم اتّبعوا الأهواء و أعرضوا عن التعقّل الصحيح فأضلّهم الله ولم يأذن لناصر ينصرهم بالهداية ولا لمنقذ ينقذهم من الضلال لا أنت ولا غيرك فاستيئس منهم و اهتمّ بخاصّة نفسك و من تبعك من المؤمنين و أقم وجهك و من تبعك للدين .

فقوله : « فأقم وجهك للدين » المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجّه من غير غفلة منه كالمقبل على الشيء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا وشمالا والظاهر أنّ اللاّم في الدين للعهد والمراد به الإسلام .

و قوله : « حنيفا » حال من فاعل أقم وجوّز أن يكون حالا من الدين أوحالا من الوجه و الأوّل أظهر و أنسب للسياق والحنف ميل القدمين إلى الوسط والمراد به الاعتدال .

و قوله : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد و الإبداع و «فطرة الله » منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة ففيه إشارة إلى أنّ هذا الدين الّذي يجب إقامة الوجه له هو الّذي يهتف به الخلقة و يهدي إليه

الفطرة الإلهيّة الّتي لا تبديل لها .

و ذلك أنّه ليس الدين إلّا سنّة الحياة و السبيل الّتي يجب على الإنسان أن يسلكها حتّى يسعد في حياته فلا غاية للإنسان يتبعها إلّا السعادة وقد هدي كلّ نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته الّتي هي بغية حياته بفطرته و نوع خلقته و جهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز قال تعالى : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، و قال : « الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى » الأعلى : ٣ .

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه و تهتف له بما ينفعه و ما يضرّه في حياته قال تعالى : « و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ و هو مع ذلك مجهّز بما يتمّ له به ما يجب له أن يقصده من العمل قال تعالى : «ثمّ السبيل يسّره » عبس : ٢٠ .

فللإنسان فطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة في الحياة و سبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة ليس له إلّا أن يسلكها خاصّة و هو قوله : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » و ليس الإنسان العائش في هذه النشأة إلّا نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه و ما يضرّه بالنظر إلى هذه البنية المؤلّفة من روح و بدن فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلّا سعادة واحدة و شقاء واحد فمن الضروريّ حينئذ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت .

و ليكن ذاك الهادي هو الفطرة و نوع الخلقة و لذلك عقّب قوله : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » بقوله : « لا تبديل لخلق الله » .

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين ، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار الّتي تعيش فيها الاُمم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنّة الاجتماعيّة أعني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار ، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنّة الدينيّة اختلفت نوعيّة كلّ قرن و جيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم ولم يسر

الاجتماع الإنساني سير التكامل ولم تكن الإنسانيّة متوجّهة من النقص إلى الكمال إذ لا يتحقّق النقص والكمال إلّا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما .

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنّة الدينيّة في الجملة بل إثبات أنّ الأساس للسنة الدينيّة هو البنية الإنسانيّة الّتي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد فللإنسانيّة سنّة واحدة ثابتة بثبات أساسها الّذي هو الإنسان وهي الّتي تدير رحى الإنسانيّة مع ما يلحق بها من السنن الجزئيّة المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة .

و هذا هو الّذي يشير إليه قوله بعد « ذلك الدين القيّم و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون » و سنزيد المقام إيضاحا في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالى .

و للقوم في مفردات الآية و معناها أقوال اُخر متفرّقة :

منها أنّ المراد بإقامة الوجه تسديد العمل فإنّ الوجه هو ما يتوجّه إليه و هو العمل و إقامته تسديده .

و فيه أنّ وجه العمل هو غايته المقصودة منه و هي غير العمل والّذي في الآية هو « فأقم وجهك » ولم يقل : فأقم وجه عملك .

و منها أنّ « فطرة الله » منصوب بتقدير أعني والفطرة هي الملّة والمعنى اثبت و أدم الاستقامة للدين أعني الملّة الّتي خلق الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

و فيه أنّه مبنيّ على اختلاف المراد بالفطرة وهي الملّة و « فطر الناس » و هو الخلقة والتفكيك خلاف ظاهر الآية ولو اُخذ « فطر الناس » بمعنى الإدانة أي الحمل على الدين وهو التوحيد بقي قوله : « لا تبديل لخلق الله » لا يلائم ما قبله .

على أنّ فيه خلاف ظاهر آخر وهو حمل الدين على التوحيد ، و لو اُخذ الدين بمعنى الإسلام أو مجموع الدين كلّه واُبقيت الفطرة على معناها المتبادر منها وهو الخلقة لم يستقم تقدير « أعني » فإنّ الدين بهذا المعنى غير الفطرة بمعنى الخلقة .

و منها أنّ « فطرة » بدل من « حنيفا » والفطرة بمعنى الملّة ويرد عليه ما يرد على سابقه .

و منها أنّ « فطرة » مفعول مطلق لفعل محذوف مقدّر و التقدير فطر الله فطرة فطر الناس عليها و فساده غنيّ عن البيان .

و منها أنّ معناه اتّبع من الدين مادلّك عليه فطرة الله و هو ما دلّك عليه ابتداء خلقه للأشياء لأنّه خلقهم و ركّبهم و صوّرهم على وجه يدلّ على أنّ لهم صانعا قادرا عالما حيّا قديما واحدا لا يشبه شيأ ولا يشبهه شيء .

و فيه أنّه مبنيّ على كون « فطرة » منصوبا بتقدير اتّبع وقد ذكره أبو السعود و قبله أبو مسلم المفسّر فيكون المراد من اتّباع الفطرة اتّباع دلالة الفطرة بمعنى الخلقة والمراد بعدم تبديل الخلق عدم تغيّره في الدلالة على الصانع بما له من الصفات الكريمة و هذا قريب من المعنى الّذي قدّمناه للآية بحمل « فطرة » على الإغراء لكن يبقى عليه أنّ الآية عامّة لا دليل على تخصيصها بالتوحيد .

و منها أنّ لا في قوله : « لا تبديل لخلق الله » تفيد النهي أي لا تبدّلوا خلق الله أي دينه الّذي اُمرتم بالتمسّك به ، أو لا تبدّلوا خلق الله بإنكار دلالته على التوحيد و منه ما نسب إلى ابن عبّاس أنّ المراد به النهي عن الخصاء .

و فيه أن لا دليل على أخذ الخلق بمعنى الدين ولا موجب لتسمية الإعراض عن دلالة الخلقة أو إنكارها تبديلا لخلق الله ، و أمّا ما نسب إلى ابن عبّاس ففساده ظاهر .

و منها ما ذكره الرازي في التفسير الكبير قال : و يحتمل أن يقال : خلق الله الخلق لعبادته وهم كلّهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبداً للإنسان فإنّه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبوديّة . وهذا لبيان فساد قول من يقول : العبادة لتحصيل الكمال و العبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، و قول المشركين: إنّ الناقص لا يصلح لعبادة الله و إنّما الإنسان عبد الكواكب و الكواكب عبيد الله ، و قول النصارى إنّ عيسى كان يحلّ الله فيه و صار إلها فقال : لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لاخروج لهم عن ذلك انتهي .

و فيه أنّه مغالطة بين الملك والعبادة التكوينيّين و الملك والعبادة التشريعيّين فإنّ ملكه تعالى الّذي لا يقبل الانتقال و البطلان ملك تكوينيّ بمعنى قيام وجود الأشياء به تعالى والعبادة الّتي بإزائه عبادة تكوينيّة و هو خضوع ذوات الأشياء له تعالى ولا تقبل التبديل والترك كما في قوله : «وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده » أسرى:٤٤ وأمّا العبادة الدينيّة الّتي تقبل التبديل والترك فهي عبادة تشريعيّة بإزاء الملك التشريعيّ المعتبر له تعالى فافهمه .

و لو دلّ قوله : « لا تبديل لخلق الله » على عدم تبديل الملك والعبادة والعبوديّة لدلّ على التكوينيّ منهما و الّذي يبدّله القائلون بارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل أو بعبادة الكواكب أو المسيح فإنّما يعني به التشريعيّ منهما .

قوله تعالى : « منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم نظير قوله : «يا أيّها النبيّ إذا طلّقتم النساء» الطلاق : ١ وقوله : « فاستقم كما اُمرت أنت ومن معك ولا تطغوا » هود : ١١٢ فيؤل المعنى إلى نحو من قولنا : فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت ومن معك منيبين إلى الله والإنابة الرجوع بالتوبة .

و قوله : « واتّقوه و أقيموا الصلاة » التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين .

وقوله : « ولا تكونوا من المشركين» القول في اختصاصه من بين سائر المحرّمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة وقد قال تعالى : « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : «من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون» من للتبيين و « من الّذين فرّقوا دينهم » الخ بيان للمشركين وفيه تعريفهم بأخصّ صفاتهم في دينهم وهو تفرّقهم في دينهم و عودهم شيعة شيعة و حزباً حزباً يفرح و يسر

كلّ شيعة وحزب بما عندهم من الدين والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله : « بل اتّبع الّذين ظلموا أهواءهم فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين » فبيّن أنّهم بنوا دينهم على أساس الأهواء وأنّه لا يهديهم ولاهادي غيره .

ومن المعلوم أنّ هوى النفس لا يتّفق في النفوس بل ولا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال وإذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها ، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل و الدين الحقّ المبنيّ على أساس الهوى .

ومن هنا يظهر أنّ النهي عن تفرّق الكلمة في الدين نهي في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل ، وربّما احتمل كون الآية استئنافا من الكلام وهو لا يلائم السياق .

و في الآية ذمّ للمشركين بما عندهم من صفة التفرّق في الكلمة و التحزّب في الدين .

قوله تعالى : « وإذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربّهم يشركون » التعبير بالمسّ للدلالة على القلّة والخفّة وتنكير ضرّ و رحمة أيضاً لذلك و المعنى إذا أصاب الناس شيء من الضرّ ولو قليلا كمرض مّا و فقر مّا وشدّة مّا دعوا ربّهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثمّ إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربّهم الّذي كانوا يدعونه و يعترفون بربوبيّته يشركون باتّخاذ الأنداد والشركاء .

أي إنّهم كافرون للنعمة طبعا وإن اعترفوا بها عند الضرّ وقد أخذ لذلك فريقا منهم لأنّ منهم من ليس كذلك .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون » تهديد لاُولئك المشركين عند إذاقة الرحمة واللّام في « ليكفروا » للأمر الغائب وقوله : « فتمتّعوا » متفرّع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعا للتهديد ، والالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد و السخط من تفريطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره

فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرّعوا عند الضرّ ويكفروا إذا كشف .

قوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون » « أم » منقطعة والمراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازا ، و السلطان البرهان ، و المراد بالتكلّم الدلالة مجازاً فالمعنى بل أعلمناهم برهانا فهو يدلّ على ما كانوا به يشركون أو بشركهم ؟ .

ويمكن أن يراد بالسلطان ذوالسلطان وهو الملك فلامجاز في الإنزال والتكلّم والمعنى بل أأنزلنا عليهم ملكا فهو يتكلّم بما كانوا به يشركون أو بشركهم .

قوله تعالى : « و إذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها و إن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذاهم يقنطون» الإذاقة كالمسّ تدلّ على قليل النيل ويسيره ، والقنوط اليأس .

و إذا الاُولى شرطيّة والثانية فجائيّة ، والمقابلة بين « إذا » في إذاقة الرحمة و « إن» في إصابة السيّئة لأنّ الرحمة كثيرة قطعيّة والسيّئة قليلة احتماليّة ، ونسبة الرحمة إليه تعالى دون السيّئة لأنّ الرحمة وجوديّة مفاضة منه تعالى والسيّئة عدميّة هي عدم الإفاضة ولذا علّلها بقوله « بما قدّمت أيديهم » ، وفي تعليل السيّئة بذلك وعدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة إلى أنّ الرحمة تفضّل .

والتعبير في الرحمة بقوله : «فرحوا» وفي السيّئة بقوله : «إذاهم يقنطون» للدلالة على حدوث القنوط ولم يكن بمترقّب فإنّ الرحمة والسيّئة بيدالله و الرحمة واسعة ولهذا عبّر بالمضارع الدالّ على الحال لتمثيل حالهم .

والمراد بالآية بيان أنّ الناس لايعدو نظرهم ظاهرمايشاهدونه من النعمة والنقمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصّروا ويعقلوا أنّ الأمر بيدغيرهم وبمشيّة من ربّهم إذا لم يشأ لم يكن ، وإذا فقدوا قنطوا كأن ليس ذلك بإذن من ربّهم وإذا لم يشأ لم يأذن وفتح باب النعمة فهم ظاهريّون سطحيّون .

و بهذا يتّضح أن لا تدافع بين هذه الآية وبين قوله السابق : « و إذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه » الآية و ذلك أنّ مدلول هذه الآية أنّ أفهامهم سطحيّة إذا وجدوا فرحوا و إذا فقدوا قنطوا و مدلول تلك أنّهم إذا وجدوا فرحوا و إذافقدوا

دعوا الله و هم قانطون من الشيء و أسبابه منيبين راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع .

و ربّما اُجيب بأنّ المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد بالناس في الآية السابقة و لو فرض اتّحادهما كان ما ذكر من دعائهم في حال وقنوطهم في حال اُخرى .

و اُجيب عنه أيضا بأنّ الدعاء لسانيّ جار على العادة و لا ينافي القنوط الّذي هو أمر قلبيّ و أنت خبير بما في كلّ من الجوابين من الفتور .

و اُجيب أيضا أنّ المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء . و فيه مضافا إلى عدم الدليل على ذلك أنّه لا يلائم معنى المفاجاة في القنوط .

قوله تعالى : « أو لم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » بيان لخطاهم في المبادرة إلى الفرح والقنوط عند إذاقة الرحمة و إصابة السيّئة فإنّ الرزق في سعته وضيقه تابع لمشيّة الله فعلى الإنسان أن يعلم أنّ الرحمة الّتي ذاقها والسيّئة الّتي أصابته ممكنة الزوال بمشيّة الله سبحانه ولا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده ولا للقنوط ممّا يرجى زواله .

و أمّا أنّه أمر ظاهر للإنسان مقطوع به كأنّه يراه فلأنّ الرزق الّذي يناله الإنسان أو يكتسبه متوقّف الوجود على اُلوف و اُلوف من الأسباب والشرائط ليس الإنسان الّذي يراه لنفسه إلاّ أحد تلك الأسباب ولا السبب الّذي يركن إليه و يطيب به نفسا إلّا بعض تلك الأسباب و عامّة الأسباب منتهية إليه سبحانه فهو الّذي يعطي و يمنع و هو الّذي يبسط و يقدر أي يوسّع و يضيّق ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فآت ذا القربى حقّه والمسكين و ابن السبيل » الخ ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام والمسكين أسوء حالا من الفقير و ابن السبيل المسافر ذو الحاجة ، و إضافة الحقّ إلى الضمير تدلّ على أنّ لذي القربى حقّا ثابتا والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله فظاهر الآية بما تحتفّ به من القرائن أنّ المراد بها الخمس والتكليف للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ويتبعه غيره ممّن كلّف بالخمس ، والقرابة على أيّ حال قرابة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كما في آية الخمس هذا كلّه على تقدير كون الآية مدنيّة وأمّا على تقدير كونها مكّية

كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين و ابن السبيل .

و لعموم الآية معنى عمّم ذكر أثره الجميل فقال : «ذلك خير للّذين يريدون وجه الله و اُولئك هم المفلحون » .

قوله تعالى : « و ما آتيتم من رباليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله و ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاُولئك هم المضعفون » الربا نماء المال و قوله : ليربو الخ يشير إلى وجه التسمية فالمراد أنّ المال الّذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا إرادة لوجه الله ـ بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله ـ فليس يزيد وينمو عندالله أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه .

و قوله : « وماآتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاُولئك هم المضعفون» المراد بالزكاة مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير ، والمضعف ذوالضعف والمعنى وما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فاُولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا والزكاة بقرينة المقابلة وما احتفّ بهما من الشواهد الربا الحلال و هو العطيّة من غير قربة والصدقة و هي إعطاء المال مع قصد القربة . هذا كلّه على تقدير كون الآية مكيّة وأمّا على تقدير كونها مدنيّة فالمراد بالربا الربا المحرّم و بالزكاة هي الزكاة المفروضة .

و هذه الآية والّتي قبلها أشبه بالمدنيّات منهما بالمكّيّات ولا اعتبار بما يدّعى من الرواية أو الإجماع المنقول .

﴿ بحث روائي ﴾

في العيون عن عبدالله بن عبّاس قال : « قام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فينا خطيبا فقال في آخر خطبته : نحن كلمة التقوى و سبيل الهدى والمثل الأعلى والحجّة العظمى والعروة الوثقى الحديث .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » الآية أنّ سبب نزولها أنّ قريشا كانوا يحجّون البيت بحجّ إبراهيم عليه السلام ويلبّون تلبيته : لبّيك اللّهم

لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

فجاءهم إبليس في صورة شيخ فغيّر تلبيتهم إلى قول : لبّيك اللّهمّ لا شريك لك إلّا شريكا هو لك تملكه وما ملك . فكانت قريش تلبّي هذه التلبية حتّى بعث رسول الله صلّى الله عليه و آله فأنكر عليهم ذلك و قال : إنّه شرك .

فأنزل الله عزّ وجلّ : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقنا كم فأنتم فيه سواء » أي أترضون أنتم فيما تملكون أن يكون لكم فيه شريك ؟ فكيف ترضون أن تجعلوا لي شريكا فيما أملك ؟ .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا » قال : هي الولاية .

وفيه بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » قال : التوحيد .

اقول : ورواه أيضاً عن الحلبيّ وزرارة عنه عليه السلام ورواه الصدوق في التوحيد عن العلاء بن فضيل وزرارة وبكير عنه عليه السلام .

وفي روضة الكافي بإسناده عن إسماعيل الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام قال : كانت شريعة نوح عليه السلام أن يعبدالله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد ، وهو الفطرة الّتي فطر الناس عليها .

وفي تفسير القميّ بإسناده عن الهيثم الرمّانيّ عن الرضا عن أبيه عن جدّه عن أبيه محمّد بن عليّ عليهم السلام في قوله عزّ وجلّ : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » قال : هو لا إله إلّا الله محمّد رسول الله عليّ أمير المؤمنين وليّ الله إلى ههنا التوحيد .

أقول : وروى هذا المعنى في بصائر الدرجات عن أبي عبدالله عليه السلام ، ورواه في التوحيد عن عبدالرحمان مولى أبي جعفر عنه عليه السلام .

ومعنى كون الفطرة هي الشهادات الثلاث أنّ الإنسان مفطور على الاعتراف بالله لا شريك له بما يجد من الحاجة إلى الأسباب المحتاجة إلى ماوراءها و هو التوحيد وبما يجد من النقص المحوج إلى دين يدين به ليكمّله وهو النبوّة وبما يجد من الحاجة

إلى الدخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدين وهو الولاية والفاتح لها في الإسلام هو علي عليه السلام، وليس معناه أن كل إنسان حتى الإنسان الأولي يدين بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث.

وإلى هذا يؤل معنى الرواية السابقة أنها الولاية فإنها تستلزم التوحيد والنبوة وكذا ما مر من تفسيره الفطرة بالتوحيد فإن التوحيد هو القول بوحدانية الله تعالى المستجمع لصفات الكمال المستلزمة للمعاد و النبوة والولاية فالمآل في تفسيرها بالشهادات الثلاث والتوحيد والولاية واحد.

وفي المحاسن بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل «فطرة الله التي فطر الناس عليها» قال: فطرهم على معرفة أنه ربهم ولولا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم؟.

و في الكافي بإسناده عن الحسين بن نعيم الصحاف عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال: فقال عليه السلام: إن الله عز وجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي فطرهم عليها لا يعرفون إيمانا بشريعة ولا كفرا بجحود ثم بعث الله عز وجل الرسل يدعو العباد إلى الإيمان به فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده.

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر واردة في تفسير قوله تعالى: «كان الناس أمة واحدة» البقرة ٢١٣ والمراد فيها بالإنسان الفطري الإنسان الساذج الذي يعيش على الفطرة الإنسانية الذي لم يفسده الأوهام الفكرية والأهواء النفسانية فإنه بالقوة القريبة من الفعل بالنسبة إلى أصول العقائد الحقة وكليات الشرائع الإلهية فإنه يعيش ببعث و تحريك من فطرته وخصوص خلقته. وأما الاهتداء إلى خصوص العقائد الحقة وتفاصيل الشرائع الإلهية فيتوقف على هداية خاصة إلهية من طريق النبوة ولا يكفي فيه العقل الفطري وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب.

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمرو الصفار قال: سألت قتادة عن قوله تعالى: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فقال: حدثني أنس بن مالك

قال :قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » قال : دين الله .

وفيه أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من مولود إلّا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء قال أبوهريرة : اقرؤا إن شئتم « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها » الآية .

أقول : ورواه أيضاً عن مالك وأبي داود وابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله ولفظه : كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحسّ من جدعاء .

ورواه أيضاً في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : كلّ مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأنّ الله خالقه الحديث .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لاتضربوا أطفالكم على بكائهم فإنّ بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلّا الله ، و أربعة أشهر الصلاة على النبيّ و أربعة أشهر الدعاء لوالديه .

أقول : هو حديث لطيف ومعناه أنّ الطفل في الأربعة أشهر الاُولى لايعرف أحداً وإنّما يحسّ بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها والرافع لها هو الله سبحانه فهو يتضرّع إليه ويشهد له بالوحدانيّة .

وفي الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطةمّا بينه وبين رافع حاجته من غير أن يعرفهما بشخصيهما والواسطة بينه وبين ربّه هو النّبيّ فبكاؤه طلب الرّحمة من ربّه للنبيّ حتّى يصل بتوسّطه إليه .

وفي الأربعة أشهر الثالثة يميّز والديه بشخصيهما عن غيرهما فبكاؤه دعاء منه لهما وطلب جريان الرّحمة من طريقهما إليه ففي الحديث ألطف الإشارة إلي كيفيّة جريان الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك .

وفي المجمع في قوله تعالى : «وآت ذا القربى حقّه» وروى أبوسعيد الخدري وغيره أنّه لمّا نزلت هذه الآية على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى فاطمة عليها السلام فدكاً وسلّمه إليها وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

وفي الكافي باسناده عن إبراهيم اليماني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : الربا رباءان : ربا يؤكل وربا لا يؤكل فامّا الّذي يؤكل فهديّتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الّذي يؤكل ، و هو قول الله عزّ وجلّ : «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عندالله» وأمّا الّذي لا يؤكل فهو الّذي نهى الله عنه وأوعد عليه النار .

اقول : ورواه أيضا في التهذيب عن إبراهيم بن عمر عنه عليه السلام ، وفي تفسير القمي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام ، وفي المجمع مرسلا عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي المجمع في قوله تعالى : «فاُولئك هم المضعفون» قال أمير المؤمنين عليه السلام : فرض الله الصلاة ، تنزيها عن الكبر ، و الزكاة تسبيباً للرزق ، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق ، وصلة الأرحام منماة للعدد .

وفي الفقيه خطبة للزهراء عليها السلام وفيها : ففرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيها عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق .

﴿كلام في معنى كون الدين فطريا في فصول﴾

١ - إذا تأمّلنا هذه الأنواع الموجودة الّتي تتكوّن وتتكامل تدريجا سواء كانت ذوات حيات وشعور كأنواع الحيوان أوذات حياة فقط كأنواع النبات أو ميتة غيرذي حياة كسائر الأنواع الطبيعيّة - على مايظهر لنا - وجدنا كلّ نوع منها يسير في وجوده سيرا تكوينيّا معيّناذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض وبعضها بعد بعض يرد النوع في كلّ منها بعد المرور بالبعض الّذي قبله و قبل الوصول إلى ما بعده ولا يزال يستكمل بطيّ هذه المنازل حتّى ينتهي إلى آخرها وهو نهاية كماله .

نجد هذه المراتب المطويّة بحركة النوع يلازم كلّ منها مقامه الخاصّ به

لايستقدم ولا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى كماله فبينها رابطة تكوينيّة يرتبط بها بعض المراتب ببعض بحيث لايتجافى ولا ينتقل إلى غير مكانه ومن هنا يستنتج أنّ للنوع غاية تكوينيّة يتوجّه إليها من أوّل وجوده حتّى يبلغها .

فالجوزة الواحدة مثلا إذا استقرّت في الأرض استقراراً يهيّؤها للنموّ على اجتماع ممّا يتوقّف عليه النموّ من العلل والشرائط كالرطوبة والحرارة وغيرهما أخذلبّها في النموّ وشقّ القشر و شرع في ازدياد من أقطار جسمه ولم يزل يزيد وينمو حتّى يصل إلى حدّ يعود فيه شجرة قويّة خضراء مثمرة ولا يختلف حاله في مسيره هذا التكوينيّ وهو في أوّل وجوده قاصد قصدا تكوينيّا إلى غايته التكوينيّة الّتي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة .

وكذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضان مثلا لا نشكّ في أنّها في أوّل تكوّنها جنينا متوجّهة إلى غايتها النوعيّة الّتي هي مرتبة الضأنة الكاملة الّتي لها خواصّها فلا تضلّ عن سبيلها التكوينيّة الخاصّة بها إلى سبيل غيرها ولا تنسى غايتها يوما فتسير إلى غير غايتها كغاية الفيلة مثلا أو غاية شجرة الجوز مثلا فكلّ نوع من الأنواع التكوينيّة له مسير خاصّ في استكمال الوجود ذو مراتب خاصّة مترتّبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتا يطلبها طلباً تكوينيّا بحركته التكوينيّة والنوع في وجوده مجهّز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته .

وهذا التوجّه التكويني لاستناده إلى الله يسمّى هداية عامّة إلهيّة وهي كما عرفت لا تضلّ ولا تخطىء في تسيير كلّ نوع مسيره التكوينيّ وسوقه إلى غايته الوجوديّة بالاستكمال التدريجيّ وباعمال قواه وأدواته الّتي جهّز بها لتسهيل مسيره إلى غايته قال تعالى : « ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، وقال «الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى والّذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » الاعلى : ٥ .

٢ ـ نوع الإنسان غير مستثنى من كلّية الحكم المذكور أعني شمول الهداية العامّة له فنحن نعلم أنّ النطفة الإنسانيّة من حين تشرع في التكوّن متوجّهة إلى

مرتبة إنسان تامّ كامل له آثاره وخواصّه قدقطع في مسيره مراحل الجنينيّة والطفوليّة والمراهقة والشباب والكهولة والشيب .

غير أنّ الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانيّة والنباتيّة وغيرها فيما نعلم في أمر [١] وهوأنّه لسعة حاجته التكوينيّة وكثرة نواقصه الوجوديّة لا يقدر على تتميم نواقصه الوجوديّة و رفع حوائجه الحيويّة وحده بمعنى أنّ الواحد من الإنسان لاتتمّ له حياته الإنسانيّة وهووحده بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثمّ اجتماع مدني يجتمع فيه مع غيره بالازدواج والتعاون والتعاضد فيسعى الكلّ بجميع قواهم الّتي جهّزوا بها للكلّ ثمّ يقسّم الحاصل من عملهم بين الكلّ فيذهب كلّ بنصيبه على قدر زنته الاجتماعيّة .

وقد عرفت في سابق مباحث هذا الكتاب أنّ المدنيّة ليست بطبيعيّة للإنسان بمعنى أن ينبعث إليه من ناحية طبيعته الإنسانيّة ابتداء بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ماوجد إليه سبيلاً فهو يستخدم الأمور الطبيعيّة ثمّ أقسام النبات و الحيوان في سبيل مقاصده الحيويّة فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجرء لكنّه يجد سائرالأفراد أمثاله في الأميال والمقاصد وفي الجهازات والقوى فيضطرّ إلى المسالمة وأن يسلّم لهم حقوقا مثل مايراه لنفسه .

وينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل التعاوني ثمّ يقسّم الحاصل من الأعمال بين الجميع ويعطى منه لكلّ مايستحقّه .

وكيف كان فالمجتمع الإنساني لايتمّ انعقاده ولايعمّر إلّا بأصول علميّة وقوانين اجتماعيّة يحترمها الكلّ وحافظ يحفظها من الضيعة و يجريها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة .

أمّا الأصول العلميّة فهي معرفته إجمالا بماعليه نشأة الوجود من الحقيقة وماعليه الإنسان من حيث البداية والنهاية فإنّ المذاهب المختلفة مؤثّرة في خصوص السنن

---

(١) وعامة الحيوان و ان كان لها شيء من الاجتماع الحيوى لكنه يسير فى جنب الاجتماع لايعبأ به .

المعمول بها في المجتمعات فالمعتقدون في الإنسان أنّه ماديّ محض ليس له من الحياة إلّا الحياة المعجّلة المؤجّلة بالموت وأن ليس في دار الوجود إلّا السبب الماديّ الكائن الفاسد ينظمون سنن اجتماعهم بحيث تؤدّيهم إلى اللذائذ المحسوسة والكمالات الماديّة ماوراءها شيء .

و المعتقدون بصانع وراء المادّة كالوثنيّة يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم في حياتهم الدنيويّة والمعتقدون بالمبدء والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم في الحياة الدنيويّة ثمّ في الحياة المؤبّدة الّتي بعد الموت فصور الحياة الاجتماعيّة تختلف باختلاف الاُصول الاعتقاديّة في حقيقة العالم و الإنسان الّذي هو جزء من أجزائه .

و أمّا القوانين والسنن الاجتماعيّه فلولا وجود قوانين و سنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أوأكثرهم ويتسلّمونها تفرّق الجمع وانحلّ المجتمع .

وهذه السنن والقوانين قضاياكلّيّة عمليّة صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أويجوز و هي أيّاما كانت معتبرة في العمل لغايات مُصلحة للاجتماع والمجتمع تترتّب عليها تسمّى مصالح الأعمال ومفاسدها .

٣ ـ قد عرفت أنّ الإنسان إنّما ينال ما قدّر له من كمال وسعادة بعقدمجتمع صالح يحكم فيه سنن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته الّتي تليق به وهذه السعادة أمر أو اُمور كماليّة تكوينيّة تلحق الإنسان الناقص الّذي هو أيضاً موجود تكوينيّ فتجعله إنساناكاملاً في نوعه تامّا في وجوده .

فهذه السنن والقوانين ـ وهي قضاياعمليّة اعتبارية ـ واقعة بين نقص الإنسان وكماله متوسّطة كالعبرة بين المنزلتين وهي كما عرفت تابعة للمصالح الّتي هي كمال أو كمالات إنسانيّة ، وهذه الكمالات اُمور حقيقيّة مسانخة ملائمة للنواقص الّتي هي مصاديق حوائج الإنسان الحقيقيّة .

فحوائج الإنسان الحقيقيّة هي الّتي وضعت هذه القضايا العمليّة واعتبرت هذه النواميس الاعتباريّة ، و المراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الإنسانيّة بأميالها

وعزائمها ويصدّقه العقل الّذي هو القوّة الوحيدة الّتي تميّز بين الخير والنافع وبين الشرّ والضارّ دون ما تطلبه الأهواء النفسانيّة ممّا لا يصدّقه العقل فإنّه كمال حيوانيّ غير إنسانيّ .

فأُصول هذه السنن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقيّة الّتي هي بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانيّة .

و قد عرفت أنّ الصنع والإيجاد قد جهّز كلّ نوع من الأنواع - ومنها الإنسان - من القوى والأدوات بما يرتفع بفعّاليّته حوائجه ويسلك به سبيل الكمال ومنه يستنتج أنّ للجهازات التكوينيّة الّتي جهّز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العمليّة المسمّاة بالسنن والقوانين الّتي بالعمل بها يستقرّ الإنسان في مقرّ كماله مثل السنن والقوانين الراجعة إلى التغذّي المعتبرة بما أنّ الإنسان مجهّز بجهاز التغذّي والراجعة إلى النكاح بما أنّ الإنسان مجهّز بجهاز التوالد والتناسل .

فتبيّن أنّ من الواجب أن يتّخذ الدين - أي الأُصول العلميّة والسنن والقوانين العمليّة الّتي تضمن باتّخاذها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقيّة - من اقتضاءات الخلقة الإنسانيّة وينطبق التشريع على الفطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فطريّاً وهو قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » .

۴ - قد عرفت معنى كون الدين فطريّاً فالإسلام يسمّى دين الفطرة لما أنّ الفطرة الإنسانيّة تقتضيه و تهدي إليه .

ويسمّى إسلاما لما أنّ فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه ، ومصداق الإرادة وهي صفة الفعل تجمّع العلل المؤلّفة من خصوص خلقة الإنسان وما يحتفّ به من مقتضيات الكون العامّ على اقتضاء الفعل أو الترك قال تعالى : « إنّ الدين عندالله الإسلام » .

ويسمّى دين الله لأنّه الّذي يريده الله من عباده من فعل أو ترك بما مرّ من معنى الإرادة .

ويسمّى سبيل الله لما أنّه السبيل الّتي أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهي به إلى كماله و سعادته قال تعالى : « الّذين يصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجا » الأعراف : ۴۵ .

و أمّا أنّ الدين الحقّ يجب أن يؤخذ من طريق الوحي والنبوّة و لا يكفي فيه العقل فقد تقدّم بيانه في مباحث النبوّة وغيرها من مباحث الكتاب .

* * *

اللّٰه الّذى خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عمّا يشركون (٤٠) ظهر الفساد فى البرّ والبحر بما كسبت أيدى النّاس ليذيقهم بعض الّذى عملوا لعلّهم يرجعون (٤١) قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل كان أكثرهم مشركين (٤٢) فأقم وجهك للدّين القيّم من قبل أن يأتى يوم لامردّ له من اللّٰه يومئذ يصّدّعون (٤٣) من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون (٤٤) ليجزى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات من فضله انّه لا يحبّ الكافرين (٤٥) ومن آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات و ليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله و لعلّكم تشكرون (٤٦) ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً الى قومهم فجاؤهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين (٤٧) .

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الثاني من الفصول الأربعة الّتي يحتجّ فيها بالأفعال الخاصّة به و إن شئت فقل : بأسماء الأفعال على إبطال الشركاء ونفي ربوبيّتهم واُلوهيّتهم وعلى إثبات المعاد .

قوله تعالى : « الله الّذي خلقكم ثمّ رزقكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم هل من

شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء » الخ اسم الجلالة مبتدء و « الّذي خلقكم » خبره ، وكذاقوله : «من يفعل » الخ مبتدء خبره «من شركائكم » المقدّم عليه والاستفهام إنكاريّ وقد ذكر في تركيب الآية احتمالات اُخر .

والمعنى أنّ الله سبحانه هو الّذي اتّصف بكذا وكذا وصفامن أوصاف الاُلوهيّة والربوبيّة فهل من الآلهة الّذين تدّعون أنّهم آلهة من يفعل شيئاً من ذلكم يعني من الخلق والرزق والإماتة والإحياء وإذ ليس منهم من يفعل شيئاً من ذلكم فالله سبحانه هوإلهكم وربّكم لاإله إلّا هو .

ولعلّ الوجه فيذكر الخلق مع الرزق والإحياء والإماتة مع تكرّر تقدّم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أنّ الرزق لاينفكّ عن الخلق بمعنى أنّ بعض الخلق يسمّى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق فيالحقيقة من الخلق فالّذي يخلق الخلق هو الّذي يرزق الرزق .

فليس لهم أن يقولوا : إنّ الرازق وكذا المحيي والمميت بعضآلهتنا كما ربّما يدّعيه بعضهم أنّ مدبّر عالم الإنسان بعض الآلهة و مدبّر كلّ شأن من شؤن العالم من الخيرات والشرور بعضهم لكنّهم لايختلفون أنّالخلق والإيجاد منه تعالىلايشاركه في ذلك أحد فإذا سلّم ذلك ومنالمسلّم أنّ الرزق مثلا خلق وكذا سائر الشؤن لاتنفكّ عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى ولم يبق لآلهتهم شأن من الشؤن .

ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن شركهم فقال : « سبحانه وتعالى عمّا يشركون » .

قوله تعالى : « ظهر الفساد في البرّ و البحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلّهم يرجعون» الآية بظاهر لفظها عامّة لاتختصّ بزمان دون زمان أو بمكان أوبواقعة خاصّة فالمرادبالبرّ والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطحالكرة الأرضيّة .

والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهماالشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية و الحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملة كلّ مايفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضيّ سواء

كان مستنداً إلى اختيار بعض الناس أوغير مستند إليه . فكلّ ذلك فساد ظاهر في البرّ أوالبحر مخلّ بطيب العيش الإنسانيّ .

وقوله : « بماكسبت أيدي الناس » أي بسبب أعمالهم الّتي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية الأعراف : ٩٦ و أيضاً في مباحث النبوّة من الجزء الثاني من الكتاب أنّ بين أعمال الناس والحوادث الكونيّة رابطة مستقيمة يتأثّر إحداهما من صلاح الاُخرى وفسادها .

وقوله : «ليذيقهم بعض الّذي عملوا » اللاّم للغاية ، أي ظهر ماظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيّئة بل ليذيقهم نفس ماعملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنّما كان بعض ما عملوا لأنّ الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى : ٣٠ .

والآية ناظرة إلى الوبال الدنيويّ وإذاقة بعضه لاكلّه من غير نظر إلى وبال الأعمال الاُخرويّ فما قيل:إنّ المراد إذاقة الوبال الدنيويّ وتأخير الوبال الاُخرويّ إلى يوم القيامة لادليل عليه ولعلّه جعل تقدير الكلام : «ليذيقهم بعض جزاء ماعملوا» مع أنّ التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ماعملوا » لأنّ الّذي يحوجنا إلى تقدير المضاف ـ لوأحوجنا ـ هو أنّ الراجع إليهم ثانيا في صورة الفساد هوجزاء أعمالهم لانفس أعمالهم فالّذي اُذيقوا هوجزاء بعض ماعملوا لابعض جزاء ماعملوا .

وقوله : «لعلّهم يرجعون » أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم و معاصيهم إلى التوحيد والطاعة .

ووجه اتّصال الآية بما قبلها أنّه لمّا احتجّ في الآية السابقة على التوحيد ونزّهه عن شركهم أشار في هذه الآية إلى ما يستتبع الشرك ـ وهو معصية ـ من الفساد في الأرض وإذاقة وبال السيّآت فبيّن ذلك ببيان عامّ .

ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجيبة كقول بعضهم المراد بالأرض أرض مكّة وقول بعضهم : المراد بالبرّ القفار الّتي لا يجري فيها نهر و بالبحر كلّ قرية على شاطىء نهر

عظيم ، وقول بعضهم : البرّ الفيافي ومواضع القبائل و البحر السواحل والمدن الّتي عند البحر والنهر ، وقول بعضهم : البرّ البريّة والبحر المواضع المخصبة الخضرة وقول بعضهم إنّ هناك مضافا محذوفا والتقدير في البرّ ومدن البحر ولعلّ الّذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ماورد أنّ الآية ناظرة إلى القحط الّذي وقع بمكّة إثر دعاء النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم على قريش لمّا لجّوا في كفرهم وداموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقعوا فيما وقعوا من التكلّف .

وقول بعضهم : إنّ المراد بالفساد في البرّ قتل ابن آدم أخاه وفي البحر أخذ كلّ سفينة غصبا . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل كان أكثرهم مشركين » أمر للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الّذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم و عفت آثارهم و بادوا عن آخرهم وانقطع دابرهم بأنواع من النوائب والبلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة .

قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصّدّعون » تفريع على ما تقدّمه أي إذا كان الشرك والكفر بالحقّ بهذه المثابة وله وبال سيلحق بالمتلبّس به فأقم وجهك للدين القيّم .

وقوله : « من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله » متعلّق بقوله : « فأقم » والمردّ مصدر ميمي بمعنى الردّ وهو بمعنى الرادّ و اليوم الّذي لا مردّ له من الله يوم القيامة .

وقوله : « يومئذ يصّدّعون » أصله يتصدّعون ، والتصدّع في الأصل تفرّق أجزاء الأواني ثمّ استعمل في مطلق التفرّق كما قيل والمراد به ـ كما قيل ـ تفرّقهم يومئذ إلى الجنّة والنار .

وقيل المراد تفرّق الناس بأشخاصهم كما يشير إليه قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » القارعة : ٤ . ولكلّ وجه ، ولعلّ الأظهر امتياز الفريقين كما سيأتي .

قوله تعالى : « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » الظاهر

أنّه تفسير لقوله في الآية السابقة : « يتفرّقون » وقوله : « من كفر فعليه كفره » أي وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الّذي سينقلب عليه نارا يخلّد فيها وهذا أحد الفريقين .

وقوله : « ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » مهد الفراش بسطه وإيطاؤه ، و هؤلاء الفريق الآخر الّذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقد جيء بالجزاء «فلأنفسهم يمهدون» جمعا نظراً إلى المعنى كما أنّه جيىء به مفردا في الشرطيّة السابقة «فعليه كفره» نظراً إلى اللفظ ، واكتفي في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الإيمان معه لأنّ العمل إنّما يصلح بالإيمان على أنّه مذكور في الآية التالية .

والمعنى والّذين عملوا عملاً صالحاً ـ بعد الإيمان ـ فلأنفسهم يوطؤن ما يعيشون به ويستقرّون عليه .

قوله تعالى : «ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنّه لا يحبّ الكافرين » قال الراغب : الجزاء الغناء والكفاية قال الله تعالى: «لا تجزي نفس عن نفس شيأ» وقال : «لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ» والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ يقال : جزيته كذا وبكذا . انتهى .

وقوله : « ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله » اللام للغاية ولا ينافي عدّها يؤتيهم جزاء ـ و فيه معنى المقابلة ـ عدّه من فضله وفيه معنى عدم الاستحقاق وذلك لأنّهم بأعيانهم وما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيأ حتّى يستحقّوا به أجراً ، و أين العبوديّة من الملك والاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق .

لكنّه سبحانه بفضله ورحمته اعتبر لهم ملكا لأعمالهم في عين أنّه يملكهم ويملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقّا يستحقّونه ، وجعل ما ينالونه من الجنّة والزلفى أجرا مقابلا لأعمالهم وهذا الحقّ المجعول أيضا فضل آخر منه سبحانه .

و منشأ ذلك حبّه تعالى لهم لأنّهم لمّا أحبّوا ربّهم أقاموا وجوههم للدين القيّم واتّبعوا الرسول فيما دعا إليه فأحبّهم الله كما قال : «قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني

يحببكم الله » آل عمران : ٣١ .

ولذا كانت الآية تعدّ ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابلة والمبادلة وتعدّ ذلك من فضله نظراً إلى أنّ نفس هذه المقابلة والمبادلة فضل منه سبحانه ومنشأه حبّه تعالى لهم كما يؤمي إليه تذييل الآية بقوله : « إنّه لا يحبّ الكافرين » .

ومن هنا يظهر أنّ قوله : « إنّه لا يحبّ الكافرين » يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي والإثبات جميعاً أي إنّه تعالى يخصّ المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل ويحرم الكافرين منه لأنّه يحبّ هؤلاء ولا يحبّ هؤلاء .

قوله تعالى : «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون» المراد بكون الرياح مبشّرات تبشيرها بالمطر حيث تهبّ قبيل نزوله .

وقوله : «وليذيقكم من رحمته» عطف على موضع مبشّرات لما فيه من معنى التعليل والتقدير يرسل الرياح لتبشّركم وليذيقكم من رحمته و المراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتّبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار و دفع العفونات وتصفية الأجواء وغير ذلك ممّا يشمله إطلاق الجملة .

وقوله : « ولتجري الفلك بأمره » أي لجريان الرياح وهبوبها . وقوله : «ولتبتغوا من فضله » أي لتطلبوا من رزقه الّذي هو من فضله .

وقوله : « ولعلّكم تشكرون » غاية معنويّة كما أنّ الغايات المذكورة من قبل غايات صوريّة ، والشكر هو استعمال النعمة بنحو ينبيء عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظيّ عليه بذكر إنعامه ، وينطبق بالأخرة على عبادته ولذلك جيء بلعلّ المفيدة للرجاء فإنّ الغايات المعنويّة الاعتبارية ربّما تخلّفت .

قوله تعالى : «ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين » قال الراغب :أصل الجرم - بالفتح فالسكون - قطع الثمرة عن الشجر - إلى أن قال - وأجرم صار ذا جرم نحو أثمر وأتمر وألبن واستعير ذلك لكلّ اكتساب مكروه ولا يكاد يقال في عامّة كلامهم للكيّس المحمود انتهى .

والآية كالمعترضة وكأنّها مسوقة لبيان أنّ للمؤمنين حقّاً على ربّهم وهو نصرهم في الدنيا و الآخرة و منه الانتقام من المجرمين ، وهذا الحقّ مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا في نفسه مقهوراً محكوما لغيره .

وقوله : « فانتقمنا من الذين أجرموا » الفاء فصيحة أي فآمن بعضهم و أجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب وإهلاك مخالفيهم ، و في الآية بعض الإشعار بأنّ الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنّه من النصر .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : «ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس» قال : في البرّ فساد الحيوان إذا لم يمطر وكذلك هلاك دوابّ البحر بذلك ، وقال الصادق عليه‌السلام : حياة دوابّ البحر بالمطر فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البرّ والبحر ، وذلك إذا كثرت الذنوب و المعاصي .

اقول : وهو من الجري .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشاميّ قال : سألت أبا عبدالله عليه‌السلام عن قول الله عزّ وجلّ : «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبل» فقال : عنى بذلك أي انظروا في القرآن فانظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلكم .

وفي المجمع في قوله : « ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون » روى منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : إنّ العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنّة فيمهد له كما يمهد لأحدهم خادمه فراشه .

وفيه وجاءت الرواية عن اُمّ الدرداء أنّها قالت : سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : ما من امرء يردّ عن عرض أخيه إلّا كان حقّا على الله أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة ثمّ قرء : « وكان حقّا علينا نصر المؤمنين » .

أقول : ورواه في الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن أبي الدرداء .

✩ ✩ ✩

اَللّٰهُ الَّذى يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّماٰءِ كَيْفَ يَشاٰءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ فَاِذاٰ اَصاٰبَ بِهِ مَنْ يَشاٰءُ مِنْ عِباٰدِهِ اِذاٰهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَاِنْ كاٰنُوا مِنْ قَبْلِ اَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسينَ (٤٩) فَانْظُرْ اِلىٰ آثاٰرِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِى الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهاٰ اِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتىٰ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ (٥٠) وَلَئِنْ اَرْسَلْناٰ ريحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَاِنَّكَ لاٰتُسْمِعُ الْمَوْتىٰ وَلاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاٰءَ اِذاٰ وَلَّوْا مُدْبِرينَ (٥٢) وَماٰ أَنْتَ بِهاٰدِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ اِنْ تُسْمِعُ اِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياٰتِناٰ فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) .

﴿بيان﴾

هذا هو الفصل الثالث من الآيات المحتجة من طريق أفعاله تعالى وإن شئت فقل : أسماء أفعاله وعمدة غرضها الاحتجاج على المعاد ولما كان عمدة إنكارهم وجحودهم متوجها إلى المعاد و بإنكاره يلغو الأحكام و الشرائع فيلغو التوحيد عقب الاحتجاج بإيآس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمره بأن يشتغل بدعوة من في نفسه استعداد الإيمان وصلاحية الإسلام والتسليم للحق .

قوله تعالى : «الله الّذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء » إلى آخر الآية . الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسماء جهة العلو فكل ماعلاك وأظلك فهو سماء والكسف بالكسر فالفتح جمع كسفة وهي القطعة والودق

القطر من المطر والخلال جمع خلّة وهي الفرجة .

والمعنى الله الّذي يرسل الرياح فتحرّك وتنشر سحابا ويبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجوّ كيف يشاء سبحانه ويجعله قطعات متراكبة متراكمة فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذاهم يستبشرون لأنّه مادّة حياتهم وحياةالحيوان والنبات .

قوله تعالى : « وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين » الإبلاس الياس والقنوط .

وضمير « ينزّل» للمطر وكذا ضمير «من قبله» على ماقيل وعليه يكون«من قبله» تأكيداً لقوله : « من قبلأن ينزّل عليهم » وفائدة التأكيد - على ماقيل- الإعلام بسرعة تقلّب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار وذلك أنّ قوله : « من قبل أن ينزّل عليهم» يحتمل الفسحة في الزمان فجاء «من قبله » للدلاله على الاتّصال ودفع ذلك الاحتمال .

وفي الكشّاف أنّ قوله : « من قبله » من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى: «فكان عاقبتهماأنّهما في النار خالدين فيها» ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أنّ عهدهم بالمطر قدتطاول وبعد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك انتهى .

وربّما قيل : إنّ ضمير « من قبله » لإرسال الرياح والمعنى وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآئسين قانطين .

قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إنّ ذلك لمحيي الموتى و هو على كلّ شيء قدير » الآثار جمع الأثر وهو مايبقى بعد الشيء فيدلّ عليه كأثر القدم وأثر البناء واستعير لكلّ مايتفرّع على شيء ، والمراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الّذي بسطته الرياح ، وآثارها مايترتّب على نزول المطر من النبات والأشجار والأثمار وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها .

ولذا قال : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » فجعل

آثار الرحمة الّتي هي المطر كيفيّة إحياء الأرض بعد موتها فحياة الأرض بعد موتها من آثار الرحمة والنبات والأشجار والأثمارمن آثار حياتها وهي أيضا من آثار الرحمة والتدبير تدبير إلهيّ يتفرّع على خلقة الرياح والسحاب والمطر .

وقوله : « إنّ ذلك لمحيي الموتى » الإشارة بذلك إليه تعالى بما له من الرحمة الّتي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها ، وفي الإشارة البعيدة تعظيم ، والمرادبالموتى موتى الإنسان أوالإنسان وغيره من ذوي الحياة .

والمرادبقوله : «إنّ ذلك لمحيي الموتى » الدلالة على المماثلة بين إحياءالأرض الميتة وإحياء الموتى إذ في كلّ منهما موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ وحياة هي تجدّد تلك الآثار بعد سقوطها ، وقد تحقّق الإحياء في الأرض و النبات وحياة الإنسان وغيره من ذوي الحياة مثلها وحكم الأمثال فيما يجوز و فيما لايجوز واحد ، فاذاجاز الإحياء في بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز في البعض الآخر .

وقوله : « وهو على كلّ شيء قدير » تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر وهو عموم القدرة فإنّ القدرة غير محدودة ولا متناهية فيشمل الإحياء بعد الموت وإلّا لزم تقيّدها وقد فرضت مطلقة غير محدودة .

قوله تعالى : « ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرّا لظلّوا من بعده يكفرون » ضمير « فرأوه» للنبات المفهوم من السياق ، وقوله : «لظلّوا» جواب للقسم قائم مقام الجزاء والمعنى واُقسم لئن أرسلنا ريحا باردة فضربت زروعهم وأشجارهم بالصفار ورأوه لظلّوا بعده كافرين بنعمه .

ففي الآية توبيخهم بالتقلّب السريع في النعمة والنقمة فاذا لاحت لهم النعمة بادروا إلى الاستبشار وإذا اُخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلّمات من النعم .

وقيل : ضمير « فرأوه » للسحاب لأنّ السحاب إذا كان أصفر لم يمطر ، وقيل : للريح فإنّه يذكّر ويؤنّث والقولان بعيدان .

قوله تعالى : « فإنك لاتسمع الموتى ـ إلى قوله ـ فهم مسلمون » تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل لاتشتغل ولا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إبلاس واستبشار وكفر و من عدم الإيمان بآياتنا وعدم تعقلها فانهم موتى وصم وعمي وأنت لاتقدر على إسماعهم وهدايتهم وإنما تسمع وتهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج ويصدقها فهم مسلمون وقد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل .



✡ ✡ ✡

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) .

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الرابع من الآيات وهو كسابقه وفيها ختام السورة .

قوله تعالى : « الله الّذي خلقكم من ضعف ثمّ جعل من بعد ضعف قوّة ثمّ جعل من بعد قوّة ضعفا وشيبة » الخ الضعف والقوّة متقابلان ، و«من» في قوله : «من ضعف» للابتداء أي ابتدء خلقكم من ضعف أي ابتدأكم ضعفاء ، ومصداقه على ماتفيده المقابلة أوّل الطفوليّة وإن أمكن صدقه على النطفة .

والمراد بالقوّة بعد الضعف بلوغ الأشدّ وبالضعف بعد القوّة الشيخوخة و لذا عطف عليه «شيبة» عطف تفسير ، وتنكير «ضعف» و «قوّة» للدلالة على الإبهام وعدم

تعيّن المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك .

وقوله : « يخلق مايشاء » أي كما شاء الضعف فخلقه ثمّ القوة بعده فخلقها ثمّ الضعف بعدها فخلقه وفي ذلك أتمّ الإشارة إلى أنّ تتالي هذه الأحوال من الخلق وإن كان هذا النقل من حال إلى حال في عين أنّه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول : إنّ ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان مثلا كما يقوله الوثنيّة .

ثمّ تمّم الكلام بالعلم والقدرة فقال : « وهو العليم القدير » .

قوله تعالى : ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادّة للآيات والحجج على وحدانيّته تعالى والبعث ، وكالتمهيد و التوطئة للآية الّتي تختتم بها السورة فانّه لماعدّ شيئاً من الآيات والحجج و أشار إلى أنّهم ليسوا ممّن يترقّب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبيّن أنّهم في جهل من الحقّ يتلقّون الحديث الحقّ باطلا والآيات الصريحة الدلالة منعزلة عن دلالتها وكذلك يؤفكون ولا عذر لهم يعتذرون به .

وهذا الإفك والتقلّب من الحقّ إلى الباطل يدوم عليهم ويلازمهم حتّى قيام الساعة فيظنّون أنّهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت و البعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كلّ حقّ فظنّوه باطلا .

فقوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا ويوم البعث حتّى ظنّوه ساعة من ساعات الدنيا .

وقوله : «كذلك كانوا يؤفكون » أي يصرفون من الحقّ إلى الباطل فيدعون إلى الحقّ ويقام عليه الحجج والآيات فيظنّونه باطلا من القول وخرافة من الرأي .

قوله تعالى : « وقال الّذين اُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الخ ردّ منهم لقول المجرمين : « ما لبثوا غير ساعة » فإنّ المجرمين لإخلادهم إلى الأرض وتوغّلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث والفصل بينه

وبين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقدّروا الفصل بساعة وهو مقدار قليل من الزمان كأنّهم ظنّوا أنّهم بعد في الدنيا لأنّه مبلغ علمهم .

فردّ عليهم أهل العلم و الإيمان أنّ اللبث مقدّر بالفصل بين الدنيا و يوم البعث و هو الفصل الّذي يشير إليه قوله : « و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » المؤمنون : ١٠٠ .

فاستنتجوا منه أنّ اليوم يوم البعث ولكنّ المجرمين لمّا كانوا في ريب من البعث ولم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنّوا أنّهم لم يمرّ بهم إلّا ساعة من ساعات الدنيا وهذا معنى قولهم : « لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنّكم كنتم لاتعلمون » أي كنتم جاهلين مرتابين لايقين لكم بهذا اليوم ولذلك اشتبه عليكم أمر اللبث .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بقوله : « اُوتوا العلم والإيمان » اليقين والالتزام بمقتضاه وأنّ العلم بمعنى اليقين بالله وبآياته والإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهيّة ، ومن هنا يظهر أيضا أنّ المراد بكتاب الله الكتب السماوية أوخصوص القرآن لاغيره وقول بعضهم : إنّ في الآية تقديما و تأخيرا و التقدير وقال الّذين اُوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لايعتدّ به .

قوله تعالى : « فيومئذ لاينفع الّذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون » الاستعتاب طلب العتبى والعتبى إزالة العتاب أي لاينفعهم المعذرة عن ظلمهم ولا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم .

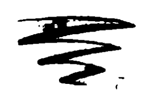
قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل » الخ إشارة إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحقّ حيث لاينفعهم مثل يقرّب الحقّ من قلوبهم لأنّها مطبوع عليها ، ولذا عقّبه بقوله : « ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون » أي جاؤن بالباطل وهذا القول منهم لأنّهم مصروفون عن الحقّ يرون كلّ حقّ باطلا ، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول .

قوله تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لايعلمون » أي يجهلون بالله

وآياته ومنها البعث وهم يصرّون على جهلهم و ارتيابهم .

قوله تعالى : « فاصبر إنّ وعدالله حقّ ولا يستخفنّك الّذين لايوقنون » أي فاصبر على مايواجهونك به من قولهم : « إن أنتم إلّا مبطلون » وسائر تهكّماتهم ، إنّ وعدالله أنّه ينصرك حقّ كما أومأ إليه بقوله : « و كان حقّاً علينا نصر المؤمنين » ولا يستخفنّك الّذين لايوقنون بوعدالله سبحانه .

وقول بعضهم : إنّ المعنى لايوقنون بما تتلوعليهم من الآيات البيّنات بتكذيبهم لها و إيذائهم لك بأباطيلهم ، ليس بشيء وقد بدئت السورة بالوعد وختمت بالوعد والوعدان جميعا بالنصرة .



سورة لقمان مكّيّة وهي أربع وثلثون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولٰئِكَ عَلٰى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَ اِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلّٰى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) اِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللّٰهِ حَقّاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقٰى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هٰذَا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة كما يومي إليه فاتحتها و خاتمتها و يشير إليه سياق عامّة آياتها الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد و الأخذ بكلّيّات شرائع الدين .

ويلوح من صدر السورة أنّها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقة ملهية كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله

« ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله » الآية و سيوافي حديثه . فنزلت السورة تبيّن اُصول عقائد الدين و كلّيّات شرائعه الحقّة وقصّت شيأ من خبر لقمان الحكيم ومواعظه تجاه أحاديثهم الملهية .

و السورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها . ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى:« ذلك بأنّ الله هو الحقّ و أنّ ما يدعون من دونه هو الباطل » الآية .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم هدى و رحمة للمحسنين - إلى قوله - يوقنون » تقدّم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة .

وقد وصف الكتاب بالحكيم إشعاراً بأنّه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انثلام فيه ليداخله لهو الحديث و باطل القول ، ووصفه أيضاً بأنّه هدى و رحمة للمحسنين تتميما لصفة حكمته فهو يهدي إلى الواقع الحقّ و يوصل إليه لا كاللهو الشاغل للإنسان عمّا يهمّه ، و هو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة .

ووصف المحسنين بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة هما العمدتان في الأعمال وبالإيقان بالآخرة ويستلزم التوحيد والرسالة وعامّة التقوى كلّ ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث والمصغي إليه لمن يستمع لهو الحديث .

قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم و يتّخذها هزوا » الخ اللّهو ما يشغلك عمّا يهمّك و لهو الحديث الحديث الّذي يلهي عن الحقّ بنفسه كالحكايات الخرافيّة و القصص الداعية إلى الفساد والفجور ، أو بما يقارنه كالتغنّي بالشعر أو بالملاهي و المزامير و المعازف فكلّ ذلك يشمله لهو الحديث .

وقوله : « ليضلّ عن سبيل الله بغير علم » مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقّة الاعتقاديّة و العمليّة و خاصّة قصص الأنبياء و اُممهم الخالية فإنّ لهو الحديث و الأساطير المزوّقة المختلقة تعارض أوّلا هذه القصص ثمّ تهدم بنيان سائر المعارف الحقّة و توهنها في أنظار الناس .

و يؤيّد ذلك قوله بعد : « ويتّخذها هزواً » فإنّ لهو الحديث بما أنّه حديث

كما سمعت يعارض أوّلا الحديث و يتّخذه سخريّاً .

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص و المعارف و كأنّ مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضلّ الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتّخذالقرآن هزواً بأنّه حديث مثله و أساطير كأساطيره .

و قوله : « بغير علم » متعلّق بيضلّ و هو في الحقيقة وصف ضلال الضالّين دون إضلال المضلّين وإن كانوا أيضاً لاعلم لهم ثمّ هدّدهم بقوله : « اُولئك لهم عذاب مهين» أي مذلّ يوهنهم ويذلّهم حذاء استكبارهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأنّ في اُذنيه وقرا » الخ وصف لذاك الّذي يشتري لهو الحديث ليضلّ الناس عن القرآن و يهزء به و الوقر الحمل الثقيل و المراد بكون الوقر على اُذنيه أن يشدّ عليهما ما يمنع من السمع وقيل : هو كناية عن الصمم .

والمعنى وإذا تتلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أي القرآن ولّى وأعرض عنها و هو مستكبر كأن لم يسمعها قطّ كأنّه أصمّ فبشّره بعذاب أليم .

وقد اُعيد إلى من يشتري ضمير الافراد أوّلا كما في « يشتري » و « ليضلّ » و « يتّخذها » باعتبار اللّفظ وضمير الجمع ثانياً باعتبار المعنى ثمّ ضمير الإفراد باعتبار اللّفظ كما في « عليه » و غيره كذا قيل ، و من الممكن أن يكون ضمير « لهم» في الآية السابقة راجعاً إلى مجموع المضلّ و الضالّين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضمائر الراجعة إلى « من » مفردة جميعاً .

قوله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم جنّات النعيم - إلى قوله ـ العزيز الحكيم » رجوع بعد إنذار ذاك المشتري و تهديده بالعذاب المهين ثمّ العذاب الأليم إلى تبشير المحسنين و تطييب أنفسهم بجنّة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى ووعده الحقّ .

ولمّـا كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضلّه بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره ويهين به و كان لا يعتني بما تتلى عليه

من الآيات مستكبراً و ذلك استهانة بالله سبحانه أكّد أوّلاً ما وعده للمحسنين بقوله : « وعد الله حقّاً » ثمّ وصف ثانياً نفسه بالعزّة المطلقة ، فلا يطرء عليه ذلّة و إهانة والحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل ولا هزل وخرافة .

ثمّ وصفه ثالثاً بأنّه الّذي يدبّر أمر السماء و الأرض و النبات و الحيوان و الإنسان لأنّه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنّة و اُولئك بالعذاب وهو قوله : «خلق السماوات بغير عمد ترونها » الخ .

قوله تعالى : «خلق السماوات بغير عمد ترونها » الخ تقدّم في تفسير قوله تعالى: « الله الّذي رفع السماوات بغير عمد ترونها » الرعد : ٢ أنّ قوله : « ترونها » يحتمل أن يكون قيداً توضيحيّاً والمعنى أنّكم ترونها ولا أعمدة لها ، وأن يكون قيداً احترازيّاً و المعنى خلقها بغير أعمدة مرئيّة إشعاراً بأنّ هناك أعمدة غير مرئيّة .

و قوله : « و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » أي ألقى فيها جبالاً شامخة لئلّا تضطرب بكم وفيه إشعار بأنّ بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة .

و قوله : « و بثّ فيها من كلّ دابّة » أي نشر في الأرض من كلّ حيوان يدبّ عليها .

و قوله : « و أنزلنا من السماء ماء و أنبتنا فيها من كلّ زوج كريم » أي وأنزلنا من جهة العلو ماء وهو المطر و أنبتنا فيها شيئاً من كلّ زوج نباتيّ شريف فيه منافع وله فوائد ، وفيه إشارة إلى تزوّج النبات وقد تقدّم الكلام فيه في نظيره .

والالتفات فيها من الغيبة إلى التكلّم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قيل .

قوله تعالى : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الّذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » لمّا أراهم خلقه و تدبيره تعالى للسماوات و الأرض وما عليها فأثبت به ربوبيّته و اُلوهيّته تعالى كلّفهم أن يُروه شيئاً من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة وأرباباً فإن لم يقدروا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيّته تعالى في اُلوهيّته وربوبيّته .

وإنّما كلّفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم ـ وهم يعترفون أنّ الخلق لله وحده

ولا يسندون إلى آلهتهم خلقا وإنّما ينسبون إليهم التدبير فقط ـ لأنّه نسب إلى الله خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك فلو كان لآلهتهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبّرون أمره و إذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلّا الله ولا ربّ غيره .

وقد سيقت الآية خطابا من النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّ نوع هذا الخطاب « فأروني ما ذا خلق الّذين من دونه » لا يستقيم من غيره صلى الله عليه وآله .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع : نزل قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبدالدار بن قصيّ بن كلاب كان يتّجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم و يحدّث بها قريشا و يقول لهم : إنّ محمّداً يحدّثكم بحديث عاد و ثمود و أنا اُحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن . عن الكلبيّ .

أقول : وروى هذا المعنى في الدرّ المنثور عن البيهقيّ عن ابن عبّاس ، ولا يبعد أن يكون ذلك سبب نزول تمام السورة كما تقدّمت الإشارة إليه .

وفي المعاني بإسناده عن يحيى بن عبادة عن أبي عبدالله عليه السلام قلت: قوله عزّ وجلّ « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : منه الغنا .

أقول : و روى هذا المعنى في الكافي بإسناده عن مهران عنه عليه السلام ، وبإسناده عن الوشّا عن الرضا عنه عليهما السلام ، و بإسناده عن الحسن بن هارون عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : الغنا ممّا أوعدالله عليه النار و تلا هذه الآية : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم و يتّخذها هزوا اُولئك لهم عذاب مهين » .

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن كسب المغنّيات فقال : الّتي يدخل عليها الرجال حرام و الّتي تدعى إلى الأعراس ليس به بأس وهو قول الله عزّ و جلّ : « و من الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله » .

وفي المجمع وروى أبوأمامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : لايحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ و أثمانهنّ حرام وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله : « و من الناس من يشتري لهو الحديث » الآية .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن جمّ غفير من أصحاب الجوامع عن أبي أمامة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

وفيه و روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : هو الطعن في الحقّ والاستهزاء به وماكان أبوجهل وأصحابه يجيؤن به إذ قال : يا معاشر قريش ألا أُطعمكم من الزقّوم الّذي يخوّفكم به صاحبكم ؟ ثمّ أرسل إلى زبد و تمر فقال : هذا هو الزقّوم الّذي يخوّفكم به . قال : ومنه الغنا .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي الدنيا عن عليّ بن الحسين قال : ما قدّست أمّة فيها البربط .

وفي تفسير القمّيّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « و من الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم » فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبدالدار بن قصيّ وكان النضر ذارواية لأحاديث الناس وأشعارهم يقول الله عزّ وجلّ : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً » الآية .

وفيه عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن قول الله تعالى : « والسماء ذات الحبك » قال : هي محبوكة إلى الأرض وشبّك بين أصابعه فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول : «رفع السماوات بغير عمد ترونها » ؟ فقال : سبحان الله أليس يقول : « بغير عمد ترونها» ؟ فقلت . بلى فقال : فثمّ عمد ولكن لاترونها .

☆ ☆ ☆

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمٰنَ الْحِكْمَةَ اَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَاِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَ اِذْ قَالَ لُقْمٰنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللّٰهِ اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْاِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ اُمُّهُ وَهْنًا عَلٰى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ اَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ اِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَ اِنْ جَاهَدَاكَ عَلٰى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ اِلَيَّ ثُمَّ اِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَاُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ اَقِمِ الصَّلٰوةَ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُورِ(١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْاَرْضِ مَرَحاً اِنَّ اللّٰهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة و نبذة من حكمه و مواعظه لابنه ولم يذكر في القرآن إلاّ في هذه السورة ويناسب المورد من حيث مقابلة قصّته الممتلئة حكمة

وموعظة لما قصّ من حديث من كان يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم ويتّخذها هزؤا .

قوله تعالى : «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله» الخ الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلميّة النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجربزة. وقوله : « أن اشكر لي » قيل : هو بتقدير القول أي وقلنا : أن اشكر لي .

والظاهر أنّه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول وذلك أنّ حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الّذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم ، و إيقاعه كما هو حقّه يتوقّف على معرفة المنعم ومعرفة نعمه بما هي نعمة وكيفيّة وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمة .

وفي قوله : « أن اشكر لله » التفات من التكلّم مع الغير إلى الغيبة و ذلك أنّ التكلّم مع الغير من المتكلّم إظهار للعظمة بالتكلّم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر .

وقوله : « ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ الله غنيّ حميد » استغناء منه تعالى أنّ نفع الشكر إنّما يرجع إلى نفس الشاكر و الكفر لا يتضرّر به إلّا نفسه دونه سبحانه ومن يشكر فإنّما يوقع الشكر لنفع نفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فإنّما يتضرّر به نفسه إنّ الله غنيّ لا يؤثّر فيه الشكر نفعا ولا ضرّا حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر .

وفي التعبير عن الشكر بالمضارع الدالّ على الاستمرار و في الكفر بالماضي الدالّ على المرّة إشعار بأنّ الشكر إنّما ينفع مع الاستمرار ّا لكن الكفر يتضرّر بالمرّة منه .

قوله تعالى : « و إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم » عظمة كلّ عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصيّ فإنّ مؤاخذة العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كلّ عظمة وكبرياء بأنّه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنّه الله لا شريك له .

وقوله : « إنّ الشرك لظلم عظيم » حيث اُطلق عظمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدلّ على أنّ له من العظمة مالايقدّر بقدر .

قوله تعالى : « ووصّينا الإنسان بوالديه » إلى آخر الآية اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنّما اطّردهنا للدلالة على وجوب شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه إلى وصيّته وأمره تعالى فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكره .

وقوله : « حملته اُمّه وهنا على وهن وفصاله في عامين » ذكر بعض ماتحمّلته اُمّه من المحنة والأذى في حمله وتربيته ليكون داعياً له إلى شكرهما و خاصّة الاُمّ .

والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق و التقدير تهن وهنا على وهن ، و الفصال الفطم وترك الإرضاع ومعنى كون الفصال في عامين تحقّقه بتحقّق العامين فيؤل إلى كون الإرضاع عامين و إذاضمّ إلى قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » الاحقاف: ١٦ بقي لأقلّ الحمل ستّة أشهر وستتكرّر الإشارة إليه في البحث الروائي التالي .

وقوله : « أن اشكر لي و لوالديك إليّ المصير » تفسير لقوله : « وصّينا » الخ في أوّل الآية أي كانت وصيّتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله وقوله : « إليّ المصير » إنذار وتأكيد للأمر بالشكر .

و القول في الالتفات الواقع في الآية في قوله : « أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير » الخ من سياق التكلّم مع الغير إلى سياق التكلّم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق : « أن اشكر لله » .

قوله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما » إلى آخر الآية . أي إن ألحّا عليك بالمجاهدة أن تجعل ماليس لك علم به أو بحقيقته شريكا لي فلاتطعهما ولاتشرك بي والمراد بكون الشريك المفروض لاعلم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لايتعلّق به علم فيؤل المعنى لاتشرك بي ماليس بشيء ، هذامحصّل ماذكره

في الكشّاف وربّما أيدّه قوله تعالى: «أتنبّئونه بمالايعلم في السماوات ولا في الأرض» يونس ١٨ .

وقيل : « تشرك » بمعنى تكفرو « ما » بمعنى الّذي والمعنى وإن جاهداك أن تكفر بي كفرا لاحجّة لك به فلاتطعهما و يؤيّده تكرار نفي السلطان على الشريك في كلامه تعالى كقوله : « ماتعبدون من دونه إلاّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان » يوسف : ٤٠ إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله:«وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبّع سبيل من أناب إليّ» الجملتان كالتلخيص والتوضيح لما تقدّم في الآيتين من الوصيّة بهما والنهي عن إطاعتهما إن جاهدا على الشرك بالله .

يقول سبحانه : يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الاُمور الدنيويّة غير الدين الّذي هو سبيل الله صحابا معروفاً ومعاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمّل المشاقّ التي تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلّا أيّاما معدودة متصرّمة ، وأمّا الدين فإن كانا ممّن أناب إلى الله فلتتبّع سبيلهما و إلّا فسبيل غيرهما ممّن أناب إلى الله .

ومن هنا يظهر أنّ في قوله : « واتّبع سبيل من أناب إليّ » إيجازاً لطيفا فهو يفيد أنّهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتّبع سبيلهما وإلاّ فلا يطاعا ولتتّبع سبيل غيرهما ممّن أناب إلى الله .

وقوله : « ثمّ إليّ مرجعكم فاُنبّئكم بما كنتم تعملون » أي هذا الّذي ذكر ، تكليفكم في الدنيا ثمّ ترجعون إليّ يوم القيامة فاُظهر لكم حقيقة أعمالكم الّتي عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ماتقتضيه أعمالكم من خير أوشرّ .

وبما مرّ يظهر أنّ قوله : « في الدنيا » يفيد أوّلاً قصر المصاحبة بالمعروف في الاُمور الدنيويّة دون الدينيّة ، وثانيا تهوين أمر الصحبة وأنّها ليست إلاّ في أيّام قلائل فلا كثير ضير في تحمّل مشاقّ خدمتهما ، وثالثا المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه بقوله : « ثمّ إليّ مرجعكم » الخ .

قوله تعالى : « يا بنيّ إنّها إن تك مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله » الخ ذكروا أنّ الضمير في « إنّها » للخصلة من الخير والشرّ لدلالة السياق على ذلك وهو أيضاً اسم كان و « مثقال حبّة » خبره ، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرارفي جوف الصخرة الصمّاء أوفي السماوات أو في الأرض ، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء .

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعا إلى التوحيد ونفي الشريك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد و فيه حساب الأعمال و المعنى يا بنيّ إن تكن الخصلة الّتي عملت من خير أو شر أخفّ الأشياء و أدقّها كمثقال حبّة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرّة في جوف صخرة أو في أيّ مكان من السماوات والأرض يأت بهاالله للحساب والجزاء لأنّ الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل إلى كلّ خفيّ خبير يعلم كنه الموجودات .

قوله تعالى : « يابنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر علىما أصابك إنّ ذلك منعزم الأمور» الآية ومابعدها منكلامه راجع إلى نبذة منالأعمال و الأخلاق الفاضلة .

فمن الأعمال الصلاة الّتي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهيعن المنكر ومن الأخلاق الصبر على مايصيب من مصيبة .

وقوله : « إنّ ذلكمن عزمالأمور » الإشارةإلى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفيع وقول بعضهم : إنّ الاشارة إلى جميع ما تقدّم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و الصبر ليس في محلّه لتكرّرعدّ الصبر من عزم الأمور في كلامه تعالىكقوله : «ولمنصبر وغفر إنّ ذلك لمن عزمالأمور» الشورى : ٤٣ ، وقوله : «إن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور » آل عمران : ١٨٦ .

والعزم ـ علىماذكرهالراغب ـ عقدالقلبعلىإمضاء الأمروكونالصبر ـ وهوحبس النفس في الأمر ـ من العزم إنّما هو من حيث إنّ العقد القلبيّ مالم ينحلّ وينفصم ثبت الإنسان علىالأمر الّذي عقد عليه فالصبر لازم الجدّ في العقد والمحافظة عليه وهو

من قدرة النفس وشهامتها .

وقول بعضهم : إنّ المعنى أنّ ذلك من عزيمة الله وإيجابه في الأمور بعيد وكذا قول بعضهم : إنّ العزم هو الجزم وهو لغة هذيل .

قوله تعالى : « ولاتصعّر خدّك للناس ولاتمش في الأرض مرحاً إنّ الله لايحبّ كلّ مختال فخور » قال الراغب : الصعر ميل في العنق والتصعير إمالته عن النظر كبراً قال : « ولا تصعّر خدّك للناس » وقال : المرح شدّة الفرح والتوسّع فيه انتهى .

فالمعنى لاتعرض بوجهك عن الناس تكبّراً ولا تمش في الأرض مشية من اشتدّ فرحه إنّ الله لايحبّ كلّ من تأخذه الخيلاء ـ وهو التكبّر بتخيّل الفضيلة ـ ويكثر من الفخر. وقال بعضهم إنّ معنى «لاتصعّر خدّك للناس » لاتلوعنقك لهم تذلّلا عند الحاجة وفيه أنّه لايلائمه ذيل الآية .

قوله تعالى : « واقصد في مشيك و اغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير» القصد في الشيء الاعتدال فيه و الغضّ ـ على ماذكره الراغب ـ النقصان من الطرف والصوت فغضّ الصوت النقص والقصر فيه .

والمعنى وخذ بالاعتدال في مشيك و بالنقص والقصر في صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه .

(بحث روائى)

في الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : إنّ من الكبائر عقوق الوالدين واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وقد روي : أكبر الكبائر الشرك بالله .

في الفقيه في الحقوق المرويّة عن سيّد العابدين عليه السلام : حقّ الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيأ فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة .

قال : و أمّا حقّ اُمّك أن تعلم أنّها حملتك حيث لايحتمل أحد أحداً وأعطتك من ثمرة قلبها مالا يعطي أحدأحدا ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك ، وتعرى وتكسوك ، وتضحى وتظلّك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحرّ والبرد لتكون لها فانّك لاتطيق شكرها إلّا بعون الله وتوفيقه .

و أمّا حقّ أبيك فأن تعلم أنّه أصلك فانّك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك مايعجبك فاعلم أنّ أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمدالله واشكره على قدر ذلك ولاقوّة إلّا بالله .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يارسول الله من أبرّ ؟ قال : اُمّك . قال : ثمّ من ؟ قال : اُمّك قال : ثمّ من ؟ قال : اُمّك . قال ثمّ من ؟ قال : أباك .

وفي المناقب : مرّ الحسين بن علي عليه السلام على عبدالرحمان بن عمرو بن العاص فقال عبدالله : من أحبّ أن ينظر إلى أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى هذا المجتاز وماكلّمته منذ ليالي صفّين .

فأتى به أبوسعيد الخدريّ إلى الحسين عليه السلام فقال له الحسين عليه السلام : أتعلم أنّي أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء وتقاتلني وأبي يوم صفّين ؟ والله إنّ أبي لخير منّي . فاستعذر وقال إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لي : أطع أباك . فقال له الحسين عليه السلام أما سمعت قول الله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلاتطعهما » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّما الطاعة بالمعروف ، وقوله : لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق .

و في الفقيه في ألفاظه صلّى الله عليه وآله وسلّم الموجزة : لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : اتّقوا المحقّرات من الذنوب فانّ لها طالباً ، يقول أحدكم أذنب و أستغفر إنّ الله عزّ وجلّ يقول : «سنكتب ماقدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » وقال عزّ وجلّ :

« إنّها إن تك مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيف خبير » .

وفيه بإسناده إلى معاوية بن وهب قال: سألت أباعبدالله عليه‌السلام عن أفضل مايتقرّب به العباد إلى ربّهم وأحبّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ فقال : ما أعلم شيأ بعدالمعرفة أفضل من هذه الصلاة . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه‌السلام أنّه قال : الصلاة قربان كلّ تقيّ .

و في المجمع « واصبرعلى ما أصابك » من المشقّة والأذى في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر . عن عليّ عليه‌السلام .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تصعّر خدّك للناس » أي ولا تمل وجهك من الناس بكلّ ولا تعرض عمّن يكلّمك استخفافا به ، وهذا المعنى قول ابن عباس وأبي عبدالله عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج الطبرانيّ و ابن عديّ وابن مردويه عن أبي أيّوب الأنصاريّ أنّ رسول الله صلّى‌الله عليه وسلّم سئل عن قول‌الله : « ولاتصعّر خدّك للناس » قال : ليّ الشدق .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير » وروي عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلّا أن يكون داعيا أو يقرء القرآن .

أقول : وفي جميع هذه المعاني وخاصّة في العقوق روايات كثيرة متظافرة .

﴿ كلام في قصة لقمان و نبذ من حكمه في فصلين ﴾

١ ـ لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلّا في سورة لقمان ولم يذكر من قصصه إلّا مافي قوله عزّ من قائل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكرلله » و قدوردت في قصّته وحكمه روايات كثيرة مختلفة ونحن نورد بعض ماكان منها أقرب إلى الاعتبار .

ففي الكافي عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال : قال لي أبوالحسن موسى بن جعفر عليه السلام : ياهشام إنّ الله قال : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » قال : الفهم والعقل .

وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : حقّاً أقول لم يكن لقمان نبيّاً ولكن كان عبداً كثير التفكّر حسن اليقين أحبّ الله فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة .

كان نائما نصف النهار إذجاءه نداء : يالقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحقّ ؟ فأجاب الصوت إن خيّرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن هو عزم عليّ فسمعاً وطاعة فإنّي أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني .

فقالت الملائكة بصوت لايراهم : لم يالقمان ؟ قال : لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كلّ مكان إن وفي فبالحريّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا و في الآخرة شريفا خير من أن يكون في الدنيا شريفا وفي الآخرة ذليلا ومن تخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولايصيب الآخرة .

فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فاُعطي الحكمة فانتبه يتكلّم بها ثمّ كان يوازر داود بحكمته فقال له داود : طوبى لك يالقمان اُعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتدرون ماكان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : كان حبشيّاً .

٢ ـ وفي تفسير القمي بإسناده عن حماد قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن لقمان وحكمته الّتي ذكرها الله عزّ و جلّ ، فقال : أما و الله ما اُوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال .

ولكنّه كان رجلا قويّا في أمر الله متورّعا في الله ساكتا مستكينا عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالعبر لم ينم نهارا قطّ ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدّة تستّره وعموق نظره وتحفّظه في أمره ، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ولم يغضب قطّ ، ولم يمازح إنسانا قطّ ، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولاحزن منها على شيء قطّ وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير وقدّم أكثرهم أفراطاً فما بكى على موت أحد منهم .

ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلّا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتّى تحابّا ، ولم يسمع قولا قطّ من أحد استحسنه إلّا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه ، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء ، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة ممّا ابتلوا به ، ويرحم الملوك والسلاطين لغرّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك ، ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر ، وكان لا يظعن إلّا فيما يعنيه فبذلك اُوتي الحكمة ومنح العصمة .

وإنّ الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس ؟ فقال لقمان : إن أمرني الله بذلك فالسمع و الطاعة لأنّه إن فعل ذلك أعانني عليه وعلّمني وعصمني وإن هو خيّرني قبلت العافية .

فقالت الملائكة : يا لقمان لم ؟ قال : لأنّ الحكم بين الناس بأشدّ المنازل وأكثر فتنا وبلاءً يخذل ولا يعان ويغشاه الظلم من كلّ مكان وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحقّ فبالحريّ أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكما سريّا شريفا ، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما تزول هذه ولا تدرك تلك .

قال : فتعجّب الملائكة من حكمته واستحسن الرحمان منطقه فلمّا أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشّاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم وغطّاه بالحكمة غطاء فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه ، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويبثّها فيها .

قال : فلمّا اُوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عزّ وجلّ الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عزّ وجلّ الخلافة في الأرض وابتلي بها غير مرّة كلّ ذلك يهوي في الخطاء يقيله الله ويغفر له ، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه ، وكان داود يقول له : طوبى لك يا لقمان اُوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة واُعطي داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة .

ثمّ قال أبوعبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « وإذ قال لقمان لابنه و هو يعظه يا بنيّ لاتشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم » قال : فوعظ لقمان ابنه باثار [١] حتّى تفطّر وانشقّ .

وكان فيما وعظه به يا حمّاد أن قال : يا بنيّ إنّك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدارٌ أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد . يا بنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولاتجادلهم فيمنعوك ، وخذ من الدنيا بلاغا ولاترفضها فتكون عيالا على الناس ، ولاتدخل فيها دخولا يضرّ بآخرتك ، وصم صوما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك من الصلاة فإنّ الصلاة أحبّ إلى الله من الصيام .

يا بنيّ إنّ الدنيا بحر عميق قدهلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان واجعل شراعها التوكّل ، واجعل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك .

يا بنيّ إن تأدّبت صغيرا انتفعت به كبيراً ومن عنى بالأدب اهتمّ به ، ومن اهتمّ به تكلّف علمه ومن تكلّف علمه اشتدّ له طلبه ومن اشتدّ له طلبه أدرك منفعته فاتّخذه عادة

---

(١) باثار اسم ابنه والتفطر والانشقاق كناية عن كمال التأثر .

فانّك تخلف في سلفك وينتفع به من خلفك ويرتجيك فيه راغب ، ويخشى صولتك راهب وإيّاك والكسل عنه بالطلب لغيره فإن غُلبت على الدنيا فلا تغلبنّ على الآخرة وإذا فاتك طلب العلم في مظانّه فقد غلبت على الآخرة واجعل في أيّامك ولياليك وساعاتك نصيبا في طلب العلم فإنّك لن تجد له تضييعا أشدّ من تركه ولا تمارينّ فيه لجوجا ولا تجادلنّ فقيها ولا تعادينّ سلطانا ، ولا تماشينّ ظلوما ولا تصادقنّه ولا تواخينّ فاسقا ولا تصاحبنّ متّهما واخزن علمك كما تخزن ورقك .

يا بنيّ خف الله عزّ وجلّ خوفا لو أتيت القيامة ببرّ الثقلين خفت أن يعذّبك وارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك .

فقال له ابنه : يا أبت كيف أُطيق هذا وإنّما لي قلب واحد ؟ فقال له لقمان: يا بنيّ لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزنا لمارجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرّة فمن يؤمن بالله يصدّق ما قال الله عزّ وجلّ ومن يصدّق ماقال الله يفعل ماأمر الله ، ومن لم يفعل ماأمر الله لم يصدّق ماقال الله فإنّ هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض .

فمن يؤمن بالله إيمانا صادقا يعمل لله خالصا ناصحا ومن يعمل لله خالصا ناصحا فقد آمن بالله صادقا ومن أطاع الله خافه ، ومن خافه فقد أحبّه ، ومن أحبّه فقد اتّبع أمره ومن اتّبع أمره استوجب جنّته ومرضاته ، ومن لم يتّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله .

يا بنيّ لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقا هو أهون عليه منها ألا ترى أنّه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين .

وفي قرب الأسناد : هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قيل للقمان : ما الّذي أجمعت عليه من حكمتك ؟ قال : لا أتكلّف ماقد كفيته ولا أُضيّع ماولّيته .

وفي البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال : يا بنيّ إن تك في شكّ من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شكّ من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع

ذلك فإنّك إذا فكّرت في هذا علمت أنّ نفسك بيد غيرك و إنّما النوم بمنزلة الموت و إنّما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعدالموت وقال : قال لقمان لابنه : يابنيّ لا تقترب فيكون أبعد الك ولا تبعد فتهان ، كلّ دابّة تحبّ مثلها و ابن [1] آدم لايحبّ مثله . لاتنشر [2] بزّك إلّا عند باغيه وكماليس بين الكبش والذئب خلّة كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلّة ، من يقترب من الزفت تعلّق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلّم من طرفه ، من يحبّ المراء يشتم ، و من يدخل مدخل السوء يتّهم و من يقارن قرين السوء لايسلم ، ومن لايملك لسانه يندم .

وقال : يا بنيّ صاحب مائة ولاتعاد واحدا ، يابنيّ إنّما هو خلاقك وخلقك فخلاقك دينك وخلقك بينك وبين الناس فلا تبغضنّ إليهم وتعلّم محاسن الأخلاق .

يابنيّ كن عبدا للأخيار ولاتكن ولدا للأشرار يا بنيّ أدّ الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أمينا فإنّ الله لايحبّ الخائنين ، يابنيّ لاتُر الناس أنّك تخشى الله وقلبك فاجر .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : كان فيماوعظ به لقمان لابنه يابنيّ إنّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ماجمعوا ولم يبق من جمعواله ، وإنّما أنت عبد مستأجر قد اُمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتّى سمنت فكان حتفها عند سمنها ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر اخربها ولاتعمرها فانّك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنّك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي الله عزّوجلّ عن أربع : شبابك فيماأبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك ممّا اكتسبته وفيما أنفقته فتأهّب لذلك وأعدّ له جوابا ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإنّ قليل الدنيا لايدوم بقاؤه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه فخذ حذرك ، وجدّ في أمرك ، واكشف الغطاء عن وجهك ، وتعرّض لمعروف ربّك

---

(١) أى ان ابن ادم لايحب أن يكافيه غيره فى مزية من المزايا .

(٢) اى لاتظهر متاعك الاعند طالبه .

وجدّد التوبة في قلبك واكمش في فراقك قبل أن يقصدقصدك ، ويقضى قضاؤك ، ويحال بينك وبين ماتريد .

و في البحار عن القصص باسناده عن حمّاد عن الصادق عليه السلام قال : قال لقمان : يابنيّ إيّاك و الضجر وسوء الخلق وقلّة الصبر فلايستقيم على هذه الخصال صاحب ، والزم نفسك التؤدة[1] في أمورك وصبّر على مؤنات الإخوان نفسك ، وحسّن مع جميع الناس خلقك .

يابنيّ إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضّل به على إخوانك فلايعدمنّك حسن الخلق وبسط البشر فإنّ من أحسن خلقه أحبّه الأخيار وجانبه الفجّار ، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك فإن أردت أن تجمع عزّ الدنيا فاقطع طمعك ممّا في أيدي الناس فإنّما بلغ الأنبياء و الصدّيقون ما بلغوا بقطع طمعهم .

أقول : والأخبار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إيثاراً للاختصار .



(١) التؤدة - بضم التاء كهمزة - السكون والرزانة .

☆ ☆ ☆

اَلَمْ تَرَوْا اَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَ اَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَ اِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا اَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ اِلٰى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ اِلَى اللّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقٰى وَاِلَى اللّٰهِ عَاقِبَةُ الْاُمُورِ (٢٢) وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ اِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا اِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ اِلٰى عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَ لَئِنْ سَاَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٢٥) لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَ الْاَرْضِ اِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ اَنَّ مَا فِي الْاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ اَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ اِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ اِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) اَلَمْ تَرَ اَنَّ اللّٰهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي اِلٰى اَجَلٍ مُسَمًّى وَ اَنَّ اللّٰهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذٰلِكَ بِاَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَاَنَّ

مايدعون من دونه الباطل و ان الله هو العلي الكبير (٣٠) الم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣١) و اذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجيهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور (٣٢) يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ان وعد الله حق فلاتغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣) ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث و يعلم ما في الارحام وماتدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس باي ارض تموت ان الله عليم خبير (٣٤).

﴿بيان﴾

رجوع إلى ماقبل القصّة من آيات الوحدانيّة ونفي الشريك وأدلّتها المنتهية إلى قوله: «هذا خلق الله فأروني ماذاخلق الّذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين».

قوله تعالى: «ألم تروا أنّ الله سخّر لكم مافي السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» رجوع إلى ماقبل قصّة لقمان وهو الدليل على أنّ الخطاب للمشركين وإن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب.

وعليه فصدر الآية من تتمّة كلام النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ويتّصل بقوله: «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الّذين من دونه» ولا التفات في قوله: ألم تروا.

و على تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: «ألم تروا» التفات من سياق

الغيبة الّذي في قوله : « بل الظالمون في ضلال مبين » إلى الخطاب ، و الالتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلّم وتأكّد غيظه من جهل المخاطبين و تماديهم في غيّهم بحيث لا ينفعهم دلالة ولا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ماهو بمرئى منهم ومسمع لعلّهم يتنبّهوا عن نومتهم وينتزعوا عن غفلتهم .

وكيف كان فالمراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان وهم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عامّ يدبّر أمر العالم عامّة و الإنسان خاصّة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور والإرادة فقد سخّر الله الكون لأجله .

والتسخير قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده كتسخير الكاتب القلم للكتابة و كما يسخّر المولى عبده و المخدوم خادمه في أن يفعل باختياره و إرادته مايختاره و يريده المولى و المخدوم و الأسباب الكونيّة كائنة ماكانت تفعل بسببيّتها الخاصّة ما يريده الله من نظام يدبّر به العالم الإنساني .

وممّا مرّ يظهر أنّ اللّام في « لكم » للتعليل الغائيّ والمعنى لأجلكم و المسخّر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان ، وربّما احتمل كون اللّام للملك والمسخّر بالكسر هو الإنسان بمشيّة من الله تعالى كما يشاهد من تقدّم الإنسان بمرور الزمان في تسخير أجزاء الكون واستخدامه لها في سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله : « ألم تروا » .

وقوله : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» الإسباغ الإتمام والإيساع أي أتمّ وأوسع عليكم نعمه ، والنعم جمع نعمة وهو في الأصل بناء النوع وغلب عليه استعماله في ما يلائم الانسان فيستلذّ منه ، والمراد بالنعم الظاهرة والباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحسّ كالسمع والبصر وسائر الجوارح و الصحّة و العافية و الطيّبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحسّ كالشعور والإرادة والعقل.

وبناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هي ما ظهر للحسّ كما تقدّم وكالدين الّذي به ينتظم اُمور دنياهم وآخرتهم والباطنة منها كما تقدّم وكالمقامات

المعنويّة الّتي تنال بالإخلاص العمل .

وقوله « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » رجوع الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله على ماكان في السياق السابق ، والمجادلة المخاصمة النظريّة بطريق المغالبة ، والمقابلة بين العلم والهدى و الكتاب تلوّح بأنّ المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجّة عقليّة ، وبالهدى ما يفيضه الله بالوحي أوالإلهام ، وبالكتاب الكتاب السماويّ المنتهي إليه تعالى بالوحي النبويّ ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاثمن العلم لارابع لها .

فمعنى قوله : يجادل في الله بغير كذا وكذا أنّه يجادل فيوحدانيّته تعالى في الربوبيّة والاُلوهيّة بغير حجّة يصحّ الركون إليها بل عن تقليد .

قوله تعالى : «وإذاقيل لهماتّبعوا ماأنزلالله قالوابل نتّبع ماوجدنا عليهآباءنا» الخ ضمائر الجمع راجعة إلى « من » باعتبار المعنى كما أنّ ضمير الإفراد في الآية السابقة راجع إليه باعتبار اللفظ .

وقوله : « وإذا قيل لهم اتّبعواما أنزل الله » في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال : اتّبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلىكونالدعوة دعوة ذات حجّة لاتحكّم فيها لأنّ نزول الكتاب مؤيّد بحجّة النبوّة فكأنّه قيل : و إذا دعوا إلى دين التوحيد الّذي يدلّ عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عندالله سبحانه وبعبارة اُخرى إذا اُلقي إليهم القول مع الحجّة قابلوه بالتحكّم من غير حجّة فقالوا بل نتّبع ماوجدنا عليه آباءنا .

و قوله : « أو لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » أي أيتّبعون آباءهم و لوكان الشيطان يدعوهمبهذا الاتّباع إلىعذابالسعير؟ فالاستفهام للإنكارو لو وصليّة معطوفة على محذوف مثلها والتقدير أيتبّعونهم لولم يدعهم الشيطان و لو دعاهم .

ومحصّلالكلام أنّ الاتّباع إنّما يحسن إذا كانوا على الحقّ و أمّا لوكانواعلى الباطل و كان اتّباعا يدعوهم به إلى الشقاء و عذاب السعير وهو كذلك فإنّه اتّباع في عبادة غير الله ولا معبود غيره .

قوله تعالى : « و من يسلم وجهه إلى الله و هو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى و إلى الله عاقبة الاُمور » استئناف و يحتمل أن يكون حالا من مفعول « يدعوهم » وفي معنى الجملة الحاليّة ضمير عائد إليهم و المعنى أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى كذا والحال أنّ من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجى و أفلح والحال أنّ عاقبة الاُمور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود .

و إسلام الوجه إلى الله تسليمه له و هو إقبال الإنسان بكلّيّته عليه بالعبادة و إعراضه عمّن سواه ، والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسّره به في أوّل السورة «هدى و رحمة للمحسنين الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » و العروة الوثقى المستمسك الّذي لا انفصام له .

والمعنى و من وحّد الله و عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتّة في عاقبة أمره لأنّها إلى الله و هو الّذي يعده بالنجاة و الفلاح .

و من هنا يظهر أنّ قوله : « و إلى الله عاقبة الاُمور » في مقام التعليل لقوله : « فقد استمسك بالعروة الوثقى » بما أنّه استعارة تمثيليّة عن النجاة والفلاح .

قوله تعالى : « و من كفر فلا يحزنك كفره ـ إلى قوله ـ إلى عذاب غليظ » تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و تطييب لنفسه أن لا يغلبه الحزن و هم بالأخرة راجعون إليه تعالى فينبّئهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعمالهم و تبعاتها وهي النار .

و قوله : « يمتّعهم قليلا ثمّ يضطرّهم إلى عذاب غليظ » كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإنّ البيان السابق « إلينا مرجعهم فننبّئهم بما عملوا » ربّما أوهم أنّهم ماداموا متنعّمين في الدنيا خارجون من قدرة الله ثمّ إذاماتوا أو بعثوا دخلوا فيماخرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جيء بهذا البيان للدلالة على أنّهم غير خارجين من التدبير قطّ و إنّما يمتّعهم في الدنيا قليلا ثمّ يضطرّهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كلّ حال و أمرهم إلى الله دائما لن يعجزوا الله في حال التنعّم ولا غيرها .

قوله تعالى : « و لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون » إشارة إلى أنّهم مفطورون على التوحيد معترفون به

من حيث لا يشعرون ، فإنّهم إن سئلوا عمّن خلق السموات والأرض اعترفوا بأنّه الله عزّ اسمه و إذا كان الخالق هو هو فالمدبّر لهاهو هو لأنّ التدبير لا ينفكّ عن الخلق و إذا كان مدبّر الأمر و المنعم الّذي يبسط و يقبض و يرجى و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لاشريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون .

و لذلك أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال : « قل الحمدلله » ثمّ أشار إلى أنّ أكثرهم لايعلمون معنى اعترافهم أنّ الله هو الخالق و ما يستلزمه فقال : « بل أكثرهم لا يعلمون » نعم قليل منهم يعلمون ذلك و لكنّهم لا يطاوعون الحقّ بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى : «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

قوله تعالى : « لله ما في السماوات و الأرض إنّ الله هو الغنيّ الحميد » لمّا كان اعترافهم بأنّ الخالق هو الله سبحانه إنّما يثبت التوحّد بالربوبيّة والاُلوهيّة إذا كان التدبير والتصرّف إليه تعالى و كان نفس الخلق كافيا في استلزامه اكتفى به في تمام الحجّة واستحمد النبيّ صلى الله عليه وآله و استجهل القوم لغفلتهم .

ثمّ احتجّ عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقيّ فيه تعالى لكونه غنيّا محمودا مطلقا و تقريره أنّه تعالى مبدء كلّ خلق و معطي كلّ كمال فهو واجد لكلّ ما يحتاج إليه الأشياء فهو غنيّ على الإطلاق إذ لولم يكن غنيّا من جهة من الجهات لم يكن مبدء له معطيا لكماله هذا خلف ، وإذا كان غنيّا على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكلّ شيء على الإطلاق فله أن يتصرّف فيها كيف شاء فكلّ تدبير و تصرّف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لاله كان مالكه ذلك الغير دونه و إذا كان التدبير والتصرّف له تعالى فهو ربّ العالمين والإله الّذى يعبد ويشكر إنعامه و إحسانه .

و هذا هو الّذي يشير إليه قوله : « لله ما في السموات والأرض إنّ الله هو الغنيّ » فقوله : « لله ما في » الخ حجّة على وحدانيّته و قوله : « إنّ الله هو الغنيّ » تعليل للملك .

و أمّا قوله « الحميد » أي المحمود في أفعاله فهو مبدء آخر للحجّة و ذلك أنّ الحمد هو الثناء على الجميل الاختياريّ و كلّ جميل في العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب إليه لكان الحمد والثناء إليه لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبة إلى كلّ شيء و قد فرض أنّه حميد على الإطلاق هذا خلف .

قوله تعالى : « و لو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » الخ « من شجرة » بيان للموصول والشجرة واحد الشجر و تفيد في المقام ـ وهي في سياق « لو » ـ الاستغراق أي كلّ شجرة في الأرض ، والمراد بالبحر مطلق البحر ، وقوله : « يمدّه من بعده سبعة أبحر » أي يعينه بالانضياف إليه سبعة أمثاله والظاهر أنّ المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد والكلمة هي اللفظ الدالّ على معنى و قد اُطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى وقد قال : « إنّما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، وقد اُطلق على المسيح عليه السلام الكلمة في قوله : « و كلمته ألقاها إلى مريم » النساء : ١٧١ .

فالمعنى ولو جعل جميع أشجار الأرض أقلاما واُخذ البحر و اُضيف إليه سبعة أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله ـ بتبديلها ألفاظا دالة عليها ـ بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية .

و من هنا يظهر أنّ في الكلام إيجازا بالحذف و أنّ قوله : « إنّ الله عزيز حكيم » في مقام التعليل والمعنى لأنّه تعالى عزيز لا يعزّه ولا يقهره شيء فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوّض التدبير إلى غيره .

والآية متّصلة بما قبلها من حيث دلالته على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره وكثرة أوامره التكوينيّة في الخلق و التدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لو جعل مدادا و كتبت به أشجار الأرض المجعولة أقلاما قبل أن ينفد أوامره و كلماته .

قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة إنّ الله سميع بصير » سوق للكلام إلى إمكان الحشرو خاصّة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى و اختلاطهم بالأرض من غير تميّز بعضهم من بعض .

فقال تعالى : ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة في الإمكان والتأتّي فإنّه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولايتفاوت بالنسبة إليه الواحد والجمع، و ذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهولة والصعوبة بل لا يتّصف فعله بالسهولة والصعوبة .

و يشهد لما ذكر إضافة الخلق و البعث إلى ضمير الجمع المخاطب والمراد به الناس ثمّ تنظيره بالنفس الواحدة والمعنى ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم ولا بعثكم إلّا كخلق نفس واحدة و بعثها فأنتم على كثرتكم والنفس الواحدة سواء لأنّه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فإنّما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاط بعضها ببعض لكنّه ليس يجهل شيأ منها لأنّه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم وبعبارة أُخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة .

و بما مرّ يندفع الاعتراض على الآية بأنّ المناسب لتعليل كون خلق الكثير و بعثهم كنفس واحدة أن يعلّل بمثل قولنا : إنّ الله على كلّ شيء قدير أو قويّ عزيز أو ما يشبه ذلك لا بمثل السميع البصير الّذي لا ارتباط له بالخلق و البعث .

و ذلك أنّ الإشكال الّذي تعرّضت الآية لدفعه هو أنّ البعث لجزاء الأعمال وهي على كثرتها واندماج بعضها في بعض كيف تتميّز حتّى تجزى عليها فالإشكال متوجّه إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله : « فننبّئهم بما عملوا » وقد أُجيب بأنّه كيف يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال و هو سميع بصير لا يشذّ عن مشاهدته قول ولا فعل .

وقد كان ذيّل قوله السابق : « فننبّئهم بما عملوا » بقوله : « إنّ الله عليم بذات الصدور » و هو مبنيّ على أنّ الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة والسيّئة كما يشير إليه قوله: « و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤

و جواب عن هذا الإشكال لو وجّه إلى ما تحمله القلوب على كثرته فيجاب عنه أنّ الله عليم بذات الصدور ولو وجّه إلى نفس الأعمال الخارجيّة من الأقوال والأفعال فالجواب عنه بما في هذه الآية الّتي نحن فيها : إنّ الله سميع بصير ، فالإشكال والجواب بوجه نظير ما وقع في قوله تعالى : « قال فما بال القرون الاُولى قال علمها عند ربّي لا يضلّ ربّي ولا ينسى » طه : ٥٢ فافهم .

وقد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة اُخرى غير تامّة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « ألم تر أنّ الله يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل و سخّر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى » الخ استشهاد لما تقدّم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأنّ التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذاك و بالعكس بحسب الفصول المختلفة و بقاع الأرض المتفرّقة في نظم ثابت جار على اختلافه ، و كذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما و غروبهما و اختلاف جريانهما و مسيرهما بحسب الحسّ و كلّ منهما يجري لأجل مسمّى ولا اختلال ولا تشوّش في النظام الدقيق الّذي لهما فهذا كلّه ممّا يمتنع من غير علم و خبرة من مدبّرها .

فالمراد بإيلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وبإيلاج النهار في الليل عكس ذلك، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخّرين إلى أجل مسمّى انتهاء كلّ وضع من أوضاعهما إلى وقت محدود مقدّر ثمّ عودهما إلى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري و أمعن فيه لم يشكّ في أنّ مدبّره إنما يدبّره عن علم لا يخالطه جهل و ليس ذلك عن صدفة و اتّفاق .

وقوله : «وأنّ الله بما تعملون خبير» عطف على موضع «أنّ الله يولج» والتقدير ألم تر أنّ الله بما تعملون خبير وذلك لأنّ من شاهد نظام الليل والنهار والشمس والقمر لم يكد يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله ودقائقها كذا قيل .

وفيه أنّ استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل و النهار

والشمس والقمر و إن صحّ في نفسه فهو علم حدسي لا مصحّح لتسميتها رؤية وهو ظاهر.

ولعلّ المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أنّ الإنسان لو أمعن في النظام الجاري في أعمال نفسه بما أنّها صادرة عن العالم الإنساني موزّعة من جهة إلى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع وبصر وشمّ وذوق ولمس والصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعّالة و من جهة إلى بعض القوى والأدوات أو كلّها ومن جهة إلى جاذبة ودافعة ومن جهة إلى سني العمر من طفوليّة ورهاق وشباب وشيب إلى غير ذلك .

ثمّ في ارتباط بعضها ببعض واستخدام بعضها لبعض واهتداء النفس إلى وضع كلّ في موضعه الّذي يليق به وحركته بهذه القافلة من القوى والأعمال نحو غايتها من الكمال وسعادتها في المآل و تورّطها في ورطات عالم المادّة وموطن الزينة والفتنة فمن ناج أو هالك .

فإذا أمعن في هذا النظام المحيّر للأحلام لم يرتب أنّه تقدير قدّره ربّه و نظام نظمه صانعه العليم القدير ومشاهدة هذا النظام العلميّ العجيب مشاهدة أنّه بما يعملون خبير والله العالم .

قوله تعالى : « ذلك بأنّ الله هو الحقّ و أنّ ما يدعون من دونه الباطل و أنّ الله هو العليّ الكبير » لمّا ذكر سبحانه أنّ منه بدء كلّ شيء فيستند إليه في وجوده وتدبير أمره و أنّ إليه عود كلّ شيء من غير فرق بين الواحد والكثير وأنّه ليس إلى من يدعون من دونه خلق ولا أمر ، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيرا إلى ما تقدّم : « ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعون من دونه الباطل » الخ .

توضيحه أنّ الحقّ هو الثابت من جهة ثبوته والباطل يقابل الحقّ فهو اللّاثابت من جهة عدم ثبوته و قوله : «أنّ الله هو الحقّ » بما فيه من ضمير الفصل و تعريف الخبر باللّام يفيد القصر أعني حصر المبتدء في الخبر .

فقوله : « بأنّ الله هو الحقّ » قصر له تعالى في الثبوت أي هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان و بعبارة اُخرى هو ثابت من جميع الجهات و بعبارة ثالثة هو موجود على

كلّ تقدير فوجوده مطلق غير مقيّد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروريّ وعدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير وهو تقدير وجود سببه وهو الوجود المقيّد الّذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته .

وإذا كان حقّيّة الشيء هو ثبوته فهو تعالى حقّ بذاته وغيره إنّما يحقّ ويتحقّق به.

وإذا تأمّلت هذا المعنى حقّ تأمّله وجدت ـ أوّلا ـ أنّ الأشياء بأجمعها تستند في وجودها إليه تعالى وأيضاً تستند في النظام الجاري فيها عامّة و في النظامات الجزئيّة الجارية في كلّ نوع من أنواعها وكلّ فرد من أفرادها إليه تعالى .

و ـ ثانيا ـ أنّ الكمالات الوجوديّة الّتي هي صفات الوجود كالعلم و القدرة والحياة والسمع والبصر والوحدة و الخلق و الملك والغنى والحمد والخبرة ـ ممّا عدّ في الآيات السابقة أولم يعدّ ـ صفات قائمة به تعالى على حسب مايليق بساحة كبريائه وعزّ قدسه لأنّها صفات وجوديّة والوجود قائم به تعالى فهي إمّا عين ذاته كالعلم والقدرة و إمّا صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق والرزق والرحمة .

و ـ ثالثا ـ أنّ قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره وكلّ مايحمل معنى الفقد والنقص مسلوب عنه تعالى وهذه هي الصفات السلبيّة كنفي الشريك ونفي التعدّد ونفي الجسم والمكان والزمان والجهل والعجز والبطلان والزوال إلى غيرها .

فإنّ إطلاق وجوده وعدم تقيّده بقيد ينفي عنه كلّ معنى عدميّ أي إثبات الوجود مطلقا فإنّ مرجع نفي النفي إلى الإثبات.

ولعلّ قوله : « وأنّ الله هو العليّ الكبير » يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أنّ اسم « العليّ » يفيد معنى تنزّهه عن ما لايليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبيّة والكبير يفيد سعته لكلّ كمال وجوديّ فهو مجمع الصفات الثبوتيّة .

و أنّ صدر الآية برهان على ذيلها وذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتيّة والسلبيّة جميعاً على ماتقدّم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو الله عزّ اسمه .

وقوله : « و أنّ مايدعون من دونه الباطل » يجري فيه مايقابل ماجرى في

قوله : « ذلك بأنّ الله هو الحقّ » فالّذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا إليهم من الخلق والتدبير شيء لأنّ الشريك في الاُلوهيّة والربوبيّة باطل لا حقّ فيه وإذ كان باطلا على كلّ تقدير فلا يستند إليه خلق ولا تدبير مطلقاً .

والحقّ والعليّ والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى وقد تحقّق ممّا تقدّم أن الحقّ في معنى الواجب الوجود وأنّ العليّ من الصفات السلبيّة والكبير من الصفات الثبوتيّة قريب المعنى من قولنا : المستجمع لصفات الكمال .

قوله تعالى : «ألم تر أنّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته» الخ الباء في « بنعمة الله » للسببيّة وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأنّ شكر المنعم واجب .

والمعنى ألم ترأنّ الفلك تجري وتسير في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح ورطوبة الماء وغير ذلك .

واحتمل بعضهم أنّ الباء للتعدية أو المعيّة والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام وسائر أمتعة الحياة .

وقد تمّم الآية بقوله : « إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور » والصبّار الشكور أي كثير الصبر عند الضرّاء وكثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ماقيل .

قوله تعالى : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » الخ قال الراغب : الظلّة سحابة تظلّ وأكثر مايقال فيما يستوخم ويكره قال : « كأنّه ظلّة » «عذاب يوم الظلّة » انتهى .

والمعنى وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله ودعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أنّ فطرتهم على التوحيد .

وقوله : فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد » المقتصد سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الّذي دلّتهم عليه فطرتهم إذ ذلك ، وفي التعبير بمن التبعيضيّة

استقلال عدّتهم أي فلمّا نجّاالله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البرّ فقليل منهم المقتصدون .

وقوله : « ومايجحد بآياتنا إلاّ كلّ ختّار كفور » الختّارمبالغة من الختر وهو شدّة الغدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم » لمّاساقالحجج والمواعظ الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عامّ يدعوهم إلى التقوى و ينذرهم بيوم القيامة الّذي لايغني فيه مغن إلاّ الإيمان والتقوى .

قال الراغب : الجزاء الغنى والكفاية ، وقال : يقال : غررت فلانا أصبت غرّته ونلت منه ماأُريد والغرّة غفلة في اليقظة والغرارغفلة مع غفوة ـ إلى أن قال : فالغرور كلّمايغرّ الإنسانمن مالوجاه وشهوةوشيطان وقد فسّر بالشيطان إذ هوأخبثالغارّين و بالدنيا لما قيل : الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ انتهى .

فمعنى الآية « يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم » وهو الله سبحانه « واخشوايوما » وهو يوم القيامة « لايجزي » لا يغني « والد عن ولده ولا مولود هو جاز » مغن كاف « عن والده شيأ إنّ وعدالله » بالبعث « حقّ » ثابتلايخلف « فلاتغرّنّكمالحياة الدنيا» بزينتها الغارّة « ولا يغرّنّكم بالله الغرور» أي جنس مايغرّ الإنسان من شؤن الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان .

قوله تعالى : « إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام ولا تدري نفس ماذاتكسب غدا وماتدري نفس بأيّ أرض تموتإنّ اللهعليم خبير»الغيث المطر ومعنى جمل الآية ظاهر .

وقد عدّسبحانه اُمورا ثلاثة ممّا تعلّق بهعلمه وهي العلم بالساعة وهو ممّااستأثر الله علمه لنفسه لايعلمه إلّا هو ويدلّ على القصر قوله : « إنّ الله عنده علم الساعة » وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصّان به تعالى إلاّ أن يعلّمه غيره .

وعدّ أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان وبذلك يجهل كلّ ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله : « ولاتدري نفس ماذاتكسب غدا» وقوله : «ولاتدرينفسبأيّ

أرض تموت » .

وكأنّ المراد تذكرة أنّ الله يعلم كلّ مادقّ وجلّ حتّى مثل الساعة الّتي لا يتيسّر علمها للخلق وأنتم تجهلون أهمّ ما يهمّكم من العلم فالله يعلم وأنتم لا تعلمون فإيّاكم أن تشركوا به وتتمرّدوا عن أمره وتعرضوا عن دعوته فتهلكوا بجهلكم .

﴿ بحث روائى ﴾

في كمال الدين بإسناده إلى حمّاد بن أبي زياد قال : سألت سيّدي موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » فقال النعمة الظاهرة الإمام الظاهر ، والباطنة الإمام الغائب .

اقول : هو من الجري والآية أعمّ مدلولا .

وفي تفسير القمّي باسناده عن جابر قال : قال رجل عند أبي جعفر عليه السلام : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » قال : أمّا النعمة الظاهرة فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده وأما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا الحديث .

أقول : وهو كسابقة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وأسبغ عليكم » الآية وفي رواية الضحّاك عن ابن عباس قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عنه فقال : يا ابن عبّاس أمّا ما ظهر فالإسلام وما سوّى الله من خلقك وما أفاض عليك من الرزق وأمّا ما بطن فستر مساوي عملك ولم يفضحك به يا ابن عباس إنّ الله تعالى يقول : ثلاثة جعلتهنّ للمؤمن ولم يكن له: صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله ، وجعلت له ثلث ماله اُكفّر به عنه خطاياه ، والثالث سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منه ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم .

اقول : روى ما يقرب منه في الدرّ المنثور بطرق عن ابن عبّاس ، والحديث كسابقيه من الجري .

و في التوحيد باسناده عن عمر بن اُذينة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كلّ مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأنّ الله خالقه فذلك قوله عزّ وجلّ : « و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولنّ الله » .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « ألم ترأنّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله» قال : السفن تجري في البحر بقدرة الله .

و فيه في قوله : « إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور » قال : الّذي يصبر على الفقر و الفاقة و يشكر الله عزّ وجلّ على جميع أحواله .

و في المجمع في الآية و في الحديث الإيمان نصفان نصف صبر و نصف شكر .

اقول : و هو مأخوذ من الآية فقد مرّ أنّه كناية عن المؤمن .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « إلّا كلّ ختّار كفور » قال الختّار الخدّاع؛ و في قوله : « إنّ وعد الله حقّ » قال : ذلك القيامة .

و في إرشاد المفيد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سمعه يذمّ الدنيا من غير معرفة بما يجب أن يقول في معناها : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، و دار عافية لمن فهم عنها ، و دار غنى لمن تزوّد منها ، مسجد أنبياء الله و مهبط وحيه ، و مصلّى ملائكته و متجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنّة فمن ذا يذمّها ؟ وقد آذنت ببينها ، و نادت بفراقها ، و نعت نفسها ، فشوّقت بسرورها إلى السرور ، و حذّرت ببلائها البلاء تخويفا و تحذيرا و ترغيبا و ترهيبا .

فيا أيّها الذامّ للدنيا و المغترّ بتغريرها متى غرّتك ؟ أبمصارع آبائك في البلى أم بمصارع اُمّهاتك تحت الثرى ؟ كم علّلت بكفّيك ومرّضت بيديك تبتغي لهم الشفاء و استوصفت لهم الأطبّاء ، و تلتمس لهم الدواء لم تنفعهم بطلبك ولم تشفعهم بشفاعتك مثّلت بهم الدنيا مصرعك و مضجعك حيث لا ينفعك بكاؤك ولا تغني عنك أحبّاؤك .

و في الخصال عن أبي اُسامة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال : ألا اُخبركم بخمسة لم يطلع الله عليها أحدا من خلقه ؟ قال : قلت : بلى . قال : إنّ الله عنده علم الساعة و ينزّل الغيث و يعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ما ذا تكسب غدا و ما تدري نفس

بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير .

اقول : هناك روايات كثيرة جدّا عن النبيّ والأئمّة عليهم السلام تخبر عن مستقبل حالهم و عن زمان موتهم و مكانه و هي تقيّد هذه الرواية و ما في معناها من الروايات بالتعليم الإلهيّ لكنّ بعض الروايات يأبى التقييد ولا يعبأ بأمرها .

و في الدّر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة أنّ رجلا يقال له الورّاث من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فما ذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأيّ أرض ولدت فبأيّ أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية .

أقول : الحديث لا يخلو من شيء لعدم انطباق الآية على فقرات السؤال .

و فيه أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : لم يعم على نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم إلّا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إلى آخر السورة .



سورة السجدة مكيّة وهي ثلثون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ لٰارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰيهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اَللّٰهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِى سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ مٰالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلٰا شَفِيعٍ أَفَلٰا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْاَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ اِلَى الْاَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ اِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ (٥) ذٰلِكَ عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) اَلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَءَ خَلْقَ الْاِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلٰالَةٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوّٰيهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْاَبْصٰارَ وَ الْاَفْئِدَةَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ (٩) وَ قٰالُوا أَئِذٰا ضَلَلْنٰا فِى الْاَرْضِ ءَاِنّٰا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفّٰيكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ اِلٰى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَ لَوْ تَرٰى اِذِ الْمُجْرِمُونَ نٰاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنٰا أَبْصَرْنٰا وَسَمِعْنٰا فَارْجِعْنٰا نَعْمَلْ صٰالِحاً اِنّٰا مُوقِنُونَ (١٢) وَ لَوْ شِئْنٰا لَاٰتَيْنٰا كُلَّ نَفْسٍ هُدٰيهٰا وَلٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَاَمْلَاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّٰاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا اِنّٰا نَسِينٰاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْخُلْدِ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة تقرير المبدء والمعاد و إقامة الحجة عليهما ودفع ما يختلج القلوب في ذلك مع إشارة إلى النبوّة والكتاب ثمّ بيان ما يتميّز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقّاً والفاسقون الخارجون عن زيّ العبوديّة ووعد اُولئك بما هو فوق تصوّر المتصوّرين من الثواب و وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلّد و أنّهم سيذوقون عذابا أدنى دون العذاب الأكبر و تختتم السورة بتأكيد الوعيد و أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالانتظار كما هم منتظرون .

وهي مكّيّة إلّا ثلاث آيات نزلت ـ كما قيل ـ بالمدينة وهي قوله تعالى : «أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا » إلى تمام ثلاث آيات .

والّذي أوردناه من آياتها يتضمّن الفصل الأوّل من فصلي غرض السورة الّذي أشرنا إليه .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب لاريب فيه من ربّ العالمين » ، أي هذا تنزيل الكتاب ، والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول و إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف والمعنى هذا هو الكتاب المنزّل لاريب فيه .

و قوله : « من ربّ العالمين » فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوحدانيّة والمعاد اللّذين ينكرهما الوثنيّة لما مرّ مرارا أنّهم لا يقولون بربّ العالمين بل يثبتون لكلّ عالم إلها ولمجموع الآلهة إلها هو الله تعالى عمّا يقولون علوّا كبيرا .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراه بل هو الحقّ من ربّك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » الخ أم منقطعة والمعنى بل يقولون افترى القرآن على الله و ليس من عنده فردّه بقوله : « بل هو الحقّ من ربّك لتنذر » الخ .

و قوله : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » قيل : يعني قريشا فإنّهم لم يأتهم نبيّ قبله صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنّهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن

سنان العبسي و حنظلة على ما في الروايات .

و قيل : المراد به أهل الفترة بين عيسى و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا كأنّهم في غفلة عمّا لزمهم من حقّ نعم الله وما خلقهم له من العبادة و فيه أنّ معنى الفترة هو عدم انبعاث نبيّ له شريعة وكتاب و أمّا الفترة عن مطلق النبوّة فلا نسلّم تحقّقها وخلوّ جميع الزمان و هو قريب من ستّة قرون من النبيّ مطلقا .

و قوله : « لعلّهم يهتدون » غاية رجائيّة لإرسال الرسول والترجّي قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلّم كما تقدّم في نظائره .

قوله تعالى : « الله الّذي خلق السماوات والأرض إلى قوله ـ أفلا تتذكّرون تقدّم الكلام في تفسير قوله : « خلق السماوات والأرض ثمّ استوى على العرش » في نظائره من الآيات وتقدّم أيضا أنّ الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عامّ إجماليّ يحكم على الجميع و لذا أتبع العرش في أغلب ماوقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله : « ثمّ استوى على العرش يغشي الليل النهار » الأعراف :٥٤ ، و قوله : « ثمّ استوى على العرش يدبّر الأمر » يونس : ٣ ، و قوله : « ثمّ استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض » الحديد : ٤، وقوله « ذو العرش المجيد فعّال لما يريد» البروج : ١٦ .

والوجه في ذكر الاستواء على العرش ، بعد ذكر خلق السماوات والأرض أنّ الكلام في اختصاص الربوبيّة والاُلوهيّة بالله وحده و مجرّد استناد الخلقة إليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنيّة شيأ فإنّهم لا ينكرون استناد الخلقة إليه وحده و إنّما يقولون باستناد التدبير وهو الربوبيّة للعالم إلى آلهتهم ثمّ اختصاص الاُلوهيّة وهي المعبوديّة بآلهتهم و لله تعالى من الشأن أنّه ربّ الأرباب وإله الآلهة .

فكان من الواجب عند إقامة الحجّة لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلقة ثمّ يتعقّب بأمر التدبير لمكان تلازمهما وعدم انفكاك أحدهما من الآخر حتّى يكون موجد الأشياء و خالقها هو الّذي يربّها و يدبّر أمرها فيكون ربّا وحده و إلها وحده كما أنّه موجد خالق وحده .

و لذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقة في الآية الّتي نحن فيها إذ قيل: « خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع » فالولاية والشفاعة كالاستواء على العرش من شؤن التدبير .

و قوله : « مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع » الوليّ هو الّذي يملك تدبير أمر الشيء ومن المعلوم أنّ اُمورنا والشؤن الّتي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبّرة للنظام العامّ الحاكم في الأشياء عامّة و ما يخصّ بنا من نظام خاصّ ، و النظام أيّاما كان من لوازم خصوصيّات خلق الأشياء والخلقة كيفما كانت مستندة إليه تعالى فهو تعالى وليّنا القائم بأمرنا المدبّر لشؤننا و اُمورنا كما هو وليّ كلّ شيء كذلك وحده لا شريك له .

و الشفيع - على ما تقدّم في مباحث الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب - هو الّذي ينضمّ إلى سبب ناقص فيتمّم سببيّته و تأثيره و الشفاعة تتميم السبب الناقص في تأثيره وإذا طبّقناها على الأسباب والمسبّبات الخارجيّة كانت أجزاء الأسباب المركّبة وشرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتميم حصّة من الأثر منسوبة إليه كما أنّ كلاّ من السحاب والمطر و الشمس والظلّ و غيرها شفيع للنبات .

و إذ كان موجد الأسباب وأجزائها و الرابط بينها و بين المسبّبات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الّذي يتمّم نقصها و يقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره .

و ببيان آخر أدقّ قد تقدّم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أنّ أسماءه تعالى الحسنى وسائط بينه و بين خلقه في إيصال الفيض إليهم فهو تعالى يرزقهم مثلا بما أنّه رازق جواد غنيّ رحيم ويشفي المريض بما أنّه شاف معاف رؤف رحيم و يهلك الظالمين بما أنّه شديد البطش ذو انتقام عزيز و هكذا .

فما من شيء من المخلوقات المركّبة الوجود إلاّ و يتوسّط لوجوده عدّة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض و بعضها في عرض بعض و كلّ ما هو أخصّ منها يتوسّط بين الشيء و بين الأعمّ منها كما أنّ الشافي يتوسّط بين المريض و بين الرؤف الرحيم والرحيم

يتوسّط بينه و بين القدير و هكذا .

والتوسّط المذكور في الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه و إن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعليّة تأثيره و ينتج منه أنّه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة فافهم .

وقد تبيّن بما مرّ أن لا إشكال في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه و حقيقته توسّط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء و صفة من صفاته كما يستعاذ من سخطه إلى رحمته ومن عدله إلى فضله ، و أمّا كونه تعالى شفيعا بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو ممّا لا يجوز البتّة .

و القوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيع عليه تعالى على المعنى الثاني أي بمعنى كونه شفيعا عند غيره اختلفوا في تفسير الآية على أقوال :

فقال بعضهم : إنّ دون في قوله : « مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع» بمعنى عند و « من دونه » حال من ضمير « لكم » والمعنى مالكم حالكونكم مجاوزين دونه ومن عنده وليّ ولا شفيع أي لاوليّ لكم ولا شفيع ففيه نفي الوليّ والشفيع لهم عندالله .

و فيه أنّ دون و إن صحّ كونه بمعنى عند لكن وجود « من » قرينة على أنّه بمعنى غير ، ولا معنى لأخذ المجاوزة و رجوع « مالكم من دونه » إلى معنى « مالكم عنده » .

و قال بعضهم : إنّ الشفيع في الآية بمعنى الناصر مجازا و دون بمعنى غير و « من دونه » حال من « وليّ » والمعنى مالكم وليّ ولا ناصر غيره ، و فيه أنّه تجوّز من غير موجب .

و قال بعضهم إنّ إطلاق الشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديريّة لما أنّ المشركين المنذرين كثيرا مّا كانوا يقولون في آلهتهم : هؤلاء شفعاؤنا و يزعمون أنّ كلّ واحد منهم شفيع لهم والمعنى على هذا لو فرض وقدّر أنّ الإله وليّ شفيع مالكم وليّ ولا شفيع غير الله سبحانه .

و قال بعضهم إنّ دون بمعنى عند والضمير في « من دونه » للعذاب و المعنى ليس لكم من دون عذابه وليّ أي قريب ينفعكم و يردّ عذابه عنكم ولا شفيع يشفع لكم .

و فيه أنّ إرجاع الضمير إلى العذاب تحكّم من غير دليل ، و يرد على جميع هذه الوجوه أنّها تكلّفات ناشئة من أخذ الشفيع غير المشفوع عنده و قد عرفت أنّ المعنى تحليليّ والشفيع و المشفوع عنده واحد .

و قوله : « **أفلا تتذكّرون** » استفهام توبيخيّ يوبّخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدلّة العقول حتّى يتذكّروا أنّ الملك والتدبير لله سبحانه و هو المعبود بالحقّ ليس لهم دونه وليّ ولا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم .

قوله تعالى : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون » تتميم لبيان أنّ تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه و هذا هو القرينة على أنّ المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي .

و التدبير وضع الشيء في دابر الشيء و الإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحداً بعد واحد كالسلسلة المتّصلة بين السماء والأرض وقد قال تعالى : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزّله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، و قال : « إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر » القمر : ٤٩ .

و قوله : « ثمّ يعرج إليه » بعد قوله : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض » لا يخلو من إشعار بأنّ « يدبّر » مضمّن معنى التنزيل و المعنى يدبّر الأمر منزّلا أو ينزّله مدبّرا - من السماء إلى الأرض ولعلّه الأمر الّذي يشير إليه قوله : «فسوّاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها » حم السجدة : ١٢ .

و في قوله : « يعرج إليه » إشعار بأنّ المراد بالسماء مقام القرب الّذي تنتهي إليه أزمّة الاُمور دون السماء بمعنى جهة العلوّ أو ناحية من نواحي العالم الجسماني فإنّ الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنّه صعود من الطريق الّتي نزّل منها ولم يذكر هناك إلّا علوهو السماء و سفل هو الأرض و نزول وعروج فالنزول

من السماء و العروج إلى الله يشعر بأنّ السماء هو مقام الحضور الّذي يصدر منه تدبير الأمر أو أنّ موطن تدبير الأمر الأرضيّ هو السماء والله المحيط بكلّ شيء ينزّل التدبير الأرضيّ من هذا الموطن و لعلّ هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله : « و أوحى في كلّ سماء أمرها » .

و قوله : « في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون » معناه على أيّ حال أنّه في ظرف لو طبّق على ما في الأرض من زمان الحوادث و مقدار حركتها انطبق على ألف سنة ممّا نعدّه فإنّ من المسلّم أنّ الزمان الّذي يقدّره ما نعدّه من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضيّ .

و إذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب و الحضور و هو ممّا لا سبيل للزمان إليه كان المراد أنّه وعاء لو طبّق على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون .

و أمّا أنّ هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كلّ واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أنّ « في يوم » قيد لقوله « يعرج إليه » فقط كما وقع في قوله : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المعارج : ٣ .

ثمّ على تقدير كون الظرف قيدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة و هو مقدار يوم القيامة و أمّا كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقّة أو أنّ الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة و هو خمسون موقفا كلّ موقف مقداره ألف سنة .

ثمّ المراد بقوله : « مقداره ألف سنة » هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرّد التكثير كما في قوله : « يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة » البقرة : ٩٦ أي يعمّر عمرا طويلا جدّا و إن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق .

والآية ـ كما ترى ـ تحتمل الاحتمالات جميعا ولكلّ منها وجه والأقرب من بينها إلى الذهن كون « في يوم » قيدا لقوله « ثمّ يعرج إليه » و كون المراد بيوم عروج

الأمر مشهدا من خمسين مشهدا من مشاهد يوم القيامة والله أعلم .

قوله تعالى : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » تقدّم تفسير مفردات الآية ، ومناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة .

قوله تعالى : « الّذي أحسن كلّ شيء خلقه » قال الراغب : الحسن عبارة عن كلّ مبهج ـ بصيغة الفاعل ـ مرغوب فيه و ذلك ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل و مستحسن من جهة الهوى و مستحسن من جهة الحسّ . انتهى و هذا تعريف له من جهة خاصّته و انقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانيّة .

و حقيقته ملائمة أجزاء الشيء بعضها لبعض والمجموع للغرض والغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العين والحاجب والأنف والفم و غيرها ، و حسن العدل ملائمته للغرض من الاجتماع المدنيّ و هو نيل كلّ ذي حقّ حقّه و هكذا .

والتدبّر في خلقة الأشياء وكلّ منها في نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض والمجموع من وجوده مجهّز بما يلائم كما له و سعادته تجهيزا لا أتمّ ولا أكمل منه يعطي أنّ كلّا منها حسن في نفسه حسنا لا أتمّ و أكمل منه بالنظر إلى نفسه .

و أمّا ما نرى من المساءة والقبح في الأشياء فلأحد أمرين إمّا لكون الشيء السيّيء ذا عنوان عدميّ يعود إليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم و الزنا فإنّ الظلم ليس بسيّيء قبيح بما أنّه فعل من الأفعال بل بما أنّه مبطل لحقّ ثابت والزنا ليس بسيّيء قبيح من جهة نفس العمل الخارجيّ الّذي هو مشترك بينه و بين النكاح بل بما أنّ فيه مخالفة للنهي الشرعيّ أو للمصلحة الاجتماعيّة .

أو بقياسه إلى شيء آخر فيعرضه المساءة و القبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل إلى البطّيخ و قياس الشوك إلى الورد و قياس العقرب إلى الإنسان فإنّ المساءة إنّما تطرء هذه الأشياء من طريق القياس إلى مقابلاتها ثمّ قياسها إلى طبعنا ، و يرجع هذا الوجه من المساءة إلى الوجه الأوّل بالحقيقة .

و كيف كان فالشيء بما أنّه موجود مخلوق لا يتّصف بالمساءة و يدلّ عليه الآية « الّذي أحسن كلّ شيء خلقه » إذا انضمّ إلى قوله : « الله خالق كلّ شيء » الزمر :٦٢

فينتجان أوّلا أنّ الخلقة تلازم الحسن فكلّ مخلوق حسن من حيث هو مخلوق .

و ثانيا أنّ كلّ سيّىء و قبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيّىء قبيح كالمعاصي والسيّآت من حيث هي معاص و سيّآت و الأشياء السيّئة من جهة القياس .

قوله تعالى : « و بدء خلق الإنسان من طين » المراد بالإنسان النوع فالمبدوّ خلقه من طين هو النوع الّذي ينتهي أفراده إلى من خلق من طين من غير تناسل من أب و اُمّ كآدم وزوجه عليهما السلام والدليل على ذلك قوله بعده : « ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين » فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق و بين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين ، و لوكان المراد ذلك لكان حقّ الكلام أن يقال : ثمّ جعله سلالة من ماء مهين فافهمه .

و قوله : « ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السلالة كما في المجمع الصفوة الّتي تنسل أي تنزع من غيرها و يسمّى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه والمهين من الهون و هو الضعف والحقارة و ثمّ للتراخي الزمانيّ .

والمعنى ثمّ جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أوحقير .

قوله تعالى : « ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه » التسوية التصوير وتتميم العمل و في قوله : « نفخ فيه من روحه » استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفَس الّذي يتنفّس به ثمّ نفخه في قالب من سوّاه ، وإضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفيّة والمعنى ثمّ صوّر الإنسان المبدوّ خلقه من الطين والمجعول نسله من سلالة من ماء مهين و نفخ فيه من روح شريف منسوب إليه تعالى .

قوله تعالى : « و جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » امتنان بنعمة الادراك الحسيّ والفكريّ فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكريّات أعمّ من الإدراكات الجزئيّة الخياليّة والكلّيّة العقليّة .

و قوله : « قليلا ما تشكرون » أي تشكرون شكرا قليلا والجملة اعتراضيّة في محلّ التوبيخ وقيل الجملة حاليّة والمعنى جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنّكم تشكرون قليلا والجملة على أيّ حال مسوقة للبثّ والشكوى والتوبيخ .

والالتفات في قوله : « و جعل لكم » الخ من الغيبة إلى خطاب الجمع لتسجيل أنّ الانعام الالهيّ الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصّرون .

قوله تعالى : « و قالوا ءإذا ضللنا في الأرض أئنّا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربّهم كافرون » حجّة من منكري البعث مبنيّة على الاستبعاد . والضلال في الأرض قيل : هو الضيعة كما يقال : ضلّت النعمة أي ضاعت ، وقيل : هو بمعنى الغيبة و كيف كان فمرادهم به أئنّا إذا متنا و انتشرت أجزاء أبداننا في الأرض و صرنا بحيث لا تميّز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنّا نقع في خلق جديد و نخلق ثانيا خلقنا الأوّل ؟

والاستفهام للإنكار والخلق الجديد هو البعث .

وقوله : « بل هم بلقاء ربّهم كافرون » إضراب عن فحوى قولهم : « ءإذا ضللنا في الأرض » كأنّه قيل : إنّهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا على ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا و لقائنا و لذا جييء في الجواب عن قولهم بما يدلّ على الرجوع .

قوله تعالى : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي وكّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون » توفّي الشيء أخذه تامّا كاملا كتوفّي الحقّ و توفّي الدّين من المديون .

و قوله : « ملك الموت الّذي وكّل بكم » قيل أي وكّل بإماتتكم و قبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعمّ من ذلك .

و قد نسب التوفّي في الآية إلى ملك الموت ، و في قوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ إليه تعالى ، و في قوله : « حتّى إذا جاء أحدهم الموت توفّته رسلنا » الأنعام : ٦٢ و قوله : « الّذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » النحل : ٢٨ إلى الرسل والملائكة نظراً إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت و فوقهم ملك الموت الآمر بذلك المجري لأمر الله والله من ورائهم محيط و هو السبب الأعلى و مسبّب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابة الإنسان بالقلم فالقلم كاتب واليد كاتبة و الإنسان كاتب .

و قوله : « ثمّ إلى ربّكم ترجعون » هو الرجوع الّذي عبّر عنه في الآية السابقة باللقاء و موطنه البعث المترتّب على التوفّي و المتراخي عنه كما يدلّ عليه العطف بثمّ الدالّة على التراخي .

والآية ـ على أيّ تقدير ـ جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث و من المعلوم أنّ إماتة ملك الموت لهم ليس يحسم مادّة الإشكال فيبقى قوله: « ثمّ إلى ربّكم ترجعون » دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعواهم المدلّلة و الكلام الإلهيّ أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من المحاجّة .

لكنّه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجّتهم المبنيّة على الاستبعاد بأنّ حقيقة الموت ليس بطلانا لكم و ضلالا منكم في الأرض بل ملك الموت الموكّل بكم يأخذكم تامّين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان وأرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعنى بلفظة « كم » محفوظون لا يضلّ منكم شيء في الأرض و إنّما يضلّ الأبدان و تتغيّر من حال إلى حال وقد كانت في معرض التغيّر من أوّل كينونتها . ثمّ إنّكم محفوظون حتّى ترجعوا إلى ربّكم بالبعث ورجوع الأرواح إلى أجسادها .

و بهذا يندفع حجّتهم على نفي المعاد بضلالهم سواء قرّرت على نحو الاستبعاد أو قرّرت على أنّ تلاشي البدن يبطل شخصيّة الإنسان فينعدم ولا معنى لإعادة المعدوم فإنّ حقيقة الإنسان هو نفسه الّتي يحكي عنها بقول « انا » وهي غير البدن والبدن تابع لها في شخصيّته وهي لا تتلاشى بالموت ولا تنعدم بل محفوظة في قدرة الله حتّى يؤذن في رجوعها إلى ربّها للحساب والجزاء فيبعث على الشريطة الّتي ذكر الله سبحانه .

وظهر بما تقدّم أوّلا وجه اتّصال قوله : « قل يتوفّاكم » الخ بقوله : « ءإذا ضللنا في الأرض » الخ و أنّه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهة ، وقد أشكل الأمر على بعض من فسّر التوفّي بمطلق الإماتة من غير التفات إلى نكتة التعبير بلفظ التوفّي فتكلّف في توجيه اتّصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم .

و ثانيا أنّ الآية من أوضح الآيات القرآنيّة الدالّة على تجرّد النفس بمعنى

كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن .

قوله تعالى : « و لو ترى إذالمجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنّا موقنون » نكس الرأس إطراقه و طأطأته ، والمراد بالمجرمين بقرينة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللاّم فيه لا تخلو من معنى العهد أي هؤلاء الّذين يجحدون المعاد و يقولون : « ءإذا ضللنا في الأرض » الخ .

و في التعبير عن البعث بقوله : « عند ربّهم » محاذاة لما تقدّم من قوله : « بل هم بلقاء ربّهم كافرون » أي واقفون موقفا من اللقاء لا يسعهم إنكاره ، و قولهم : « أبصرنا و سمعنا » ومسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أنّ النجاة في الإيمان والعمل الصالح وقد حصل لهم الإيمان اليقينيّ و بقي العمل الصالح ولذا يعترفون باليقين و يسألون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيتمّ لهم سببا النجاة .

والمعنى ولو ترى إذ هؤلاء الّذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رؤسهم عند ربّهم في موقف اللقاء من الخزي والذلّ والندم يقولون ربّنا أبصرنا بالمشاهدة وسمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملا صالحا إنّا موقنون والمحصّل أنّك تراهم يجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزي والذلّ فنكسوا رؤسهم و اعترفوا بما ينكرونه اليوم و سألوا العود إلى ههنا ولن يعودوا .

قوله تعالى : « و لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها » إلى آخر الآية أي لو شئنا أن نعطي كلّ نفس أعمّ من المؤمنة والكافرة الهدى الّذي يختصّ بها و يناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر وإرادته أن يتلبّس بالهدى فيتلبّس بها من طريق الاختيار والإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فتلبّس بالهدى باختيار منه و إرادة من دون أن ينجرّ إلى الإلجاء والاضطرار فيبطل التكليف و يلغو الجزاء .

و قوله : « و لكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنّة و الناس أجمعين » أي ولكن هناك قضاء سابق منّي محتوم و هو إملاء جهنّم من الجنّة والناس أجمعين و هو قوله لإبليس لمّا امتنع من سجدة آدم وقال : «فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين » : «فالحقّ والحقّ أقول لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين»

ص : ٨۵ فقضى أن يدخل متّبعي إبليس العذاب المخلّد .

و لازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زيّ العبوديّة كما قال : « إنّ الله لايهدي القوم الظالمين » « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٨٠ إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنّا نسيناكم» إلى آخرالآية تفريع على قوله : « و لكن حقّ القول منّي» والنسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة و يكنّى به عن عدم الاعتناء بما يهمّ الشيء و هو المراد في الآية .

والمعنى فإذا كان من القضاء إذاقة العذاب لمتّبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتّى جحدتموه ولم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأنّا لم نعتن بمايهمّكم في هذا اليوم من السعادة والنجاة و قوله : « و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » تأكيد و توضيح لسابقه أي إنّ الذوق الّذى أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيّئة .

(بحث روائى)

في الدرّ المنثور أخرج النحّاس عن ابن عبّاس قال : نزلت سورةالسجدة بمكّة سوى ثلاث آيات « أفمن كان مؤمنا » إلى تمام الآيات الثلاث .

و فيه أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن عليّ قال : عزائم سجود القرآن الم تنزيل السجدة و حم تنزيل السجدة والنجم و اقرء باسم ربّك الّذي خلق .

و في الخصال عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام قال : إنّ العزائم أربع : اقرء باسم ربّك الّذي خلق والنجم و تنزيل السجدة و حم السجدة .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد والطبرانيّ عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم رجلا قدأسبل إزاره فقال له : ارفع إزارك فقال : يارسول‌الله إنّي أحنف تصطكّ ركبتاي . قال : ارفع إزارك كلّ خلق الله حسن .

و في الفقيه سئل الصادق عليه‌السلام عن قول الله عزّ و جلّ : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » و عن قول الله عزّ وجلّ : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي و كّل بكم »

وعن قول الله عزّ وجلّ : « الّذين يتوفّاهم الملائكة طيّبين » « والّذين يتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » و عن قول الله عزّ وجلّ : « توفّته رسلنا » و عن قوله عزّ وجلّ : « ولو ترى إذ يتوفّى الّذين كفروا الملائكة » وقد يموت في الدنيا في الساعة الواحدة في جميع الآفاق مالا يحصيه إلّا الله عزّ وجلّ فكيف هذا ؟

فقال : إنّ الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعوانا من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه فيتوفّاهم الملائكة و يتوفّاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو ، و يتوفّاها الله تعالى من ملك الموت .

و في الدّرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن أبي جعفر محمّد بن عليّ قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رجل من الأنصار يعوده فإذا ملك الموت عند رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنّه مؤمن فقال : أبشر يا محمّد فإنّي بكلّ مؤمن رفيق .

واعلم يا محمّد أنّي لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول : والله مالي من ذنب و إنّ لي لعودة و عودة الحذر الحذر و ما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في برّ ولا بحر إلّا و أنا أتصفحّهم في كلّ يوم و ليلة خمس مرّات حتّى أنّي لأعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمّد إنّي لا أقدر أقبض روح بعوضة حتّى يكون الله تبارك و تعالى هو الّذي يامر بقبضه .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « و لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها » قال : لو شئنا أن نجعلهم كلّهم معصومين لقدرنا .

اقول : العصمة لا تنافي الاختيار فلا تنافي بين مضمون الرواية و ما قدّمناه في تفسير الآية .

﴿ كلام في كينونة الانسان الاولى ﴾

تقدّم في تفسير أوّل سورة النساء كلام في هذا المعنى وكلامنا هذا كالتكملة له .

قدّمنا هناك أنّ الآيات القرآنية ظاهرة ظهورا قريبا من الصراحة في أنّ البشر الموجودين اليوم ـ و نحن منهم ـ ينتهون بالتناسل إلى زوج أي رجل وامرأة بعينهما و قد سمّي الرجل في القرآن بآدم و هماغير متكوّنين من أب و أمّ بل مخلوقان من تراب أو طين أو صلصال أو الأرض على اختلاف تعبيرات القرآن .

فهذا هو الّذي يفيده الآيات ظهورا معتدّا به وإن لم تكن نصّة صريحة لا تقبل التأويل ولا المسألة من ضروريّات الدين نعم يمكن عدّ انتهاء النسل الحاضر إلى آدم ضروريّاً من القرآن و أمّا أنّ آدم هذا هل اُريد به آدم النوعيّ أعني الطبيعة الإنسانيّة الفاشية في الأشخاص أو عدّة معدودة من الأفرادهم اُصول النسب والآباء و الاُمّهات الأوّليّة أو فرد إنسانيّ واحد بالشخص ؟

و على هذا التقدير هل هو فرد من نوع الإنسان تولّد من نوع آخر كالقردة مثلا على طريق تطوّر الأنواع وظهور الأكمل من الكامل والكامل من الناقص وهكذا أو هو فرد من الإنسان كامل بالكمال الفكريّ تولّد من زوج من الإنسان غير المجهّز بجهاز التعقّل فكان مبدء لظهور النوع الإنسانيّ المجهّز بالتعقّل القابل للتكليف وانفصاله من النوع غير المجهّز بذلك فالبشر الموجودون اليوم نوع كامل من الإنسان ينتهي أفراده إلى الإنسان الأوّل الكامل الّذي تسمّى بآدم و ينشعب هذا النوع الكامل بالتولّد تطوّرا من نوع آخر من الإنسان ناقص فاقد للتعقّل و هو يسير القهقرى في أنواع حيوانيّة مترتّبة حتّى ينتهي إلى أبسط الحيوان تجهيزا و أنقصها كمالا و إن أخذنا من هناك سائرين لم نزل ننتقل من ناقص إلى كامل و من كامل إلى أكمل حتّى ننتهي إلى الإنسان غير المجهّز بالتعقّل ثمّ إلى الإنسان الكامل كلّ ذلك في سلسلة نسبيّة متّصلة مؤلّفة من آباء وأعقاب .

أو أنّ سلسلة التوالد والتناسل تنقطع بالاتّصال بآدم و زوجه وهما متكوّنان من الأرض من غير تولّد من أب و امّ فليس شيء من هذه الصور ضروريا .

وكيف كان فظاهر الآيات القرآنيّة هو الصورة الأخيرة وهي انتهاء النسل الحاضر إلى آدم و زوجه المتكوّنين من الأرض من غير أب وأمّ

غير أنّ الآيات لم تبيّن كيفيّة خلق آدم من الأرض و أنّه هل عملت في خلقه علل وعوامل خارقة للعادة ؟ و هل تمّت خلقته بتكوين إلهيّ آنيّ من غير مهل فتبدّل الجسد المصنوع من طين بدنا عاديّا ذا روح إنسانيّ أو أنّه عاد إنسانا تامّا كاملاً في أزمنة معتدّ بها يتبدّل عليه فيها استعداد بعد استعداد وصورة و شكل بعد صورة و شكل حتّى تمّ الاستعداد فنفخ فيه الروح و بالجملة اجتمعت عليه من العلل والشرائط نظير ما تجتمع على النطفة في الرحم .

و من أوضح الدليل عليه قوله تعالى : « إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ فإنّ الآية نزلت جوابا عن احتجاج النصارى على نبوّة عيسى بأنّه ولد من غير أب بشريّ ولا ولد إلّا بوالد فأبوه هو الله سبحانه فرد في الآية بما محصّله أنّ صفته كصفة آدم حيث خلقه الله من أديم الأرض بغير والد يولده فلم لا يقولون بأنّ آدم ابن الله .

و لو كان المراد بخلقه من تراب انتهاء خلقته كسائر المتكوّنين من النطف إلى الأرض كان المعنى أنّ صفة عيسى ولا أب له كمثل آدم حيث تنتهي خلقته كسائر الناس إلى الأرض و من المعلوم أن لا خصوصيّة لآدم على هذا المعنى حتّى يؤخذ و يقاس إليه عيسى فيفسد معنى الآية في نفسه و من حيث الاحتجاج به على النصارى .

و بهذا يظهر دلالة جميع الآيات الدالة على خلق آدم من تراب أو طين أو نحو ذلك ، على المطلوب كقوله : « إنّي خالق بشرا من طين » ص : ٧١ و قوله : « و بدء خلق الإنسان من طين » المٓ السجدة : ٧ .

وأمّا قول من قال: إنّ المراد بآدم هو آدم النوعيّ دون الشخصيّ بمعنى الطبيعة الإنسانيّة الخارجيّة الفاشية في الأفراد ، و المراد ببنوّة الأفراد له تكثّر الاشخاص

منه بانضمام القيود إليه وقصّة دخوله الجنّة وإخراجه منها لمعصيته بإغواء من الشيطان تمثيل تخييليّ لمكانته في نفسه و وقوفه موقف القرب ثمّ كونه في معرض الهبوط باتّباع الهوى و طاعة إبليس .

ففيه أنّه مدفوع بالآية السابقة وظواهر كثير من الآيات كقوله: « هو الّذي خلقكم من نفس واحدة و جعل منها زوجها و بثّ منهما رجالا كثيرا و نساء » النساء : ١ فلو كان المراد بالنفس الواحدة آدم النوعيّ لم يبق لفرض الزوج لها محلّ و نظير الآية الآيات الّتي تفيد أنّ الله أدخله و زوجه الجنّة و أنّه و زوجه عصيا الله بالأكل من الشجرة .

على أنّ أصل القول بآدم النوعيّ مبنيّ على قدم الأرض والأنواع المتأصّلة و منها الإنسان و أنّ أفراده غير متناهية من الجانبين و الاُصول العلميّة تبطل ذلك بتاتا .

وأمّا القول بكون النسل منتهياً إلى أفراد معدودين كأربعة أزواج مختلفين ببياض اللون و سواده و حمرته و صفرته أو أزواج من الإنسان ناشئين بعضهم بالدنيا القديمة و بعضهم بالدنيا الحديثة و الأراضي المكشوفة أخيرا و فيها بشر قاطنون كأمريكا و اُستراليا .

فمدفوع بجميع الآيات الدالّة على انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه فإنّ المراد بآدم فيها إمّا شخص واحد إنسانيّ و إمّا الطبيعة الإنسانيّة الفاشية في الأفراد و هو آدم النوعيّ وأمّا الأفراد المعدودون فلا يحتمل لفظ الآيات ذلك البتّة .

على أنّه مبنيّ على تباين الأصناف الأربعة من الإنسان : البيض والسود و الحمر و الصفر و كون كلّ من هذه الأصناف نوعاً برأسه ينتهي إلى زوج غير ما ينتهي إليه الآخر أو كون قارّات الأرض منفصلا بعضها عن بعض انفصالا أبديّا غير مسبوق بالعدم ، وقد ظهر بطلان هذه الفرضيّات اليوم بطلانا كاد يلحقها بالبديهيّات .

و أمّا القول بانتهاء النسل إلى زوج من الإنسان أو أزيد انفصلا أو انفصلوا من

نوع آخر هو أقرب الأنواع إليه كالقرد مثلا انفصال الأكمل من الكامل تطوّرا .

ففيه أنّ الآيات السابقة الدالّة على خلق الإنسان الأوّل من تراب من غير أب و أُمّ تدفعه .

على أنّ ما أُقيم عليه من الحجّة العلميّة قاصر عن إثباته كما سنشير إليه في الكلام على القول التالي .

و أمّا القول بانتهاء النسل إلى فردين من الإنسان الكامل بالكمال الفكريّ من طريق التولّد ثمّ انشعابهما وانفصالهما بالتطوّر من نوع آخر من الإنسان غير الكامل بالكمال الفكريّ ثمّ انقراض الأصل وبقاء الفرع المتولّد منهما على قاعدة تنازع البقاء وانتخاب الأصلح .

فيدفعه قوله تعالى : « إنّ مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون » على التقريب المتقدّم و ما في معناه من الآيات .

على أنّ الحجّة الّتي اُقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته ، فإنّها شواهد مأخوذة من التشريح التطبيقي و أجنّة الحيوان والآثار الحفريّة الدالّة على التغيّر التدريجيّ في صفات الأنواع و أعضائها و ظهور الحيوان تدريجا آخذا من الناقص إلى الكامل و خلق ما هو أبسط من الحيوان قبل ما هو أشدّ تركيبا .

و فيه أنّ ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيويّة بعد الناقص زمانا لايدلّ على أزيد من تدرّج المادّة في استكمالها لقبول الصور الحيوانيّة المختلفة فهي قد استعدّت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة والشريفة بعد الخسيسة وأمّا كون الكامل من الحيوان منشعبا من الناقص بالتولّد والاتّصال النسبي فلا ولم يعثر هذا الفحص و البحث على غزارته و طول زمانه على فرد نوع كامل متولّد من فرد نوع آخر على أن يقف على نفس التولّد دون الفرد والفرد .

و ما وجد منها شاهدا على التغيّر التدريجيّ فإنّما هو تغيّر في نوع واحد بالانتقال من صفة لها إلي صفة اُخرى لايخرج بذلك عن نوعيّته والمدّعي خلاف ذلك .

فالّذي يتسلّم أنّ نشأة الحياة ذات مراتب مختلفة بالكمال والنقص والشرف و الخسّة و أعلى مراتبها الحياة الانسانيّة ثمّ مايليها ثمّ الأمثل فالأمثل و أمّا أنّ ذلك من طريق تبدّل كلّ نوع ممّا يجاوره من النوع الأكمل فلا يفيده هذا الدليل على سبيل الاستنتاج .

نعم يوجب حدسا مّا غير يقينيّ بذلك فالقول بتبدّل الأنواع بالتطوّر فرضيّة حدسيّة تبتني عليها العلوم الطبيعيّة اليوم و من الممكن أن يتغيّر يوما إلى خلافها بتقدّم العلوم و توسّع الأبحاث .

و ربّما استدلّ على هذا القول بقوله تعالى : « إنّ الله اصطفى آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ بتقريب أنّ الاصطفاء هو انتخاب صفوة الشيء و إنّما يصدق الانتخاب فيما إذا كان هناك جماعة يختار المصطفى من بينهم و يؤثر عليهم كما اصطفي كلّ من نوح و آل إبراهيم و آل عمران من بين قومهم ولازم ذلك أن يكون مع آدم قوم غيره فيصطفى من بينهم عليهم ، و ليس إلّا البشر الأوّلي غير المجهّز بجهاز التعقّل فاصطفي آدم من بينهم فجهّز بالعقل فانتقل من مرتبة نوعيّتهم إلى مرتبة الانسان المجهّز بالعقل الكامل بالنسبة إليهم ثمّ نسل وكثر نسله و انقرض الانسان الأوّليّ الناقص .

و فيه أنّ « العالمين » في الآية جمع محلّى باللّام و هو يفيد العموم و يصدق على عامّة البشر إلى يوم القيامة فهم مصطفون على جميع المعاصرين لهم والجائين بعدهم كمثل قوله : « وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين » فما المانع من كون آدم مصطفى مختارا من بين أولاده ما خلا المذكورين منهم في الآية ؟

وعلى تقدير اختصاص الاصطفاء بما بين المعاصرين و عليهم ما هو المانع من كونه مصطفى مختارا من بين أولاده المعاصرين له ولا دلالة في الآية على كون اصطفائه أوّل خلقته قبل ولادة أولاده .

على أنّ اصطفاء آدم لوكان على الانسان الأوّلي كما يذكره المستدلّ كان ذلك بما أنّه مجهّز بالعقل وكان ذلك مشتركا بينه وبين بني آدم جميعا على الانسان الأوّليّ

فكان تخصيص آدم في الآية بالذكر تخصيصا من غير مخصّص .

و ربّما استدلّ بقوله : « و لقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الآية الأعراف : ١١ بناء على أنّ « ثمّ » تدلّ على التراخي الزمانيّ فقد كان للنوع الإنسانيّ وجود قبل خلق آدم و أمر الملائكة بالسجدة له .

و فيه أنّ « ثمّ » في الآية للترتيب الكلاميّ و هو كثير الورود في كلامه تعالى على أنّ هناك معنى آخر أشرنا إليه في تفسير الآية في الجزء الثامن من الكتاب .

و ربّما استدلّ بقوله : « و بدء خلق الإنسان من طين ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثمّ سوّاه و نفخ فيه من روحه » الآيات و تقريبه أنّ الآية الأولى المتعرّضة لأوّل خلق الإنسان تذكر خلقته الأوّلية من تراب الّتي يشترك فيها جميع الأفراد ، والآية الثالثة تذكر تسويته و نفخ الروح فيه وبالجملة كماله الإنسانيّ والعطف بثمّ تدلّ على توسّط زمان معتدّ به بين أوّل خلقته من تراب وبين ظهوره بكماله .

وليس هذا الزمان المتوسّط إلّا زمان توسّط الأنواع الأخرى الّتي تنتهي بتغيّرها التدريجيّ إلى الإنسان الكامل وخاصّة بالنظر إلى تنكّر « سلالة » المفيد للعموم .

و فيه أنّ قوله : « ثمّ سوّاه » عطف على قوله : « بدء » والآيات في مقام بيان ظهور النوع الإنسانيّ بالخلق و أنّ بدء خلقه و هو خلق آدم كان من طين ثمّ بدّل سلالة من ماء في ظهور أولاده ثمّ تمّت الخلقة سواء كان فيه أو في أولاده بالتسوية و نفخ الروح .

و هذا معنى صحيح يقبل الانطباق على اللفظ ولا يلزم منه حمل قوله : « ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين » على أنواع متوسّطة بين الخلق من الطين و بين التسوية و نفخ الروح ، و كون « سلالة » نكرة لا يستلزم العموم فإنّ إفادة النكرة للعموم إنّما هو فيما إذا وقعت في سياق النفي دون الإثبات .

وقد استدلّ بآيات أخرى مربوطة بخلقة الإنسان وآدم بنحو ممّا مرّ يعلم الجواب عنها بما قدّمناه فلا موجب لنقلها و إطالة الكلام بالجواب عنها .

☆ ☆ ☆

إنَّما يُؤمِنُ بِآياتِنا الَّذينَ إذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمدِ رَبِّهِم وَ هُم لا يَستَكبِرُونَ (١٥) تَتَجافى جُنُوبُهُم عَنِ المَضاجِعِ يَدعُونَ رَبَّهُم خَوفاً وَ طَمَعاً وَ مِمّا رَزَقناهُم يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كانَ مُؤمِناً كَمَن كانَ فاسِقاً لا يَستَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُم جَنّاتُ المَأوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا الَّذينَ فَسَقُوا فَمَأواهُمُ النّارُ كُلَّما أَرادُوا أَن يَخرُجُوا مِنها أُعيدُوا فيها وَ قيلَ لَهُم ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّذي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَ لَنُذيقَنَّهُم مِنَ العَذابِ الأَدنى دُونَ العَذابِ الأَكبَرِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ (٢١) وَ مَن أَظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعرَضَ عَنها إنّا مِنَ المُجرِمينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَ لَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ فَلا تَكُن في مِريَةٍ مِن لِقائِهِ وَ جَعَلناهُ هُدىً لِبَني إسرائيلَ (٢٣) وَ جَعَلنا مِنهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنا لَمّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفصِلُ بَينَهُم يَومَ القِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَختَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَم يَهدِ لَهُم كَم أَهلَكنا مِن قَبلِهِم مِنَ القُرُونِ يَمشُونَ في مَساكِنِهِم إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ

أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٧) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠).

﴿ بيان ﴾

الآيات تفرّق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان و بين الفاسقين والظالمين و تذكر لكلّ ما يلزمه من الآثار والتبعات ثمّ تنذر الظالمين بعذاب الدنيا و تأمر النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم بانتظار الفتح و عند ذلك تختتم السورة.

قوله تعالى : « إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجّدا وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون » لمّا ذكر شطرا من الكلام في الكفّار الّذين يجحدون لقاءه و يستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الّذين يؤمنون بآيات ربّهم و يخضعون للحقّ لمّا ذكّروا و وعظوا.

فقوله : « إنّما يؤمن بآياتنا » حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم و معناه أنّ علامة التهيّؤ للإيمان الحقيقي هو كذا و كذا.

و قوله . « الّذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجّدا » ذكر سبحانه شيأ من أوصافهم و شيأ من أعمالهم أمّا ما هو من أوصافهم فتذلّلهم لمقام الربوبيّة و عدم استكبارهم عن الخضوع لله و تسبيحه وحمده وهو قوله : « إذا ذكّروا بآيات ربّهم » أي الدالّة على وحدانيّته في ربوبيّته و اُلوهيّته وما يلزمها من المعاد والدعوة النبويّة إلى الإيمان والعمل الصالح « خرّوا سجّدا » أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذلّلا واستكانة « وسبّحوا بحمد

ربّهم » أي نزّهوه مقارنا للثناء الجميل عليه و السجدة والتسبيح والتحميد و إن كانت من الأفعال لكنّها مظاهر لصفة التذلّل و الخضوع لمقام الربوبيّة والاُلوهيّة و لذا أردفها بصفة تلازمها فقال : « و هم لا يستكبرون » .

قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفا و طمعا و ممّا رزقناهم ينفقون » هذا معرّفهم من حيث أعمالهم كما أنّ ما في الآية السابقة كان معرّفهم من حيث أوصافهم .

فقوله : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » التجافي التنحّي والجنوب جمع جنب و هو الشقّ و المضاجع جمع مضجع و هو الفراش و موضع النوم والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم .

و قوله : « يدعون ربّهم خوفا و طمعا » حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربّهم في جوف الليل حين تنام العيون و تسكن الأنفاس لا خوفا من سخطه تعالى فقط حتّى يغشيهم اليأس من رحمة الله ولا طمعا في ثوابه فقط حتّى يأمنوا غضبه ومكره بل يدعونه خوفا و طمعا فيؤثرون في دعائهم أدب العبوديّة على ما يبعثهم إليه الهدى و هذا التجافي والدعاء ينطبق على النوافل اللّيليّة .

و قوله : « و ممّا رزقنا هم ينفقون» عمل آخر لهم و هو الإنفاق لله و في سبيله .

قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » تفريع لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب .

و وقوع نفس وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، و إضافة قرّه إلى أعين لا أعينهم تفيد أنّ فيما اُخفي لهم قرّة عين كلّ ذي عين .

والمعنى فلا تعلم نفس من النفوس ـ أي هو فوق علمهم و تصوّرهم ـ ما أخفاه الله لهم ممّا تقرّ به عين كلّ ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا .

قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » الإيمان سكون علميّ خاصّ من النفس بالشيء ولازمه الالتزام العمليّ بما آمن به والفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن

زيّ العبوديّة .

والاستفهام في الآية للإنكار و قوله : « لا يستون » نفي لاستواء الفريقين تأكيداً لما يفيده الإنكار السابق .

قوله تعالى : « أمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى نزلا بما كانوا يعملون » المأوى المكان الّذي يأوي إليه و يسكن فيه الإنسان والنزل بضمّتين كلّ ما يعدّ للنازل في بيت من الطعام والشراب ، ثمّ عمّم كما قيل لكلّ عطيّة ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و أمّا الّذين فسقوا فمأواهم النار » إلى آخر الآية كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها ولذلك عقّبه بقوله: « كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اُعيدوا فيها » و قوله : «و قيل لهم ذوقوا عذاب النار الّذي كنتم به تكذّبون » دليل على أنّ المراد بالّذين فسقوا هم منكروا المعاد و خطابهم و هم في النار بهذا الخطاب شماتة بهم و كثيرا ما كانوا يشمتون في الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد .

قوله تعالى : « و ليذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون » لمّا كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجوّ والرجوع المرجوّ هو الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الّذي بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة .

والمعنى اُقسم لنذيقنّهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلّهم يرجعون إلينا بالتوبة من شركهم وجحودهم .

قيل : سمّي عذاب الدنيا أدنى و لم يقل : الأصغر، حتّى يقابل الأكبر لأنّ المقام مقام الإنذار و التخويف ولايناسبه عدّ العذاب أصغر وكذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتّى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف .

قوله تعالى : « و من أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها إنّا من المجرمين

منتقمون » كأنّه في مقام التعليل لما تقدّم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنّهم مكذّبون فعلّله بأنّهم ظالمون أشدّ الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين و الله منتقم منهم .

فقوله : « و من أظلم » الخ تعليل لعذابهم بأنّهم ظالمون أشدّ الظلم ثمّ قوله : « إنّا من المجرمين منتقمون » تعليل لعذاب الظالمين بأنّهم مجرمون والعذاب انتقام منهم ، والله منتقم من المجرمين .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه و جعلناه هدى لبني إسرائيل » المراد بالكتاب التوراة و المرية الشكّ والريب .

و قد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله : «من لقائه » ومعنى الكلمة فقيل : الضمير لموسى و هو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مرية من لقائك موسى و قد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع و إن كانت نازلة فهو وعد منه تعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سيراه .

و قيل : الضمير لموسى والمعنى فلا تكن في مرية من لقائك موسى يوم القيامة .

و قيل : الضمير للكتاب و التقدير فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب .

و قيل : التقدير من لقائك الكتاب أو من لقاء الكتاب إيّاك .

و قيل : الضمير لما لقي موسى من الأذى من قومه والمعنى فلا تكن في مرية من لقاء الأذى كما لقيه موسى من قومه وأنت خبير بأنّ الطبع السليم لا يقبل شيأ من هذه الوجوه ـ على أنّها لا تفي لبيان وجه اتّصال الآية بما قبلها .

و من الممكن ـ والله أعلم ـ أن يرجع ضمير لقائه إليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنّه يوم يحضرون لربّهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدّم ، وقد عبّر عنه باللقاء قبل عدّة آيات في قوله : « بل هم بلقاء ربّهم كافرون » ثمّ عبّر عنه بما في معناه في قوله : « ناكسوا رؤسهم عند ربّهم » .

فيكون المعنى : و لقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مرية من البعث الّذي ينطق به القرآن بالشكّ في نفس القرآن وقد اُيّد نزول القرآن

عليه صلى الله عليه وآله بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن ، و يؤيده قوله بعد : « و جعلناه هدى لبني إسرائيل و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » الخ .

و يمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام إليه تعالى عند وحي القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات ، فيكون رجوعا إلى ما في صدر السورة من قوله : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » و ذيل الآية أشد تأييداً لهذا الوجه من سابقه والله أعلم .

و قوله : « و جعلناه هدى لبني إسرائيل » أي هاديا فالمصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعناه المصدري مبالغة .

قوله تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » أي و جعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا و إنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا في الدين و كانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا .

و قد تقدم البحث عن معنى الإمامة و هداية الإمام بأمر الله في تفسير قوله : « قال إني جاعلك للناس إماماً » البقرة : ١٢٤ ، و قوله « و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، و غير ذلك من الموارد المناسبة .

وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه يهدي من اتبعه إلى الحق ، و أنها أنشأت في حجر تربيتها أناسا اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها و مباركة بعد العمل .

قوله تعالى : « إن ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يريد اختلافهم في الدين و إنما كان ذلك بغياً بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله: « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب - إلى أن قال - فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية : ١٧ .

فالمراد بقوله : « يفصل بينهم » القضاء الفاصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم »

الخ العطف على محذوف كأنّه قيل : ألم يبيّن لهم كذا و كذا أولم يهد لهم الخ والهداية بمعنى التبيين أو هو مضمّن معنى التبيين و لذا عدّي باللام .

و قوله : «كم أهلكنا من قبلهم من القرون » مشير إلى الفاعل قائم مقامه والمعنى أولم يبيّن لهم كثرة من أهلكنا من القرون والحال أنّهم يمشون في مساكنهم .

و قوله : « إنّ في ذلك لآيات أفلا يسمعون» المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدّي إلى طاعة الحقّ و قبوله .

قوله تعالى : « أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم و أنفسهم » الخ قال في المجمع السوق الحثّ على السير من ساقه يسوقه و قال : الجرز الأرض اليابسة الّتي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها . انتهى والزرع مصدر في الأصل والمراد به هنا المزروع .

والآية تذكر آية اُخرى من آيات الله سبحانه تدلّ على حسن تدبيره للأشياء و خاصّة ذوي الحياة منها كالأنعام والإنسان ، والمراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار إليها ، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض و خروج الزرع و اغتذاء الإنسان و الأنعام الّتي يسخّرها و يربّيها لمقاصد حياته .

و قوله : « أفلا يبصرون » تنبيه و توبيخ وتخصيص هذه الآية بالإبصار والآية السابقة بالسمع لما أنّ العلم بإهلاك الاُمم الماضين إنّما هو بالأخبار الّتي تنال من طريق السمع و أمّا العلم بسوق الأمطار إلى الأرض الجرز وإخراج الزرع و اغتذاء الأنعام والإنسان فالطريق إليه حاسّة البصر .

قوله تعالى : « و يقولون متى هذا الفتح ـ إلى قوله ـ ولا هم ينظرون » قال الراغب : الفتح إزالة الإغلاق والإشكال ـ إلى أن قال ـ و فتح القضيّة فتاحا فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها قال : ربّنا افتح بيننا و بين قومنا بالحقّ و أنت خير الفاتحين انتهى .

وقد تقدّم في الآيات السابقة ممّا يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران أحدهما

فصل بينهم يوم القيامة ، و الآخر إذاقة العذاب الأدنى أو الانتقام منهم في الدنيا ولذا فسّر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنى قولهم : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين هو معنى قولهم المحكيّ كراراً في كلامه تعالى : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

و فسّره بعضهم بيوم بدر فإنّه لم ينفع الّذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل .

و ذكر بعضهم أنّ المراد به فتح مكّة ولا يلائمة الجواب المذكور في قوله : «قل يوم الفتح لا ينفع الّذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون » إلّا أن يقول قائل إنّ إيمانهم يومئذ ـ وقد عاندوا الحقّ و قاتلوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سنين و جاهدوا في إطفاء نورالله ـ لم يكن إيمانا إلّا نفاقا من غير أن يدخل في قلوبهم وينتفع به نفوسهم وقد اُلزموا بالإيمان ولم ينظروا .

و يمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و بين الاُمّة ويكون ذلك في آخر الزمان كما تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله : « و لكلّ اُمة رسول » الآية يونس : ٤٧ .

و كيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح والجواب أنّه فتح لا ينفع حال الّذين كفروا إيمانهم لأنّه ظرف لا ينفع نفسا إيمانها ولا أنّ العذاب يمهلهم و ينظرهم .

قوله تعالى : « فأعرض عنهم و انتظر إنّهم منتظرون » أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتح كما أنّهم ينتظرون وإنّما كانوا منتظرين موته أو قتله صلى الله عليه وآله وسلم و بالجملة انقطاع دابر دعوته الحقّة فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتّى يظهر الله الحقّ على الباطل والمحقّ على المبطل .

و من هذا السياق يظهر أنّ المراد بالفتح الفتح الدنيويّ .

﴿بحث روائى﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » قال: هم الّذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم فلمّا ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير و يكسل الكبير.

أقول: و رواها أيضا فيه بطرق اُخرى موصولة وموقوفة، و روى صدر الحديث الشيخ في أماليه بالإسناد عن الصادق عليه السلام في الآية و لفظه كانوا لا ينامون حتّى يصلّوا العتمة.

و في الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال: ألا اُخبرك بالإسلام أصله و فرعه و ذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك. قال: أمّا أصله فالصلاة و فرعه الزكاة و ذروة سنامه الجهاد.

ثمّ قال: إن شئت أخبرتك بأبواب الخير. قلت: نعم جعلت فداك. قال: الصوم جنّة والصدقة تذهب بالخطيئة و قيام الرجل في جوف الليل يذكر الله ثمّ قرء: « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ».

أقول: و روى هذا المعنى في المحاسن بإسناده عن عليّ بن عبد العزيز عن الصادق عليه السلام و في المجمع عن الواحديّ بالإسناد عن معاذ بن جبل عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم و رواه في الدرّ المنثور عن الترمذيّ والنسائيّ و ابن ماجة وغيرهم عن معاذ عنه صلّى الله عليه و سلّم.

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ذكر لنا رسول الله قيام الليل ففاضت عيناه حتّى تحادرت دموعه فقال: تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و مسلم والطبرانيّ و ابن جرير والحاكم و صحّحه وابن مردويه و محمّد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: بينما نحن عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يصف الجنّة حتّى انتهى.

ثمّ قال : فيها ما لاعين رأت ولاأُذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ثمّ قرء « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الآيتين .

و في المجمع و روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : ما من حسنة إلّا ولها ثواب مبيّن في القرآن إلّا صلاة الليل فإنّ الله عزّ اسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها قال : « فلا تعلم نفس » الآية .

و في تفسير القمّي حدّثني أبي عن عبدالرحمان بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما من عمل حسن يعمله العبد إلّا وله ثواب في القرآن إلّا صلاة الليل فإنّ الله عزّ وجلّ لم يبيّن ثوابها لعظيم خطره عنده فقال جلّ ذكره: « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفا و طمعا وممّا رزقنا هم ينفقون- إلى قوله - يعملون » .

ثمّ قال : إنّ لله عزّ وجلّ كرامة في عباده المؤمنين في كلّ يوم جمعة فاذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكا معه حلّتان فينتهي إلى باب الجنّة فيقول: استأذنوا لي على فلان فيقال له هذا رسول ربّك على الباب فيقول لأزواجه : أيّ شيّ ترين عليّ أحسن ؟ فيقلن يا سيّدنا والّذي أباحك الجنّة ما رأينا عليك أحسن من هذا الّذي قد بعث إليك ربّك فيتّزر بواحدة و يتعطّف بالاُخرى فلا يمرّ بشيء إلّا أضاء له حتّى ينتهي إلى الموعد .

فإذا اجتمعوا تجلّى لهم الربّ تبارك و تعالى فإذا نظروا إليه أي إلى رحمته خرّ واسجّدا فيقول : عبادي ارفعوا رؤسكم ليس هنا يوم سجود ولاعبادة قد رفعت عنكم المؤنة فيقولون : يا ربّنا وأيّ شيء أفضل ممّا أعطيتنا ؟ أعطيتنا الجنّة فيقول : لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرّة .

فيرجع المؤمن في كلّ جمعة بسبعين ضعفا مثل ما في يديه و هو قوله : « ولدينا مزيد » و هو يوم الجمعة إنّ ليلها ليلة غرّاء و يومها يوم أزهر فأكثروا من التسبيح و التهليل والتكبير والثناء على الله عزّ وجلّ والصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

قال : فيمرّ المؤمن فلا يمرّ بشيء إلّا أضاء له حتّى ينتهي إلى أزواجه فيقلن :

والّذي أباحنا الجنّة ياسيّدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة . فيقول : إنّي نظرت إلى نور ربّي ـ إلى أن قال ـ : قلت جعلت فداك زدني . فقال : إنّ الله تعالى خلق جنّة بيده ولم يرها عين ولم يطّلع عليها مخلوق يفتحها الربّ كلّ صباح فيقول : ازدادي ريحا ازدادي طيبا و هو قول الله : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرّة اُعين جزاء بما كانوا يعملون » .

أقول : ذيل الرواية تفسير لصدرها و قوله : أي إلى رحمة ربّه . من كلام الراويّ .

و في الكافي بإسناده عن عبد الله بن ميمون القدّاح عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من أطعم مؤمنا حتّى يشبعه لم يدر أحد من خلق الله جلّ و عزّ ماله من الأجر في الآخرة لا ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلّا الله ربّ العالمين .

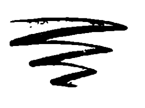
وفي تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :«أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقالا يستون » قال : إنّ علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط تشاجرا فقال الفاسق وليد بن عقبة : أنا والله أبسط منك لسانا وأحدّ منك سنانا وأمثل منك جثوّا في الكتيبة فقال عليّ عليه السلام : اسكت إنّما أنت فاسق فأنزل الله « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » .

أقول : و رواه في المجمع عن الواحديّ عن ابن عبّاس وفي الدّرّ المنثور عن كتاب الأغاني والواحديّ و ابن عديّ و ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه و أيضا عن ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار و عن ابن أبي حاتم عن السدّي عنه و أيضا عن ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى مثله .

و في الاحتجاج عن الحسن بن عليّ عليه السلام في حديث يحاجّ فيه رجالاً عند معاوية : و أمّا أنت يا وليد بن عقبة فوالله ما ألومك أن تبغض عليّا وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة و قتل أباك صبرا بيده يوم بدر أم كيف تسبّه وقد سمّاه الله مؤمنا في عشر آيات من القرآن و سمّاك فاسقا و هو قول الله عزّ وجلّ : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » .

و في الدّر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال : سألت عبادة بن الصامت عن قول الله : «و لنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر» فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها فقال : هي المصائب و الأسقام والأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا ؟ قال : زكاة و طهور .

و في المجمع في الرواية عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام : أنّ العذاب الأدنى الدابّة والدجّال .



(سورة الأحزاب مدنيّة و هي ثلث و سبعون آية)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللّٰهَ وَلاٰ تُطِعِ الْكٰافِرِينَ وَالْمُنٰافِقِينَ اِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَ اتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ اِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً (٣) مٰا جَعَلَ اللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ اللاّٰئِي تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِيٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ وَاللّٰهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ(۴) اُدْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّٰهِ فَاِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبٰاءَهُمْ فَاِخْوٰانُكُمْ فِى الدِّينِ وَ مَوٰالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ وَاُولُوا الْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهٰاجِرِينَ اِلاّٰ أَنْ تَفْعَلُوا اِلىٰ أَوْلِيٰائِكُمْ مَعْرُوفاً كٰانَ ذٰلِكَ فِى الْكِتٰابِ مَسْطُوراً (٦) وَ اِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثٰاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ اِبْرٰاهِيمَ وَ مُوسىٰ وَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصّٰادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً أَلِيماً (٨)

﴿ بيان ﴾

تتضمّن السورة تفاريق من المعارف و الأحكام والقصص و العبر والمواعظ و فيها قصّة غزوة الخندق وإشارة إلى قصّة بني القريظة من اليهود ، وسياق آياتها يشهد بأنّها ممّا نزلت بالمدينة .

قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ اتّق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً » أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتقوى الله و فيه تمهيد للنهي الّذي بعده « ولا تطع الكافرين والمنافقين » .

وفي سياق النهي ـ وقد جمع فيه بين الكافرين و المنافقين و نهى عن إطاعتهم ـ كشف عن أنّ الكافرين كانوا يسألونه أمراً لا يرتضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيّدونهم في مسألتهم ويلحّون ، أمراً كان الله سبحانه بعلمه وحكمته قد قضى بخلافه وقد نزل الوحي الإلهيّ بخلافه ، أمراً خطيراً لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلّا أن يشاء الله فحذّر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن إجابتهم إلى ملتمسهم وأمر بمتابعة ما أوحى الله إليه و التوكّل عليه .

وبهذا يتأيّد ما ورد في أسباب النزول أنّ عدّة من صناديد قريش بعد وقعة اُحد دخلوا المدينة بأمان من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسألوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتركهم وآلهتهم فيتركوه وإلهه فنزلت الآيات ولم يجبهم النبيّ إلى ذلك وسيأتي في البحث الروائي التالي .

وبما تقدّم ظهر وجه تذييل الآية بقوله : « إنّ الله كان عليماً حكيماً » و كذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها .

قوله تعالى : « و اتّبع مايوحى إليك من ربّك إنّ الله كان بما تعملون خبيراً » الآية عامّة في حدّ نفسها لكنّها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم باتّباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون و المنافقون و اتّباعه إجراؤه عملا بدليل قوله : « إنّ الله كان بما تعملون خبيراً » .

قوله تعالى : « وتوكّل على الله و كفى بالله وكيلا » الآية كالآية السابقة في

أنها عامّة في حدّ نفسها ، لكنّها لوقوعها في سياق النهي السابق تدلّ على الأمر بالتوكّل على الله فيما يأمره به الوحي وتشعر بأنّه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهريّة لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة والاضطراب إلّا التوكّل على الله سبحانه فإنّه السبب الوحيد الّذي لا يغلبه سبب مخالف

قوله تعالى : « ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه » كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإنّ القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدّق بالمتناقضين وقوله : « في جوفه » يفيد زيادة التقرير كقوله : « ولكن تعمى القلوب الّتي في الصدور » الحج : ٤٦ .

قيل : الجملة توطئة و تمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار و التبنّي فإنّ في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الاُم و في التبنّي و الدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه والجمع بين الزوجيّة والاُمومة وكذا الجمع بين بنوّة الغير وبنوّة نفسه جمع بين المتنافيين ولا يجتمعان إلّا في قلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ولا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق : « لا تطع الكافرين و المنافقين » « واتّبع ما يوحى إليك من ربّك » فإنّ طاعة الله و ولايته و طاعة الكفّار و المنافقين و ولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد و الشرك لا يجتمعان في القلب الواحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

قوله تعالى : « وماجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ اُمّهاتكم » كان الرجل في الجاهليّة يقول لزوجته أنت منّي كظهر اُمّي أوظهرك عليّ كظهر اُمّي فيُشبّه ظهرها بظهر اُمّه وكان يسمّى ذلك ظهاراً ويعدّ طلاقا لها ، وقد ألغاه الإسلام .

فمفاد الآية أنّ الله لم يجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ بقول ظهرك عليّ كظهر اُمّي اُمّهات لكم وإذ لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول والجعل تشريعيّ .

قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » الأدعياء جمع دعيّ و هو المتّخذ

ولدا المدعوّ ابنا وقد كان الدعاء و التبنّي دائراً بينهم في الجاهليّة و كذا بين الاُمم الراقية يومئذ كالروم وفارس وكانوا يرتّبون على الدعيّ أحكام الولد الصلبيّ من التوارث وحرمة الازدواج وغيرهما وقد ألغاه الإسلام .

فمفاد الآية أنّ الله لم يجعل الّذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصلبيّين .

قوله تعالى : « ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ و هو يهدي السبيل » الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما تقدّم من الظهار والدعاء أو إلى الدعاء فقط و هو الأظهر و يؤيّده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب .

و قوله : « قولكم بأفواهكم » أي إنّ نسبة الدعيّ إلى أنفسكم ليس إلّا قولا تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما في قوله : « كلّا إنّها كلمة هو قائلها » المؤمنون : ١٠٠ .

و قوله : « والله يقول الحقّ و هو يهدي السبيل » معنى كون قوله : هو الحقّ أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقا لما أخبر به و إن أنشأ حكما ترتّب عليه آثاره و طابقته المصلحة الواقعيّة .

و معنى هدايته السبيل أنّه يحمل مَن هداه على سبيل الحقّ الّتي فيها الخير و السعادة و في الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم وخذوا بقوله .

قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » إلى آخر الآية . اللّام في « لآبائهم » للاختصاص أي ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أي انسبوهم إلى آبائهم و قوله : « هو أقسط عند الله » الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله : « ادعوهم » نظير قوله : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » و « أقسط » صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل .

و المعنى انسبوهم إلى آبائهم ـ إذا دعوتموهم ـ لأنّ الدعاء لآبائهم أعدل عند الله .

و قوله : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين و مواليكم » المراد بعدم علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم ، والموالي هم الأولياء والمعنى وإن لم تعرفوا

آباءهم فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم بل ادعوهم بالاُخوّة والولاية الدينيّة .

و قوله : « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم » أي لا ذنب لكم في الّذي أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتموهم لغير آبائهم و لكنّ الّذي تعمّدته قلوبكم ذنب أو ولكن تعمّد قلوبكم بذلك فيه الذنب .

و قوله : « و كان الله غفورا رحيما » راجع إلى ما اُخطىء به .

قوله تعالى : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه اُمّهاتهم » أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبيّ أولى بهم من أنفسهم أنّه أولى بهم منهم ومعنى الأولويّة هو رجحان الجانب إذا دارالأمر بينه و بين ما هو أولى منه فالمحصّل أنّ ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الكلاءة والمحبّة والكرامة واستجابة الدعوة و إنفاذ الإرادة فالنبيّ أولى بذلك من نفسه و لودار الأمر بين النبيّ و بين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبيّ أرجح من جانب نفسه .

ففيما إذا توجّه شيء من المخاطر إلى نفس النبيّ فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه وليكن النبيّ أحبّ إليه من نفسه وأكرم عنده من نفسه و لو دعته نفسه إلى شيء والنبيّ إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيأ و أراد النبيّ خلافه كان المتعيّن استجابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و طاعته و تقديمه على نفسه .

و كذا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أولى بهم فيما يتعلّق بالاُمور الدنيويّة أو الدينيّة كلّ ذلك لمكان الإطلاق في قوله : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

و من هنا يظهر ضعف ما قيل : إنّ المراد أنّه أولى بهم في الدعوة فإذا دعاهم إلى شيء و دعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه ويعصوا أنفسهم فتكون الآية في معنى قوله : « و أطيعوا الرسول » النساء : ٥٩ و قوله : « و ما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ و ما أشبه ذلك من الآيات و هو مدفوع بالإطلاق .

و كذا ما قيل : إنّ المراد أنّ حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما في قوله : « فسلّموا علي أنفسكم » النور : ٦١ و يؤل إلى أنّ ولايته على المؤمنين فوق

ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » براءة : ٧١ .

و فيه أنّ السياق لا يساعد عليه .

و قوله « و أزواجه اُمّهاتهم » جعل تشريعيّ أي إنّهنّ منهم بمنزلة اُمّهاتهم في وجوب تعظيمهنّ و حرمة نكاحهنّ بعد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌ كما سيأتي التصريح به في قوله : « و لا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » .

فالتنزيل إنّما هو في بعض آثار الاُمومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهنّ و بين المؤمنين والنظر في وجوههنّ كالاُمّهات و حرمة بناتهنّ على المؤمنين لصيرورتهنّ أخوات لهم و كصيرورة آبائهنّ و اُمّهاتهنّ أجداداً وجدّات و إخوتهنّ و أخواتهنّ أخوالاوخالات للمؤمنين .

قوله تعالى : « و اُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » الخ الأرحام جمع رحم و هي العضو الّذي يحمل النطفة حتّى تصيرجنينا فيتولّد و إذكانت القرابة النسبيّة لازمة الانتهاء إلى رحمواحدة عبّرعن القرابة بالرحم فسمّي ذووا القرابة اُولي الأرحام .

والمراد بكون اُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ، الأولويّة في التوارث ، و قوله : « في كتاب الله » المراد به اللّوح المحفوظ أو القرآن أو السورة ، و قوله : « من المؤمنين والمهاجرين » مفضّل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم و المعنى و ذووا القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائرالمؤمنين الّذين كانوا يرثون بالمواخاة الدينيّة وهذه الأولويّةفي كتاب الله وربّما احتمل كون قوله : «من المؤمنين والمهاجرين» بيانا لقوله : « و اُولو الأرحام» .

و الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين .

و قوله : « إلّاتفعلوا إلى أوليائكم معروفا» الاستثناء منقطع، والمراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصيّة لهم بشيء من التركة ، وقد حدّ شرعا بثلث المال فما دونه وقوله

« كان ذلك في الكتاب مسطورا » أي حكم فعل المعروف بالوصيّة مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة .

قوله تعالى : « و إذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم و منك و من نوح و إبراهيم و موسى و عيسى بن مريم و أخذنا منهم ميثاقا غليظا » إضافة الميثاق إلى ضمير النبيّين دليل على أنّ المراد بالميثاق ميثاق خاصّ بهم كما أنّ ذكرهم بوصف النبوّة مشعر بذلك فالميثاق المأخوذ من النبيّين ميثاق خاصّ من حيث إنّهم نبيّون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامّة البشر الّذي يشير إليه في قوله : « و إذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى » الأعراف : ١٧٢ .

و قد ذكر أخذ الميثاق من النبيّين في موضع آخر و هو قوله : « و إذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا » آل عمران: ٨١.

والآية المبحوث عنها و إن لم تبيّن ما هو الميثاق المأخوذ منهم وإن كانت فيها إشارة إلى أنّه أمر متعلّق بالنبوّة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أنّ الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه كما في قوله : « و إنّ هذه اُمّتكم اُمّة واحدة و أنا ربّكم فاعبدون » الأنبياء : ٩٢ ، و قوله : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا و ما أوحينا إليك و ما وصّينا به إبراهيم وموسى و عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » الشورى : ١٣ .

وقد ذكر النبيّين بلفظ عامّ يشمل الجميع ثمّ سمّى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال : « و منك و من نوح و إبراهيم و موسى و عيسى بن مريم » و معنى العطف إخراجهم من بينهم و تخصيصهم بالذكر كأنّه قيل : وإذ أخذنا الميثاق منكم أيّها الخمسة و من باقي النبيّين .

و لم يخصّهم بالذكر على هذا النمط إلّا لعظمة شأنهم و رفعة مكانهم فإنّهم اُولوا عزم وأصحاب شرائع وكتب وقد عدّهم على ترتيب زمانهم : نوح ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى بن مريم عليه السلام لكن قدّم ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخرهم زمانا لفضله وشرفه وتقدّمه

على الجميع .

و قوله : « و أخذنا منهم ميثاقا غليظا » تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله : « فلمّا جاء أمرنا نجّينا هودا و الّذين آمنوا معه برحمة منّا و نجّيناهم من عذاب غليظ » هود : ٥٨ .

قوله تعالى : « ليسأل الصادقين عن صدقهم و أعدّ للكافرين عذابا أليما » اللاّم في « ليسأل » للتعليل أو للغاية و هو متعلّق بمحذوف يدلّ عليه قوله : « و إذ أخذنا » و قوله : « و أعدّ » معطوف على ذلك المحذوف ، والتقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق ليتمهّد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعدّ للكافرين عذابا أليما .

و لم يقل : و ليعدّ للكافرين عذابا ، إشارة أنّ عذابهم ليس من العلل الغائيّة لأخذ الميثاق و إنّما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم .

و أمّا سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل : المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عمّا جاءت به اُممهم و كأنّه مأخوذ من قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا اُجبتم » المائدة : ١٠٩ .

و قيل : المراد سؤال الصادقين في توحيد الله و عدله والشرائع عن صدقهم أي عمّا كانوا يقولون فيه ، و قيل : المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم وقيل المراد سؤال الصادقين عمّا قصدوا بصدقهم أهو وجه الله أو غيره ؟ إلى غير ذلك من الوجوه وهي كما ترى .

و التأمّل فيما يفيده قوله : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » يرشد إلى خلاف ما ذكروه ففرق بين قولنا : سألت الغنيّ عن غناه وسألت العالم عن علمه وبين قولنا سألت زيدا عن ماله أو عن علمه فالمتبادر من الأوّلين أنّي طالبته أن يظهر غناه و أن يظهر علمه و من الأخيرين أنّي طالبته أن يخبرني هل له مال أوهل له علم ؟ أو يصف لي ماله من المال أو من العلم .

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول و الفعل و هو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين

عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم و هذا في الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة اُخرى قبل الدنيا كما يدلّ عليه آيات الذرّ « و إذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى » الآيات .

و بالجملة الآيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذرّ المأخوذ فيه الميثاق و تذكران أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام و ترتّب شأنهم وعملهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتّب صدق كلّ صادق على الميثاق المأخوذ منه .

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنّهم ليسوا من قبيل النبيّين والكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكأنّه قيل : أخذنا ميثاقا غليظا من النبيّين أن تتّفق كلمتهم على دين واحد يبلّغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف والهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدّر لهم الثواب وأعدّ للكافرين عذابا أليما .

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلّم مع الغير إلى الغيبة في قوله : «ليسأل الصادقين » الخ و ذلك لأنّ الميثاق على عبادته وحده لا شريك له و إن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحّح لقوله : « أخذنا » « و أخذنا » فالمطالب لصدق الصادقين والمعدّ لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبّر .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى: « يا أيّها النبيّ اتّق الله » الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب و عكرمة بن أبي جهل و أبي الأعور السلميّ قدموا المدينة و نزلوا على عبدالله بن اُبيّ بعد غزوة اُحد بأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله ليكلّموه فقاموا و قام معهم عبدالله بن اُبيّ و عبدالله بن سعيد بن أبي سرح و طعمة بن اُبيرق فدخلوا على رسول الله صلّى الله عليه و آله فقالوا : يا محمّد ارفض ذكر آلهتنا اللاّت والعزّى و مناة و قل : إنّ لها شفاعة لمن عبدها و ندعك و ربّك. فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال عمر بن

الخطّاب : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم فقال : إنّي أعطيتهم الأمان وأمر فاُخرجوا من المدينة و نزلت الآية « ولا تطع الكافرين » من أهل مكّة أبا سفيان و أبا الأعور و عكرمة « والمنافقين » ابن اُبيّ و ابن سعيد و طعمة .

اقول : و روى إجمال القصّة في الدرّ المنثور عن ابن جرير عن ابن عبّاس ، وروي أسباب اُخر لنزول الآيات لكنّها أجنبيّة غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و ما جعل أدعياء كم أبناء كم » حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : كان سبب ذلك أنّ رسول الله لمّا تزوّج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة و رأى زيداً يباع و رآه غلاما كيّسا حصينا فاشتراه فلمّا نبّيء رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم دعاه إلى الإسلام فأسلم و كان يدعى زيد مولى محمّد .

فلمّا بلغ حارثة بن شراحيل الكلبيّ خبر ولده زيد قدم مكّة و كان رجلا جليلا فأتى أبا طالب فقال : يا با طالب إنّ ابني وقع عليه السبي و بلغني أنّه صار إلى ابن أخيك تسأله إمّا أن يبيعه و إمّا أن يفاديه و إمّا أن يعتقه .

فكلّم أبو طالب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال رسول الله هو حرّ فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له : يا بنيّ الحق بشرفك و حسبك فقال زيد لست اُفارق رسول الله فقال له أبوه فتدع حسبك و نسبك و تكون عبداً لقريش ؟ فقال زيد : لست اُفارق رسول الله ما دمت حيّاً فغضب أبوه فقال : يا معشر قريش اشهدوا أنّي قد برئت منه و ليس هو ابني فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم اشهدوا أنّ زيدا ابني أرثه و يرثني . فكان زيد يدعى ابن محمّد و كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يحبّه وسمّاه زيد الحبّ .

فلمّا هاجر رسول الله إلى المدينة زوّجه زينب بنت جحش و أبطأ عنه يوما فأتى رسول الله منزله يسأل عنه فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستحق طيبها بفهرلها فدفع رسول الله الباب و نظر إليها و كانت جميلة حسنة فقال : سبحان الله ربّ النور و تبارك الله أحسن الخالقين ثمّ رجع رسول الله إلى منزله و وقعت زينب في قلبه موقعا عجيبا .

و جاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله فقال لها زيد : هل لك أن اُطلّقك حتّى يتزوّج بك رسول الله ؟ فقالت : أخشى أن تطلّقني ولا يتزوّجني رسول الله . فجاء زيد إلى رسول الله فقال : بأبي أنت و اُمّي يا رسول الله أخبرتني زينب بكذا و كذا فهل لك أن اُطلّقها حتّى تتزوّجها ؟ فقال له رسول الله : لا اذهب و اتّق الله و أمسك عليك زوجك، ثمّ حكى الله فقال : « أمسك عليك زوجك واتّق الله و تخفي في نفسك ما الله مبديه و تخشى الناس و الله أحقّ أن تخشاه فلمّا قضى زيد منها وطراً زوّجنا كها ـ إلى قوله ـ و كان أمر الله مفعولا » فزوّجه الله من فوق عرشه .

فقال المنافقون : يحرّم علينا نساء أبنائنا ويزوّج امرأة ابنه زيد فأنزل الله في هذا « و ما جعل أدعياء كم أبناءكم ـ إلى قوله ـ يهدي السبيل .

اقول : و روى قريبا منه مع اختلاف مّا في الدّر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عبّاس .

و في الدّر المنثور أخرج أحمد وأبوداود و ابن مردويه عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يقول : أنا أولى بكلّ مؤمن من نفسه فأيّما رجل مات و ترك دينا فإليّ ، و من ترك مالاً فهو لورثته .

اقول : و في معناه روايات اُخر من طرق الشيعة و أهل السنّة .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و أحمد والنسائيّ عن بريدة قال : غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة فلمّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عليّا فتنقصّته فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغيّر و قال : يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه .

و في الاحتجاج عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب في حديث طويل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه و عليّ بين يديه في البيت .

أقول : و رواه في الكافي بإسناده عن جعفر عنه صلى الله عليه وآله وسلم و الأحاديث في هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حدّ الإحصاء .

و في الكافي بإسناده عن حنان قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أيّ شيء للموالي؟ فقال : ليس لهم من الميراث إلاّ ما قال الله عزّ وجلّ : « إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا » .

و في الدّر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : قيل : يا رسول الله متى اُخذ ميثاقك ؟ قال : و آدم بين الروح والجسد .

أقول : وهو بلفظه مرويّ بطرق مختلفة عنه صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه كون الميثاق مأخوذا في نشأة غير هذه النشأة و قبلها .

☆ ☆ ☆

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً (٩) اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً (١١) واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً (١٢) واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فراراً (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيراً (١٤) ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤلاً (١٥) قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذاً لا تمتعون الا قليلاً (١٦) قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً (١٧) قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلاً (١٨) أشحة عليكم

فَاِذٰا جٰاءَ الْخَوفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ اِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشٰى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَاِذٰا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدٰادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ اُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْاَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ اِنْ يَأْتِ الْاَحْزٰابُ يَوَدُّوا لَوْ اَنَّهُمْ بٰادُونَ فِى الْاَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكُمْ وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوا اِلَّا قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللّٰهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُوا اللّٰهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيراً (٢١) وَ لَمّٰا رَآَ الْمُؤْمِنُونَ الْاَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ مٰا زٰادَهُمْ اِلّٰا اِيمٰاناً وَ تَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضٰى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِىَ اللّٰهُ الصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِينَ اِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ اِنَّ اللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَ رَدَّ اللّٰهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنٰالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتٰالَ وَ كٰانَ اللّٰهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ مِنْ صَيٰاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيٰارَهُمْ وَأَمْوٰالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً (٢٧) .

﴿ بيان ﴾

قصّة غزوة الخندق وما عقّبها من أمر بني قريظة و وجه اتّصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد و نقضه .

قوله تعالى : « يا أيها الّذين آمنوا اذكروا نعمةالله عليكم إن جاءتكم جنود » الخ تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيّام الخندق بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم وقد كانوا جنودا مجنّدة من شعوب و قبائل شتّى كغطفان و قريش والأحابيش و كنانة و يهود بني قريظة و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلّط الله عليهم الريح و أنزل ملائكة يخذلونهم .

وهوقوله : « يا أيهاالّذين آمنوا اذكروا نعمة اللهعليكمإن» ظرف للنعمةأولثبوتها « جاءتكم جنود » من طوائف كلّ واحدة منهم جند كغطفان و قريش وغيرهما « فأرسلنا» بيان للنعمة و هو الإرسال المتفرّع على مجيئهم « عليهم ريحا » و هي الصبا و كانت باردة في ليال شاتية « و جنودا لم تروها » وهي الملائكة لخذلان المشركين «وكان الله بما تعملون بصيرا » .

قوله تعالى : « إن جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم » الخ الجاؤن من فوقهم و هو الجانب الشرقيّ للمدينة غطفان و يهود بني قريظة و بني النضير و الجاؤن من أسفل منهم و هو الجانب الغربيّ لها قريش و من انضمّ إليهم من الأحابيش و كنانة فقوله : « إن جاؤكم من فوقكم و من أسفل منكم » عطف بيان لقوله : « إن جاءتكم جنود » .

و قوله : « إن زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر » عطف بيان آخر لقوله « إن جاء تكم » الخ و زيغ الأبصار ميلها و القلوب هي الأنفس والحناجرجمع حنجرو هو جوف الحلقوم .

و الوصفان أعني زيغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر كنايتان عن كمال

غشيان الخوف لهم حتّى حوّلهم إلى حال المحتضر الّذي يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم .

و قوله : « وتظنّون بالله الظنونا » أي يظنّ المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول : « إنّ الكفّارسيغلبون و يستولون على المدينة ، وبعضهم يقول : إنّ الإسلام سينمحق والدين سيضيع ، و بعضهم يقول : إنّ الجاهليّة ستعود كما كانت ، و بعضهم يقول : إنّ الله غرّهم و رسوله إلى غير ذلك من الظنون .

قوله تعالى : « هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالاشديدا » هنالك إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان والمراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود و كان شديدا عليهم لغاية بعيدة ، و الابتلاء الامتحان ، والزلزلة والزلزال الاضطراب ، والشدّة القوّة و تختلفان في أنّ الغالب على الشدّة أن تكون محسوسا بخلاف القوّة قيل : و لذلك يطلق القويّ عليه تعالى دون الشديد .

والمعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون واضطربوا خوفاً اضطرابا شديدا.

قوله تعالى : « و إذ يقول المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله و رسوله إلّاغرورا » الّذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين وهم غير المنافقين الّذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر ، وإنما سمّي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام .

والغرور حمل الإنسان على الشرّ بإراءته في صورة الخير والاغترار احتماله له قال الراغب : يقال : غررت فلانا أصبت غرّته ونلت منه ما اُريد و الغرّة ـ بكسر الغين ـ غفلة في اليقظة . انتهى .

والوعد الّذي يعدّونه غرورا من الله و رسوله لهم بقرينة المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام على الدين كلّه و قد تكرّر في كلامه تعالى كما ورد أنّ المنافقين قالوا : يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء .

قوله تعالى : « و إذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثمّ غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثمّ المدينة،

والمقام بضمّ الميم الإقامة و قولهم : لا مقام لكم فارجعوا أي لاوجه لإقامتكم ههنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثمّ أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله : قالت طائفة : « ويستأذن فريق منهم » أي من المنافقين والّذين في قلوبهم مرض « النبيّ » في الرجوع « يقولون » استئذانا « إنّ بيوتنا عورة » أي فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق و زحف العدوّ « و ما هي بعورة إن يريدون » أي ما يريدون بقولهم هذا « إلّا فرارا » .

قوله تعالى : « ولو دخلت عليهم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبّثوا بها إلّا يسيراً » ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب والضمير في « دخلت » للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم ، والأقطار جمع قطر و هو الجانب ، و المراد بالفتنة بقرينة المقام الردّة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها طلبها منهم ، والتلبّث التأخّر .

والمعنى و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثمّ طلبوا منهم أن يرتدّوا عن الدين لأعطوهم مسؤلهم و ما تأخروا بالردّة إلّا يسيراً من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أي إنّهم يقيمون على الدين مادام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدّة والبأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا .

قوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار و كان عهدالله مسؤلا » اللّام للقسم ، و قوله : « لا يولّون الأدبار » أي لا يفرّون عن القتال و هو بيان للعهد و لعلّ المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله ورسوله و ما جاء به رسوله و ممّا جاء به : الجهاد الّذي يحرم الفرار فيه و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل و إذا لا تمتّعون إلّا قليلا » إذ لا بدّ لكلّ نفس من الموت لأجل مقضيّ محتوم لا يتأخّر عنه ساعة ولا يتقدّم عليه فالفرار لا يؤثّر في تأخير الأجل شيأ .

و قوله : « و إذاً لا تمتّعون إلّا قليلا » أي و إن نفعكم الفرار فمتّعتم بتأخّر الأجل فرضا لا يكون ذلك التمتيع إلّا تمتيعا قليلا أو في زمان قليل لكونه مقطوع

الآخر لامحالة .

قوله تعالى : « قل من ذا الّذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءأو أرادبكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّا ولا نصيرا » كانت الآية السابقة تنبيهاً لهم على أنّ حياة الإنسان مقضيّ مؤجّل لا ينفع معه فرار من الزحف و في هذه الآية تنبيه على أنّ الشرّ و الخير تابعان لإرادة الله محضا لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب ولا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالىو القرار على أمره بالتوكّل عليه .

و لمّا كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبيّ ﷺ بتكليمهم إلى تكليم نفسه فقال : « ولا يجدون لهم من دون الله وليّا ولا نصيرا » .

قوله تعالى : « قد يعلم الله المعوّقين منكم - إلى قوله - يسيرا » التعويق التثبيط والصرف ، وهلمّ اسم فعل بمعنى أقبل ، ولا يثنّى ولا يجمع في لغة الحجاز ، والبأس الشدّة والحرب ، وأشحّة جمع شحيح بمعنى البخيل ، والّذي يغشى عليه هو الّذي أخذته الغشوة فغابت حواسّه وأخذت عيناه تدوران ، والسلق بالفتح فالسكون الضرب والطعن .

و معنى الآيتين أنّ الله ليعلم الّذين يثبّطون منكم الناس و يصرفونهم عن القتال وهم المنافقون و يعلم الّذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أوضعفة الإيمان تعالوا و أقبلوا ولا يحضرون الحرب إلّا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم .

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون إليك من الخوف نظراً لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشيّ عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم وطعنوكم بألسنة حداد قاطعة حالكونهم بخلاء على الخير الّذي نلتموه .

اُولئك لم يؤمنوا ولم يستقرّ الإيمان في قلوبهم و إن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم و أحبطها و كان ذلك على الله يسيرا .

قوله تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا» إلى آخر الآية أي يظنّون من شدّة الخوف أنّ الأحزاب - وهم جنود المشركين المتحزّبون على النبيّ ﷺ - لم

يذهبوا بعد « و إن يأت الأحزاب » مرّة ثانية بعد ذهابهم و تركهم المدينة « يودّوا » و يحبّوا « أنّهم بادون » أي خارجون من المدينة إلى البدو « في الأعراب يسألون عن أنبائكم » و أخباركم « و لو كانوا فيكم » ولم يخرجوا منها بادين « ما قاتلوا إلّا قليلا » أي ولا كثير فائدة في لزومهم إيّاكم و كونهم معكم فإنّهم لن يقاتلوا إلّا قليلا لا يعتدّ به .

قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله اُسوة حسنة لمن كان يرجوالله واليوم الآخرو ذكر الله كثيرا » الاُسوة القدوة وهي الاقتداء والاتّباع ، وقوله : « في رسول الله » أي في مورد رسول الله والاُسوة الّتي في مورده هي تأسّيهم به و اتّباعهم له والتعبير بقوله « لقد كان لكم » الدالّ على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفا ثابتا مستمرّا .

والمعنى و من حكم رسالة الرسول و إيمانكم به أن تتأسّوا به في قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله و حضوره في القتال و جهاده في الله حقّ جهاده .

و في الكشّاف : فإن قلت : فما حقيقة قوله : « لقدكان لكم في رسول الله اُسوة حسنة » ؟ و قريء اُسوة بالضمّ . قلت : فيه وجهان : أحدهما أنّه في نفسه اُسوة حسنة أي قدوة و هو الموتسى أي المقتدى به كما تقول : في البيضة عشرون منّا حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد . و الثاني أنّ فيه خصلة من حقّها أن يؤتسى بها و تتّبع وهي المواساة بنفسه انتهى و أوّل الوجهين قريب ممّا قدّمناه .

و قوله : « لمن كان يرجوالله واليوم الآخرو ذكر اللهكثيرا » بدل من ضمير الخطاب في « لكم » للدلالة على أنّ التأسّي برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خصلة جميلة زاكية لا يتّصف بها كلّ من تسمّى بالايمان ، و إنّما يتّصف بها جمع ممّن تلبّس بحقيقة الإيمان فكان يرجوالله واليوم الآخر أي تعلّق قلبه بالله فآمن به و تعلّق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلك ذكر الله كثيرا فكان لا يغفل عن ربّه فتأسّى بالنبيّ في أفعاله و أعماله .

و قيل : قوله : « لمن كان » الخ صلة لقوله : « حسنة » أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب و مآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد .

قوله تعالى : « و لمّا رآى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله » وصف لحال المؤمنين لمّا شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم و تبصّرهم في الايمان و تصديقهم لله ولرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين والّذين في قلوبهم مرض من الارتياب وسيّىء القول ، و بذلك يظهر أنّ المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله و رسوله .

و قوله : « قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله » الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجرّدا عن سائر الخصوصيّات كما في قوله : « فلمّا رآى الشمس بازغة قال هذا ربّي » الأنعام : ٧٨ .

والوعد الّذي أشاروا إليه قيل : هو ما كان رسول الله ﷺ قد وعدهم أنّ الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلمّا شاهدوهم تبيّن لهم أنّ ذلك هو الّذي وعدهم .

و قيل إنّهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى في سورة البقرة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مثل الّذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء و زلزلوا حتّى يقول الرسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب » البقرة : ٢١٤ فتحقّقوا أنّهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدّة والمحنة الّتي تزلزل القلوب و تدهش النفوس فلمّا رأوا الأحزاب أيقنوا أنّه من الوعد الموعود و أنّ الله سينصرهم على عدوّهم .

والحقّ هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إذ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله .

و قوله : « و صدق الله و رسوله » شهادة منهم على صدق الوعد . و قوله : « وما زادهم إلّا إيمانا و تسليما » أي إيماناً بالله ورسوله وتسليماً لأمر الله بنصرة دينه والجهاد في سبيله .

قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » قال الراغب : النحب النذر المحكوم بوجوبه يقال : قضى فلان نحبه أي وفى بنذره قال تعالى : «فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر»

و يعبّر بذلك عمّن مات كقولهم قضى أجله و استوفى اُكُله و قضى من الدنيا حاجته انتهى .

و قوله : « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » أي حقّقوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرّوا إذا لاقوا العدوّ ، و يشهد على أنّ المرادبالعهد ذلك أنّ في الآية محاذاة لقوله السابق في المنافقين و الضعفاء الإيمان : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار » كما أنّ في الآية السابقة محاذاة لماذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر الله .

و قوله : « فمنهم من قضى نحبه » الخ أي منهم من قضى أجله بموت أوقتل في سبيل الله و منهم من ينتظر ذلك و ما بدّلوا شيأ ممّا كانوا عليه من قول أوعهد تبديلا .

قوله تعالى : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم و يعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفورا رحيما » اللاّم للغاية و ما تتضمّنه الآية غاية لجميع من تقدّم ذكرهم من المنافقين والمؤمنين .

فقوله : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم » المراد بالصادقين المؤمنون وقد ذكر صدقهم قبل ، والباء في « بصدقهم » للسببيّة أي ليجزي المؤمنون الّذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم .

و قوله : « و يعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » أي و ليعذّب المنافقين إن شاء تعذيبهم و ذلك فيما لولم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إنّ الله كان غفورا رحيما .

و في الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هي أنّ المعاصي ربّما كانت مقدّمة للسعادة و المغفرة لا بما أنّها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة والشقوة إلى حيث تتوحّش النفس وتتنبّه فتتوب إلى ربّها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله عليها في الغاية .

قوله تعالى : « و ردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا و كفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّا عزيزا » الغيظ الغمّ والحنق والمراد بالخير ما كان يعدّه

الكفّار خيرا و هو الظفر بالنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والمؤمنين .

والمعنى وردّ الله الّذين كفروا مع غمّهم وحنقهم والحال أنّهم لم ينالوا ماكانوا يتمنّونه و كفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان الله قويّا على ما يريد عزيزا لا يغلب .

قوله تعالى : « و أنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ـ إلى قوله ـ قديرا » المظاهرة المعاونة ، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الّذي يمتنع به ولعلّ التعبير بالإنزال دون الإخراج لأنّ المتحصّنين يصعدون بروج الحصون ويشرفون منها و من أعالي الجدران على أعدائهم في خارجها و محاصريهم .

والمعنى « و أنزل الّذين ظاهروهم » أي عاونوا المشركين وهم بنو قريظة « من أهل الكتاب » وهم اليهود « من صياصيهم » وحصونهم « وقذف » وألقى « في قلوبهم الرعب » والخوف « فريقا تقتلون » وهم الرجال « وتأسرون فريقا » وهم الذراري والنساء « وأورثكم » أي و ملّككم بعدهم « أرضهم و ديارهم و أموالهم و أرضا لم تطؤها » وهي أرض خيبر أو الأرض الّتي أفاء الله ممّا لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، و أمّا تفسيرها بأنّها كلّ أرض ستفتح إلى يوم القيامة أو أرض مكّة أو أرض الروم وفارس فلا يلائمه سياق الآيتين « و كان الله على كلّ شيء قديرا » .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع ذكر محمّد بن كعب القرظيّ و غيره من أصحاب السير قالوا : كان من حديث الخندق أنّ نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق و حييّ بن أخطب في جماعة من بني النضير الّذين أجلاهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خرجوا حتّى قدموا على قريش بمكّة فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و قالوا : إنّا سنكون معكم عليهم حتّى نستأصلهم .

فقالت لهم قريش : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأوّل فديننا خير أم دين محمّد ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحقّ منه فهم الّذين أنزل الله فيهم « ألم تر

إلى الّذين اُوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلا ـ إلى قوله ـ و كفى بجهنّم سعيرا » فسرّ قريشا ما قالوا و نشطوا لما دعوهم إليه فأجمعوا لذلك و اتّعدوا له .

ثمّ خرج اُولئك النفر من اليهود حتّى جاؤا غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلّى الله عليه و آله و أخبروهم أنّهم سيكونون عليه و أنّ قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم .

فخرجت قريش و قائدهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان و قائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة والحارث بن عوف في بني مرّة و مسعر بن جبلة الأشجعيّ فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل طليحة فيمن اتّبعه من بني أسد و هما حليفان أسد و غطفان وكتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل أبو الأعور السلميّ فيمن اتّبعه من بني سليم مدداً لقريش .

فلمّا علم بذلك رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ضرب الخندق على المدينة و كان الّذي أشار إليه سلمان الفارسي و كان أوّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلّى الله عليه و آله و هو يومئذ حرّ قال : يا رسول الله إنّا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله و المسلمون حتّى أحكموه .

فممّا ظهر من دلائل النبوّة في حفر الخندق ما رواه أبوعبدالله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزنيّ قال حدّثني أبي عن أبيه قال : خطّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعا بين عشرة فاختلف المهاجرون و الأنصار في سلمان الفارسيّ و كان رجلا قويّا فقال الأنصار : سلمان منّا وقال المهاجرون : سلمان منّا فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله : سلمان منّا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف : فكنت أنا و سلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرّن و ستّة من الأنصار نقطع أربعين ذراعا ، فحفرنا حتّى إذا بلغنا الثرى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدوّرة فكسرت حديدنا و شقّت علينا فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فأخبره عن الصخرة فإمّا أن نعدل عنها فإنّ المعدل قريب و

إمّا أن يأمرنا فيه بأمره فإنّا لا نحبّ أن نجاوز خطّه فرقى سلمان حتّى أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله و هو مضروب عليه قبّة فقال : يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدوّرة فكسرت حديدنا و شقّت علينا حتّى ما يحكّ فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق و أخذ المعول و ضرب بها ضربة فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها يعني لابتي المدينة حتّى لكأنّ مصباحا في جوف ليل مظلم فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح فكبّر المسلمون ثمّ ضرب ضربة اُخرى فلمعت برقة اُخرى ثمّ ضرب به الثالثة فلمعت برقة اُخرى .

فقال سلمان : بأبي أنت و اُمّي يا رسول الله ما هذا الّذي أرى ؟ فقال : أمّا الاُولى فإنّ الله عزّ وجلّ فتح عليّ بها اليمن و أمّا الثانية فإنّ الله فتح عليّ بها الشام و المغرب و أمّا الثالثة فإنّ الله فتح عليّ بها المشرق فاستبشر المسلمون بذلك و قالوا : الحمد لله موعد صادق .

قال : و طلعت الأحزاب فقال المؤمنون : هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله ، و قال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يحدّثكم و يعدكم الباطل و يخبركم أنّه يبصر في يثرب قصور الحيرة و مدائن كسرى و أنّها تفتح لكم و أنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا[١] .

و ممّا ظهر فيه أيضا من آيات النبوّة ما رواه أبو عبدالله الحافظ بالإسناد عن عبدالواحد بن أيمن المخزوميّ قال حدّثني أيمن المخزوميّ قال : سمعت جابر بن عبدالله قال : كنّا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية و هي الجبل فقلنا : يا رسول الله إنّ كدية عرضت فيه . فقال رسول الله ﷺ رشّوا عليها ماء ثمّ قام و أتاها و بطنه معصوب الحجر[٢] من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمّى ثلاثا ثمّ ضرب فعادت كثيبا[٣] أهيل فقلت له : ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة هل عندك من شيء ؟

---

(١) اى تقضوا حاجتكم بالتخلى .

(٢) الحجر حضن الانسان و هو ما دون الابط الى الكشح .

(٣) اى تلا من الرمل .

فقالت : عندي صاع من شعير وعناق[١] فطحنت الشعير فعجنته وذبحت العناق وسلختها و خلّيت بين المرأة و بين ذلك .

ثمّ أتيت رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة ثمّ قلت : ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنّ عندنا طعيما لنا فقم يارسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال : وكم هو ؟ فقلت : صاع من شعير و عناق فقال للمسلمين جميعا : قوموا إلى جابر فقاموا فلقيت من الحياء مالا يعلمه إلاّ الله فقلت : جاء بالخلق إلى صاع شعير و عناق .

فدخلت على المرأة و قلت : قد افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ قلت : نعم . فقالت : الله و رسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عنّي غمّا شديدا .

فدخل رسول الله ﷺ فقال : خذي ودعيني من اللّحم فجعل رسول الله ﷺ يثرد و يفرّق اللّحم ثمّ يحمّ هذا و يحمّ هذا فما زال يقرّب إلى الناس حتّى شبعوا أجمعين ويعود التنّور والقدر أملأ ما كانا .

ثمّ قال رسول الله ﷺ : كلي و اهدي فلم نزل نأكل و نهدي قومنا أجمع أورده البخاريّ في الصحيح .

قالوا : ولمّا فرغ رسول الله من الخندق أقبلت قريش حتّى نزلت بين الجرف[٢] والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم و من تابعهم من بني كنانة و أهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتّى نزلوا إلى جانب اُحد ، وخرج رسول الله ﷺ و المسلمون حتّى جعلوا ظهورهم إلى سلع[٣] في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره والخندق بينه و بين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام[٤] .

---

(١) الانثى من اولاد المعز .
(٢) مكان خارج المدينة .
(٣) جبل بالمدينة .
(٤) حصون لاهل المدينة .

و خرج عدوّ الله حييّ بن أخطب النضيري حتّى أتى كعب بن أسد القرظيّ صاحب بني قريظة و كان قد وادع رسول الله صلّى الله عليه و آله على قومه و عاهده على ذلك فلمّا سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال : ويحك يا حييّ إنّك رجل مشؤم ، إنّي قد عاهدت محمّدا و لست بناقض ما بيني و بينه ، ولم أرمنه إلّا وفاء و صدقا . قال : ويحك افتح لي حتّى اُكلّمك . قال : ما أنا بفاعل . قال : إن أغلقت دوني إلّا على جشيشة تكره أن آكل منها معك .

فأحفظ[١] الرجل ففتح له فقال : ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر و ببحر طامّ[٢] جئتك بقريش على قادتها و سادتها و بغطفان على سادتها و قادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتّى يستأصلوا محمّدا و من معه . فقال كعب : جئتني والله بذلّ الدهر بجهام[٣] قد اهراق ماءه يرعد و يبرق و ليس فيه شيء فدعني و محمّدا وما أنا عليه فلم أر من محمّد إلّا صدقا و وفاء .

فلم يزل حييّ بكعب يفتل منه في الذروة[٤] والغارب حتّى سمح له على أن أعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّدا أن أدخل معك في حصنك حتّى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده و بريء ممّا كان عليه فيما بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه و آله .

فلمّا انتهى الخبر إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس أحد بني عبدالأشهل و هو يومئذ سيّد الأوس و سعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج و هو يومئذ سيّد الخزرج و معهما عبد الله بن رواحة و خوّات بن جبير فقال : انطلقوا حتّى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان

---

(١) احفظ الرجل أغضبه .

(٢) الطام البحر العظيم

(٣) السحاب الذى لا ماء فيه .

(٤) الذروة والغارب أعلى الشيء و اصله مثل ماخوذ من فتل ذروة البعير المصعب و غاربه لوضع الخطام فى انفه .

حقّا فالحنوا لنا لحنا نعرفه ولا تفتّوا أعضاد الناس و إن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس .

و خرجوا حتّى أتوهم فوجدوهم على أخبث ممّا بلغهم عنهم . قالوا : لا عقد بيننا و بين محمّد ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة و شاتموه وقال سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فإنّ ما بيننا و بينهم أعظم من المشاتمة .

ثمّ أقبلوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقالوا : عضل والقارة ـ لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله خبيب بن عديّ وأصحابه أصحاب الرجيع ـ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف وأتاهم عدوّهم من فوقهم و من أسفل منهم حتّى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ و ظهر النفاق من بعض المنافقين .

فأقام رسول الله صلّى الله عليه وآله و أقام المشركون عليه بضعا و عشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلّا الرمي بالنبال إلّا أنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدودّ أخو بني عامر بن لويّ و عكرمة بن أبي جهل و ضرار بن الخطّاب و هبيرة بن أبي وهب و نوفل بن عبدالله قد تلبّسوا للقتال و خرجوا على خيولهم حتّى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيّؤا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ؟

ثمّ أقبلوا تعنق(١) بهم خيولهم حتّى وقفوا على الخندق فقالوا : والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثمّ تيمّموا مكانا ضيّقا من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق و سلع و خرج عليّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتّى أخذ عليهم الثغرة الّتي منها اقتحموا و أقبلت الفرسان نحوهم .

و كان عمرو بن عبدودّ فارس قريش و كان قد قاتل يوم بدر حتّى ارتثّ وأثبته الجراح ولم يشهد أُحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده ، و كان يعدّ بألف فارس و كان يسمّى فارس يليل لأنّه أقبل في ركب من قريش حتّى إذا كانوا بيليل و هو واد قريب من بدر عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه : امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتّى منعهم أن يصلوا إليه فعرف بذلك .

(١) أعنق به فرسه سار به سيرا واسعا فسيحا مسيطرا ممتدا .

و كان اسم الموضع الّذي حفر فيه الخندق المُذاد و كان أوّل من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك :

عمرو بن عبد كان أوّل فارس جزع المذاع وكان فارس يليل

و ذكر ابن إسحاق أنّ عمرو بن عبدودّ كان ينادي من يبارز ؟ فقام عليّ و هو مقنّع في الحديد فقال : أناله يانبيّ الله فقال إنّه عمرو اجلس . ونادى عمرو : ألارجل؟ و هو يؤنّبهم و يقول : أين جنّتكم الّتي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها ؟ فقام عليّ فقال : أنا له يا رسول الله . ثمّ نادى الثالثة فقال :

و لقد بححت عن النداء بجمعكم هل من مبارز
و وقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز
إنّ السماحة و الشجاعة في الفتى خير الغرائز

فقام عليّ فقال : يارسول الله أناله فقال : إنّه عمرو فقال و إن كان عمرا فاستأذن رسول الله فأذن له رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

قال ابن إسحاق : فمشى إليه و هو يقول :

لا تعجلنّ فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّة و بصيرة والصدق منجي كلّ فائز
إنّي لأرجو أن اُقيم عليك ناحية الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا عليّ . قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا عليّ بن أبي طالب بن عبدالمطّلب بن هاشم بن عبد مناف . فقال غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك فإنّي أكره أن اُهريق دمك . فقال عليّ : لكنّي والله ما أكره أن اُهريق دمك فغضب و نزل و سلّ سيفه كأنّه شعلة نار ثمّ أقبل نحو عليّ مغضبا فاستقبله عليّ بدرقته[1] فضربه عمرو بالدرقة فقدّها و أثبت فيها السيف و أصاب رأسه فشجّه و ضربه عليّ على حبل العاتق فسقط .

---

(١) الدرقة الجنة .

و في رواية حذيفة : و تسيّف عليّ رجليه بالسيف من أسفل فوقع على قفاه و ثارت بينهما عجاجة فسمع عليّ يكبّر فقال رسول الله ﷺ : قتله والّذي نفسي بيده فكان أوّل من ابتدر العجاج عمر بن الخطّاب و قال : يا رسول‌الله قتله فجزّ عليّ رأسه و أقبل نحو رسول الله ﷺ و وجهه يتهلّل .

قال حذيفة : فقال النبيّ ﷺ : أبشر يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل اُمّة محمّد لرجح عملك بعملهم و ذلك أنّه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلّا وقد دخله وهن بقتل عمرو ، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو .

و عن الحاكم أبي القاسم أيضا بالإسناد عن سفيان الثوريّ عن زبيد الثاني عن مرّة عن عبدالله بن مسعود قال : كان يقرء « و كفى الله المؤمنين القتال بعليّ » .

و خرج أصحابه منهزمين حتّى طفرت خيولهم الخندق وتبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبدالعزّى جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم : قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم اُقاتله فقتله الزبير بن العوّام وذكر ابن إسحاق : أنّ عليّا طعنه في ترقوته حتّى أخرجها من مراقه فمات في الخندق .

و بعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبيّ هو لكم لا نأكل ثمن الموتى ، و ذكر عليّ أبياتا منها :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	و نصرت ربّ محمّد بصواب
فضربته و تركته متجدّلا	كالجذع بين دكادك و رواب
و عففت عن أثوابه و لوأنّني	كنت المقطّر بزّني أثوابي

قال ابن إسحاق : و رمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم و قال : خذها و أنا ابن العرفة فقطع أكحله فقال سعد : عرف الله وجهك في النار اللّهمّ إن كنت أبقيت من حرب قريش شيأ فأبقني لها فإنّه لاقوم أحبّ إليّ أن اُجاهد من قوم آذوا رسولك و كذّبوه و أخرجوه ، و إن كنت وضعت الحرب بيننا و بينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتّى تقرّ عيني من بني قريظة .

قال : وجاء نعيم بن مسعود الأشجعيّ إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله

إني قدأسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة .

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة فقال لهم إني لكم صديق والله ماأنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة إن البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها وإنما جاؤا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به فلاتقاتلوا حتى تأخذوا رهنامن أشرافهم تستوثقون به أن لايبرجوا حتى يناجزوا محمدا . فقالوا له : قدأشرت برأى .

ثم ذهب فأتى أباسفيان وأشراف قريش فقال : يامعشر قريش إنكم قدعرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا ودينه وإني قدجئتكم بنصيحة فاكتموا علي . فقالوا : نفعل ماأنت عندنا بمتهم . قال : تعلمون أن بني قريظة قدندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد فبعثوا إليه أنه لايرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك . فقال : بلى فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلا واحدا واحذروا .

ثم جاء غطفان وقال : يا معشر غطفان إني رجل منكم ، ثم قال لهم ما قال لقريش .

فلما أصبح أبوسفيان وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث إليهم أبوسفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش أن أبا سفيان يقول لكم : يامعشر اليهود إن الكراع والخف قد هلكا وإنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه .

فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهويوم لانعمل فيه شيئاً ولسنامع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنامن رجالكم نستوثق بهم لاتذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدا .

فقال أبوسفيان : والله لقد حذرنا هذا نعيم فبعث إليهم أبوسفيان : إنا لانعطيكم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا ، فقالت اليهود : هذا

والله الّذي قال لنا نعيم . فبعثوا إليهم إنّا والله لانقاتل حتّى تعطونا رهنا ، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتّى انصرفوا راجعين .

قال محمّد بن كعب قال حذيفة بن اليمان : والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف مالا يعلمه إلّا الله وقام رسول الله ﷺ يصلّي ماشاءالله من الليل ثمّ قال : ألارجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنّة . قال حذيفة : فوالله ماقام منّا أحد ممّا بنامن الخوف والجهد والجوع ، فلمّا لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدّا من إجابته . قلت : لبيّك قال : اذهب فجيء بخبر القوم ولا تحدثنّ شيئاً حتّى ترجع .

قال : وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ماتفعل ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئنّ لهم قدر فإنّي لكذلك إذخرج أبوسفيان من رحله ثمّ قال : يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه ؟ قال حذيفة : فبدأت بالّذي عن يميني فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلان .

ثمّ عاد أبوسفيان براحلته فقال : يامعشر قريش والله ماأنتم بدار مقام هلك الخفّ والحافر وأخلفتنا بنو قريظة وهذه الريح لايستمسك لنا معها شيء ثمّ عجّل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما ركبها .

قال : قلت في نفسي : لورميت عدوّ الله وقتلته كنت قد صنعت شيئاً فوترت قوسي ثمّ وضعت السهم في كبد القوس وأنا اُريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله ﷺ لاتحدثنّ شيئاً حتّى ترجع . قال فحططت القوس ثمّ رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلّي فلمّا سمع حسّي فرّج بين رجليه فدخلت تحته ، وأرسل عليّ طائفة من مرطه[1] فركع وسجد ثمّ قال : ما الخبر ؟ فأخبرته .

وعن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ حين أجلى عنه الأحزاب : الآن نغزوهم ولا يغزوننا فكان كما قال ، فلم يغزهم قريش بعد ذلك وكان هو يغزوهم حتّى

(١) كساء من صوف ونحوه يؤتزر به .

فتح الله عليهم مكّة .

أقول : هذا ماأورده الطبرسيّ في مجمع البيان من القصّة أوردناه ملخّصا وروى القميّ في تفسيره قريبا منه وأورده في الدرّ المنثور في روايات متفرّقة .

وفي المجمع أيضا روى الزهريّ عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لمّا انصرف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن الخندق ووضع عنه اللأمة واغتسل واستحمّ تبدّى له جبرائيل فقال : عذيرك من محارب ألا أراك أن قد وضعت عنك اللأمة وما وضعناها بعد .

فوثب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزعا فعزم على الناس أن لا يصلّوا صلاة العصر حتّى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتّى غربت الشمس واختصم الناس فقال بعضهم : إنّ رسول الله عزم علينا أن لا نصلّي حتّى نأتي قريظة فإنّما نحن في عزمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليس علينا إثم ، وصلّى طائفة من الناس احتسابا وتركت طائفة منهم الصلاة حتّى غربت الشمس فصلّوها حين جاؤا بني قريظة احتسابا فلم يعنف رسول الله صلى الله عليه وآله واحدا من الفريقين .

وذكر عروة أنّه بعث عليّ بن أبيطالب على المقدّم ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق حتّى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله على آثارهم فمرّ على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وآله فزعموا أنّه قال : مرّ بكم الفارس آنفا فقالوا : مرّ بنا دحية الكلبيّ على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ليس ذلك بدحية ولكنّه جبرائيل اُرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب .

قالوا : وسار عليّ حتّى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجع حتّى لقي رسول الله صلى الله عليه وآله بالطريق فقال : يارسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال : أظنّك سمعت لي منهم أذى ؟ فقال : نعم يارسول الله فقال : لوقد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً ، فلمّا دنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حصونهم قال : يا إخوة القردة والخنازير ! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ فقالوا : ياأبا القاسم ماكنت جهولا .

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتّى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان حييّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان فلمّا أيقنوا أنّ رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتّى يناجزهم قال كعب بن أسد : يامعشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون وإنّي عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيّها شئتم . قالوا : ماهنّ ؟

قال : نبايع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تبيّن لكم أنّه نبيّ مرسل وأنّه الّذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم . قالوا : لانفارق حكم التوراة أبدا ، ولانستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم على هذا فهلمّوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثمّ نخرج إلى محمّد رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمّنا حتّى يحكم الله بيننا وبين محمّد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا يهمّنا وإن نظهر لنجدنّ النساء والأبناء . فقالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير في العيش بعدهم .

قال : فإن أبيتم على هذه فإنّ الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمّد وأصحابه قدأمنوا فيها فانزلوا فعلّنا نصيب منهم غرّة . فقالوا: نفسد سبتنا ؟ ونحدث فيها ماأحدث من كان قبلنا فأصابهم ماقد علمت من المسخ ؟ فقال : مابات رجل منكم منذ ولدته أُمّه ليلة واحدة من الدهر حازما .

قال الزهريّ : وقال رسول الله ﷺ حين سألوه أن يحكّم فيهم رجلا : اختاروا من شئتم من أصحابي ، فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك رسول الله ﷺ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله بسلاحهم فجعل في قبّته وأمر بهم فكتّفوا واُوثقوا وجعلوا في دار اُسامة وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجيىء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم وتغنم أموالهم وأنّ عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار: إنّكم ذوعقار وليس للمهاجرين عقار ، فكبّر رسول الله ﷺ وقال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله عزّ وجلّ وفي بعض الروايات : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ـ وأرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا .

فقتل رسول الله مقاتليهم ، وكانوا فيما زعموا ستّمائة مقاتل وقيل : قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلا وسبى سبعمائة وخمسين ، وروي أنّهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ارسالا : ياكعب ماترى يصنع بنا ؟فقال كعب : أفي كلّ موطن تقولون ؟ ألا ترون أنّ الداعي لا ينزع ومن يذهب منكم لايرجع هو والله القتل .

وا ُتي بحيي بن أخطب عدوّ الله عليه حلّة فاختيّة قدشقّها عليه من كلّ ناحية كموضع الأنملة لئلاّ يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلمّا بصر برسول الله صلى الله عليه وآله فقال : أما والله مالمت نفسي على عداوتك ولكنّه من يخذل الله يخذل ثمّ قال : ياأيّها النّاس إنّه لابأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملحمة كتبت على بني إسرائيل ثمّ جلس فضرب عنقه .

ثمّ قسم رسول الله صلى الله عليه وآله نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين و بعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بهم خيلا وسلاحا قالوا : فلمّا انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجّعه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيمته الّتي ضربت عليه في المسجد .

وروي عن جابر بن عبدالله قال : جاء جبرائيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال :من هذا العبد الصالح الّذي مات فتحت له أبواب السماء و تحرّك له العرش فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا سعد بن معاذ قد قبض .

أقول : وروى القصّة القميّ في تفسيره مفصّلة و فيه : فا ُخرج كعب بن ا ُسيد مجموعة يداه إلى عنقه فلمّا نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : يا كعب أما نفعك وصيّة ابن الحواس الحبر الذكيّ الّذي قدم عليكم من الشام فقال : تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور لنبيّ يبعث مخرجه بمكّة ومهاجرته في هذه البحيرة يجتزي بالكسيرات والتميرات ، ويركب الحمار العريّ ، في عينيه حمرة ، وبين كتفيه خاتم النبوّة يضع سيفه على عاتقه ، لايبالي من لاقى منكم ، يبلغ سلطانه منقطع الخفّ والحافر فقال قدكان ذلك يامحمّد ولولا أنّ اليهود يعيّروني أنّي جزعت عند القتل لآمنت

بك وصدّقتك ولكنّي على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قدّموه واضربوا عنقه فضربت .

وفيه أيضا فقتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في البردين بالغداة و العشيّ في ثلاثة أيّام وكان يقول : اسقوهم العذب وأطعموهم الطيّب وأحسنوا أُساراهم حتّى قتلهم كلّهم فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم : « وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ـ إلى قوله ـ وكان الله على كلّ شيء قديرا » .

وفي المجمع : روى أبو القاسم الحسكانيّ عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن عليّ عليه السلام قال : فينا نزلت « رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه » فأنا والله المنتظر ما بدّلت تبديلا .



☆ ☆ ☆

يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيٰا وَزِينَتَهٰا فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَالدّٰارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يٰا نِسٰاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ وَكٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صٰالِحاً نُؤْتِهٰا أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنٰا لَهٰا رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يٰا نِسٰاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسٰاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلٰا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلٰا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجٰاهِلِيَّةِ الْأُولىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلٰوةَ وَآتِينَ الزَّكٰوةَ وَأَطِعْنَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ مٰا يُتْلىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيٰاتِ اللّٰهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمٰاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنٰاتِ وَالْقٰانِتِينَ وَالْقٰانِتٰاتِ وَالصّٰادِقِينَ وَالصّٰادِقٰاتِ وَالصّٰابِرِينَ وَالصّٰابِرٰاتِ وَالْخٰاشِعِينَ وَالْخٰاشِعٰاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقٰاتِ وَالصّٰائِمِينَ وَالصّٰائِمٰاتِ وَالْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحٰافِظٰاتِ وَالذّٰاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً وَالذّٰاكِرٰاتِ أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) .

﴿ بيان ﴾

آيات راجعة إلى أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم تأمره أولاً أن ينبئهن أن ليس لهن من الدنيا و زينتها إلّا العفاف و الكفاف إن اخترن زوجيّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ تخاطبهنّ ثانيا أنهنّ واقفات في موقف صعب على ما فيه من العلوّ والشرف فإن اتّقين الله يؤتين أجرهنّ مرّتين و إن أتين بفاحشة مبيّنة يضاعف لهن العذاب ضعفين ويأمرهنّ بالعفّة و لزوم بيوتهنّ من غير تبرّج والصلاة والزّكاة و ذكر ما يتلى في بيوتهنّ من الآيات والحكمة ثمّ يعد مطلق الصالحين من الرجال و النساء وعداً بالمغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ قل لأزواجك » إلى تمام الآيتين سياق الآيتين يلوّح أنّ أزواج النبيّ أو بعضهنّ كانت لا ترتضي ما في عيشتهنّ في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الضيق والضنك فاشتكت إليه ذلك و اقترحت عليه أن يسعدهنّ في الحياة بالتوسعة فيها و إيتائهنّ من زينتها .

فأمر الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخيّرهنّ بين أن يفارقنه و لهنّ ما يردن و بين أن يبقين عنده و لهنّ ما هنّ عليه من الوضع الموجود .

وقد ردّد أمرهنّ بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها و بين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة ، و هذا الترديد يدلّ أوّلاً أنّ الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتّع من الحياة و زينتها و زوجيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والعيشة في بيته ممّا لا يجتمعان .

و ثانيا أنّ كلّاً من طرفي الترديد مقيّد بما يقابل الآخر والمراد بإرادة الحياة الدنيا و زينتها جعلها هي الأصل سواء اُريدت الآخرة أولم يرد ، والمراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها هي الأصل في تعلّق القلب بها سواء توسّعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة و صفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك .

ثمّ الجزاء أعني نتيجة اختيارهنّ كلّاً من طرفي الترديد مختلف فلهنّ على تقدير اختيارهنّ الحياة الدنيا و زينتها بمفارقة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يطلّقهنّ ويمتّعهنّ

جمعاء من مال الدنيا ، و على تقدير بقائهن على زوجية النبي صلى الله عليه وآله وسلم و اختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقا بل بشرط الإحسان والعمل الصالح .

و يتبين بذلك أن ليس لزوجية النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حيث هي زوجية كرامة عند الله سبحانه و إنما الكرامة لزوجيته المقارنة للإحسان والتقوى و لذلك لما ذكر ثانيا علو منزلتهن قيده أيضا بالتقوى فقال : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » و هذا كقوله في النبي وأصحابه : « محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا ـ إلى أن قال ـ وعد الله الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات أجرا عظيما » حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولا ثم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح .

و بالجملة فإطلاق قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات ١٠ على حاله غير منتقض بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك .

فقوله : « يا أيها النبي قل لأزواجك » أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ الآيتين أزواجه ولازمه أن يطلقهن ويمتعهن إن اخترن الشق الأول ويبقيهن على زوجيته إن اخترن الله و رسوله والدار الآخرة .

و قوله : « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » إرادة الحياة الدنيا و زينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها و تعلق القلب بتمتعاتها و الإقبال عليها والإعراض عن الآخرة .

و قوله : « فتعالين أمتعكن و أسرحكن سراحا جميلا » قال في الكشاف : أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت في استعماله الأمكنة ، و معنى تعالين أقبلن بإرادتكن و اختيار كن لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول : أقبل يخاصمني و ذهب يكلمني و قام يهددني انتهى .

والتمتيع إعطاؤهن عند التطليق مالاً يتمتعن به والتسريح هو التطليق والسراح

الجميل هو الطلاق من غير خصومة و مشاجرة بين الزوجين .

و في الآية أبحاث فقهيّة أوردها المفسّرون والحقّ أنّ ما تتضمّنه من الأحكام الشخصيّة خاصّة بالنبيّ صلى الله عليه وآله ولا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول في الفقه .

و قوله : « و إن كنتنّ تردن الله ورسوله و الدار الآخرة » قد تقدّم أنّ المقابلة بن هذه الجملة و بين قوله « إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا و زينتها » الخ تقيّد كلاّ منهما بخلاف الاُخرى و عدمها فمعنى الجملة و إن كنتنّ تردن و تخترن طاعة الله و رسوله و سعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينة الحياة الدنيا وهي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والصبر على ضيق العيش و إلّا لم يصحّ اشتراط الإحسان في الأجر الموعود و هو ظاهر .

فالمعنى و إن كنتنّ تردن و تخترن البقاء على زوجيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والصبر على ضيق العيش فإنّ الله هيّأ لكُنّ أجراً عظيماً بشرط أن تكنّ محسنات في أعمالكنّ مضافاً إلى إرادتكنّ الله ورسوله والدار الآخرة فإن لم تكنّ محسنات لم يكن لكنّ إلّا خسران الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى : «يا نساء النبيّ من يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين » الخ عدل عن مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيهنّ إلى مخاطبتهنّ أنفسهنّ لتسجيل مالهنّ من التكليف و زيادة التوكيد ، والآية والّتي بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله : « فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً » إثباتاً و نفياً .

فقوله : « من يأت منكنّ بفاحشة مبيّنة » الفاحشة الفعلة البالغة في الشناعة و القبح و هي الكبيرة كإيذاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والافتراء والغيبة و غير ذلك والمبيّنة هي الظاهرة .

و قوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » أي حال كونه ضعفين والضعفان المثلان و يؤيّد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد : « نؤتها أجرها مرّتين » فلا يعبأ بما قيل إنّ المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أنّ مضاعفة العذاب

زيادته و إذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله .

و ختم الآية بقوله : « و كان ذلك على الله يسيرا » للإشارة إلى أنّه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجيّة و نحوها إذ لا كرامة إلّا للتقوى و زوجيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّما تؤثّر الأثر الجميل إذا قارن التقوى وأمّا مع المعصية فلا تزيد إلّا بعداً ووبالا .

قوله تعالى : « و من يقنت منكنّ لله و رسوله و يعمل صالحا نؤتها أجرها مرّتين » الخ القنوت الخضوع وقيل : الطاعة وقيل : لزوم الطاعة مع الخضوع ، والإعتاد التهيئة ، و الرزق الكريم مصداقه الجنّة .

و المعنى و من يخضع منكنّ لله و رسوله أو لزم طاعة الله و رسوله مع الخضوع ويعمل عملاصالحا نعطها أجرها مرّتين أي ضعفين وهيّأنا لها رزقا كريما وهي الجنّة.

و الالتفات من الغيبة إلى التكلّم بالغير في قوله : « نؤتها » و «أعتدنا » للإيذان بالقرب والكرامة ، خلاف البعد و الخزي المفهوم من قوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » .

قوله تعالى : « يا نساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء إن اتّقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذي في قلبه مرض » الخ الآية تنفي مساواتهنّ لسائر النساء إن اتّقين و ترفع منزلتهنّ على غيرهنّ ثمّ تذكر أشياء من النهي والأمر متفرّعة على كونهنّ لسن كسائر النساء كما يدلّ عليه قوله : فلا تخضعن بالقول و قرن ولا تبرّجن الخ و هي خصال مشتركة بين نساء النبيّ صلّى الله عليه وآله و سائر النساء .

فتصدير الكلام بقوله : « لستنّ كأحد من النساء إن اتّقيتنّ » ثمّ تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه ، يفيد تأكّد هذه التكاليف عليهنّ كأنّه قيل : لستنّ كغيركنّ فيجب عليكنّ أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف و تحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء .

و تؤيّد بل تدلّ على تأكّد تكاليفهنّ مضاعفة جزائهنّ خيراً و شرّاً كما دلّت عليها الآية السابقة فإنّ مضاعفة الجزاء لا تنفكّ عن تأكّد التكليف .

و قوله : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذي في قلبه مرض » بعد ما بيّن علوّ

منزلتهنّ و رفعة قدرهنّ لمكانهنّ من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و شرط في ذلك التقوى فبيّن أنّ فضيلتهنّ بالتقوى لا بالاتّصال بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نهاهنّ عن الخضوع في القول و هو ترقيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة و تثير الشهوة فيطمع الّذي في قلبه مرض و هو فقدانه قوّة الإيمان الّتي تردعه عن الميل إلى الفحشاء .

و قوله : « و قلن قولا معروفا » أي كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع والعرف الإسلاميّ و هو القول الّذي لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرّى عن الإيماء إلى فساد و ريبة .

قوله تعالى : « وقرن في بيوتكنّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الاُولى ـ إلى قوله ـ و أطعن الله ورسوله » « قرن » من قرّ يقرّ إذا ثبت وأصله اقررن حذفت إحدى الرائين أو من قاريقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهنّ في بيوتهنّ و لزومهنّ لها ، و التبرّج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها . والجاهليّة الاُولى الجاهليّة قبل البعثة فالمراد الجاهليّة القديمة ، و قول بعضهم : إنّ المراد به زمان ما بين آدم و نوح عليهما السلام ثمان مائة سنة ، وقول آخرين إنّها ما بين إدريس و نوح ، وقول آخرين زمان داود وسليمان وقول آخرين أنّه زمان ولادة إبراهيم ، وقول آخرين إنّه زمان الفترة بين عيسى عليه السلام و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أقوال لا دليل يدلّ عليها .

و قوله : « وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله» أمر بامتثال الأوامر الدينيّة وقد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات و المعاملات ثمّ جمع الجميع في قوله : « و أطعن الله و ر سوله » .

و طاعة الله هي امتثال تكاليفه الشرعيّة وطاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

قوله تعالى : « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا » كلمة « إنّما » تدلّ على حصر الإرادة في إذهاب الرجس و التطهير و كلمة أهل البيت سواء كان لمجرّد الاختصاص أو مدحا أو نداء يدلّ على اختصاص إذهاب الرجس والتطهير بالمخاطبين بقوله : « عنكم » ففي الآية في الحقيقة قصران قصر الإرادة

في إذهاب الرجس والتطهير و قصر إذهاب الرجس والتطهير في أهل البيت .

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبيّ خاصّة لمكان الخطاب الّذي في قوله : « عنكم » و لم يقل : عنكنّ فإمّا أن يكون الخطاب لهنّ و لغيرهنّ كما قيل إنّ المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتّقون لقوله تعالى : « إن أولياؤه إلّا المتّقون » أو أهل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهم الّذين يصدق عليهم عرفا أهل بيته من أزواجه و أقربائه وهم آل عبّاس و آل عقيل وآل جعفر و آل عليّ أو النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و أزواجه ، ولعلّ هذا هو المراد ممّا نسب إلى عكرمة و عروة أنّها في أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة .

أو يكون الخطاب لغيرهنّ كما قيل : إنّهم أقرباء النبيّ من آل عبّاس و آل عقيل و آل جعفر و آل عليّ .

و على أيّ حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهير مجرّد التقوى الدينيّ بالاجتناب عن النواهي و امتثال الأوامر فيكون المعنى أنّ الله لاينتفع بتوجيه هذه التكاليف إليكم و إنّما يريد إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم على حدّ قوله : « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهّركم و يتمّ نعمته عليكم » المائدة : ٦ وهذا المعنى لايلائم شيأ من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البيّنة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامّة المسلمين المكلّفين بأحكام الدين .

وإن كان المراد بإذهاب الرجس والتطهير التقوى الشديد البالغ ويكون المعنى أنّ هذا التشديد في التكاليف المتوجّهة إليكنّ أزواج النبيّ وتضعيف الثواب والعقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس ويطهّركم ويكون من تعميم الخطاب لهنّ ولغيرهنّ بعد تخصيصه بهنّ فهذا المعنى لايلائم كون الخطاب خاصّا بغيرهنّ وهو ظاهر و لاعموم الخطاب لهنّ و لغيرهنّ فإنّ الغير لايشارك كهنّ في تشديد التكليف و تضعيف الثواب و العقاب .

لايقال : لم لايجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجّها إليهنّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله و تكليفه شديد كتكليفهنّ .

لأنّه يقال : إنّه صلى الله عليه وآله مؤيّد بعصمة من الله وهي موهبة إلهيّة غير مكتسبة بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف و تضعيف الجزاء بالنسبة إليه مقدّمة أو سببا لحصول التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآية ولذلك لم يصرّح بكون الخطاب متوجّها إليهنّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله فقط أحد من المفسّرين وإنّما احتملناه لتصحيح قول من قال : إنّ الآية خاصّة بأزواج النبيّ صلى الله عليه وآله .

وإن كان المراد إذهاب الرجس و التطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف ولا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس والتطهير لأهل البيت خاصّة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهنّ بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعيّة أو التكوينيّة .

وبهذا الّذي تقدّم يتأيّد ما ورد في أسباب النزول أنّ الآية نزلت في النبيّ صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسنين عليهم السلام خاصّة لا يشاركهم فيها غيرهم .

وهي روايات جمّة تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنّة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنّة بطرق كثيرة عن اُمّ سلمة وعائشة و أبي سعيد الخدريّ وسعد وواثلة بن الأسقع و أبي الحمرا ، و ابن عبّاس و ثوبان مولى النبيّ و عبدالله بن جعفر و عليّ و الحسن بن عليّ عليهما السلام في قريب من أربعين طريقا .

وروتها الشيعة عن عليّ والسجّاد و الباقر والصادق و الرضا عليهم السلام واُمّ سلمة و أبي ذرّ وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤليّ وعمرو بن ميمون الأودى وسعد بن أبي وقّاص في بضع وثلاثين طريقا .

فإن قيل : إنّ الروايات إنّما تدلّ على شمول الآية لعليّ وفاطمة والحسنين عليهم السلام و لا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبيّ صلى الله عليه وآله كما يفيده وقوع الآية في سياق خطابهنّ .

قلنا : إنّ كثيرا من هذه الروايات وخاصّة ما رويت عن اُمّ سلمة ـ و في بيتها نزلت الآية ـ تصرّح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبيّ وسيجيء الروايات و فيها الصحاح .

فإن قيل : هذا مدفوع بنصّ الكتاب على شمولها لهنّ كوقوع الآية في سياق خطابهنّ .

قلنا : إنّما الشأن كلّ الشأن في اتّصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصّة في نزول الآية وحدها ، ولم يرد حتّى في رواية واحدة نزول هذه الآية في ضمن آيات نساء النبيّ ولاذكره أحدحتّى القائل باختصاص الآية بأزواج النبيّ كماينسب إلى عكرمة وعروة فالآية لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبيّ ولا متّصلة بها و إنّما وضعت بينها إمّا بأمرمن النبيّ ﷺ أو عند التأليف بعد الرحلة ، ويؤيّده أنّ آية « و قرن في بيوتكنّ » على انسجامها و اتّصالها لوقدّر ارتفاع آية التطهير من بين جملها ، فموقع آية التطهير من آية «وقرن في بيوتكنّ » كموقع آية « اليوم يئس الّذين كفروا» من آية محرّمات الأكل من سورة المائدة وقد تقدّم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب .

وبالبناء على ما تقدّم تصير لفظة أهل البيت اسما خاصّا ـ في عرف القرآن ـ بهؤلاء الخمسة وهم النبيّ و عليّ و فاطمة و الحسنان عليهم الصلاة والسلام لا يطلق على غيرهم ، ولوكان من أقربائه الأقربين وإن صحّ بحسب العرف العامّ إطلاقه عليهم .

والرّجس بالكسر فالسكون صفة من الرجاسة وهي القذارة و القذارة هيئة في النفس توجب التجنّب و التنفّر منها ، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير قال تعالى : « أولحم خنزير فإنّه رجس» الأنعام : ١٤٥ وبحسب باطنه ـ وهوالرجاسة و القذارة المعنوية ـ كالشرك والكفروأثر العمل السيّىء قال تعالى :«وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » التوبة : ١٢٥ و قال : « و من يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقا حرجا كأنّما يصّعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الّذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ .

و أيّا ما كان فهو إدراك نفسانيّ و أثر شعوريّ من تعلّق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيّىء و إذهاب الرجس ـ و اللاّم فيه للجنس ـ إزالة كلّ هيئة خبيثة في النفس تخطىء حقّ الاعتقاد و العمل فتنطبق على العصمة الإلهيّة الّتي هي صورة

علميّة نفسانيّة تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد وسيىء العمل .

على أنّك عرفت أنّ إرادة التقوى أو التشديد في التكاليف لاتلائم اختصاص الخطاب في الآية بأهل البيت ، وعرفت أيضا أنّ إرادة ذلك لاتناسب مقام النبيّ صلى الله عليه وآله من العصمة .

فمن المتعيّن حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة ويكون المراد بالتطهير في قوله : « ويطهّركم تطهيرا » ـ وقد اُكّد بالمصدر ـ إزالة أثر الرجس بإيراد مايقابله بعد إذهاب أصله ومن المعلوم أنّ مايقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحقّ فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحقّ في الاعتقاد و العمل ، و يكون المراد بالإرادة أيضا غير الإرادة التشريعيّة لما عرفت أنّ الإرادة التشريعيّة الّتي هي توجيه التكاليف إلى المكلّف لاتلائم المقام أصلا .

والمعنى أنّ الله سبحانه تستمرّ إرادته أن يخصّكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل وأثر العمل السيّىء عنكم أهل البيت و إيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم وهي العصمة .

قوله تعالى : « واذكرن مايتلى في بيوتكنّ من آيات الله و الحكمة إنّ الله كان لطيفا خبيرا » ظاهر السياق أنّ المراد بالذكر مايقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد والتشديد الّذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصيّة بعد الوصيّة بامتثال ماوجّه إليهنّ من التكاليف ، وفي قوله : « في بيوتكنّ » تاكيد آخر .

والمعنى واحفظن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله و الحكمة وليكن منكنّ في بال حتّى لاتغفلن ولاتتخطّين مماخطّ لكم من المسير .

و أمّا قول بعضهم : إنّ المراد واشكرن الله إذ صيّركنّ في بيوت يتلى فيهنّ القرآن والسنّة فبعيد من السياق وخاصّة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية : « إنّ الله كان لطيفا خبيرا » .

قوله تعالى : « إنّ المسلمين والمسلمات و المؤمنين و المؤمنات » الخ الإسلام لايفرّق بين الرجال و النساء في التلبّس بكرامة الدين و قد أشار سبحانه إلى ذلك

إجمالا في مثل قوله : «ياأيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم » الحجرات :١٣، ثمّ صرّح به في مثل قوله : «أنّي لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر وأُنثى » آل عمران : ١٩٥ ثمّ صرّح به تفصيلا في هذه الآية .

فقوله : « إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » المقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغايرتهما نوعامن المغايرة والّذي يستفادمنه نحو مغايرتهما قوله تعالى: « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم - إلى أن قال - إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله و رسوله ثمّ لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله » الحجرات : ١٥ يفيد أوّلا أنّ الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل وظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبيّ . و ثانيا أنّ الإيمان الّذي هو أمر قلبيّ اعتقاد و إذعان باطنيّ بحيث يترتّب عليه العمل بالجوارح .

فالإسلام هو التسليم العمليّ للدين بإتيان عامّة التكاليف والمسلمون والمسلمات هم المسلّمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين ، بحيث يترتّب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون والمؤمنات هم الّذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتّب عليه العمل بالجوارح فكلّ مؤمن مسلم ولاعكس .

وقوله : « والقانتين و القانتات » القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع وقوله : « والصادقين و الصادقات » الصدق مطابقة مايخبر به الإنسان أويظهره ، للواقع. فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدهم .

و قوله : « و الصابرين و الصابرات » فهم متلبّسون بالصبر عند المصيبة و النائبة وبالصبر على الطاعة و بالصبر عن المعصية ، وقوله : « والخاشعين والخاشعات »الخشوع تذلّل باطنيّ بالقلب كما أنّ الخضوع تذلّل ظاهريّ بالجوارح .

و قوله : « و المتصدّقين و المتصدّقات » والصدقة إنفاق المال في سبيل الله و منه الزكاة الواجبة ، وقوله : «والصائمين والصائمات » بالصوم الواجب والمندوب ، وقوله : « والحافظين فروجهم و الحافظات» أي لفروجهنّ و ذلك بالتجنّب عن غيرما أحلّ الله

لهم ، وقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أي الله كثيرا حذف لظهوره وهم الّذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم وجنانهم ويشمل الصلاة والحجّ .

و قوله : « أعدّ الله لهم مغفرة و أجرا عظيما » التنكير للتعظيم .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « ياأيّها النبيّ قل لأزواجك » كان سبب نزولها أنّه لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه أعطنا ما أصبت فقال لهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عزّ وجلّ فغضبن من ذلك ، و قلن : لعلّك ترى أنّك إن طلّقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوّجونا ؟

فأنف الله عزّ وجلّ لرسوله فأمره أن يعزلهنّ فاعتزلهنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مشربة اُمّ إبراهيم تسعة و عشرين يوما حتّى حضن و طهرن ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وهي آية التخيير فقال : « يا أيّها النبيّ قل لأزواجك ـ إلى قوله ـ أجرا عظيما » فقامت اُمّ سلمة أوّل من قامت فقالت : قد اخترت الله و رسوله فقمن كلّهنّ فعانقنه و قلن مثل ذلك الحديث .

اقول : و روي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنّة و فيها أنّ أوّل من اختارت الله و رسوله منهنّ عائشة .

و في الكافي بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ زينب بنت جحش قالت : يرى رسول الله إن خلّى سبيلنا أن لا نجد زوجا غيره وقد كان اعتزل نساءه تسعة وعشرين ليلة فلمّا قالت زينب الّذي قالت بعث الله جبرئيل إلى محمّد صلّى الله عليه و آله فقال : « قل لأزواجك » الآيتين كلتيهما فقلن : بل نختار الله و رسوله و الدار الآخرة .

و فيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها بانت ؟ قال : لا . إنّما هذا شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة أُمر بذلك ففعل ، و لو اخترن أنفسهنّ لطلّقهنّ وهو قول الله عزّ وجلّ : «قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين اُمتّعكنّ واُسرّحكنّ سراحا جميلا » .

و في المجمع روى الواحديّ بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها : هل لك أن أجعل بيني و بينك رجلا ؟ قالت : نعم .

فأرسل إلى عمر فلمّا أن دخل عليهما قال لها : تكلّمي ، فقالت : يا رسول الله تكلّم و لا تقل إلاّ حقّاً فرفع عمر يده فوجأ وجهها ثمّ رفع يده فوجأ وجهها .

فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : كفّ فقال عمر : يا عدوّة الله النبيّ لا يقول إلاّ حقّا و الّذي بعثه بالحقّ لولا مجلسه ما رفعت يدي حتّى تموتي فقام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهرا لا يقرب شيأ من نسائه يتغدّى و يتعشّى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

و في الخصال عن الصادق عليه السلام قال : تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس عشرة امرأة و دخل بثلاث عشر امرأة منهنّ ، و قبض عن تسع فأمّا اللّتان لم يدخل بهما فعمرة و سنا . و أمّا الثلاث عشرة اللاتي دخل بهنّ فأوّلهنّ خديجة بنت خويلد ثمّ سودة بنت زمعة ثمّ اُمّ سلمة واسمها هند بنت أبي اُميّة ثمّ اُمّ عبدالله عائشة بنت أبي بكر ثمّ حفصة بنت عمر ثمّ زينب بنت خزيمة بن الحارث اُمّ المساكين ، ثمّ زينب بنت جحش ثمّ اُمّ حبيب رملة بنت أبي سفيان ثمّ ميمونة بنت الحارث ثمّ زينب بنت عميس ثمّ جويرية بنت الحارث ثمّ صفيّة بنت حييّ بن أخطب و الّتي وهبت نفسها للنبيّ خولة بنت حكيم السلميّ .

وكان له سرّيّتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطيّة و ريحانة الخندفيّة .

و التسع اللاّتي قبض عنهنّ عائشة و حفصة و اُمّ سلمة و زينب بنت جحش و ميمونة بنت الحارث و اُمّ حبيب بنت أبي سفيان وجويرية وسودة وصفيّة . وأفضلهنّ خديجة بنت خويلد ثمّ اُمّ سلمة ثمّ ميمونة .

و في المجمع في قوله : « يا نساء النبيّ من يأت منكنّ » الآيتين روى محمّد بن أبي عمير عن إبراهيم بن عبدالحميد عن عليّ بن عبدالله بن الحسين عن أبيه عن عليّ بن الحسين عليه السلام أنّه قال رجل : إنّكم أهل بيت مغفور لكم . قال : فغضب و قال : نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبيّ من أن نكون كما تقول إنّا نرى لمحسننا ضعفين من الأجرو لمسيئنا ضعفين من العذاب .

و في تفسير القمّي مسندا عن أبيعبدالله عن أبيه عليهما السلام في هذه الآية « ولاتبرّجن تبرّج الجاهليّة الاُولى » قال : أي ستكون جاهليّة اُخرى .

اقول : و هو استفادة لطيفة .

و في الدّر المنثور أخرج الطبرانيّ عن اُمّ سلمة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة : ائتيني بزوجك وابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم كساء فدكيّا ثمّ وضع يده عليهم ثمّ قال : اللّهمّ إنّ هؤلاء أهل محمّد ـ وفي لفظ آل محمّد ـ فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمّد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

قالت اُمّ سلمة : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي و قال : إنّك على خير .

أقول : و رواه في غاية المرام عن عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن اُم سلمة .

و فيه أخرج ابن مردويه عن اُمّ سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا » وفي البيت سبعة جبريل و ميكائيل و عليّ و فاطمة و الحسن والحسين و أنا على باب البيت . قلت : يارسول الله ألست من أهل البيت ؟ قال : إنّك على خير إنّك من أزواج النبيّ .

و فيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أُمّ سلمة زوج النبيّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببُرمة فيها خزيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ادعي زوجك و ابنيك حسنا و حسينا فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا » .

فأخذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بفضلة إزاره فغشاهم إيّاها ثمّ أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء ثمّ قال : اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي و خاصّتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ، قالها ثلاث مرّات .

قالت اُمّ سلمة : فأدخلت رأسي في الستر فقلت : يا رسول الله وأنا معكم ؟ فقال : إنّك إلى خير مرّتين .

أقول : و روى الحديث في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن اُمّ سلمة و كذا عن تفسير الثعلبيّ .

وفيه أخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخُدري قال : كان يوم اُمّ سلمة اُمّ المؤمنين فنزل جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الآية « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا » قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحسن و حسين و فاطمة وعليّ فضمّهم إليه و نشر عليهم الثوب ، و الحجاب على اُمّ سلمة مضروب ثمّ قال : اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً قالت اُمّ سلمة : فأنا معهم يا نبيّ الله ؟ قال : أنت على مكانك و إنّك على خير .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : نزلت هذه الآية في خمسة فيّ وفي عليّ وفاطمة وحسن و حسين « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا » .

أقول : و رواه أيضا في غاية المرام عن الثعلبيّ في تفسيره .

و فيه أخرج الترمذيّ و صحّحه و ابن جرير و ابن المنذر والحاكم و صحّحه

و ابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت : في بيتي نزلت : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا .

وفي غاية المرام عن الحميدي قال : الرابع والستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري و مسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت : خرج النبي صلى الله عليه و سلم ذات غداة و عليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال :إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا .

أقول : والحديث مروي عنها بطرق مختلفة .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما دخل علي بفاطمة جاء النبي صلى الله عليه و سلم أربعين صباحا إلى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت و رحمة الله و بركاته الصلاة رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : شهدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا » .

اقول : و رواه أيضا عن الطبراني عن أبي الحمراء و لفظه رايت رسول الله صلى الله عليه و سلم يأتي باب علي و فاطمة ستة أشهر فيقول : « إنما يريد الله » الآية ، و أيضا عن ابن جرير و ابن مردويه عن أبي الحمراء و لفظه حفظت من رسول الله صلى الله عليه و سلم ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى

إلى باب عليّ فوضع يده على جنبتي الباب ثمّ قال : الصلاة الصلاة إنّما يريد الله ليذهب » الآية .

و رواه أيضا عن ابن أبي شيبة و أحمد والترمذيّ و حسّنه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانيّ والحاكم و صحّحه و ابن مردويه عن أنس و لفظه أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر و يقول : الصلاة يا أهل البيت الصلاة إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا .

اقول : و الروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنّة كثيرة وكذا من طرق الشيعة و من أراد الاطّلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحرانيّ والعبقات .

و في غاية المرام عن الحموينيّ بإسناده عن يزيد بن حيّان قال : دخلنا على زيد بن أرقم فقال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ألا إنّي تركت فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عزّ و جلّ من اتّبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة ثمّ أهل بيتي اُذكّركم الله في أهل بيتي ثلاث مرّات .

قلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا أهل بيته عصبته الّذين حرموا الصدقة بعده آل عليّ و آل عبّاس و آل جعفر وآل عقيل .

و فيه أيضا عن مسلم في صحيحه بإسناده عن يزيد بن حيّان عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّي تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتّبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلالة فقلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال لا أيم الله إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر ثمّ الدهر ثم يطلّقها فترجع إلى أهلها و قومها . أهل بيته أصله وعصبته الّذين حرموا الصدقة بعده .

أقول : فسّر البيت بالنسب كما يطلق عرفا على هذا المعنى يقال : بيوتات العرب بمعنى الأنساب لكن الروايات السابقة عن اُمّ سلمة وغيرها تدفع هذا المعنى و تفسّر أهل البيت بعليّ و فاطمة و ابنيهما عليهم السلام .

و في المجمع قال مقاتل بن حيّان : لمّا رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع

زوجها جعفر بن أبي‌طالب دخلت على نساء رسول الله صلى الله عليه و آله فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن ؟ قلن : لا .

فأتت رسول الله صلى الله عليه و آله فقالت : يا رسول الله إنّ النساء لفي خيبة وخسار فقال صلّى الله عليه و آله : و ممّ ذلك ؟ قالت : لأنّهنّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه الآية « إنّ المسلمين و المسلمات » الخ .

أقول : و في روايات اُخر أنّ القائلة هي اُمّ سلمة .



✡ ✡ ✡

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ اِذَا قَضَى اللّهُ وَ رَسُولُهُ اَمْراً اَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ اَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً (٣٦) وَ اِذْ تَقُولُ لِلَّذِى اَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِ وَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِ اَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَاللّهُ اَحَقُّ اَنْ تَخْشٰيهُ فَلَمَّا قَضٰى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي اَزْوَاجِ اَدْعِيَائِهِمْ اِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كَانَ اَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللّهُ لَهُ سُنَّةَ اللّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ اَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ اَحَداً اِلَّا اللّهَ وَ كَفٰى بِاللّهِ حَسِيباً (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَا اَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠).

﴿بيان﴾

الآيات أعني قوله : « و إذ تقول للّذي أنعم الله عليه إلى قوله - و كان الله بكلّ شيء عليما » في قصّة تزوّج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بزوج مولاه زيد الّذي كان قد اتّخذه ابنا ،ولا يبعد أن تكون الآية الأُولى أعني قوله : « و ما كان لمؤمن ولامؤمنة » الآية مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها .

قوله تعالى : « و ما كان لمؤمن و لامؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمرا أن يكون

لهم الخيرة من أمرهم » الخ يشهد السياق على أنّ المراد بالقضاء هو القضاء التشريعيّ دون التكوينيّ فقضاء الله تعالى حكمه التشريعيّ في شيء ممّا يرجع إلى أعمال العباد أو تصرّفه في شأن من شؤنهم بواسطة رسول من رسله ، و قضاء رسوله هو الثاني من القسمين و هو التصرّف في شأن من شؤن الناس بالولاية الّتي جعلها الله تعالى له بمثل قوله : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

فقضاؤه صلى الله عليه وآله قضاء منه بولايته و قضاء من الله سبحانه لأنّه الجاعل لولايته المنفذ أمره ، ويشهد سياق قوله : « إذا قضى الله ورسوله أمرا » حيث جعل الأمر الواحد متعلّقا لقضاء الله ورسوله معا، على أنّ المراد بالقضاء التصرّف في شؤن الناس دون الجعل التشريعيّ المختصّ بالله .

و قوله : « و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة » أي ما صحّ ولا يحقّ لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاؤا و قوله : « إذا قضى الله و رسوله أمرا » ظرف لنفي الاختيار .

و ضميرا الجمع في قوله : « لهم الخيرة من أمرهم » للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيّز النفي ووضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل : « من أمرهم » ولم يقل : أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشأ توهّم الخيرة و هو انتساب الأمر إليهم .

و المعنى ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله و رسوله بالتصرّف في أمر من اُمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم وكونه أمرا من اُمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله و رسوله بل عليهم أن يتّبعوا إرادة الله و رسوله .

والآية عامّة لكنّها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله : « ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم » الآية حيث يلوح منه أنّ بعضهم كان قد اعترض على تزوّج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بزوج زيد و تعييره بأنّها كانت زوج ابنه المدعوّ له بالتبنّي و سيجيء في البحث الروائيّ بعض ما يتعلّق بالمقام .

قوله تعالى : « و إذ تقول للّذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك

و اتّق الله » إلى آخر الآية المراد بهذا الّذي أنعم الله عليه و أنعم النبيّ عليه زيدبن حارثة الّذي كان عبداً للنبيّ صلّى الله عليه و آله ثمّ حرّره و اتّخذه ابناله و كان تحته زينب بنت جحش بنت عمّة النبيّ صلّى الله عليه و آله أتى زيد النبيّ فاستشاره في طلاق زينب فنهاه النبيّ صلّى الله عليه و آله عن الطلاق ثمّ طلّقها زيد فتزوّجها النبيّ صلّى الله عليه و آله و نزلت الآيات .

فقوله : « أنعم الله عليه » أي بالهداية إلى الإيمان و تحبيبه إلى النبيّ صلّى الله عليه و آله و قوله : « و أنعمت عليه » أي بالإحسان إليه و تحريره و تخصيصه بنفسك ، و قوله : « أمسك عليك زوجك و اتّق الله » كناية عن الكفّ عن تطليقها ، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها .

و قوله : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه » أي مظهره « و تخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه » ذيل الآيات أعني قوله : « الّذين يبلّغون رسالات الله ولا يخشون أحداً إلّا الله » دليل على أنّ خشيته صلّى الله عليه و آله الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعاراً منه أنّه لو أظهره عابه الناس و طعن فيه بعض من في قلبه مرض فأثر ذلك أثرا سيّئاً في إيمان العامّة ، و هذا الخوف - كما ترى - ليس خوفا مذموما بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه .

فقوله : « و تخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه » الظاهر في نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله وهي خشيته عن طريق الناس و هداية إلى نوع آخر من خشيته تعالى و أنّه كان من الحريّ أن يخشى الله دون الناس ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه و هذا نعم الشاهد على أنّ الله كان قد فرض له أن يتزوّج زوج زيد الّذي كان تبنّاه ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوّج بأزواج الأدعياء وهو صلّى الله عليه و آله كان يخفيه في نفسه إلى حين مخافة سوء أثره في الناس فأمّنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدّم في قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس » الآية .

فظاهر العتاب الّذي يلوح من قوله : « و تخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه »

مسوق لانتصاره و تأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممّن في قلوبهم مرض نظير ما تقدّم في قوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا و تعلم الكاذبين » التوبة : ٤٣ .

و من الدليل على أنّه انتصار وتأييد في صورة العتاب قوله بعد : « فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها » حيث أخبر عن تزويجه إيّاها كأنّه أمر خارج عن إرادة النبيّ صلى الله عليه وآله و اختياره ثمّ قوله : « و كان أمر الله مفعولا » .

فقوله : « فلمّا قضى زيد منها وطرا زوّجناكها » متفرّع على ما تقدّم من قوله : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه » و قضاء الوطر منها كناية عن الدخول والتمتّع ، و قوله : « لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم لمّا قضوا منهنّ وطرا » تعليل للتزويج و مصلحة للحكم ، و قوله : « و كان أمر الله مفعولا » مشير إلى تحقّق الوقوع و تأكيد للحكم .

و من ذلك يظهر أنّ الّذي كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوّجها لاهواها وحبّه الشديد لها وهي بعد مزوّجة كما ذكره جمع من المفسّرين واعتذروا عنه بأنّها حالة جبلّيّة لا يكاد يسلم منها البشر فإنّ فيه أوّلا منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلٰهيّة و ثانيا أنّه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانه و إخفائه في نفسه فلا مجوّز في الإسلام لذكر حلائل الناس و التشبّب بهنّ .

قوله تعالى : « ما كان على النبيّ من حرج فيما فرض الله له » الخ الفرض هو التعيين و الإسهام يقال : فرض له كذا أي عيّنه له و أسهمه به و قيل : هو في المقام بمعنى الإباحة و التجويز ، والحرج الكلفة والضيق ، والمراد بنفي الحرج نفي سببه و هو المنع عمّا فرض له .

والمعنى ما كان على النبيّ من منع فيما عيّن الله له أو أباح الله له حتّى يكون عليه حرج في ذلك .

و قوله : « سنّة الله في الّذين خلوا من قبل » اسم موضوع موضع المصدر فيكون

مفعولا مطلقا والتقدير سنّ الله ذلك سنّة ، والمراد بالّذين خلوا من قبل هم الأنبياء و الرسل الماضون بقرينة قوله بعد : «الّذين يبلّغون رسالات الله » الخ .

و قوله : « و كان أمرالله قدراً مقدوراً » أي يقدّر من عنده لكلّ أحد ما يلائم حاله و يناسبها و الأنبياء لم يمنعوا ممّا قدّره الله و أباحه لغيرهم حتّى يمنع النبيّ صلّى الله عليه وآله و سلّم من بعض ما قدّر و اُبيح .

قوله تعالى : « الّذين يبلّغون رسالات الله و يخشونه ولا يخشون أحدا إلّا الله » الخ الموصول بيان للموصول المتقدّم أعني قوله : « الّذين خلوا من قبل » .

والخشية هي تأثّر خاصّ للقلب عن المكروه وربّما ينسب إلى السبب الّذي يتوقّع منه المكروه يقال : خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بي كذا ، والأنبياء يخشون الله ولا يخشون أحدا غيره لأنّه لا مؤثّر في الوجود عندهم إلّا الله .

و هذا غير الخوف الّذي هو توقّع المكروه بحيث يترتّب عليه الاتّقاء عملا سواء كان معه تأثّر قلبيّ أولا فإنّه أمر عمليّ ربّما ينسب إلى الأنبياء كقوله حكاية عن موسى عليه‌السلام : « ففررت منكم لمّا خفتكم » الشعراء : ٢١ وقوله في النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله : « و إمّا تخافنّ من قوم خيانة » الأنفال : ٥٨ وهذا هوالأصل في معنى الخوف والخشية وربما استعملا كالمترادفين .

و ممّا تقدّم يظهر أنّ الخشية منفيّة عن الأنبياء عليهم‌السلام مطلقا و إن كان سياق قوله : « يبلّغون رسالات الله ويخشونه » الخ يلوّح إلى أنّ المنفيّ هو الخشية في تبليغ الرسالة . على أنّ جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم .

و قوله : « و كفى بالله حسيبا » أي محاسبا يحاسب على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يخشى ولا يخشى غيره .

قوله تعالى : « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله و خاتم النبيّين»

الخ لا شكّ في أنّ الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه تزوّج زوج ابنه و محصّل الدفع أنّه ليس أبا زيد ولا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتّى يكون تزوّجه بزوج أحدهم بعده تزوّجا بزوج ابنه فالخطاب في قوله : « من رجالكم » للنّاس الموجودين في زمن نزول الآية ، و المراد بالرجال ما يقابل النّساء والولدان و نفي الاُبوّة نفي تكوينيّ لا تشريعيّ ولا تتضمّن الجملة شيأ من التشريع .

والمعنى ليس محمّد صلى الله عليه وآله أبا أحد من هؤلاء الرجال الّذين هم رجالكم حتّى يكون تزوّجه بزوج أحدهم بعده تزوّجا منه بزوج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوّجه بعد تطليقه ليس تزوّجا بزوج الابن حقيقة و أمّا تبنّيه زيدا فإنّه لا يترتّب عليه شيء من آثار الاُبوّة والبنوّة و ما جعل أدعياءكم أبناءكم .

و أمّا القاسم والطيّب والطاهر[1] و إبراهيم فإنّهم أبناؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتّى ينتقض الآية و كذا الحسن والحسين و هما ابنا رسول الله فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبض قبل أن يبلغا حدّ الرجال .

و ممّا تقدّم ظهر أنّ الآية لا تقتضي نفي اُبوّته صلى الله عليه وآله وسلم للقاسم والطيّب والطاهر و إبراهيم و كذا للحسنين لما عرفت أنّها خاصّة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجوليّة .

وقوله : «ولكن رسول الله وخاتم النبيّين » الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقلب به والمراد بكونه خاتم النبيّين أنّ النبوّة اختتمت به صلى الله عليه وآله فلا نبيّ بعده .

وقد عرفت فيما مرّ معنى الرسالة والنبوّة وأنّ الرسول هو الّذي يحمل رسالة من الله إلى الناس و النبيّ هو الّذي يحمل نبأ الغيب الّذي هو الدين وحقائقه ولازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوّة فإنّ الرسالة من أنباء الغيب فإذا انقطعت هذه

(١) هذا على ما هو المعروف و قال بعضهم : ان الطيب و الطاهر لقبان للقاسم .

الأنبياء انقطعت الرسالة .

و من هنا يظهر أنّ كونه صلّى الله عليه وآله خاتم النبيّين يستلزم كونه خاتما للرسل .

وفي الآية إيماء إلى أنّ ارتباطه صلى الله عليه وآله وتعلّقه بكم تعلّق الرسالة والنبوّة وأنّ ما فعله كان بأمر من الله سبحانه .

و قوله : « و كان الله بكلّ شيء عليما » أي ما بيّنه لكم إنّما كان بعلمه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدّة فأنزل الله « و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة » الآية كلّها .

أقول : و في معناها روايات اُخر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : نزلت في اُمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط و كانت أوّل امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فزوّجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالت إنّما أردنا رسول الله فزوّجنا عبده فنزلت .

أقول : والروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول .

و في العيون في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجيب فيه عن مسألة عليّ بن الجهم في عصمة الأنبياء :

قال : و أمّا محمّد صلى الله عليه وآله و قول الله عزّ وجلّ : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه و تخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه » فإنّ الله عزّ و جلّ عرّف نبيّه صلى الله عليه وآله أسماء أزواجه في دار الدنيا وأسماء أزواجه في الآخرة وأنّهنّ اُمّهات المؤمنين وأحد من سمّي له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة فأخفى صلى الله عليه وآله اسمها في نفسه ولم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين : إنّه قال في امرأة في بيت رجل : أنّها أحد أزواجه

من اُمّهات المؤمنين و خشي قول المنافقين .

قال الله عزّ وجلّ : « و تخشى النّاس و الله أحقّ أن تخشاه » يعنى في نفسك . الحديث .

أقول : وروى ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

و في المجمع في قوله تعالى : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه » قيل : إنّ الّذي أخفاه في نفسه هو أنّ الله سبحانه أعلمه أنّها ستكون من أزواجه و أنّ زيداً سيطلّقها فلمّا جاء زيد و قال له : اُريد أن اُطلّق زينب قال له : أمسك عليك زوجك فقال سبحانه : لم قلت : أمسك عليك زوجك و قد أعلمتك أنّها ستكون من أزواجك ؟ و روي ذلك عن عليّ بن الحسين عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد والبخاريّ والترمذيّ و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه و البيهقيّ في سننه عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : اتّق الله و أمسك عليك زوجك فنزلت : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه ».

قال أنس : فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كاتماً شيأ لكتم هذه الآية ، فتزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحديث .

أقول : و الروايات كثيرة في المقام و إن كان كثير منها لايخلو من شيء و في الروايات : ما أولم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبح شاة و أطعم الناس الخبز و اللحم ، و في الروايات أنّها كانت تفتخر على سائر نساء النبيّ بثلاث أنّ جدّها وجدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واحد فإنّها كانت بنت اُميمة بنت عبدالمطّلب عمّة النبيّ صلى الله عليه وآله و أنّ الّذي زوّجها منه هو الله سبحانه وأنّ السفير جبريل .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ولكن رسول الله وخاتم النبيّين» : وصحّ الحديث عن جابر بن عبدالله عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إنّما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها و حسّنها إلّا موضع لبنة فكان من دخلها و نظر إليها فقال: ما أحسنها إلّا

موضع هذه اللبنة . قال صلى الله عليه وآله : فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما .

أقول : وروى هذا المعنى غيرهما كالترمذي والنسائي و أحمد وابن مردويه عن غير جابر كأبي سعيد وأبي هريرة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي عبد الرحمان السلمي قال : كنت اُقرىء الحسن و الحسين فمر بي علي بن أبي طالب و أنا اُقرئهما فقال لي : أقرئهما وخاتم النبيين بفتح التاء .



✡ ✡ ✡

يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً (٤١) و سبحوه بكرة و اصيلا (٤٢) هو الذى يصلى عليكم و ملئكته ليخرجكم من الظلمات الى النور و كان بالمؤمنين رحيما (٤٣) تحيتهم يوم يلقونه سلام و اعد لهم اجراً كريماً (٤٤) يا ايها النبى انا جعلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً (٤٥) و داعياً الى الله باذنه و سراجاً منيراً (٤٦) و بشر المؤمنين بان لهم من الله فضلاً كبيراً (٤٧) ولا تطع الكافرين و المنافقين و دع اذيهم و توكل على الله وكفى بالله وكيلا (٤٨) .

﴿ بيان ﴾

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر و التسبيح و تبشّرهم و تعدهم الوعد الجميل و تخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله بصفاته الكريمة و تأمره أن يبشّر المؤمنين ولايطيع الكافرين و المنافقين ، و يمكن أن يكون القبيلان مختلفين في النزول زمانا .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » الذكر ما يقابل النسيان وهو توجيه الإدراك نحو المذكوروأمّا التلفّظ بمايدلّ عليه من أسمائهوصفاته فهو بعض مصاديق الذكر .

قوله تعالى : « وسبّحوه بكرة و أصيلا » التسبيح هو التنزيه وهو مثل الذكر لايتوقّف علي اللفظ وإن كان التلفّظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح .

و البكرة أوّل النهار و الأصيل آخره بعد العصر و تقييد التسبيح بالبكرة و الأصيل لما فيهما من تحولّ الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغيّر والتحوّل وكلّ نقص طار ، ويمكن أن يكون البكرة والأصيل معاً كناية عن الدوام كالليل والنهار في قوله : « يسبّحون له بالليل والنهار » حمٓ السجدة : ٣٨ .

قوله تعالى : «هو الّذي يصلّي عليكم و ملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه ولذلك قيل : إنّ الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار و من الناس الدعاء لكن الّذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصّة بالمؤمنين وهي الّتي تترتّب عليها سعادة العقبى و الفلاح المؤبّد ولذلك علّل تصليته عليهم بقوله : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور و كان بالمؤمنين رحيما » .

و قد رتّب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم وعلى ذكرهم له ذكره لهم فقال : « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ و قال : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ و تصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيرا وسبّحوه بكرة و أصيلا صلّى عليهم كثيرا و غشيهم بالنور و أبعدهم من الظلمات .

و من هنا يظهر أنّ قوله : « هو الّذي يصلّي عليكم » الخ في مقام التعليل لقوله: « يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » و تفيد التعليل أنّكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكركم برحمته كثيرا و بالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور ويستفاد منه أنّ الظلمات إنّما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر .

و قوله : « و كان بالمؤمنين رحيما » وضع الظاهر موضع المضمر ، أعني قوله : « بالمؤمنين » ولم يقل : و كان بكم رحيما ، ليدلّ به على سبب الرحمة و هو وصف الإيمان .

قوله تعالى : «تحيّتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجرا كريما » ظاهر السياق أنّ « تحيّتهم » مصدر مضاف إلى المفعول أي إنّهم يحيّون - بالبناء للمفعول - يوم

يلقون ربّهم من عند ربّهم و من ملائكته بالسلام أي إنّهم يوم اللقاء في أمن و سلام لايصيبهم مكروه ولايمسّهم عذاب.

وقوله : « وأعدّ لهم أجراً كريما » أي وهيّأ الله لهم ثوابا جزيلا .

قوله تعالى : «يا أيّها النبيّ إنّاجعلناكشاهدا ومبشّرا و نذيرا »شهادته صلى الله عليه وآله على الأعمال يتحمّلها فيهذه النشأة ويؤدّيها يوم القيامة ، وقدتقدّم فيقوله :«لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» البقرة : ١١٢ وغيره منآياتالشهادة أنّه صلى الله عليه وآله شهيد الشهداء .

و كونه مبشّرا و نذيرا تبشيره المؤمنين المطيعين لله و رسوله بثواب الله و الجنّة و إنذاره الكافرين والعاصين بعذاب الله والنار .

قوله تعالى : « وداعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا» دعوته إلى الله هيدعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده ولازمه الإيمان بدينالله وتقيّد الدعوة بإذنالله يجعلها مساوقة للبعثة .

وكونه صلى الله عليه وآله وسلم سراجا منيرا هوكونه بحيث يهتدي بهالناسإلى سعادتهم و ينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الاستعارة و قول بعضهم : إنّ المراد بالسراج المنير القرآن و التقدير ذاسراج منير تكلّف من غير موجب .

قوله تعالى : « وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيرا » الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممّن يأخذه وقد وصفالله عطاءه فقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الانعام : ١٦٠ ، و قال : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ فبيّن أنّه يعطي من الثواب مالا يقابل العمل وهو الفضل ولا دليل في الآية يدلّ على اختصاصه بالآخرة .

قوله تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين و دع أذاهم و توكّل على الله »الخ تقدّم معنى طاعة الكافرين و المنافقين في أوّل السورة .

و قوله : « و دع أذاهم » أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به والدليل على هذا المعنى قوله : « و توكّل على الله » أي لا تستقلّ بنفسك في دفع

أذاهم بل اجعل الله وكيلا في ذلك و كفى بالله وكيلا .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن ابن القدّاح عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما من شيء إلّا وله حدّ ينتهي إليه إلّا الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه فرض الله عزّ وجلّ الفرائض فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ و شهر رمضان فمن صامه فهو حدّه و الحجّ فمن حجّ فهو حدّه إلّا الذكر فإنّ الله عزّوجلّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه ثمّ تلا « يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبّحوه بكرة وأصيلا » فقال: لم يجعل الله له حدّاً ينتهي إليه .

قال : و كان أبي كثير الذكر لقد كنت أمشي معه و إنّه ليذكر الله و آكل معه الطعام وإنّه ليذكر الله ولقد كان يحدّث القوم مايشغله ذلك عن ذكر الله و كنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول : لاإله إلّاالله .

و كان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتّى تطلع الشمس و يأمر بالقراءة من كان يقرء منّا و من كان لايقرء منّا أمره بالذكر ، و البيت الّذي يقرء فيه القرآن و يذكر الله عزّ وجلّ فيه يكثر بركته ويحضره الملائكة و يهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض والبيت الّذي لايقرء فيه القرآن ولا يذكرالله يقلّ بركته ويهجره الملائكة و يحضره الشياطين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ألا اُخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم و أزكاها عند مليككم و خير لكم من الدينار و الدرهم و خير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلوهم ويقتلوكم ؟ فقالوا : بلى . قال : ذكرالله عزّوجلّ كثيرا .

ثمّ قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : من خير أهل المسجد ؟ فقال : أكثرهم لله ذكرا .

و قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله : من اُعطي لسانا ذاكرا فقد اُعطي خير الدنياوالآخرة .

وقال في قوله تعالى : « ولاتمنن تستكثر » قال : لاتستكثر ماعملت من خير لله .

و فيه بإسناده عن أبي المغرا رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ذكر الله في السر فقد ذكر الله كثيرا إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السر فقال الله عز وجل : « يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

أقول : وهو استفادة لطيفة .

و في الخصال عن زيد الشحام قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها قيل : و ما هي ؟ قال : المواساة في ذات يده و الإنصاف من نفسه ، و ذكرالله كثيرا . أما إني لا أقول : سبحان الله والحمدلله ولاإله إلاالله والله أكبر وإن كان منه ولكن ذكرالله عندما أحل له و ذكرالله عند ماحرم عليه .

و في الدر المنثور أخرج أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي العباد أفضل درجة عندالله يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا . قلت : يا رسول الله و من الغازي في سبيل الله ؟ قال : لوضرب بسيفه في الكفار و المشركين حتى ينكسرو يختضب دماً لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه .

و في العلل بإسناده عن عبدالله بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن علي عليه السلام قال : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم فيما سأله فقال: لأي شيء سميت محمدا و أحمد و أبا القاسم و بشيرا و نذيرا وداعيا ؟ فقال صلى الله عليه وآله : أما الداعي فإني أدعو الناس إلى دين ربي عز وجل و أما النذير فإني أنذر بالنار من عصاني وأما البشير فإني أبشر بالجنة من أطاعني الحديث .

و في تفسير القمي في قوله : «يا أيها النبي إنا أرسلناك ـ إلى قوله ـ ودع أذاهم و توكل على الله و كفى بالله وكيلا » أنها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين.

☆ ☆ ☆

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اِذٰا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن
قَبْلِ اَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمٰا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهٰا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ
سَرٰاحاً جَمِيلاً (۴۹) يٰا اَيُّهَا النَّبِيُّ اِنّٰا اَحْلَلْنٰا لَكَ اَزْوٰاجَكَ الّٰتِي آتَيْتَ
اُجُورَهُنَّ وَ مٰا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّٰا اَفٰاءَ اللّٰهُ عَلَيْكَ وَ بَنٰاتِ عَمِّكَ وَبَنٰاتِ
عَمّٰاتِكَ وَبَنٰاتِ خٰالِكَ وَبَنٰاتِ خٰالاٰتِكَ الّٰتِي هٰاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَاَةً مُؤْمِنَةً اِنْ وَهَبَتْ
نَفْسَهٰا لِلنَّبِيِّ اِنْ اَرٰادَ النَّبِيُّ اَنْ يَسْتَنْكِحَهٰا خٰالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
قَدْ عَلِمْنٰا مٰا فَرَضْنٰا عَلَيْهِمْ فِي اَزْوٰاجِهِمْ وَ مٰا مَلَكَتْ اَيْمٰانُهُمْ لِكَيْلاٰ
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰) تُرْجِي مَنْ تَشٰاءُ
مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي اِلَيْكَ مَنْ تَشٰاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاٰجُنٰاحَ عَلَيْكَ
ذٰلِكَ اَدْنٰى اَنْ تَقَرَّ اَعْيُنُهُنَّ وَلاٰ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمٰا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللّٰهُ
يَعْلَمُ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱) لاٰ يَحِلُّ لَكَ النِّسٰاءُ
مِنْ بَعْدُ وَلاٰ اَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ اَزْوٰاجٍ وَلَوْ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ اِلاّٰ مٰا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲) يٰا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ اِلاّٰ اَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ اِلىٰ طَعٰامٍ غَيْرَ نٰاظِرِينَ اِنٰيهُ
وَ لٰكِنْ اِذٰا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَاِذٰا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاٰ مُسْتَاْنِسِينَ لِحَدِيثٍ
اِنَّ ذٰلِكُمْ كٰانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللّٰهُ لاٰيَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ

وَ اِذا سَالْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذٰلِكُمْ اَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ اَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّٰهِ وَلا اَنْ تَنْكِحُوا اَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِه اَبَداً اِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ عِنْدَاللّٰهِ عَظِيماً (٥٣) اِنْ تُبْدُوا شَيْئاً اَوتُخْفُوهُ فَاِنَّ اللّٰهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبائِهِنَّ وَلا اَبْنائِهِنَّ وَلا اِخْوانِهِنَّ وَلا اَبْناءِ اِخْوانِهِنَّ وَلا اَبْناءِ اَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ اَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥) اِنَّ اللّٰهَ وَ مَلٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) اِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اَعَدَّلَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ اِثْماً مُبِيناً (٥٨) يا اَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِاَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذٰلِكَ اَدْنى اَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها اِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ اَيْنَما ثُقِفُوا اُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللّٰهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً (٦٢) .

﴿ بيان ﴾

تتضمّن الآيات أحكاماً متفرّقة بعضها خاصّة بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه وبعضها عامّة.

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها فمتّعوهنّ و سرّحوهنّ سراحاً جميلاً » المراد بنكاحهنّ العقد عليهنّ بالنكاح ، و بالمسّ الدخول ، و بالتمتيع إعطاؤهنّ شيأً من المال يناسب شأنهنّ وحالهنّ والتسريح بالجميل إطلاقهنّ من غير خصومة وخشونة.

والمعنى إذا طلّقتموا النساء بعد النكاح وقبل الدخول فلا عدّة لهنّ للطلاق ويجب تمتيعهنّ بشيء من المال و السراح الجميل .

و الآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهنّ فريضة المهر وما إذا لم يفرض فيقيّدها قوله : «وإن طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم» البقرة : ٢٣٧ وتبقى حجّة فيما لم يفرض لهنّ فريضة .

قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللّاتي آتيت اُجورهنّ » إلى آخر الآية يذكر سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالإحلال سبعة أصناف من النساء : الصنف الأوّل ما في قوله : « أزواجك اللّاتي آتيت اُجورهنّ » والمراد بالاُجور المهور، والثاني ما في قوله : «و ما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك » أي من يملكه من الإماء الراجعة إليه من الغنائم و الأنفال ، وتقييد ملك اليمين بكونه ممّا أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله : « اللّاتي آتيت اُجورهنّ » للتوضيح لا للاحتراز .

والثالث و الرابع ما في قوله : « وبنات عمّك و بنات عمّاتك » قيل يعني نساء قريش ، و الخامس و السادس ما في قوله : « وبنات خالك و بنات خالاتك » قيل : يعني نساء بني زهرة ، وقوله: « اللّاتي هاجرن معك» قال في المجمع هذا إنّما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثمّ نسخ شرط الهجرة في التحليل .

و السابع ما في قوله : « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ إن أراد النبيّ أن يستنكحها » وهي المرأة المسلمة الّتي بذلت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أن ترضى أن

يتزوّج بها من غير صداق ومهر فإنّ الله أحلّها له إن أراد أن يستنكحها ، وقوله: «خالصة لك من دون المؤمنين» إيذان بأنّ هذا الحكم ـ أي حلّيّة المرأة للرجل ببذل النفس ـ من خصائصه لا يجري في المؤمنين ، وقوله بعده : «قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم» تقرير لحكم الاختصاص .

و قوله : «لكيلا يكون عليك حرج» تعليل لقوله في صدر الآية : «إنّا أحللنا لك» أو لما في ذيلها من حكم الاختصاص والأوّل أظهر وقد ختمت الآية بالمغفرة والرحمة .

قوله تعالى : «ترجي من تشاء منهنّ و تؤوي إليك من تشاء» الخ الإرجاء التأخير و التبعيد و هو كناية عن الردّ و الإيواء الإسكان في المكان و هو كناية عن القبول و الضمّ إليه .

و السياق يدلّ على أنّ المراد به أنّه صلى الله عليه وآله على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو ردّه .

وقوله : «و من ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك» الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللّاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لوم أي يجوز لك أن تضمّ إليك من عزلتها ورددتها من النساء اللّاتي وهبن أنفسهنّ لك بعد العزل والردّ .

و يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ له صلى الله عليه وآله أن يقسم بين نسائه و أن يترك القسم فيؤخّر من يشاء منهنّ ويقدّم من يشاء ويعزل بعضهنّ من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده : «ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى ـ أي أقرب ـ أن تقرّ أعينهنّ ـ أي يسررن ـ ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ والله يعلم ما في قلوبكم» و ذلك لسرور المتقدّمة بما قسمت له و رجاء المتأخّرة أن تتقدّم بعد .

و قوله : «إنّ الله كان عليما حليما» أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة.

و في الآية أقوال مختلفة اُخر و الّذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقتها متّصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام كما سيجيء .

قوله تعالى : « لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ » الخ ظاهر الآية لو فرضت مستقلّة في نفسها غير متّصلة بما قبلها تحريم النساء له صلى الله عليه وآله إلاّ من خيّرهنّ فاخترن الله ونفي جواز التبدّل بهنّ يؤيّد ذلك.

لكن لو فرضت متّصلة بما قبلها وهو قوله : « إنا أحللنا لك » الخ كان مدلولها تحريم ماعدا المعدودات وهي الأصناف الستّة الّتي تقدّمت .

و في بعض الروايات عن بعض أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد بالآية محرّمات النساء المعدودة في قوله : « حرّمت عليكم أمّهاتكم و بناتكم » الآية النساء : ٢٣ .

فقوله : « لا يحلّ لك النساء من بعد » أي من بعد اللاّتي اخترن الله و رسوله وهي التسعة على المعنى الأوّل أو من بعد من عددناه في قولنا : « إنّا أحللنا لك » على المعنى الثاني أو من بعد المحلّلات وهي المحرّمات على المعنى الثالث .

وقوله : « ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج » أي أن تطلّق بعضهنّ وتزوّج مكانها من غيرهنّ ، وقوله: « إلاّ ما ملكت يمينك » يعني الإماء وهو استثناء من قوله في صدر الآية : « لا يحلّ لك النساء » .

وقوله : « و كان الله على كلّ شيء رقيبا » معناه ظاهر وفيه تحذير عن المخالفة.

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلاّ أن يؤذن لكم ـ إلى قوله ـ من الحقّ » بيان لأدب الدخول في بيوت النبيّ صلى الله عليه وآله ، و قوله : « إلاّ أن يؤذن لكم » استثناء من النهي ، و قوله : « إلى طعام » متعلّق بالإذن ، و قوله : « غير ناظرين إناه » أي غير منتظرين لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام ويبيّنه قوله : « و لكن إذا دعيتم فادخلوا و إذا طعمتم ـ أي أكلتم ـ فانتشروا » وقوله : « ولا مستأنسين لحديث » عطف على قوله : « غير ناظرين إناه » وهو حال بعد حال أي غير ماكثين في حال انتظار الإناء قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام.

و قوله : « إنّ ذلكم كان يؤذي النبيّ فيستحيي منكم » تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأنّ مكثكم ذلك كان يتأذّى منه النبيّ فيستحيي منكم أن يسألكم

الخروج وقوله : « والله لايستحيي من الحقّ » أي من بيان الحقّ لكم وهو ذكر تأذّيه والتأديب بالأدب اللائق .

قوله تعالى : « وإذا سألتموهنّ متاعا فاسألوهنّ من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ » ضمير « هنّ » لأزواج النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و سؤالهنّ متاعاً كناية عن تكليمهنّ لحاجة أي إذا مسّت الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فكلّموهنّ من وراء حجاب ، وقوله : «ذلكم أطهر لقلوبكم و قلوبهنّ » بيان لمصلحة الحكم .

قوله تعالى : « وماكان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا» الخ أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما اُمرتم في نسائه وفي غير ذلك ، وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إنّ ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيما ، وفي الآية إشعار بأنّ بعضهم ذكر مايشير إلى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائيّ الآتي .

قوله تعالى : « إن تبدوا شيأ أو تخفوه فإنّ الله كان بكلّ شيء عليما » معناه ظاهر وهو في الحقيقة تنبيه تهديديّ لمن كان يؤذي النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أو يذكر نكاح أزواجه من بعده .

قوله تعالى : « لاجناح عليهنّ في آبائهنّ » إلى آخر الآية ضمير «عليهنّ» لنساء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب وقد استثنى الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات وهؤلاء محارم ، قيل : ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنّهم من الممكن أن يصفوهنّ لأبنائهم .

واستثنى أيضا نساءهنّ وإضافة النساء إلى ضميرهنّ يلوّح إلى أنّ المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كمامرّ في قوله تعالى : « أو نسائهنّ » النور: ٣١ و استثنى أيضا ماملكت أيمانهنّ من العبيد والإماء .

وقوله : « واتّقين الله إنّ الله كان على كلّ شيء شهيدا » فيه تأكيد الحكم وخاصّة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في « اتّقين الله » .

قوله تعالى : « إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ ياأيّها الّذين آمنوا صلّوا

عليه وسلّموا تسليما» قد تقدم أنّ أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافا مطلقالم يقيّد في الآية بشيء دون شيء وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية والاستغفار وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة .

وفي ذكر صلاته تعالى وصلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أنّ في صلاة المؤمنين له اتّباعا لله سبحانه وملائكته و تأكيدا للنهي الآتي .

وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنّة أنّ طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلّي عليه وآله .

قوله تعالى : « إنّ الّذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا مهينا» من المعلوم أنّ الله سبحانه منزّه من أن يناله الأذى وكلّ مافيه وصمة النقص و الهوان فذكره مع الرسول وتشريكه في إيذائه تشريف للرسول وإشارة إلى أنّ من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضا بالسوء إذ ليس للرسول بما أنّه رسول إلّا ربّه فمن قصده فقد قصد ربّه .

وقد أوعدهم باللّعن في الدنيا والآخرة واللعن هو الإبعاد من الرحمة والرحمة الخاصّة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحقّ وحقيقة الإيمان ويتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة في الدنيا تحريمه عليه جزاءا لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما قال : «لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » المائدة : ١٣ ، وقال : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلا » النساء : ٤٦ وقال . «اُولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم» سورة محمّد : ٢٣ .

وأمّا اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها و قدقال تعالى : «كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون» المطفّفين : ١٥ .

ثمّ أوعدهم بأنّه أعدّ لهم ـ أي في الآخرة ـ عذابا مهينا و وصف العذاب بالمهين لأنّهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله و رسوله فقوبلوا في الآخرة بعذاب يهينهم .

قوله تعالى : «والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مااكتسبوا فقد احتملوا

بهتانا وإثماً مبيناً » تقييد إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأنّ إيذاءهم بما اكتسبوا كما في القصاص والحدّ والتعزير لا إثم فيه .

وأمّا إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا ومن دون استحقاق فيعدّه سبحانه احتمالا للبهتان والإثم المبين والبهتان هو الكذب على الغير يواجهه به و وجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتانا أنّ المؤذي إنّما يؤذيه لسبب عنده يعدّه جرما له يقول : لم قال كذا ؟ لم فعل كذا ؟ وليس بجرم فيبهته عند الايذاء بنسبة الجرم إليه مواجهة وليس بجرم .

وكونه إثما مبينا لأنّ الافتراء والبهتان ممّا يدرك العقل كونه إثما من غير حاجة إلى ورود النهي عنهما شرعا .

قوله تعالى : « ياأيّها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ » الخ الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب تشتمل به المرأة فيغطّي جميع بدنها أو الخمار الّذي تغطّي به رأسها ووجهها .

وقوله : « يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ » أي يتستّرن بها فلا تظهر جيوبهنّ وصدرهنّ للناظرين .

و قوله : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن يعرفن أنّهنّ أهل الستر و الصلاح فلا يؤذين أي لا يؤذيهنّ أهل الفسق بالتعرّض لهنّ .

و قيل : المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنّهنّ مسلمات حرائر فلا يتعرّض لهنّ بحسبان أنّهنّ إماء أو من غير المسلمات من الكتابيّات أو غيرهنّ و الأوّل أقرب .

قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لنغرينّك بهم » الخ الانتهاء عن الشيء الامتناع و الكفّ عنه ، و الإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به و إلقاء الاضطراب بسببه ، و الإغراء بالفعل التحريض عليه.

و المعنى اُقسم لئن لم يكفّ المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض عن الإفساد والّذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرّضنّك عليهم ثمّ لا يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلّا زمانا قليلا و هو ما بين صدور الأمر وفعليّة إجرائه .

قوله تعالى : «ملعونين أينما ثقفوا اُخذوا وقتّلوا تقتيلا» الثقف إدراك الشيء و الظفر به ، والجملة حال من المنافقين ومن عطف عليهم أي حالكونهم ملعونين أينما وجدوا اُخذوا و بولغ في قتلهم فعمّهم القتل .

قوله تعالى : « سنّة الله في الّذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا » السنّة هي الطريقة المعمولة الّتي تجري بطبعها غالبا أو دائما .

يقول سبحانه هذا النكال الّذي أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفي و القتل الذريع هي سنّة الله الّتي جرت في الماضين فكلّما بالغ قوم في الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك ولن تجد لسنّة الله تبديلا فتجري فيكم كما جرت في الاُمم من قبلكم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فمالكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها فمتّعوهنّ و سرّحوهنّ سراحاً جميلا » قال : متّعوهنّ أي أجملوهنّ بما قدرتم عليه من معروف فإنّهنّ يرجعن بكآبة ووحشة وهمّ عظيم وشماتة من أعدائهنّ فإنّ الله كريم يستحيي ويحبّ أهل الحياء إنّ أكرمكم أشدّكم إكراما لحلائلهم .

و في الكافي بإسناده عن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام في رجل طلّق امرأته قبل أن يدخل بها . قال : عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيأ و إن لم يكن فرض لها فليمتّعها على نحو ما يمتّع به مثلها من النساء .

أقول : و الروايات في هذا المعنى كثيرة و هي مبنيّة على تخصيص الآية بآية البقرة كما تقدّم في تفسير الآية .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد عن حبيب بن ثابت قال : جاء رجل إلى عليّ بن الحسين وسأله عن رجل قال : إن تزوّجت فلانة فهي طالق قال : ليس

بشيء بدء الله بالنكاح قبل الطلاق فقال : « ياأيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتموهنّ » .

أقول : و رواه في المجمع عن حبيب بن ثابت عنه عليه السلام .

و فيه أخرج ابن ماجه و ابن مردويه عن المسوّر بن مخرمة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: لاطلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك .

أقول : وروى مثله عن جابر و عائشة عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

و في الكافي بإسناده عن الحضرميّ عن أبي جعفر عليه السلام وبإسناده عن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « يا أيّها النبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك » كم اُحلّ له من النساء ؟ قال : ماشاء من شيء .

و فيه بإسناده عن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت : «لايحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج » ؟ فقال : لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ينكح ماشاء من بنات عمّه و بنات عمّاته و بنات خاله و بنات خالاته و أزواجه اللاّتي هاجرن معه .

و اُحلّ له أن ينكح من عرض المؤمنين بغير مهر وهي الهبة ولا تحلّ الهبة إلّا لرسول الله صلى الله عليه وآله فأمّا لغير رسول الله فلايصلح نكاح إلّا بمهر وذلك معنى قوله تعالى : « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ » .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر و الطبرانيّ عن عليّ بن الحسين في قوله : « و امرأة مؤمنة » هي اُمّ شريك الأزديّة الّتي وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : و روي أنّها خولة بنت الحكيم و أنّها ليلى بنت الخطيم وأنّها ميمونة و الظاهر أنّ الواهبة نفسها عدّة من النساء .

و في الكافي مسندا عن محمّد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يارسول الله إنّ المرأة لاتخطب الزوج وأنا امرأة أيّم لازوج لي منذدهر ولاولد فهل لك من حاجة ؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني . فقال لها رسول الله خيراً ودعالها .

ثمّ قال : يا اُخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا فقد نصرني رجالكم ورغبت فيّ نساؤكم فقالت لها حفصة : ما أقلّ حياءك و أجرأك و أنهمك للرجال فقال رسول الله : كفّي عنها ياحفصة فإنّها خير منك رغبت في رسول الله ولمتها وعبتها .

ثمّ قال للمرأة : انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنّة لرغبتك فيّ وتعرّضك لمحبّتي و سروري وسيأتيك أمري إن شاءالله فأنزل الله عزّ وجلّ « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ إن أراد النبيّ أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » قال : فأحلّ الله عزّ وجلّ هبة المرأة نفسها لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا يحلّ ذلك لغيره .

وفي المجمع و قيل: إنّها لمّا وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وآله قالت عائشة : ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلامهر ؟ فنزلت الآية فقالت عائشة : ما أرى الله إلّا يسارع في هواك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فإنّك إن أطعت الله سارع في هواك .

و في المجمع في قوله تعالى : «ترجي من تشاء منهنّ وتؤوي إليك من تشاء » قال أبو جعفر و أبوعبدالله عليهما السلام : من أرجى لم ينكح و من آوى فقد نكح .

وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : «لا يحلّ لك النساء من بعد » فقال : إنّما عنى به لا يحلّ لك النساء الّتي حرّم الله عليك في هذه الآية «حرّمت عليكم اُمّهاتكم وبناتكم و أخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم» إلى آخرها.

ولو كان الأمر كما يقولون كان قد اُحلّ لكم مالم يحلّ له لأنّ أحدكم يستبدل كلّما أراد ولكنّ الأمر ليس كما يقولون إنّ الله عزّ و جلّ أحلّ لنبيّه صلى الله عليه وآله أن ينكح من النساء ما أراد إلّا ماحرّم في هذه الآية في سورة النساء .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق عليّ بن زيد عن الحسن في قوله : « ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج » قال: قصره الله على نسائه التسع اللّاتي مات عنهنّ .

قال عليّ فأخبرت عليّ بن الحسين فقال : لوشاء تزوّج غيرهنّ و لفظ عبد بن حميد : فقال : بل كان له أيضا أن يتزوّج غيرهنّ .

و في تفسير القمّي : و أمّا قوله عزّوجلّ : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا

بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم » فإنّه لمّا أن تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله بزينب بنت جحش و كان يحبّها فأولم و دعا أصحابه فكان أصحابه إذا أكلوا يحبّون أن يتحدّثوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يحبّ أن يخلو مع زينب فأنزل الله عزّ وجلّ : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبيّ إلّا أن يؤذن لكم » وذلك أنّهم كانوا يدخلون بلا إذن فقال عزّ وجلّ : « إلّا أن يؤذن لكم ـ إلى قوله ـ من وراء حجاب ».

أقول : و روي تفصيل القصّة عن أنس بطرق مختلفة .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان قال : نزل حجاب رسول الله على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

أقول : ورواها أيضاً ابن سعد عن أنس وفيه أنّ السنة كانت مبتنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزينب .

و فيه في قوله تعالى : «و ما كان لكم أن تؤذوا » الآية أخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ قال : بلغنا أنّ طلحة بن عبيدالله قال : أيحجبنا محمّد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا من بعدنا ؟ لئن حدث به حدث لنتزوّجنّ نساءه من بعده فنزلت الآية .

أقول : و قد وردت بذلك عدّة من الروايات و في بعضها أنّه كان يريد عائشة و اُمّ سلمة .

و في ثواب الأعمال عن أبي المغرا عن أبي الحسن عليه السلام في حديث قال : قلت : ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمن ؟ قال : صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له ، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له .

و في الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة قال : صلّوا على محمّد و آل محمّد فإنّ الله تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمّد و دعاءكم و حفظكم إيّاه إذا قرأتم « إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ » فصلّوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها .

و في الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق و ابن أبي شيبة و أحمد وعبد بن حميد و البخاريّ و مسلم و أبو داود و الترمذيّ و النسائيّ و ابن ماجه و ابن مردويه عن كعب بن عجرة قال : قال رجل : يا رسول الله أمّا السلام عليك فقد علمناه فكيف

الصلاة عليك ؟ قال : قل : اللّهمّ صلّ على محمّد و على آل محمّد كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد اللّهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد .

أقول : وقد أورد ثماني عشرة حديثا غير هذه الرواية تدلّ على تشريك آل النبيّ معه في الصلاة روتها أصحاب السنن و الجوامع عن عدّة من الصحابة منهم ابن عبّاس و طلحة و أبوسعيد الخدريّ وأبو هريرة و أبو مسعود الأنصاريّ و بريدة و ابن مسعود وكعب بن عجرة و عليّ عليه السلام و أمّا روايات الشيعة فهي فوق حدّ الإحصاء .

و فيه أخرج أحمد والترمذيّ عن الحسين بن عليّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ قل لأزواجك و بناتك و نساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ » فإنّه كان سبب نزولها أنّ النساء كنّ يخرجن إلى المسجد و يصلّين خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا كان الليل و خرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة يقعد الشبّاب لهنّ في طريقهنّ فيؤذونهنّ و يتعرّضون لهنّ فأنزل الله « يا أيّها النبيّ » الآية .

و في الدّرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق و عبد بن حميد و أبوداود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن اُمّ سلمة قالت : لمّا نزلت هذه الآية « يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ » خرج نساء الأنصار كأنّ على رؤسهنّ الغربان من أكسية سود يلبسنها .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون » نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج في بعض غزواته يقولون : قتل و اُسر فيغتمّ المسلمون لذلك و يشكون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك « لئن لم ينته - إلى قوله - إلّا قليلا » أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلّا قليلا .

« ملعونين أينما ثقفوا اُخذوا و قتّلوا تقتيلا » و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ملعونين » فوجبت عليهم اللعنة بعد اللّعنة بقول الله .

☆ ☆ ☆

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ اِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّٰهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) اِنَّ اللّٰهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ اَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا اَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا اَطَعْنَا اللّٰهَ وَ اَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَ قَالُوا رَبَّنَا اِنَّا اَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَاَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٦) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً(٦٨) يَا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاَهُ اللّٰهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللّٰهِ وَجِيهاً (٦٩) يَا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ اَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) اِنَّا عَرَضْنَا الْاَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ اَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْاِنْسَانُ اِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللّٰهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣).

(بيان)

آيات تذكر شأن الساعة و بعض ما يجري على الكفّار من عذابها و تأمر المؤمنين بالقول السديد و تعدهم عليه وعدا جميلا ثمّ تختتم السورة بذكر الأمانة .

قوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل إنّما علمها عند الله و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريبا » تنكر الآية سؤال الناس عن الساعة و إنّما كانوا يريدون أن يقدّر لهم زمن وقوعها و أنّها قريبة أو بعيدة كما يؤمي إليه التعبير عنها بالساعة فأمر أن يجيبهم بقصر العلم بها في الله سبحانه و على ذلك جرت الحال كلّما ذكرت في القرآن .

و قوله : « و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريبا » زيادة في الإبهام و ليعلموا أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مثل غيره في عدم العلم بها و ليس من الستر الّذي أسرّه إليه وستره من الناس .

قوله تعالى : « إنّ الله لعن الكافرين و أعدّ لهم سعيرا » لعن الكفّار إبعادهم من الرحمة ، والإعداد التهيئة ، والسعير النار الّتي اُشعلت فالتهبت ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « خالدين فيها أبدا لا يجدون وليّا ولا نصيرا » الفرق بين الوليّ و النصير أنّ الوليّ يلي بنفسه تمام الأمر والمولى عليه بمعزل والنصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالوليّ يتولّى الأمر كلّه و النصير يتصدّى بعضه ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا » تقلّب وجوههم في النار تحوّلها لحال بعد حال فتصفرّ وتسودّ و تكون كالحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتكون أبلغ في مسّ العذاب كما يفعل باللحم المشويّ .

و قولهم : « يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا » كلام منهم علي وجه التحسّر و التمنّي .

قوله تعالى : « و قالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلّونا السبيلا » السادة جمع سيّد و هو ـ على ما في المجمع ـ المالك المعظّم الّذي يملك تدبير السواد الأعظم و هو الجمع الأكثر ، والكبراء جميع كبير و لعلّ المراد به الكبير سنّا فالعامّة تطيع و تقلّد أحد رجلين إمّا سيّد القوم وإمّا أسنّهم .

قوله تعالى : « ربّنا آتهم ضعفين من العذاب و العنهم لعنا كبيرا » الضعفان المثلان وإنّما سألوا لهم ضعفي العذاب لأنّهم ضلّوا في أنفسهم وأضلّوا غيرهم ، و لذلك أيضا سألوالهم اللعن الكبير .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى فبرّأه الله ممّا قالوا و كان عندالله وجيها » نهي عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فيعاملوا نبيّهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل وإن كان منهيّاعنه بل قوله : «فبرّأه الله » يشهد بأنّه كان إيذاء من قبيل التهمة والافتراء المحوج في رفعه إلى التبرئة و التنزيه .

و لعلّ السكوت عن ذكر ما آذوابه موسى عليه‌السلام يؤيّد ما ورد في الحديث أنّهم قالوا : ليس لموسى ما للرجال فبرّأه الله من قولهم و سيوافيك .

و أوجه ما قيل في إيذائهم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه إشارة إلى قصّة زيد و زينب ، و إن يكن كذلك فمن إيذائه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ما في كثير من روايات القصّة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه .

و قوله : « و كان عندالله وجيها » أي ذا جاه ومنزلة والجملة مضافا إلى اشتمالها على التبرئة إجمالا تعلّل تبرءته تعالى له وللآية وما بعدها نوع اتّصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و قولوا قولا سديدا » السديد من السداد و هو الإصابة والرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع و عدم كونه لغوا أوذا فائدة غير مشروعة كالنميمة وغير ذلك فعلي المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلّم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح .

قوله تعالى : « يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فازفوزا عظيما » رتّب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب و ذلك أنّ النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث والكلام الّذي يترتّب عليه فساد ، و برسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعا عن الفحشاء والمنكر واللغو في الفعل و عند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ماضيّعه من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلي بشيء من ذلك و كفى بالندم توبة .

و يحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات و إن رام شيأ من صغائر الذنوب غفره الله له فقد قال تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّآتكم » النساء : ٣١ فملازمة القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال و مغفرة الذنوب بإذن الله .

و قوله : « و من يطع الله و رسوله فقد فازفوزا عظيما » وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة والاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله و رسوله .

و بذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأنّ طاعة الله و رسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة من واجبات و محرّمات والآيتان التاليتان كالمتمّم لمعنى هذه الآية .

قوله تعالى : « إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولا - إلى قوله - غفورا رحيما» الأمانة - أيّامّا كانت - شيء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثمّ يردّه إلى من أودعه فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته واستقامته ثمّ يردّه إليه سبحانه كما أودعه .

و يستفاد من قوله : « ليعذّب الله المنافقين والمنافقات » الخ أنّه أمر يترتّب على حمله النفاق والشرك و الإيمان فينقسم حاملوه باختلاف كيفيّة حملهم إلى منافق و مشرك و مؤمن .

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحقّ الّذي يحصل بالتلبّس به وعدم التلبّس به النفاق والشرك و الإيمان .

فهل هو الاعتقاد الحقّ والشهادة على توحّده تعالى ، أومجموع الاعتقاد والعمل بمعنى أخذ الدين الحقّ بتفاصيله مع الغضّ عن العمل به ، أو التلبّس بالعمل به أوالكمال الحاصل للإنسان منجهة التلبّس بواحد من هذه الاُمور .

و ليست هي الأوّل أعني التوحيد فإنّ السماوات والأرض و غيرهما من شيء توحّده تعالى و تسبّح بحمده وقد قال تعالى : « و إن من شيء إلّا يسبّح بحمده » أسرى : ٤٤ والآية تصرّح بإبائها عنه .

و ليست هي الثاني أعني الدين الحقّ بتفاصيله فإنّ الآية تصرّح بحمل الإنسان كائنا من كان من مؤمن و غيره له و من البيّن أنّ أكثر من لا يؤمن لا يحمله ولا علم له به ، و بهذا يظهر أنّها ليست بالثالث و هو التلبّس بالعمل بالدين الحقّ تفصيلا .

و ليست هي الكمال الحاصل له بالتلبّس بالتوحيد فإنّ السماوات والأرض و غيرهما ناطقة بالتوحيد فعلا متلبّسة به .

و ليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحقّ والعلم به إذلا يترتّب على نفس الاعتقاد الحقّ والعلم بالتكاليف الدينيّة نفاق ولاشرك ولا إيمان ولا يستعقب سعادة ولا شقاء وإنّما يترتّب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحقّ والتلبّس بالعمل .

فبقي أنّها الكمال الحاصل له من جهة التلبّس بالاعتقاد و العمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادّة إلى أوج الإخلاص الّذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولّى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهيّة .

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهيّة وبعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة إليها والمراد بحملها والإباء عنه وجود استعدادها وصلاحيّة التلبّس بها وعدمه و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات والأرض والجبال على ما فيها من العظمة و الشدّة و القوّة فاقدة لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهنّ عن حملها و إشفاقهنّ منها .

لكنّ الإنسان الظلوم الجهول لم يأب ولم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقّب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة و عدمه بالخيانة إلى منافق ومشرك و مؤمن بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلّا مؤمن مطيع .

فان قلت : ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحمّله لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض والجبال على عظمتها و شدّتها و قوّتها و هو يعلم أنّه أضعف من أن يطيق حمله و إنّما حمله على قبولها ظلمه وجهله وأجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الاُمور فما تحميله الأمانة باستدعائه لها ظلما و جهلا إلّا كتقليد مجنون ولاية عامّة يأبى قبولها العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامة فكره .

قلت : الظلم و الجهل في الإنسان و إن كانا بوجه ملاك اللّوم والعتاب فهما بعينهما مصحّح حمله الأمانة و الولاية الإلهيّة فانّ الظلم والجهل إنّما يتّصف بهما من كان من شأنه الاتّصاف بالعدل والعلم فالجبال مثلا لا تتّصف بالظلم والجهل فلا يقال : جبل ظالم أوجاهل لعدم صحّة اتّصافه بالعدل والعلم وكذلك السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم والجهل لعدم صحّة اتّصافها بالعدل والعلم بخلاف الإنسان .

و الأمانة المذكورة في الآية و هي الولاية الإلهيّة وكمال صفة العبوديّة إنّما تتحصّل بالعلم بالله والعمل الصالح الّذي هو العدل وإنّما يتّصف بهذين الوصفين أعني العلم و العدل الموضوع القابل للجهل والظلم فكون الانسان في حدّ نفسه و بحسب طبعه ظلوماً جهولاً هو المصحّح لحمل الأمانة الإلهيّة فافهم ذلك .

فمعنى الآيتين(١) يناظر بوجه معنى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثمّ رددناه أسفل سافلين إلّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » التين : ٦ .

فقوله تعالى : « إنّا عرضنا الأمانة » أي الولاية الإلهيّة والاستكمال بحقائق

---

(١) فالاية الاولى تحاذى الاولى والثانية تحاذى الثانية والثالثة .

الدين الحقّ علما و عملا و عرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء .

و قوله : « على السماوات والأرض والجبال» أي هذه المخلوقات العظيمة الّتي خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» المؤمن : ٥٧ ، و قوله : «فأبين أن يحملنها و أشفقن منها » إباؤها عن حملها و إشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحية التلبّس و تجافيها عن قبولها و في التعبير بالحمل إيماء إلى أنّها ثقيلة ثقلا لا يحتملها السماوات والأرض والجبال .

وقوله : « وحملها الإنسان » أي اشتمل على صلاحيتها والتهيّؤ للتلبّس بها على ضعفه وصغر حجمه « إنّه كان ظلوما جهولا» أي ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة و الهلاك الدائم .

و بمعنى أدقّ لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبّس بما يفاض عليه من ذلك و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل إلى أوج العدل والعلم.

والظلوم والجهول وصفان من الظلم والجهل معناهما من كان من شأنه الظلم والجهل نظير قولنا : فرس شموس و دابّة جموح وماء طهور أي من شأنها ذلك كما قاله الرازيّ أو معناهما المبالغة في الظلم و الجهل كما ذكر غيره والمعنى مستقيم كيفما كانا .

وقوله : «ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات» اللاّم للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وذلك أنّ الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق وقليلاً مّا يتظاهر بالخيانة لها ولعلّ اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في الآية على المشركين و المشركات .

وقوله : « ويتوب الله على المؤمنين و المؤمنات و كان الله غفورا رحيما» عطف على « يعذّب » أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات والتوبة من الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولّى أمره و هو وليّ المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع والعمل الصالح لأنّه غفور رحيم .

فان قلت : ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف وهو الدين الحق وكون الحمل بمعنى الاستعداد والصلاحية والإباء هو فقده والعرض هو اعتبار القياس فيجري فيه حينئذ جميع ما تقدم في بيان الانطباق على الآية .

قلت : نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية و تحقق صفة العبودية الكاملة فهي المعروضة بالحقيقة و المطلوبة لنفسها .

والالتفات في قوله : « ليعذب الله » من التكلم إلى الغيبة والإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الأمور إلى الله سبحانه لأنه الله .

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات» للإشعار بكمال العناية في حقهم والاهتمام بأمرهم .

ولهم في تفسير الأمانة المذكورة في الآية أقوال مختلفة :

فقيل المراد بها التكاليف الموجبة طاعتها دخول الجنة و معصيتها دخول النار و المراد بعرضها على السماوات والأرض و الجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها و إباؤهن عن حملها وإشفاقهن منها عدم استعدادهن لها ، و حمل الإنسان لها استعداده والكلام جار مجرى التمثيل .

و قيل : المراد بها العقل الذي هو ملاك التكليف ومناط الثواب و العقاب.

وقيل : هي قول لا إله إلا الله .

و قيل : هي الأعضاء فالعين أمانة من الله يجب حفظها و عدم استعمالها إلا فيما يرتضيه الله تعالى ، وكذلك السمع واليد والرجل و الفرج واللسان .

وقيل : المراد بها أمانات الناس والوفاء بالعهود .

و قيل :المراد بها معرفة الله بما فيها وهذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريب منا إلى ما قدمنا .

و كذلك اختلف في معنى عرض الأمانة عليها على أقوال :

منها أن العرض بمعناه الحقيقي غير أن المراد بالسماوات و الأرض والجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة و بين لهم أن في خيانتها الإثم العظيم

فأبوها و خافوا حملها و عرض على الإنسان فلم يمتنع .

ومنها أنّه بمعناه الحقيقيّ وذلك أنّ الله لمّا خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها : إنّي فرضت فريضة وخلقت جنّة لمن أطاعني فيها و ناراً لمن عصاني فيها فقلن: نحن مسخّرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا ولمّا خلق آدم عرض عليه ذلك فاحتمله وكان ظلوما لنفسه جهولا بوخامة عاقبته .

و منها أنّ المراد بالعرض المعارضة و المقابلة و محصّل الكلام أنّا قابلنا بهذه الأمانة السماوات والأرض و الجبال فكانت هذه أرجح وأثقل منها .

ومنها أنّ الكلام جار مجرى الفرض والتقدير والمعنى أنّا لو قدّرنا أنّ للسماوات و الأرض و الجبال فهماً و عرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها و أشفقن منها لكنّ الإنسان تحمّلها .

وبالمراجعة إلى ما قدّمناه يظهر ما في كلّ من هذه الأقوال من جهات الضعف و الوهن فلا تغفل .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ولا يلعن الله مؤمنا قال الله عزّ وجلّ : « إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّا ولا نصيرا » .

و في تفسير القمّي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ بني إسرائيل كانوا يقولون : ليس لموسى ما للرجال ، و كان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع لا يراه فيه أحد فكان يوما يغتسل على شطّ نهر وقد وضع ثيابه على صخرة فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتّى نظر بنو إسرائيل إليه فعلموا أن ليس كما قالوا فأنزل الله « يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى » الآية .

وفي المجمع : واختلفوا فيما اُوذي به موسى على أقوال :

أحدها أنّ موسى وهارون صعدا الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل : أنت

قتلته فأمر الله الملائكة فحملته حتّى مرّوا به على بني إسرائيل و تكلّمت الملائكة بموته حتّى عرفوا أنّه قدمات و برّأه الله من ذلك عن عليّ و ابن عبّاس .

و ثانيها أنّ موسى كان حييّاستيرا يغتسل وحده فقالوا : مايستترمنّا إلّالعيب في جلده إمّا برص و إمّا أُدرة فذهب مرّة يغتسل فوضع ثوبه على حجر فمرّ الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عريانا كأحسن الرجال خلقا فبرّأه الله ممّا قالوا . رواه أبوهريرة مرفوعا .

أقول : وروى الرواية الاُولى في الدرّ المنثور أيضا عن ابن مسعود والثانية أيضا عن أنس و ابن عبّاس .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعديّ قال : ماجلس رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على هذا المنبر قطّ إلّاتلاهذه الآية «ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و قولوا قولاسديدا » .

أقول : و روى ما يقرب منه أيضا عن عائشة و أبي موسى الأشعريّ وعروة.

وفي نهج البلاغة : ثمّ أداء الأمانة فقدخاب من ليس من أهلها إنّها عرضت على السماوات المبنيّة و الأرض المدحوّة والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولاأعرض ولاأعلى ولاأعظم منها ولوامتنع شيء بطول أوعرض أوقوّة أوعزّ لامتنعن ولكن أشفقن من العقوبة و عقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان إنّه كان ظلوما جهولا .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمّار عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ : « إنّا عرضنا الأمانة » الآية قال : هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : المراد بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ماكان هوأوّل فاتح لبابه من هذه الاُمّة وهو كون الإنسان بحيث يتولّى الله سبحانه أمره بمجاهدته فيه بإخلاص العبوديّة له دون الولاية بمعنى المحبّة أو بمعنى الإمامة وإن كان ظاهر بعض الروايات ذلك بنوع من الجري والانطباق .

سورة سبأ مكّيّة وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَهُ مٰا فِى السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِى الْاَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْاٰخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِى الْاَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَمٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لٰاتَاْتِينَا السّٰاعَةُ قُلْ بَلٰى وَرَبِّى لَتَاْتِيَنَّكُمْ عٰالِمُ الْغَيْبِ لٰا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوٰاتِ وَ لٰا فِى الْاَرْضِ وَلٰا اَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلٰا اَكْبَرُ اِلّٰا فِى كِتٰابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ اُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَ الَّذِينَ سَعَوْ فِى آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ اُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ اَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ اُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى اِلٰى صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلٰى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ اِذٰا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ اِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) اَفْتَرٰى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً اَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لٰايُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ فِى الْعَذٰابِ وَالضَّلٰالِ الْبَعِيدِ (٨) اَفَلَمْ يَرَوْا اِلٰى مٰا بَيْنَ اَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْاَرْضِ اِنْ نَشٰاْنَخْسِفْ بِهِمُ الْاَرْضَ اَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

﴿ بيان ﴾

تتكلّم السورة حول الأُصول الثلاثة أعني الوحدانيّة والنبوّة والبعث فتذكرها وتذكرما لمنكريها من الاعتراض فيها والشبه الّتي ألقوها ثمّ تدفعها بوجوه الدفع من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة وتهتمّ ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره في مفتتح الكلام ثمّ تعود إليه عودة بعد عودة إلى مختتمه .

وهي مكّيّة بشهادة مقاصد آياتها علىذلك .

قوله تعالى : الحمدلله الّذي له ما في السماوات و ما في الأرض » الخ المطلوب بيان البعث و الجزاء بيانالايعتريه شكّ بالإشارة إلى الحجّة الّتي ينقطع بها الخصم و الأساس الّذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكلّ شيء من كلّ جهة حتّى يصحّ له أيّ تصرّف أرادفيها من إبداء ورزق وإماتة وإحياء بالإعادةوجزاء وثانيهما كمال علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علما لا يطرء عليه غروبوزوالحتّى يعيدكلّ من أراد ويجزيه على ماعلم من أعماله خيرا أوشرّا .

و قد اُشير إلى أوّل الأمرين في الآية الاُولى الّتي نحن فيها و إلى الثانية في الآية الثانية و بذلك يظهر أنّ الآيتين تمهيد لما فيالآية الثالثة والرابعة .

فقوله : « الحمدلله الّذي له ما فيالسماوات و ما في الأرض» ثناء عليه علىملكه المنبسط على كلّ شيء بحيث له أن يتصرّف فيكلّ شيء بماشاء وأراد .

وقوله :« وله الحمد في الآخرة » تخصيصالحمدبالآخرة لما أنّ الجملةالاُولى تتضمّن الحمد في الدنيا فإنّ النظام المشهود في السماوات و الأرض نظام دنيويّ كما يشهد به قوله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غيرالأرض والسماوات » ابراهيم :۴٨.

وقوله : « وهو الحكيم الخبير » ختم الآية بالاسمين الكريمين للدلالة علىأنّ تصرّفه في نظام الدنيا ثمّ تعقيبه بنظام الآخرة مبنيّ على الحكمة و الخبرة فبحكمته عقّب الدنيا بالآخرة و إلّالغت الخلقة وبطلت ولم يتميّز المحسن من المسيىء كماقال: « و ما خلقنا السماء و الأرض وما بينهما باطلا - إلى أن قال - أم نجعل الّذين آمنوا

وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار » ص : ۲۸ وبخبرته يحشرهم ولا يغادر منهم أحدا ويجزي كلّ نفس بما كسبت .

و الخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذ من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخصّ من العليم .

قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » الولوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول وكأنّ العلم بالولوج و الخروج والنزول و العروج كناية عن علمه بحركة كلّ متحرّك و فعله و اختتام الآية بقوله : « و هو الرحيم الغفور » كأنّ فيه إشارة إلى أنّ له رحمة ثابتة و مغفرة ستصيب قوما بإيمانهم .

قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربّي لتأتينّكم عالم الغيب » الخ يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه وعلمه بكلّ شيء ولا مورد للارتياب في إتيانها مع ذلك كما تقدّم فضلا عن إنكار إتيانها ولذلك أمر النبيّ ﷺ أن يجيب عن قولهم بقوله : « قل بلى وربّي لتأتينّكم » أي الساعة .

ولمّا كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء و منها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدّل صورها تبدّلا بعد تبدّل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميّز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله : « عالم الغيب لا يعزب » أي لا يفوت « عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض » .

وقوله : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين » تعميم لعلمه لكلّ شيء وفيه مع ذلك إشارة إلى أنّ للأشياء كائنة ما كانت ثبوتا في كتاب مبين لا تتغيّر ولا تتبدّل و إن زالت رسومها عن صفحة الكون وقد تقدّم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام و غيرها .

قوله تعالى : « ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » اللّام في « ليجزي » للتعليل وهو متعلّق بقوله : « لتأتينّكم » و في قوله : « لهم

مغفرة ورزق كريم » نوع محاذاة لقوله السابق : « وهو الرحيم الغفور» .

و في الآية بيان أحدالسببين لقيام الساعة وهو أن يجزي الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنّة بمافيها والسبب الأخير مايشيرإليه قوله: « والّذين سعوا في آياتنا معاجزين » الخ .

قوله تعالى :« والّذين سعوا في آياتنا معاجزين اُولئك لهم عذاب من رجز أليم» السعي الجدّ في المشي و المعاجزة المبالغة في الإعجاز و قيل : المسابقة و الكلام مبنيّ على الاستعارة بالكناية كأنّ الآيات مسافة يسيرون فيهاسيرا حثيثا ليعجزواالله و يسبقوه والرجز كالرجس القذر ولعلّ المراد به العمل السيّىء فيكون إشارة إلى تبدّل العمل عذابا أليما عليهم أوسببا لعذابهم ، وقيل : الرجز هوسيّىء العذاب .

و في الآية تعريض للكفّار الّذين يصرّون على إنكار البعث .

قوله تعالى : « و يرى الّذين اُوتوا العلم الّذي اُنزل إليك من ربّك هوالحقّ » الموصول الأوّل فاعل يرى والموصول الثاني مفعوله الأوّل والحقّ مفعوله الثاني والمراد بالّذين اُوتوا العلم العلماء بالله و بآياته ، و بالّذي اُنزل إليه القرآن النازل إليه صلّى الله عليه و آله .

وجملة « ويرى» الخ استئناف متعرّض لقوله السابق « وقال الّذين كفروا » أوحال من فاعل كفروا والمعنى اُولئك يقولون : لا تأتينا الساعة و ينكرونه جهلا و العلماء بالله و آياته يرون أنّ هذا القرآن النازل إليك المخبر بأنّ الساعة آتية هو الحقّ .

و قوله : « ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » معطوف على الحقّ أي و يرون القرآن يهدي إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يثنى على جميع أفعاله لأنّه لا يفعل مع عزّته إلّا الجميل و هو الله سبحانه ، و في التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله : « الّذين سعوا في آياتنا معاجزين » .

قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبّئكم إذا مزّقتم كلّ ممزّق إنّكم لفي خلق جديد »كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرّفون فيه النبيّ صلّى الله عليه و آله بعضهم لبعض بالقول بالمعاد .

والتمزيق التقطيع و التفريق ، و كونهم في خلق جديد استقرارهم فيه أي تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانيا بعد عدمهم ، و قوله : « إذا مزّقتم » ظرف لقوله : « إنّكم لفي خلق جديد » .

والمعنى و قال الّذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لإنذاره إيّاهم بالبعث والجزاء : هل ندلّكم على رجل والمراد به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ينبّئكم و يخبركم أنّكم ستستقرّون في خلق جديد و يتجدّد لكم الوجود إذا فرّقت أبدانكم كلّ التفريق و قطّعت بحيث لا يتميّز شيء منها من شيء .

قوله تعالى : « أفترى على الله كذبا أم به جنّة » الخ الاستفهام للتعجيب فإنّ القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلّا لتلبيس الأمر على الناس و إضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلّا فكيف يلتبس فيه الأمر على عاقل ، ولهذا ردّدوا الأمر بين الافتراء والجنّة في الاستفهام والمعنى أهو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوّه بما بداله من غير فكر مستقيم .

و قوله : « بل الّذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » ردّ لقولهم و إضراب عن الترديد الّذي أتوا به مستفهمين و محصّله أنّ ذلك ليس افتراء على الله ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفّار مستقرّون في عذاب سيظهر لهم و قد أبعدهم ذلك عن الحقّ فكانوا في ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحقّ و يذعنوا به .

و وضع الموصول موضع الضمير في قوله : « بل الّذين لا يؤمنون بالآخرة » للدلالة على أنّ علّة وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والضلال عدم إيمانهم بالآخرة .

قوله تعالى : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم و ما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » الخ وعظ و إنذار لهم باستعظام ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله : « ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء و الأرض » إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم و من خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلّهم و أرضا تقلّهم لا مفرّ لهم عنهما .

و قوله : « إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » أي إذ

أحاط بهم الأرض والسماء وهما مدبّرتان بتدبيرنا منقادتان مسخّرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكم فمالهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل ؟

و قوله : « إنّ في ذلك لآية لكلّ عبد منيب » أي فيما ذكر من إحاطة السماء والأرض وكونهما مدبّرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكلّ عبد منيب راجع إلى ربّه بالطاعة ، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الأمور ولا يجترؤن على تكذيب هذه الآيات إلّا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة إلى ربّهم و رجوعا إلى طاعته .



☆ ☆ ☆

وَ لقد آتينا داود منّا فضلاً يا جبال اوّبى معه والطّير والنّا له
الحديد (١٠) ان اعمل سابغات وقدّر فى السّرد و اعملوا صالحاً انّى
بما تعملون بصيرٌ (١١) ولسليمن الرّيح غدوّها شهرٌ و رواحها شهرٌ و
اسلنا له عين القطر و من الجنّ من يعمل بين يديه باذن ربّه و من
يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السّعير (١٢) يعملون له ما يشاء
من محاريب و تماثيل و جفان كالجواب و قدور راسيات اعملوا آل
داود شكراً و قليلٌ من عبادى الشّكور (١٣) فلمّا قضينا عليه الموت
ما دلّهم على موته الّا دابّة الارض تأكل منسأته فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ
ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين (١۴) لقد
كان لسبأٍ فى مسكنهم آيةٌ جنّتان عن يمينٍ و شمالٍ كلوا من رزق
ربّكم و اشكروا له بلدةٌ طيّبةٌ و ربٌّ غفورٌ (١۵) فاعرضوا فارسلنا
عليهم سيل العرم و بدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتى اكلٍ خمطٍ و
اثلٍ و شىءٍ من سدرٍ قليلٍ (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا و هل
نجازى الّا الكفور (١٧) و جعلنا بينهم و بين القرى التّى باركنا
فيها قرىً ظاهرةً و قدّرنا فيها السّير سيروا فيها ليالى و ايّاماً

آمنين (١٨) فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا و ظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كلّ ممزّق إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور (١٩) و لقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلّا فريقاً من المؤمنين (٢٠) و ما كان له عليهم من سلطان إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ و ربّك على كلّ شيء حفيظ (٢١) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى نبذة من قصص داود و سليمان إذ آتاهما الله من فضله إذ أنعم على داود بتسخير الجبال والطير معه وتليين الحديد له ، و سخّر لسليمان الريح غدوّها شهر و رواحها شهر و سخّر الجنّ يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل و غيرها و أمرهما بالعمل الصالح شكرا و كانا عبدين شكورين .

ثمّ إلى قصّة سباء حيث أنعم عليهم بجنّتين عن اليمين والشمال ليعيشوا فيها عيشا رغدا فكفروا بالنعمة وأعرضوا عن الشكر فأرسل عليهم سيل العرم وبدّل جنّتيهم جنّتين دون ذلك وقد كان عمّر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث و مزّقهم كلّ ممزّق كلّ ذلك لكفرهم النعمة و إعراضهم عن الشكر ولا يجازي إلّا الكفور .

و وجه اتّصال القصص على ما تقدّم من حديث البعث أنّ الله هو المدبّر لاُمور عباده و هم مغمورون في أنواع نعمه و للمنعم على المنعم عليه الشكر على نعمته و عليه أن يميّز بين الشاكر لنعمته والكافر بها و إذ لا ميز في هذه النشأة فهناك نشأة اُخرى يتميّز فيها الفريقان فالبعث لا مفرّ عنه .

قوله تعالى : « و لقد آتينا داود منّا فضلا يا جبال أوبّي معه والطير وألنّا له الحديد » الفضل العطيّة والتأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به ترجيع

الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر: «إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق والطير محشورة كلّ له أوّاب » ص : ١٩ . والطير معطوف على محلّ الجبال و منه يظهر فساد قول بعضهم : أنّ الأوب بمعنى السير و أنّ الجبال كانت تسير معه حيثما سار .

و قوله « يا جبال أوّبي معه والطير » بيان للفضل الّذي اُوتي داود و قد وضع فيه الخطاب الّذي خوطبت به الجبال والطير فسخّرتا به موضع نفس التسخير الّذي هو العطيّة و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبّب والمعنى سخّرنا الجبال له تؤوّب معه والطير ، و هذا هو المتحصّل من تسخير الجبال والطير له كما يشير إليه قوله : إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ و الإشراق والطير محشورة كلّ له أوّاب » ص : ١٩ .

و قوله : « و ألنّا له الحديد » أي وجعلناه ليّنا له على ما به من الصلابة .

قوله تعالى : « أن اعمل سابغات و قدّر في السرد » الخ السابغات جمع سابغة وهي الدرع الواسعة ، والسرد نسج الدرع ، و تقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقه أي اعمل دروعا واسعة و اجعلها متناسبة الحلق ، و جملة « أن اعمل » الخ نوع تفسير لإلانة الحديد له .

و قوله : « و اعملوا صالحا إنّي بما تعملون بصير » معنى الجملة في نفسها ظاهر وهي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل و عدّ النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنّه قيل : « و قلنا اشكر النعم أنت وقومك بالعمل الصالح .

قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوّها شهر و رواحها شهر » الخ أي و سخّرنا لسليمان الريح مسير غدوّ تلك الريح ـ و هو أوّل النهار إلى الظهر ـ مسير شهر و رواح تلك الريح ـ و هو من الظهر إلى آخر النهار ـ مسير شهر أي إنّها تسير في يوم مسير شهرين .

و قوله : « و أسلنا له عين القطر » الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان

والقطر النحاس أي و أذبناله القطر فسالت كالعين الجارية .

قوله : « و من الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه » أي و جمع من الجنّ ـ بدليل قوله بعد : « يعملون له » ـ يعمل بين يديه بإذن ربّه مسخّرين له « و من يزغ » أي ينحرف « عن أمرنا » و لم يطع سليمان « نذقه من عذاب السعير » ظاهر السياق أنّ المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة ، و في لفظ الآية دلالة على أنّ المسخّر له كان بعض الجنّ لاجميعهم .

قوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل و جفان كالجواب و قدور راسيات » الخ المحاريب جمع محراب وهومكان إقامةالصلاة والعبادة ، والتماثيل جمع تمثال و هي الصورة المجسّمة من الشيء والجفان جمع جفنة و هي صحفة الطعام والجوابي جمع جابية الحوض الّذي يجبى أي يجمع فيه الماء ، والقدور جمع قدر و هوما يطبخ فيه الطعام ، والراسيات الثابتات والمرادبكون القدور راسياتكونها ثابتات في أمكنتها لا يزلن عنها اعظمها .

و قوله : « اعملوا آل داود شكرا » خطاب لسليمان وسائر من معه من آل داود أن يعملوا ويعبدوا الله شكرا له ، وقوله : « وقليل من عبادي الشكور » أي الشاكر لله شكرا بعد شكر و الجملة إمّا في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأنّ المتمكّنين في هذا المقام قليلون وهم الأوحديّون من الناس ، و إمّا في مقام التعليل كأنّه قيل : إنّهم قليل فكثّروا عدّتهم .

قوله تعالى : « فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلّا دابّة الأرض تأكل منسأته » المراد بدابّة الأرض الأرضة على ماوردت به الروايات والمنسأة العصا وقوله: « فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» الخرور السقوط على الأرض .

ويستفاد من السياق أنّه عليه السلام لمّا قبض كان متكّئا على عصاه فبقي على تلك الحال قائما متّكئا على عصاه زمانا لايعلم بموته إنس ولاجنّ فبعث الله عزّ وجلّ أرضة فأخذت

في أكل منسأته حتّى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلك بموته وتبيّنت الجنّ أن لوكانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم وما لبثوا هذا المقدار من الزمان ـ وهو من حين قبضه إلى خروره ـ في العذاب المهين المذلّ لهم .

قوله تعالى : « لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنّتان عن يمين و شمال » الخ سبأ العرب العاربة باليمن سمّوا ـ كما قيل ـ باسم أبيهم سبإ بن يشحب بن يعرب بن قحطان ، و قوله : « عن يمين وشمال » أي عن يمين مسكنهم وشماله .

وقوله : « كلوا من رزق ربّكم » أمر بالأكل من الجنّتين وهو كناية عن رزقهم منهما ، ثمّ بالشكر له على نعمته ورزقه و قوله : « بلدة طيّبة و ربّ غفور » أي بلدة ملائمة صالحة للمقام وربّ كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيّآتكم .

قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتي اُكل خمط و أثل و شيء من سدر قليل » العرم المسنّاة الّتي تحبس الماء و قيل : المطر الشديد و قيل غير ذلك ، و الاُكل بضمّتين كلّ ثمرة مأكولة ، و الخمط ـ على ما قيل ـ كلّ نبت أخذ طعما من المرارة ، و الأثل الطرفاء و قيل : شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له ، والسدر معروف ، والأثل وشيء معطوفان على « اُكل » لا على خمط .

و المعنى فأعرضوا أي قوم سبإ عن الشكر الّذي اُمروا به فجازيناهم و أرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم وذهب بجنّتيهم و بدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتي ثمرة مرّة و ذواتي طرفاء وشيء قليل من السدر .

قوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلّا الكفور » «ذلك» إشارة إلى ما ذكر من إرسال السيل و تبديل الجنّتين و محلّه النصب مفعولا ثانيا لجزيناهم و الفرق بين الجزاء و المجازاة ـ كما قيل ـ أنّ المجازاة لا تستعمل إلّا في الشرّ و الجزاء أعمّ .

والمعني جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الشكر ـ أو في مقابلة

ذلك - ولا نجازي بالسوء إلّا من كان كثير الكفران لأنعم الله .

قوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى الّتي باركنا فيها قرى ظاهرة » الخ ضمير « بينهم » لسبإ والكلام مسوق لبيان تتمّة قصّتهم المطلوب ذكرها وهوعطف على قوله : «كان لسبإ » والمراد بالقرى الّتي باركنا فيها القرى الشاميّة ، و المراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض .

وقوله : « وقدّرنا فيها السير » أي جعلنا السير فيهاعلى نسبة مقدّرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها وما يليهاكالنسبة بين مايليها وما يليه ، وقوله : « سيروا فيها ليالي وأيّاما آمنين » على تقدير القول أي وقلنا : سيروا في هذه القرى على أمن إن شئتم ليالي وإن شئتم أيّاما والمرادقرّرنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ماشاؤا من غير خوف وقلق .

قوله تعالى : « فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا و ظلموا أنفسهم » الخ أي أنعمنا عليهم ماأنعمنا من وفورالفواكه وقرب المنازل وأمن الطرق و سهولة السير و رغد العيش فملّوا ذلك وسئموه وقالوا : ربّنا باعد بين أسفارنا أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل ونقطع المفاوز و البوادي وهذا بغي منهم وكفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المنّ والسلوى .

وبالجملة أتمّ الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل وأمن الطرق ووفور النعمة كما أتمّ نعمه عليهم في الحضر وأراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر ، فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم وفرّق جمعهم وشتّت شملهم .

فقوله : « فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا» اقتراح ضمنيّ لتخريب بلادهم ،وقوله: « وظلموا أنفسهم » أي بالمعاصي .

وقوله : « فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كلّ ممزّق » أي أزلنا أعيانهم و آثارهم فلم يبق منهم إلّا أحاديث يحدّث بها فيما يحدّث فعادوا أسماء لا مسمّى لهم إلّا في وهم المتوهّم وخيال المتخيّل وفرّقناهم كلّ تفرّق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزآن

مجتمعان إلّا فرّقنا بينهما فصاروا كسدى لاشبح له بعد ماكانوا مجتمعا ذاقوّة و شوكة حتّى ضرب بهم المثل « تفرّقوا أيادي سبا » .

وقوله : « إنّ فيذلك لآيات لكلّ صبّار شكور » أي في هذا الّذي ذكر من قصّهتم لآيات لكلّ منكثر صبره في جنب الله وكثرشكره لنعمه الّتي لاتحصى يستدلّ بتلك الآيات على أنّ على الإنسان أن يعبد ربّه شكراً لنعمه وأنّ وراءه يوماً يبعث فيه ويجزى بعمله .

قوله تعالى : « ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعه إلّا فريقا من المؤمنين» أي حقّق إبليس عليهم ظنّه أو وجد ظنّه صادقا عليهم إذ قال لربّه : « لاُغوينّهم « ولاُضلّنّهم » «ولا تجد أكثرهم شاكرين » وقوله : « فاتّبعوه إلّا فريقا من المؤمنين» بيان لتصديقه ظنّه .

ومنه يظهر أنّ ضمير الجمع في «عليهم » ههنا وكذا في الآية التالية لعامّة الناس لالسبإ خاصّة وإن كانت الآية منطبقة عليهم .

قوله تعالى : « وماكان له عليهم من سلطان إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هومنها فيشكّ» ظاهر السياق أنّ المراد أنّهم لم يتّبعوه عن سلطان له عليهم يضطرّهم إلى اتّباعه حتّى يكونوا معذورين بل إنّما اتّبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتّباعه فيتسلّط عليهم لأنّه يتسلّط فيتّبعونه قال تعالى : « إنّ عبادي ليس لك عليهم من سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ ، وقال حاكيا عن إبليس يوم القيامة : «وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ .

ومنشأ اتّباعهم له ريب وشكّ في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الّذي هوالاتّباع لإبليس فإذنه سبحانه لإبليس أن يتسلّط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلّط ليمتاز به أهل الشكّ فيالآخرة من أهل الإيمان به ولا يرفع ذلك مسؤليّتهم في اتّباعه لكونه عن اختيار منهم .

فقوله : « وماكان له عليهم من سلطان » نفي لكلّ سلطان وقوله : « إلّا لنعلم » أي لنميّز « من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ » استثناء لسلطانه عليهم من طريق اتّباعهم له عن اختيار منهم ، وقد وضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلّط من طريق الاتّباع الاختياريّ .

وتقييد الإيمان والشكّ بالآخرة في الآية لمكان أنّ الرادع الوحيد عن المعصية و الداعي إلى الطاعة هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله ورسوله لولا الآخرة كما قال تعالى: « إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ .

وقوله : « وربّك على كلّ شيء حفيظ » أي عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أوسهو أوغير ذلك وفيه تحذير عن الكفران والمعصية وإنذار لأهل الكفر و المعصية .

﴿بحث روائى﴾

في كمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في حديث يذكر فيه قصّة داود عليه السلام قال : إنّه خرج يقرء الزبور و كان إذا قرء الزبور لا يبقى جبل ولاحجر ولاطائر إلّا أجابه .

و في تفسير القمّي قوله عزّ وجلّ : « أن اعمل سابغات » قال : الدروع « وقدّر في السرد » قال : المسامير الّتي في الحلقة ، وقوله عزّ وجلّ : « ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر » قال : كانت الريح تحمل كرسيّ سليمان فتسير به في الغداة مسيرة شهر و بالعشيّ مسيرة شهر .

و في الكافي بإسناده عن داود بن الحصين و عن أبان بن عثمان عن الفضل أبي العبّاس قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » قال : ماهي تماثيل الرجال و النساء ولكنّها تماثيل الشجر وشبهه .

و فيه عن بعض أصحابنا مرفوعا عن هشام بن الحكم قال : قال أبو الحسن

موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام ثمّ مدح الله القلّة فقال : « و قليل من عبادي الشكور » .

أقول : و قد وقع هذا المعنى في عدّة روايات و هو ينطبق على أحد المعنيين المتقدّمين في ذيل الآية .

و في العلل بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : أمر سليمان بن داود الجنّ فصنعوا له قبّة من قوارير فبينا هو متّكىء على عصاه في القبّة ينظر إلى الجنّ كيف ينظرون إليه إذحانت منه التفاتة فإذا رجل معه في القبّة قال له : من أنت ؟ قال : أنا الّذي لا أقبل الرشا و لاأهاب الملوك أناملك الموت. فقبضه وهو قائم متّكىء على عصاه في القبّة و الجنّ ينظرون إليه .

قال : فمكثوا سنة يدأبون له حتّى بعث الله عزّ وجلّ الأرضة فأكلت منسأته وهي العصا فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين الحديث .

اقول : وبقاؤه عليه السلام على حال القيام متّكئا على عصاه سنة وارد في عدّة من روايات الشيعة وأهل السنّة .

و في المجمع في الحديث عن فروة بن مسيك قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن سبإ أرجل هو أم امرأة ؟ فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستّة وتشاءم أربعة فأمّا الّذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج و الأشعرون و أنمار وحمير فقال رجل من القوم: ما أنمار ؟ قال: الّذين منهم خثعم وبجيلة .وأمّا الّذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسّان .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أرباب الجوامع والسنن عنه صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالتيامن والتشاؤم السكونة باليمن و الشام .

وفي الكافي بإسناده عن سدير قال : سأل رجل أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ « قالوا ربّنا باعد بين أسفارنا و ظلموا أنفسهم » الآية فقال : هؤلاء قوم كانت لهم قرى متّصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية و أموال ظاهرة فكفروا نعم الله عزّ و جلّ

و غيّروا ما بأنفسهم من عافية الله فغيّر الله ما بهم من نعمه و الله لايغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرّق قراهم و خرّب ديارهم و ذهب بأموالهم و أبدلهم مكان جنانهم جنّتين ذواتي اُكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ثمّ قال : «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلّا الكفور» .

أقول : و ورد في عدّة من الروايات أنّ القرى الّتي بارك الله فيها هم أهل بيت النبيّ ﷺ والقرى الظاهرة هم الوسائط بينهم و بين الناس من حملة أحاديثهم وغيرهم ، وهو من بطن القرآن وليس من التفسير في شيء .



✿ ✿ ✿

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٦) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٣٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠).

﴿ بيان ﴾

آيات مقرّرة للتوحيد واحتجاجات حوله .

قوله تعالى : « قل ادعوا الّذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرّة » إلى آخر الآية أمر النبي ﷺ أن يحتجّ على إبطال اُلوهيّة آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء فقوله : «قل ادعوا الّذين زعمتم من دون الله» أي ادعوا الّذين زعمتم آلهة من دون الله ـ فمفعولا « زعمتم » محذوفان لدلالة السياق عليهما ـ و دعاؤهم هو

مسألتهم شيئاً من الحوائج .

وقوله : « لا يملكون مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض» واقع موقع الجواب كأنّه قيل : فماذا يكون إذا دعوهم ؟ فقيل : لا يستجيبون لهم بشيء لأنّهم لا يملكون مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض » ولو ملكوا لاستجابوا ولا تتمّ الربوبيّة والأُلوهيّة إلّا بأن يملك الربّ و الإله شيأ ممّا يحتاج إليه الإنسان فيملّكه له وينعم عليه به فيستحقّ بإزائه العبادة شكراً له فيعبد أمّا إذا لم يملك شيئاً فلا يكون ربّا ولا إلها .

وقوله : « وما لهم فيهما من شرك »كان الملك المنفيّ في الجملة السابقة «لا يملكون» الخ الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفيّ في هذه الجملة الملك المحدود المتبعّض الّذي ينبسط على البعض دون الكلّ إمّا مشاعا أو مفروضا ، لكنّ المشركين ماكانوا يقولون بالملك المشترك بينهم و بين الله سبحانه مشاعا بل كانوا يقولون بملك كلّ من آلهتهم لنوع من الخلقة أو بعض منها وأمّا الله سبحانه فهو ربّ الأرباب وإله الآلهة .

وعلى هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقة وعدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيّتهم وأُلوهيّتهم .

و قوله : « وما له منهم من ظهير » أي ليس لله سبحانه منهم كلاّ أو بعضا من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تدبيره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكا فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة إليه وإذ ليس فليس .

فتبيّن ممّا تقدّم أنّ احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات ومافي الأرض مطلقا و ملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه وكونهم أو بعضهم ظهيراً لله سبحانه .

قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له » المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله : «هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ وليس مرادهم بالشفاعة شفاعة يوم القيامة الّتي يثبتها القرآن الكريم فإنّهم ماكانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعة في الدنيا لعبّادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم

وإصلاح شؤونهم بتوسّط آلهتهم .

وإن كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من كلّ وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلّين بها إلّا أن يملّكهم الله سبحانه ذلك و هو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه .

وقوله : « إلّا لمن أذن له » يحتمل أن يكون اللام في «لمن» لام الملك والمراد بمن أذن له الشافع من الملائكة والمعنى لا تنفع الشفاعة إلّا أن يملكه الشافع بالإذن من الله وأن يكون لام التعليل والمراد بمن أذن له المشفوع له والمعنى لا تنفع الشفاعة إلّا لأجل من أذن له من المشفوع لهم قال في الكشاف : وهذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف وهو الوجه . انتهى .

وهو الوجه فإنّ الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهيّ و إجرائه قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون » الأنبياء : ۲۷ و قال : « جاعل الملائكة رسلاً اُولي أجنحة » فاطر : ۱ ، والوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدّم في مباحث الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب.

فالملائكة جميعاً شفعاء لكن لا في كلّ أمر و لكلّ أحد بل في أمر أذن الله فيه و لمن أذن له فنفي شفاعتهم إلّا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى » الأنبياء : ۲۸ لا في معنى قوله : « ما من شفيع إلّا من بعد إذنه » يونس : ۳.

قوله تعالى : « حتّى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العليّ الكبير » التفزيع إزالة الفزع و كشفه و ضمائر الجمع ـ على ما يعطيه السياق ـ للشفعاء و هم الملائكة .

و لازم قوله : « حتّى إذا فزّع عن قلوبهم » ـ و هو غاية ـ أن يكون هناك أمر مغيّى بها وهو كون قلوبهم في فزع ممتدّ في انتظار أمر الله سبحانه حتّى يرتفع بصدور الأمر منه فالآية في معنى قوله تعالى : « و لله يسجد ـ إلى أن قال ـ و الملائكة و هم لا يستكبرون يخافون ربّهم من فوقهم و يفعلون ما يؤمرون » النحل : ۵۰ فالفزع هو

التأثر و الانقباض من الخوف و هو المراد بسجدتهم تذللاً من خوف ربهم من فوقهم .

و بذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو تذللهم من حيث أنهم أسباب و شفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية و وقوعه على ما صدر وكما أريد ، وكشف هذا التذلل هو تلقيهم الأمر الإلهي و اشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لايظهر من وجودهم إلا فعلهم و طاعتهم لله فيما أمرهم به و أنه لاواسطة بين الله سبحانه و بين الفعل إلا أمره فافهم ذلك .

و إنما نسب الفزع و التفزيع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم و عن كل شيء إلا ربهم وهم على هذه الحالة لايشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلامهل و لا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع قال تعالى : « إنما أمره إذاأراد شيأ أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ فالمستفاد من الآية نظرا إلى هذا المعنى أنهم في فزع حتى إذا أزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهي .

و قوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضا عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشاف الفزع عن قلوب السائلين .

و يتبين منه أن كشف الفزع و نزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسؤول عالما بماسئل عنه قبل السائل .

فلهم مراتب مختلفة و مقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهي من العالية من غير تخلف ولامهلة وهو طاعة الداني منهم للعالي كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبر في قوله تعالى : « وما منا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ وقوله في وصف الروح الأمين : « ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين » التكوير : ٢١ .

فبينهم مطاع و مطيع ولاطاعة مع ذلك إلا لله سبحانه لأن المطاع منهم لاشأن له إلا إيصال ما وصل إليه من الأمر الالهي إلى مطيعه الذي دونه ، ويمكن أن يستفاد ذلك من توصيف القول بالحق في قوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » أي قال القول الثابت الذي لاسبيل للبطلان و التبدل إليه .

و ما ألطف ختم الآية بقوله تعالى : « وهو العليّ الكبير » أي هو العليّ الّذي دونه كلّ شيء والكبير الّذي يصغر عنده كلّ شيء فليس للملائكة المكرمين إلّا تلقّي قوله الحقّ وامتثاله و طاعته كما يريد .

فقد تحصّل من الآية الكريمة أنّ الملائكة فزعون في أنفسهم متذلّلون في ذواتهم ذاهلون عن كلّ شيء إلّا عن ربّهم محدقون إلى ساحة العظمة و الكبرياء في انتظار صدور الأمر حتّى يكشف عن قلوبهم الفزع بصدور الأمر و نزوله وهم مع ذلك طوائف مختلفة ذوو مقامات متفاوتة علوّاً ودنوّاً يتوسّط كلّ عال في إيصال الأمر النازل إلى من هو دونه .

فهم مع كونهم شفعاء وأسبابا متوسّطة لا يشفعون ولا يتوسّطون في حدوث حادث من حوادث الخلق والتدبير إلّا بإذن خاصّ من ربّهم في حدوثه فيتحمّلون الأمر النازل إليهم حتّى يحقّقوه في الكون من غير أن يستقلّوا من أنفسهم في شيء أو يستبدّوا برأي ومن كان هذا شأنه لا يشعر بشيء إلّا طاعة ربّه فيما يأمره به كيف يكون ربّاً مستقلاً في أمره مفوّضاً إليه التدبير يعطي ما يشاء و يمنع ما يشاء ؟

وفي الآية أقوال مختلفة اُخر :

منها أنّ ضمير « قلوبهم » و « قالوا » الثاني للمشركين دون الملائكة و ضمير «قالوا » الأوّل للملائكة والمعنى حتّى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع قالت الملائكة لهم : ماذا قال ربّكم؟ قالت المشركون لهم : الحقّ فيعترفون بما أنكروه في الدنيا .

و منها أنّ ضمير « قلوبهم » للملائكة و المراد أنّ الملائكة الموكّلين بالأعمال إذا صعدوا بأعمال العباد إلى السماء و لهم زجل و صوت عظيم خشيت الملائكة أنّها الساعة فيفزعون ويخرّون سجّداً لله سبحانه حتّى إذا كشف عن قلوبهم الفزع و علموا أنّه ليس الأمر كذلك فسألوا ماذا قال ربّكم ؟ قالوا : الحقّ .

و منها أنّ الله لمّا بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد فترة بينه و بين عيسى عليه السلام لم ينزل فيها شيء من الوحي أنزل الله سبحانه جبريل بالوحي فلمّا نزل ظنّت الملائكة أنّه نزل

بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبريل يمرّ بكلّ سماء و يكشف الفزع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رؤسهم وقال بعضهم لبعض : ماذا قال ربّكم ؟ قالوا : الحقّ أي الوحي.

ومنها أنّ الضمير للملائكة و المراد أنّ الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشي على الملائكة عند سماع الوحي و يصعقون و يخرّون سجّدا للآية العظيمة فإذا فزّع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الّذي اُوحي إليه ماذا قال ربّك ؟ أو سأل بعضهم بعضا ماذا قال ربّكم ؟ فيعلمون أنّ الأمر في غيرهم .

و أنت بعد التدبّر في الآية الكريمة والتأمّل فيما قدّمناه تعلم وجه الضعف في هذه الأقوال و أنّ شيأ منها على تقدير صحّته في نفسه لايصلح تفسيراً لها .

قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات و الأرض قل الله » الخ احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الّذي هو الملاك العمدة في اتّخاذهم الآلهة فإنّهم يتعلّلون في عبادتهم الآلهة بأنّها ترضيهم فيوسّعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك .

فأمر النبيّ ﷺ أن يسألهم من يرزقهم من السماوات والأرض ؟ والجواب عنه أنّه الله سبحانه لأنّ الرزق خلق في نفسه و لا خالق - حتّى عند المشركين - إلّا الله عزّ اسمه لكنّهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم و إن أذعنت به قلوبهم و لذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال : « قل الله » .

وقوله : « وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » تتمّة قول النبيّ ﷺ و هذا القول بعد إلقاء الحجّة القاطعة و وضوح الحقّ في مسألة الاُلوهيّة مبنيّ على سلوك طريق الإنصاف ، ومفاده أنّ كلّ قول إمّا هدى أو ضلال لاثالث لهما نفيا وإثباتا ونحن و أنتم على قولين مختلفين لايجتمعان فإمّا أن نكون نحن على هدى وأنتم في ضلال وإمّا أن تكونوا أنتم على هدى ونحن في ضلال فانظروا بعين الإنصاف إلى ما اُلقي إليكم من الحجّة وميّزوا المهديّ من الضالّ و المحقّ من المبطل .

و اختلاف التعبير في قوليه : « على هدى » و « في ضلال » بلفظة على وفي - كما قيل - للإشارة إلي أنّ المهتدي كأنّه مستعل علي منار يتطلّع علي السبيل و غايتها

الّتي فيها سعادته والضالّ منغمر في ظلمة لايدري أين يضع قدمه و إلى أين يسير وماذا يراد به ؟

قوله تعالى : « قل لاتسألون عمّا أجرمنا ولا نسأل عمّا تعملون » أي إنّ العمل و خاصّة عمل الشرّ لايتعدّى عن عامله ولا يلحق وباله إلّا به فلايسأل عنه غيره فلاتسألون عمّا أجرمنا بل نحن المسؤلون عنه ولا نسأل عمّا تعملون بل أنتم المسؤلون .

و هذا تمهيد لما في الآية التالية من حديث الجمع و الفتح فإنّ الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيرا وشرّا كان من الواجب أن يفتح بينهما ويتميّز كلّ من الاُخرى حتّى يلحق به جزاء عمله من خير أو شرّ أو سعادة أو شقاء و الّذي يفتح و يميّز هو الربّ تعالى .

و في التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و في ناحية المشركين بقوله : « تعملون » ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة .

قوله تعالى :« قل يجمع بيننا ربّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ وهو الفتّاح العليم» لمّا كان من الواجب أن يلحق بكلّ من المحسن والمسيء جزاء عمله وكان لازمه التميّز بينهما بالجمع ثمّ الفرق كان ذلك شأن مدبّر الأمر و هو الربّ أمر نبيّه ﷺ أن يذكّرهم أنّ الّذي يجمع بين الجميع ثمّ يفتح بينهم بالحقّ هو الله فهو ربّ هؤلاء و اُولئك فإنّه هو الفتّاح العليم يفتح بين كلّ شيئين بالخلق و التدبير فيتميّز بذلك الشيء من الشيء كما قال : « أنّ السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ و هو العليم بكلّ شيء .

فالآية تثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أوّلا ثمّ انحصار التمييز والجزاء في جانبه تعالى بانحصار الربوبيّة فيه و يبطل بذلك ربوبيّة من اتّخذوه من الأرباب.

والفتّاح من أسماء الله الحسنى والفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة تترتّب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه والفتح بين الشيئين ليتميّز كلّ منهما عن الآخر بذاته وصفاته وأفعاله .

قوله تعالى : « قل أروني الّذين ألحقتم به شركاء كلّا بل هو الله العزيز الحكيم»

أمر آخر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة و العلم و القدرة و السمع و البصر ؟ و هذا معنى قوله : « أروني الّذين ألحقتم به شركاء » أي ألحقتموهم به شركاء له .

ثمّ ردع بنفسه وقال : كلّا لا يكونون شركاء له لأنّهم إمّا أن يروه الأصنام بما أنّها معبودة لهم معدودة آلهتهم و هي أجسام ميتة خالية عن الحياة و العلم و القدرة و إمّا أن يروه أرباب هذه الأصنام وهم الملائكة وغيرهم بجعل الأصنام تماثيل مشيرة إليهم وهم و إن لم يخلوا عن حياة وعلم و قدرة إلّا أنّ مالهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم في شيء من هذه الصفات ولا في الأفعال المتفرّعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الّذي يدّعون أنّه مفوّض إليهم ؟ فالوجود الواجبي بكماله اللّامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كماله .

اللّهمّ إلّا أن يدّعوا أنّه شاركهم في بعض ماله من الشؤون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتيّة وهذا ينافي حكمته تعالى .

و قد اُشير إلى هذه الحجّة بقوله : « بل هو الله العزيز الحكيم » فإنّ عزّته تعالى ـ وهو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كماله عادلكونه لا يحدّ بحدّ ـ تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كماله كالربوبيّة و الاُلوهيّة المنتهيتين إلى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتيّة من الشريك ولو كانت عن إرادة جزافيّة منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهيّة تمنع ذلك .

وقد تبيّن بذلك أنّ الآية متضمّنة لحجّة قاطعة برهانيّة فأحسن التدبّر فيها .

قوله تعالى : « و ما أرسلناك إلّا كافّة للناس بشيرا ونذيرا ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » قال الراغب في المفردات : الكفّ كفّ الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط وكففته أصبت كفّه ، وكففته أصبته بالكفّ ودفعته بها وتعورف الكفّ بالدفع على أيّ وجه كان بالكفّ كان أو غيرها حتّى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره ، وقوله : وما أرسلناك إلّا كافّة للناس أي كافّالهم عن المعاصي و الهاء فيه للمبالغة كقولهم : راوية وعلّامة ونسّابة . انتهى.

ويؤيّد هذا المعنى توصيفه صلى الله عليه وآله بالبشير والنذير فقوله : «بشيرا ونذيراً» حالان يبيّنان صفته لقوله : «كافّة للناس».

و ربّما قيل : إنّ التقدير وما أرسلناك إلّا إرسالة كافّة للناس ولا يخلو من تكلّف وبعد .

و أمّا كون كافّة بمعنى جميعاً وحالا من الناس والمعنى و ما أرسلناك إلّا للناس جميعاً فهم يمنعون عن تقدّم الحال على صاحبه المجرور .

واعلم أنّ منطوق الآية وإن كان راجعا إلى النبوّة وفيها انتقال من الكلام في التوحيد إلى الكلام في النبوّة على حدّ الآيات التالية لكن في مدلولها حجّة اُخرى على التوحيد وذلك أنّ الرسالة من لوازم الربوبيّة الّتي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم ومسيرهم إلى غايات وجودهم فعموم رسالته صلى الله عليه وآله وهو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أنّ الربوبيّة منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك ربّ غيره لجاءهم رسوله ولم يعمّ رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله أو عمّتهم واحتاجوا معه إلى غيره ، وهذا معنى قول عليّ عليه السلام ـ على ما روي ـ لو كان لربّك شريك لأتتك رسله .

و يؤيّده ما في ذيل الآية من قوله : «و لكنّ أكثر الناس لايعلمون» فإنّ دلالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبيّة في الله عزّ اسمه أمسّ بجهل الناس من كونه صلى الله عليه وآله رسولا كافّا لهم عن المعاصي بشيرا ونذيرا .

فمفاد الآية على هذا : لايمكنهم أن يُروك شريكا له و الحال أنّا لم نرسلك إلّا كافّا لجميع الناس بشيرا ونذيرا ولو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك إليهم وهم عباد لإله آخر و الله أعلم .

قوله تعالى : «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» سؤال عن وقت الجمع و الفتح و هو البعث فالآية متّصلة بقوله السابق : «قل يجمع بيننا ربّنا» الآية و هذا أيضا من شواهد ما قدّمنا من المعنى لقوله : «و ما أرسلناك إلّا كافّة» وإلّا كانت هذه الآية والّتي بعدها متخلّلتين بين قوله : «و ما أرسلناك» الآية و الآيات التالية المتعرّضة لمسألة النبوّة .

قوله تعالى : « قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون» أمر منه تعالى أن يجيبهم بأنّ لهم ميعاد يوم مقضيّ محتوم لايتخلّف عن الوقوع فهو واقع قطعا ولايختلف وقت وقوعه البتّة أي إنّ الله وعد به وعدا لايخلفه إلّا أنّ وقت وقوعه مستور لايعلمه إلّا الله سبحانه .

و ما قيل : إنّ المراد به يوم الموت غير سديد فإنّهم لم يسألوا إلّا عمّا تقدّم وعده وهو يوم الجمع و الفتح و الجمع ثمّ الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت .

(بحث روائي)

في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :«حتّى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العليّ الكبير» و ذلك أنّ أهل السماوات لم يسمعوا وحياً فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمّد صلّى الله عليه وآله فلمّا بعث الله جبرئيل إلى محمّد سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات .

فلمّا فرغ عن الوحي انحدر جبرئيل كلّما مرّ بأهل سماء فزّع عن قلوبهم يقول : كشف عن قلوبهم ، فقال بعض لبعض : ماذا قال ربّكم ؟ قالوا : الحقّ و هو العليّ الكبير .

أقول : و روي مثله من طرق أهل السنّة موصولا و موقوفا عن النبيّ صلّى الله عليه وآله و مدلول الرواية على أيّ حال مصداق من مصاديق الآية ولا تصلح لتفسيرها البتّة .

و في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن ابن عبّاس و في المجمع عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : اُعطيت خمسا لم يعطهنّ نبيّ قبلي : بعثت إلى الناس كافّة الأحمر والأسود وإنّما كان النبيّ يبعث إلى قومه ، و نصرت بالرعب يرعب منّي عدوّي على مسيرة شهر ، و اُطعمت المغنم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، واُعطيت الشفاعة فادّخرتها لاُمّتي إلى يوم القيامة وهي إن شاء الله نائلة من لايشرك بالله شيأ .

أقول : و روى أيضا هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

و الرواية معارضة لماورد مستفيضا أنّ نوحاكان مبعوثا إلى الناس كافّة وذكر في بعضها إبراهيم عليه السلام وفي بعضها أنّ اُولي العزم كلّهم مبعوثون إلى الدنيا كافّة،وتخالف أيضا عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدّة من الروايات وقد قال تعالى : «ولايملك الّذين يدعون من دونه الشفاعة إلّامن شهد بالحقّ وهم يعلمون» الزخرف : ٨٦ ،وقد شهد القرآن بأنّ المسيح عليه السلام من الشهداء قال تعالى: «ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا» النساء : ١٥٩ .

و الروايات من طرق العامّة والخاصّة كثيرة في عموم رسالته للناس كافّة و ظاهر كثيرمنها أخذ «كافّة» في قوله تعالى : «وما أرسلناك إلّا كافّة للناس» حالامن«للناس» قدّم عليه ويمنعه البصريّون من النحاة ويجوّزه الكوفيّون .



☆ ☆ ☆

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا القُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَ لَوْ تَرٰى اِذِ الظّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ اِلٰى بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاٰ أَنْتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ(٣١)
قاٰلَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا اَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدٰى بَعْدَ
اِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَ قاٰلَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهاٰرِ اِذْ تَامُرُونَنَا اَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ نَجْعَلَ
لَهُ اَنْداٰداً وَ اَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمّاٰ رَاَوُا الْعَذاٰبَ وَ جَعَلْنَا الْاَغْلاٰلَ فِي اَعْناٰقِ
الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ اِلاّٰ ماٰ كاٰنُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَ ماٰ اَرْسَلْناٰ فِي
قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ اِلاّٰ قاٰلَ مُتْرَفُوهاٰ اِنّاٰ بِماٰ اُرْسِلْتُمْ بِهِ كاٰفِرُونَ (٣٤) وَ قاٰلُوا
نَحْنُ اَكْثَرُ اَمْواٰلاً وَاَوْلاٰداً وَ ماٰ نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ اِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاٰءُ وَ يَقْدِرُ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النّاٰسِ لاٰيَعْلَمُونَ (٣٦) وَماٰ اَمْواٰلُكُمْ
وَ لاٰ اَوْلاٰدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَناٰ زُلْفٰى اِلاّٰ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صاٰلِحاً
فَاُولٰئِكَ لَهُمْ جَزاٰءُ الضِّعْفِ بِماٰ عَمِلُوا وَ هُمْ فِى الْغُرُفاٰتِ آمِنُونَ (٣٧)
وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آياٰتِناٰ مُعاٰجِزِينَ اُولٰئِكَ فِى الْعَذاٰبِ مُحْضَرُونَ(٣٨)
قُلْ اِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاٰءُ مِنْ عِباٰدِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ ماٰ اَنْفَقْتُمْ

مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ
يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهٰؤُلاءِ ايّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (۴٠) قالُوا سُبْحانَكَ اَنْتَ
وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ اَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴١)
فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا
عَذابَ النّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۴٢) وَ اِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا
بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذا اِلّا رَجُلٌ يُرِيدُ اَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ
وَ قالُوا ما هٰذا اِلّا اِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ
اِنْ هٰذا اِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۴٣) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما
اَرْسَلْنا اِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا
مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۵) قُلْ اِنَّما اَعِظُكُمْ
بِواحِدَةٍ اَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَ فُرادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ
جِنَّةٍ اِنْ هُوَ اِلّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذابٍ شَدِيدٍ (۴٦) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ
مِنْ اَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ اِنْ اَجْرِيَ اِلّا عَلَى اللّٰهِ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۴٨)
قُلْ اِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلّامُ الْغُيُوبِ (۴٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ
وَما يُعِيدُ (۴٩) قُلْ اِنْ ضَلَلْتُ فَاِنَّما اَضِلُّ عَلىٰ نَفْسِي وَ اِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما
يُوحِي اِلَيَّ رَبِّي اِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (۵٠) وَ لَوْ تَرىٰ اِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ

أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤).

(بيان)

فصل آخر من آيات السورة تتكلّم في أمر النبوّة و ما يرجع إليها و ما يقول المشركون فيها و تتخلّص في خلالها بما يجري عليهم يوم الموت أو يوم القيامة ، و قد اتّصلت بقوله في الفصل السابق : « و ما أرسلناك إلّا كافّة للناس » الآية و قد عرفت أنّ الآية كالبرزخ بين الفصلين تذكر الرسالة وتجعلها دليلا على التوحيد .

قوله تعالى : « و قال الّذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن و لا بالّذي بين يديه» المراد بالّذين كفروا المشركون و المراد بالّذي بين يديه الكتب السماويّة من التوراة و الإنجيل و ذلك أنّ المشركين و هم الوثنيّون ليسوا قائلين بالنبوّة و يتبعها الكتاب السماويّ .

و قول بعضهم : « إنّ المراد بالّذي بين يديه هو أمر الآخرة » ممّا لا دليل يساعده ، و قد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة والإنجيل بالّذي بين يديه و من الخطاء قول بعضهم : إنّ المراد بالّذين كفروا هم اليهود .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربّهم » الخ الظاهر أنّ اللاّم في « الظالمون » للعهد و هذه الآية والآيتان بعدها تشير إلى أنّ وبال هذا الكفر ـ و أساسه ضلال أئمّة الكفر و إضلالهم تابعيهم ـ سيلحق بهم و سيندمون عليه ولن ينفعهم الندم .

فقوله : « و لو ترى » خطاب للنبي ﷺ إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب « إذ الظالمون » وهم الكافرون بكتب الله ورسله ، الّذين ظلموا أنفسهم بالكفر «موقوفون عند ربّهم » للحساب و الجزاء يوم القيامة « يرجع بعضهم إلى بعض القول » أي يتحاورون ويتراجعون في الكلام متخاصمين « يقول الّذين استضعفوا » بيان لرجوع بعضهم إلى بعض في القول و المستضعفون الأتباع الّذين استضعفتهم المتبوعون « للّذين استكبروا » وهم الأئمّة القادة «لولا أنتم لكنّا مؤمنين » يريدون أنّكم أجبرتمونا على الكفر وحلتم بيننا وبين الإيمان .

« قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا » جوابا عن قولهم وردّا لما اتّهموهم به من الإجبار والإكراه « أنحن صددناكم » الاستفهام للإنكار أي أنحن صرفناكم « عن الهدى بعد إذ جاءكم » فبلوغه إليكم بالدعوة النبويّة أقوى الدليل على أنّا لم نحل بينه و بينكم وكنتم مختارين في الإيمان به و الكفر « بل كنتم مجرمين » متلبّسين بالإجرام مستمرّين عليه فأجرمتم بالكفر به لمّا جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم ونحن برءآء منه .

« و قال الّذين استضعفوا للّذين استكبروا » ردّا لقولهم و دعواهم البراءة « بل مكر الليل والنهار » أي مكركم بالليل و النهار حملنا على الكفر «إذ» كنتم «تأمروننا أن نكفر بالله و نجعل له أندادا » و أمثالا من الآلهة أي إنّكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل و النهار و تخطّون الخطط لتستضعفونا و تتأمّروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون ، فلم نشعر إلّا و نحن مضطرّون على الائتمار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر و الشرك .

«وأسرّوا » وأخفوا « الندامة لمّا رأوا العذاب » وشاهدوا أن لا مناص ، وإخفاؤهم الندامة يوم القيامة ـ وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ـ نظير كذبهم على الله و إنكارهم الشرك بالله و حلفهم لله كاذبين كلّ ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيلة الّتي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامة في الدنيا خوفا من شماتة الأعداء و كذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسرّوا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون

بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنّهم كاذبون في قولهم .

ثمّ ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: «وجعلنا الأغلال » والسلاسل «في أعناق الّذين كفروا هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون » فصارت أعمالهم أغلالا في أعناقهم تحبسهم في العذاب .

قوله تعالى : « و ما أرسلنا في قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا بما اُرسلتم به كافرون » المترفون اسم مفعول من الإتراف وهو الزيادة في التنعيم ، وفيه إشعار بأنّ الإتراف يفضي إلى الاستكبار على الحقّ كما تفيده الآية اللّاحقة .

قوله تعالى : « و قالوا نحن أكثر أموالا و أولادا وما نحن بمعذّبين » ضمير الجمع للمترفين ، و من شأن الإتراف و الترفّه و التقلّب في نعم الدنيا أن يتعلّق قلب الإنسان بها ويستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحقّ أم خالفه فلا يذكر إلّا ظاهر الحياة و ينسى ماوراءه .

و لذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا : « نحن أكثر أموالا وأولادا » فلا سعادة إلّا فيها ولا شقوة معها « و ما نحن بمعذّبين » في آخرة ، ولم ينفوا العذاب إلّا للغفلة والانصراف عمّا وراء كثرة الأموال والأولاد فإذ كانت هي السعادة والفلاح فحسب فالعذاب في فقدها ولا عذاب معها .

وههنا وجه آخر وهو أنّهم لغرورهم بما رزقوا به من المال و الولد ظنّوا أنّ لهم كرامة على الله سبحانه وهم على كرامتهم عليه ماداموا والمعنى أنّا ذوو كرامة على الله بما اُوتينا من كثرة الأموال والأولاد ونحن على كرامتنا فما نحن بمعذّبين لو كان هناك عذاب .

فتكون الآية في معنى قوله: « ولئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذا لي و ما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى : « قل إنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » الآية ومايتلوها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم : «نحن أكثر أموالا»

الخ و قد اُجيب عنه بوجهين أحدهما أنّ أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة وضيقا بيدالله على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة وهيّأ من الأسباب لا بمشيّة الإنسان ولا لكرامة له على الله فربّما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل وربما بسط على واحد ثمّ قدر له . فلا دلالة في الإتراف على سعادة أو كرامة .

و هذا معنى قوله : « قل إنّ ربّي » نسبه إلى نفسه لأنّهم لم يكونوا يرون الله ربّا لأنفسهم والرزق من شؤن الربوبيّة « يبسط » أي يوسّع « الرزق لمن يشاء » من عباده بحسب الحكمة والمصلحة « و يقدر » أي يضيّق « ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » فينسبونه مالم يؤتوه إلى الأسباب الظاهريّة الاتّفاقيّة ثمّ إذا اُوتوه نسبوه إلى حزمهم وحسن تدبيرهم أنفسهم وكفى به دليلا على الحمق .

قوله تعالى : « و ما أموالكم ولا أولادكم بالّتي تقرّبكم عندنا زلفى » إلى آخر الآيتين هذا هو الجواب الثاني عن قولهم : « نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذّبين » ومحصّله أنّ انتفاء العذاب المترتّب على القرب من الله لا يترتّب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال و الأولاد قرباو زلفى من الله حتّى ينتفي معها العذاب الإلهيّ فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع المسبّب .

و هذا معنى قوله : « وما أموالكم ولا أولادكم » الّتي تعتمدون عليها في السعادة و انتفاء عذاب الله « بالّتي » أي بالجماعة الّتي « تقرّبكم عندنا زلفى » أي تقريبا .

« إلّا من آمن و عمل صالحا » في ماله و ولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله وبثّ الإيمان و العمل الصالح في أولاده بتربية دينيّة « فاُولئك لهم جزاء الضعف » لعلّه من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنّهم اهتدوا وهدوا و أيضا من جهة تضعيف الحسنات إلى عشر أضعافها و زيادة « وهم في الغرفات » أي في القباب العالية « آمنون » من العذاب فما هم بمعذّبين .

« والّذين يسعون في آياتنا معاجزين » أي يجدّون في آياتنا و هم يريدون

أن يعجزونا - أو أن يسبقونا - « اُولئك في العذاب محضرون » و إن كثرت أموالهم و أولادهم .

و في قوله : « و ما أموالكم و لا أولادكم » الخ انتقال إلى خطاب عامّة الناس من الكفّار و غيرهم و الوجه فيه أنّ ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن و الكافر فالمال و الولد إنّما يؤثّران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان و عمل صالح فيهما و إلّا فلا يزيدان إلّا وبالا .

قوله تعالى : « قل إنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وماأنفقتم من شيء فهو يخلفه و هو خير الرازقين » قال في مجمع البيان : يقال : أخلف الله له و عليه إذا أبدل له ماذهب عنه . انتهى .

سياق الآية يدلّ على أنّ المراد بالإنفاق فيها الإنفاق في وجوه البرّ و المراد بيان أنّ هذا النحو من الإنفاق لايضيع عندالله بل يخلفه ويرزق بدله .

فقوله في صدر الآية : « قل إنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » للإشارة إلى أنّ أمر الرزق في سعته وضيقه إلى الله سبحانه لاينقص بالإنفاق ولايزيد بالإمساك ثمّ قال : « و ما أنفقتم من شيء » قليلا كان أوكثيرا وأيّامّا كان من المال « فهو يخلفه» ويرزقكم بدله إمّا في الدنيا و إمّا في الآخرة « وهو خير الرازقين » فإنّه يرزق جودا ورزق غيره معاملة فيالحقيقة و معاوضة ، ولأنّه الرازق في الحقيقة وغيره ممّن يسمّى رازقا واسطة لوصول الرزق .

قوله تعالى : « و يوم نحشرهم جميعا ثمّ نقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون » المراد بهم جميعا بشهادة السياق العابدون والمعبودون جميعا .

وقوله : « ثمّ نقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون » ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم و لو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنّهم عبدوهم في الدنيا و قد أنكروها كما في الآية التالية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حدّ قوله تعالى لعيسى بن مريم : « ءأنت قلت للناس اتّخذوني و اُمّي إلهين من دون الله » .

والغرض من السؤال تبكيت المشركين وإقناطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوهم في الدنيا لذلك .

قوله تعالى : « قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون » أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزّهوه سبحانه أوّلاً تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثمّ نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالعبادة ولا بالتفوّه بعبادتهم صونا لساحة المخاطبة عمّا يقرع السمع بذلك و لو تصوّرا لا تصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدلّ على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإنّ الرضا بعبادتهم لازمه الموالاة بينهم و الموالاة بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاة و إذا لم تكن موالاة لم يكن رضا .

ثمّ قالوا على ماحكاه الله سبحانه : «بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون» و الجنّ هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث الّتي يعبدهم الوثنيّون و هم الملائكة و الجنّ و القدّيسون من البشر ، و الأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الاُوليان و الطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال و إن كانوا أفضل منهما .

والإضراب في قولهم : «بل كانوا يعبدون الجنّ » يدلّ على أنّ الجنّ كانوا على رضى من عبادتهم لهم .

وهؤلاء من الجنّ هم الّذين يعدّهم الوثنيّون مبادىء الشرور في العالم فيعبدونهم اتّقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعا في خيراتهم لما أنّهم مباد للخيرات لا كما قيل : إنّ المراد بالجنّ إبليس و ذرّيّته وقبيله ومعنى عبادتهم لهم طاعتهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصي ، ويردّه ماوقع في الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة ولا ما قيل : إنّهم كانوا يتمثّلون لهم ويخيّلون لهم أنّهم الملائكة فيعبدونهم ، و لا ما قيل : إنّهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها .

ولعلّ الوجه في نسبة الإيمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أنّ أكثرهم يعبدون الآلهة اتّقاء من طروق الشرّ من قبلهم و مبادىء الشرّ عندهم مطلقا الجنّ لا كما قيل : إنّ المراد بالأكثر الكلّ و هو مبنيّ على تفسير العبادة بمعنى الطاعة و قد عرفت ما فيه .

قوله تعالى : فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرّا و نقول للّذين ظلموا ذوقوا عذاب النار الّتي كنتم بها تكذّبون » نوع تفريع على تبرّي الملائكة منهم و قد بيّن تبرّي عامّة المتبوعين من تابعيهم والتابعين من متبوعيهم في مواضع كقوله تعالى : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم »فاطر : ١٤ ، وقوله : « ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » العنكبوت : ٢٥ . ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « و إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا ما هذا إلّا رجل يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم » الخ خطابهم هذا لعامّتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجدّ في التمسّك بدين آبائهم و تحريض لهم عليه ﷺ ، و في توصيف الآيات بالبيّنات نوع عتبى كأنّه قيل : إذا تتلى عليهم هذه الآيات وهي بيّنة لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامّتهم إلى اتّباعها حثّوهم على الإصرار على تقليد آبائهم وحرّضوهم عليه - و في إضافة الآباء إلى ضمير « كم » مبالغة في التحريض و الإثارة .

و قوله : «و قالوا ماهذا إلّا إفك مفترى» معطوف على « قالوا » أي وقالوا مشيرا إلى الآيات البيّنات إشارة تحقير : ليس هذا إلّا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذوبا به على الله ، بدلا من أن يقولوا : إنّها آيات بيّنات نازلة من عند الله تعالى - و قد أشاروا إلى الآيات البيّنات بهذا دلالة على أنّهم لم يفهموا منها إلّا أنّها شيء مّا لا أزيد من ذلك .

ثمّ غيّر سبحانه السياق و قال : « و قال الّذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم هذا سحر مبين » و مجيىء الحقّ لهم بلوغه و ظهوره لهم ، و الأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل و المعنى والّذين كفروا بعثهم الكفر إلى أن يقولوا للحقّ الصريح الّذي بلغهم وظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريّته وبطلانه .

و أكّد إصرارهم على دحض الحقّ باتّباع الهوى من غير دليل يدلّ عليه بقوله: « وما آتيناهم من كتب يدرسونها و ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » و الجملة حاليّة أي وعد الّذين كفروا ـ أي كفّار قريش ـ الحقّ الصريح الظاهر لهم سحرا مبينا والحال أنّا لم نعطهم كتبا يدرسونها حتّى يميّزوا بها الحقّ من الباطل ولم نرسل إليهم قبلك من رسول ينذرهم و يبيّن لهم ذلك فيقولوا استنادا إلى الكتاب الإلهيّ أو إلى قول الرسول النذير : إنّه حقّ أو باطل .

قوله تعالى : « و كذّب الّذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير » ضميرا الجمع الأوّل و الثاني لكفّار قريش و من يتلوهم و الثالث و الرابع للّذين من قبلهم ، والمعشار العُشر والنكير الإنكار والمراد به في الآية لازمه و هو الأخذ بالعذاب .

والمعنى وكذّب بالحقّ من الآيات الّذين كانوا من قبل كفّار قريش من الاُمم الماضية ولم يبلغ كفّار قريش عشر ما آتيناهم من القوّة والشدّة فكذّب اُولئك الأقوام رسلي فكيف كان أخذي بالعذاب و ما أهون أمر قريش . و الالتفات في الآية إلى التكلّم لاستعظام الجرم وتهويل المؤاخذة .

قوله تعالى : « قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمّ تتفكّروا بصاحبكم من جنّة » المراد بالموعظة الوصيّة كناية أو تضمينا ، وقوله : « أن تقوموا لله » أي تنهضوا لأجل الله ولوجهه الكريم ، و قوله : « مثنى و فرادى » أي اثنين اثنين و واحداً واحداً كناية عن التفرّق و تجنّب التجمّع والغوغاء فإنّ الغوغاء لا شعور لها ولا فكر وكثيرا ما تميت الحقّ وتحيي الباطل .

وقوله : « ما بصاحبكم من جنّة » استئناف و« ما » نافية ويشهد بذلك قوله بعد: « إن هو إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ويمكن أن يكون « ما » استفهاميّة أو موصولة و «من جنّة » بيانا له .

و المراد بصاحبكم النبيّ ﷺ نفسه و الوجه في التعبير به تذكرتهم بصحبته

الممتدّة لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكّروا أنّهم لم يعهدوا منه اختلالا في فكر أو خفّة في رأي أو أيّ شيء يوهم أنّ به جنونا .

و المعنى قل لهم : إنّما اُوصيكم بالعظة أن تنهضوا و تنتصبوا لوجه الله متفرّقين حتّى يصفو فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين و واحداً واحداً و تتفكّروا في أمري فقد صاحبتكم طول عمري على سداد من الرأي و صدق و أمانة ليس فيّ من جنّة . ما أنا إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن .

قوله تعالى : « قل ماسألتكم من أجر فهو لكم » الخ كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنّه إذا وهبهم كلّ ماسألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسؤل و لازمه أن لايسألهم و هذا تطييب لنفوسهم أن لايتّهموه بأنّه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه .

ثمّ تمّم القول بقوله : « إن أجري إلّا على الله وهو على كلّ شيء شهيد » لئلّا يردّ عليه قوله بأنّه دعوى غير مسموعة فإنّ الإنسان لايروم عملا بغير غاية فدفعه بأنّ لعملي أجراً لكنّه على الله لاعليكم وهو يشهد عملي وهو على كلّ شيء شهيد .

قوله تعالى : « قل إنّ ربّي يقذف بالحقّ علّام الغيوب » القذف الرمي ، و قوله : « علّام الغيوب » خبر بعد خبر أو خبر لمبتدء محذوف و هو الضمير الراجع إليه تعالى .

و مقتضى سياق الآيات السابقة أنّ المراد بالحقّ المقذوف القرآن النازل إليه بالوحي من عنده تعالى الّذي هو قول فصل يحقّ الحقّ و يبطل الباطل فهو الحقّ المقذوف إليه ﷺ من عند علّام الغيوب فيدمغ الباطل ويزهقه قال تعالى : « بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » الأنبياء : ۱۸ ، و قال : « قل جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا » أسرى : ۸۱ .

قوله تعالى : « قل جاء الحقّ و ما يبدىء الباطل و ما يعيد » المراد بمجيىء

الحقّ على ما تهدي إليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة و براهينه الساطعة لكلّ باطل من أصله .

و قوله : « و ما يبدىء الباطل و ما يعيد » أي ما يظهر أمرا ابتدائيّا جديدا بعد مجيء الحقّ و ما يعيد أمراً كان قد أظهره من قبل إظهاراً ثانيا بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل وسقوطه عن الأثر من أصله بالحقّ الّذي هو القرآن .

قوله تعالى : « قل إن ضللت فإنّما أضلّ على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي إنّه سميع قريب» بيان لأثر الحقّ الّذي هو الوحي فإنّه عرّفه حقّاً مطلقا فالحقّ إذا كان حقّا من كلّ جهة لم يخطىء في إصابة الواقع في جهة من الجهات وإلّا كان باطلا من تلك الجهة فالوحي يهدي ولا يخطىء البتّة .

ولذا قال تأكيداً لما تقدّم : « قل إن ضللت » و فرض منّي ضلال «فإنّما أضلّ» مستقرّاً ذلك الضلال « على نفسي» فإنّ للإنسان من نفسه أن يضلّ « و إن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي » فوحيه حقّ لا يحتمل ضلالا ولا يؤثّر إلّا الهدى .

وقد علّل الكلام بقوله : « إنّه سميع قريب » للدلالة على أنّه يسمع الدعوة ولا يحجبه عنها حاجب البعد و قد مهّد له قبلا وصفه تعالى في قذف الحقّ بأنّه علّام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخلّ بأمره ويمنع نفوذ مشيّته هداية الناس بالوحي قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه و من خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم و أحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عددا » الجنّ : ٢٨ .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من مكان قريب » ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي : « وحيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل » أنّ الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش و من يلحق بهم حال الموت.

فقوله : « ولو ترى إذ فزعوا »أي حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت«فلا فوت» أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصّن أو أيّ حائل آخر .

وقوله : « واُخذوا من مكان قريب» كناية عن عدم فصل بينهم وبين من يأخذهم و قد عبّر بقوله : « اُخذوا » مبنيّا للمفعول ليستند الأخذ إليه سبحانه ، و قد وصف نفسه بأنّه قريب ، وكشف عن معنى قربه بقوله : «ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون» الواقعة : ٨٥ ، و أزيد منه في قوله : « و نحن أقرب إليكم من حبل الوريد » ق : ١٦ و أزيد منه في قوله : « أنّ الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال : ٢٤ فبيّن أنّه أقرب إلى الإنسان من نفسه و هذا الموقف هو المرصاد الّذي ذكره في قوله : « إنّ ربّك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ فكيف يتصوّر فوت الإنسان منه و هو أقرب إليه من نفسه ؟ أومن ملائكته المكرمين الّذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسّط بينه وبينهم .

فقوله : « و اُخذوا من مكان قريب» نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوّره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان و المكان واُنسنا بالاُمور المادّيّة و إلّا فالأمر أعظم من ذلك .

قوله تعالى : « و قالوا آمنّا به وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد » التناوش التناول وضمير « به » للقرآن على مايعطيه السياق .

و المراد بكونهم في مكان بعيد أنّهم في عالم الآخرة وهي دار تعيّن الجزاء وهي أبعد مايكون من عالم الدنيا الّتي هي دار العمل وموطن الاكتساب بالاختيار وقد تبدّل الغيب شهادة لهم و الشهادة غيبا كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « و قد كفروا به من قبل و يقذفون بالغيب من مكان بعيد » حال من الضمير في « و أنّى لهم التناوش » و المراد بقوله : « و يقذفون بالغيب من مكان بعيد » رميهم عالم الآخرة و هم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به وكونه غائبا عن حواسّهم إذ كانوا يقولون :لابعث ولاجنّة ولانار ، وقيل : المراد به رميهم النبيّ ﷺ بالسحر والكذب والافتراء والشعر .

و العناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيرة إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا وقد تقدّمت الإشارة إليه .

و معنى الآيتين : وقال المشركون حينما اُخذوا آمنّا بالحقّ الّذي هوالقرآن و أنّى لهم تناول الإيمان به ـ إيمانا يفيدالنجاة ـ من مكان بعيد وهو الآخرة والحال أنّهم كفروا به من قبل في الدنيا وهم ينفون اُمور الآخرة بالظنون والأوهام من مكان بعيد وهوالدنيا .

قوله تعالى : « وحيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنّهم كانوا في شكّ مريب » ظاهر السياق أنّ المراد بما يشتهون اللذائذ المادّيّة الدنيويّة الّتي يحال بينهم وبينها بالموت . و المراد بأشياعهم من قبل أشباههم من الاُمم الماضية أو موافقوهم في المذهب ، و قوله : « إنّهم كانوا في شكّ مريب » تعليل لقوله : « كما فعل » الخ .

و المعنى و وقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين و بين ما يشتهون من ملاذّ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركي الاُمم الدارجة من قبلهم إنّهم كانوا في شكّ مريب من الحقّ أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب .

واعلم أنّ ما قدّمناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبنيّ على ما يعطيه ظاهر السياق و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنّة أنّ الآيات ناظرة إلى خسف جيش السفياني بالبيداء وهو من علائم ظهور المهديّ عليه‌السلام المتّصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قدّمناه من المعنى من باب جري الآيات فيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و أسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب » قال : يسرّون الندامة في النار إذارأوا وليّ الله فقيل : يابن رسول الله و مايغنيهم إسرارهم الندامة وهم في العذاب ؟ قال : يكرهون شماتة الأعداء .

أقول : ورواه أيضا عن أبي عبدالله عليه السلام .

وفيه وذكر رجل عندأبي‌عبدالله عليه السلام الأغنياء ووقع‌فيهم فقال أبو عبدالله عليه السلام : أسكت فإنّ الغنيّ إذا كان وصولا لرحمه بارّاً بإخوانه أضعف‌الله‌له‌الأجرضعفين لأنّ الله يقول : « وما أموالكم ولا أولادكم بالّتي تقرّبكم عندنازلفى إلّا من آمن وعمل صالحا فاُولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا و هم في الغرفات آمنون .

و في أمالي الشيخ بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يقول فيه : حتّى إذاكان يوم القيامة حسب لهم ثمّ أعطاهم بكلّ واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عزّ و جلّ : « جزاء من ربّك عطاءحسابا » و قال: « اُولئك لهم جزاءالضعف بما عملوا وهم في الغرفات‌آمنون» .

وفي‌الكافي بإسناده عن‌السكونيّ عن‌أبي‌عبدالله عليه السلام قال :قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله : من صدّق بالخلف جادبالعطيّة .

و فيه بإسناده عن سماعة عن أبي الحسن عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب سمعت رسول الله صلّى‌الله عليه‌وسلّم يقول إنّ لكلّ يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ثمّ‌قال : اقرؤا مواضع الخلف فإنّي سمعت الله يقول : « و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » إذالم ينفقوا كيف يخلف ؟

و في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :

« قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم» وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سأل قومه أن يودّوا أقاربه ولا يؤذونهم . وأمّا قوله : «فهو لكم» يقول : ثوابه لكم .

و في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا » الآية أخرج الحاكم وصحّحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج رجل يقال له السفيانيّ في عمق دمشق وعامّة من يتّبعه من كلب فيقتل حتّى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان فيجمع لهم قيس فيقتلها حتّى لا يمنع ذنب تلعة و يخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفيانيّ فيبعث إليه جندا من جنده فيهزمهم فيسير إليه السفيانيّ بمن معه حتّى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلّا المخبر منهم .

أقول : و الرواية مستفيضة من طرق أهل السنّة مختصرة أو مفصّلة و قدرووها من طرق مختلفة عن ابن عبّاس و ابن مسعود وحذيفة و أبي هريرة وجدّ عمرو بن شعيب وأُمّ سلمة وصفيّة وعائشة و حفصة أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله ونفيرة امرأة القعقاع وعن سعيد ابن جبير موقوفا .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : «ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت » حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابليّ قال : قال أبو جعفر عليه السلام والله لكأنّي أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد الله حقّه ثمّ يقول: يا أيّها الناس من يحاجّني في الله فأنا أولى بالله . أيّها الناس من يحاجّني بآدم فأنا أولى بآدم . أيّها الناس من يحاجّني في نوح فأنا أولى بنوح. أيّها الناس من يحاجّني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم . أيّها الناس من يحاجّني بموسى فأنا أولى بموسى. أيّها الناس من يحاجّني بعيسى فأنا أولى بعيسى . أيّها الناس من يحاجّني بمحمّد فأنا أولى بمحمّد . أيّها الناس من يحاجّني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله .

ثمّ ينتهي إلى المقام فيصلّي ركعتين وينشد الله حقّه ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : هو والله المضطرّ في كتاب الله في قوله : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض » .

فيكون أوّل من يبايعه جبرئيل ثمّ الثلاث مائة و الثلاثة عشر فمن كان ابتلي

بالمسير وافى ومن لم يبتل بالمسير فقدعن فراشه وهوقول أمير المؤمنين عليه السلام : هم المفقودون عن فرشهم و ذلك قول الله : « فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا » قال: الخيرات الولاية وقال في موضع آخر : «ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمّة معدودة » وهم أصحاب القائم عليه السلام يجتمعون و الله إليه في ساعة واحدة .

فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفياني فيأمر الله عزّ وجلّ الأرض فيأخذ بأقدامهم وهو قوله عزّ وجلّ :« ولو ترى إذ فزعوا فلافوت وأُخذوا من مكان قريب و قالوا آمنّا به » يعني بالقائم من آل محمد عليه السلام « و أنّى لهم التناوش من مكان بعيد وحيل بينهم و بين ما يشتهون » يعني أن لا يعذّبوا « كما فعل بأشياعهم » يعني من كان قبلهم من المكذّبين هلكوا « من قبل إنّهم كانوا في شكّ مريب » .

تمّ والحمد لله .

الصفحة	السطر	الخطاء	الصواب
٣	١	وليعلم	ولتعلم
٧	١٦	والفرن	والفرق
٢٣	٨	بينهما	بينها
٤٨	١٦	كتاب	كتابي
٦٠	٢٣	لخوفهم	لخوفهم أن
٦٣	١٢	من الاحضار	الإحضار
٦٦	١٣	عن	من
٨٣	١٣	كما	كما أنّ
١٠٧	٢	اعمالم	اعمالهم
١١٦	١٦	بينُكم	بينِكم
١٢٢	٢٠	الرحمان	الرحمان:٣٣
١٣١	٨	وقال - ١٣	زائد
١٣٨	٨	المملوك	المملوك له
«	٢٠	اليم	اليه
١٤٠	١٧	اتياتا	اتيانا
١٤٢	١٣	بالذكر	الذكر
١٦١	١٩	قريب	قريبا
١٦٣	٢٣	يصدّق	يصدق
١٦٦	١٣	عن	من
١٧٢	٦	للعالمين	للعالمين
١٧٤	١٠	من القيام	عن القيام
١٨٠	٩	شيء	شيئا
٢٢٥	٥	و هنا	وهناً
٢٢٦	٢٠	الكن لكفر	لكن الكفر
٢٤٥	٤	والثناء اليه	والثناء
٢٦٥	١٧	هو	هي
٢٦٩	١٧	تسمّى	يسمّى
٢٧١	٢١	قارّات	قارات
٢٧٨	١٣	وليذيقنّهم	ولنذيقنّهم
٢٧٩	١٢	نازلة	نازلة قبله
٣٠٢	١٢	واضطربونا	واضطربوا
٣٠٧	١٤	المؤمنون	المؤمنين
٣١٤	٣	المذاع	المذاد
٣٢٦	٥	يعمل	تعمل
٣٣١	١٩	لكم	لكنّ
٣٦٢	٢	حالكولهم	حالكونهم
٣٦٨	٥	تنكر	تذكر
٣٧٧	٦	عالمُ	عالِم
٣٧٨	١١	غروب	عزوب
٣٨٢	٢	فنهلكم	فنهلكهم
٣٨٩	٧	فاتّبعه	فاتّبعوه
٤١٣	١٥	تتفكّروا	تتفكّروا ما
٤١٩	٢	يؤذونهم	يؤذوهم